المركز القومي للترجمة

المشروع القومي للترجمة

إيزاك داينسن

(كارين بليكسن)

راحلة من أفريقيا

ترجمة: رانية خلاف

مراجعة: طلعت الشايب

تقديم: جريته روستبول



1936

سلسلة الإبداع القصصي

راحلة من أفريقيا

(رواية)

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 1936
- راحلة من أفريقيا
- إيزاك داينسن (كارين بليكسن)
- رانية خلاف
- طلعت الشايب
- جريته روستبول
- الطبعة الأولى 2012

هذه ترجمة:
Out of Africa
By: Karen Blixen

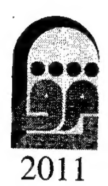
Published in cooperation with former minister, author Grethe Rostbøll
and The Danish Dialogue Institute in Cairo

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

راحلة من أفريقيا

(روايـــــة)

تأليـــــيف : إيـــزاك دايـنـــسن
(كارين بليكسن)
تـــرجمـــة: رانيـــة خــــلاف
مراجــعـــة: طلعــت الــشايــب
تقـديــــم : جريتـــه روســـتبول



2011

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

داينسن ، إيزاك (كارين بليكسن)، ١٨٨٥– ١٩٦٢.
راحلة من أفريقيا (رواية) / تـأليف: إيـزاك داينـسن،
ترجمة: رانية خلاف ، مراجعة: طلعت الشايب، تقـديم:
جريته روستبول
ط ١، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١١
٤٥٠ ص، ٢٤ سم
١ – القصص الدنماركية
(أ) خلاف ، رانية (مترجمة)
(ب) الشايب، طلعت (مراجع)
(ج) روستبول ، جريته (مقدم)
(د) العنوان ٨٣٩,٨٩٣

رقم الإيداع. ١٩٤٨٣ / ٢٠١١
الترقيم الدولى: I.S.B.N- 978- 977- 704 -830 - 9
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقديم

بقلم: جريته روستبول

بعد أن رحلت كارين بليكسن عن أفريقيا في بداية الثلاثينيات من القرن الماضي، استقرت في رانجستيدلوند، في بيت بمزرعة في شمال كوبنهاجن. نشرت مجموعتها القصصية الأولى في عام ١٩٣٤ بعنوان "سبع حكايات قوطية"، التي تتناول فيها بعض العلاقات الأسرية. بعد انتهائها من عملها الأول، كانت تفكر كيف تستغل خبرة سنوات حياتها في أفريقيا، ففكرت في نشر مقالات أو موضوعات في بعض المجلات، وأصدرت بالفعل بعض النصوص القليلة في السويد والدنيمارك بجهد هائل. ثم قررت في عام ١٩٣٧ أن تكتب سيرة ذاتية، أو بالأحرى كتابًا عن شوقها للعودة إلى الجنة المفقودة في شرق أفريقيا.

وقد حقق كتابها "راحلة من أفريقيا" نجاحًا ساحقًا في أمريكا، وكذلك في الدنيمارك والدول الإسكندنافية الأخرى، وجعل منها كاتبة شهيرة ومحبوبة. إنه أشبه بحلم من الماضي، حلم للأيام الجميلة، وخيالات عن الطبيعة والحيوانات الوحشية. إن موهبتها تزدهر، وتخلق لغتها مناخًا من الجمال والخلود.

إن قراءتك للفصول واحدًا تلو الآخر، تجعلك تشعر وكأنك واقف تتأمل الغروب، أو كأنك في رحلة سفاري تطلق النار على الأسود وتشم رائحة الجبال في مرتفعات نجونج. هناك كذلك حزن شفيف في النص؛ لأنك تتابع انهيار سعادتها. ففي أفريقيا كانت تبقى في المكان الذي تود البقاء فيه، وكانت سعيدة هناك؛ ولكن كان عليها أن ترحل. لقد رحلت عن كل ما أحبته، عن الناس والأصدقاء وزوجها وحبيبها.

حينما تشارف على قراءة السطور الأخيرة من "راحلة من أفريقيا" ستشعر وكأنك بالفعل كنت هناك، وتنتقل حساسية الكاتبة بالفقد الكبير إلى القارئ. تشارك كارين بليكسن بتجربتها الخاصة بالرحيل عن البلد الذي أحبته مع كتّاب آخرين، مثل سيرة إدوارد سعيد *خارج المكان* وكتاب الباحث المصري إيهاب حسن عن ذكرياته *خارج مصر*.

هؤلاء الكتاب قد يرحلون بسبب الظروف، ولكن ليس لأنهم أحبوا الرحيل عن المكان؛ لأنهم ينتمون للطبيعة، كان عليهم أن يحققوا أحلامهم في مكان آخر.

الفصل الأول

كـامـانتي ولـولـو

"من الغابات والمرتفعات نأتي ، نأتي"

مزرعة نجونج

كان لدي مزرعة في أفريقيا، أسفل تلال نجونج. يمر خط الاستواء عبر تلك المرتفعات، مائة ميل باتجاه الشمال، وتقع المزرعة على ارتفاع أكثر من ستة آلاف قدم. فوق سطح البحر. بالنهار تشعر أنك أصبحت في مكان شديد الارتفاع، بقرب الشمس، ولكن أوقات الصباح المبكرة والمساء كانت رائقة ومريحة، والليالي باردة.

لقد اتحد المشهد الجغرافي وارتفاع الأرض ليخلقا موقعًا ليس له مثيل في العالم كله. ليس هناك وفرة في النباتات في أي مكان، إنها أفريقيا، وقد تقطرت إلى ستة آلاف قدم مثل الجوهر الحقيقي والقوي لأية قارة. كانت الألوان جافة ومحترقة، مثل ألوان الخزف. الأشجار لها أوراق رقيقة وخفيفة، يختلف تركيبها عن مثيلاتها في أوروبا؛ إنها لا تنمو بشكل منحن أو في شكل قبب صغيرة، ولكن في طبقات أفقية، وقد منح هذا التكوين للأشجار الطويلة والمتماسكة شكلاً مشابهًا للنخيل، أو ربما شكلاً بطوليًا ورومانسيًا مثل السفن الشراعية وقد طويت أشرعتها، وعند حافة الغابات، يفاجئك مظهر غريب، وكأن الغابة كلها تهتز بشكلٍ باهتٍ. فوق أعشاب الأرض المتسعة تتناثر الأشجار العارية من الأوراق القديمة المعقوفة، والعشب له رائحة مثل البهارات، مثل الزعتر، ومستنقع ريحان؛ في بعض الأماكن تكون الرائحة قوية جدًا لدرجة أنها توخز فتحتي الأنف. كل الأزهار التي تجدها على السهول أو على النباتات المتسلقة أو أشجار الغابات المدارية في الغابة المحلية كانت صغيرة مثل أزهار المناطق الواطئة- فقط في بداية هطول المطر الطويل

تتفتـــح أعداد ضخمة من زهور الزنبق على السهول. كان المشهد متسعًا جدًا. كل ما رأيته يوحي لك بالضخامة والحرية، وسمو لا يمكن مضاهاته.

إنَّ الملمح الرئيسي للمنظر الطبيعي، ولحياتك فيه، هو الهواء. حينما أستعيد إقامتي المؤقتة في أراضي أفريقيا المرتفعة، فإنني أصطدم بإحساسي بأنني عشت زمنًا في مكان مرتفـــع فـــي الهـــواء. كانت السماء عادة ذات لون أزرق باهتٍ، أو بنفسجي، وهناك وفرة هائلة من السحب الخفيفة المتغيرة دومًا، المتعالية والمبحرة في السماء، وفي مسافة قريبة تجدها وقد لونت مدارات التلال والغابات بأزرق داكن وعميق. في منتصف النهار كان الهواء حيًا فوق الأرض، مثل شعلة ملتهبة، تتلألأ، تشرق مثل المياه الجارية، تعكس الأشياء وتجعلها تبدو مزدوجة، خالقة سرابًا كبيرًا. في مثل هذا المرتفع الهوائي يمكن أن تتنفس بسهولة، بثقة وحيوية ورقة قلب. في الأراضي المرتفعة تصحو في الصباح وتفكر: ها أنا ذا، حيث ينبغي أن أكون.

يمتد جبل نجونج في سلسة طويلة من الشمال إلى الجنوب، تتوجه أربع قمم رائعة تبدو مثل موجات زرقاء داكنة غير متحركة في مواجهة السماء، إنه يرتفع بقدر ثماني أقدام على سطح البحر، وإلى الشرق ألفي قدم على الأراضي المحيطة، ولكن إلى الغرب فإن المنخفض أعمق وأشد انحدارًا- حيث تسقط التلال بشكل رأسي إلى الأسفل باتجاه وادي الشق العظيم. تهب الرياح في الأراضي المرتفعة بشكل ثابت من الشمال-الشمال- الشرقي. إنها الرياح ذاتها التي يسمونها هناك عند سواحل أفريقيا والسواحل العربية "مونسون" أو الرياح الموسمية غزيرة الأمطار، الرياح الشرقية، وهو اسم أفضل خيول الملك سليمان. هنا في هذا المكان المرتفع يمكنك أن تشعر وكأن هناك مقاومة للهواء، وكأن الأرض تلقي بنفسها للأمام باتجاه الفضاء. تجري الرياح بشكلٍ ثابتٍ في مقابل مرتفعات نجونج، وستكون منحدرات

التلال المكان المثالي لطائرة شراعية يمكن أن تحملها تيارات الهواء لأعلى، لأعلى قمة الجبل. السحب، التي كانت ترتحل مع الهواء، تصطدم بجانب التل، وتحوم حوله، أو تتوقف للحظات عند القمة وتنهمر أمطارًا. ولكن تلك السحب التي أخذت مسارًا أكثر علوًا، وأبحرت متجنبة الجزء المطوي من الشراع، قد ذابت من ناحية الغرب، فوق الصحراء الملتهبة من الوادي. من منزلي تابعت ولمرات عديدة تقدم تلك المواكب الضخمة، وكنت أتعجب من رؤية أعدادها الضخمة الطافية والمتعالية، وهي ترتفع فوق التلال، ثم تتلاشى في السماء الزرقاء وتختفي.

من المزرعة تبدو التلال وكأنها تغير أشكالها مرات عديدة في اليوم، وفي بعض الأحيان تبدو قريبة تمامًا، وفي أوقات أخرى، بعيدة للغاية. في المساء، حينما يحل الظلام، ستبدو في البداية، وكأنك تحدق فيها، وكأنها في السماء خط فضي رفيع قد رسم على مدى الصورة المظللة للجبل المظلم. ثم مع حلول الليل، تبدو القمم الأربع وكأنها مسطحة وملساء، وكأن الجبل كان يتمدد وينتشر.

النظر من تلال نجونج يجعلك تتمتع برؤية فريدة، ترى إلى الجنوب السهول المنبسطة الفسيحة لأراضي المحمية(١) التي تمتد على مدى الطريق إلى كليمينجارو، إلى الشرق والشمال هناك البلاد التي تشبه متنزهًا كبيرًا مفتوحًا، والتلال الملاصقة للجبال والغابات من خلفها، والأراضي المتموجة لمحمية الكيكويو، التي تمتد إلى جبل كينيا على مدى مائة ميل، تصميم منمق كالفسيفساء لحقول الذرة الصفراء الصغيرة المربعة، وغابات الموز الصغيرة والأراضي العشبية، بينما يتصاعد هنا وهناك دخان أزرق من قرية محلية، عنقود صغير من البقع الداكنة المتناثرة على القمم. ولكن باتجاه الغرب، هناك في العمق، تقع المناظر الطبيعية الجافة التي تشابه القمر، إنها أراضي أفريقيا الواطئة. تبدو الصحراء البنية وكأنها منقطة بشكل غير منتظم بالعلامات الصغيرة المشابهة

للشجيرات ذات الأشواك، بينما يصنع قاع النهر هديرًا يحاذي ممرات الأرض الوعرة الملتوية ذات اللون الأخضر الداكن؛ تلك هي الغابات الهائلة، أشجار السنطيات العريضة والمتفرعة، بأشواك مدببة حادة؛ ينمو الصبار هنا، وهنا بيت الزرافة والخرتيت.

هذا البلد ذاته الذي يتميز بالتلال، حينما تبدأ في التعرف عليه، تجده كبيرًا بشكل هائل، غامض وبديع؛ يتنوع بأوديته الطويلة، والأحراش، والمنحدرات الخضراء، والجروف الصخرية. هناك في هذا المكان المرتفع، تحت إحدى تلك القمم، توجد غابات البامبو الصغيرة. هناك ينابيع وآبار في التلال؛ لقد خيمت هنا بجوارها.

في الأيام التي قضيتها في أفريقيا، كان الجاموس والخرتيت والظبيان الأفريقية ذات القرون المعقوفة تعيش في مرتفعات نجونج؛ يتذكر كبار السن من السكان زمانًا، حيث كانت الأفيال تعيش هناك، وكنت أشعر بالأسف أن جبل نجونج لم يسيج كله داخل حدود المحمية. جزء صغير فقط كان في نطاق المحمية وتميز النار المشتعلة فوق القمة الجنوبية حدوده. حينما ازدهرت المستعمرة ونمت نيروبي، العاصمة، لتصبح مدينة كبيرة، أصبحت مرتفعات نجونج متنزهًا مفتوحًا لا نظير له. ولكن خلال سنواتي الأخيرة في أفريقيا، كان العديد من شباب نيروبي العاملين في المحال يجيئون إلى المرتفعات في أيام الآحاد، راكبين دراجاتهم النارية، وكانوا يطلقون النار على أي شيء يشاهدونه، وأعتقد أن المتنزه الكبير قد بَعُد تمامًا عن التلال، خلال الأحراش الشوكية والأرض الحجرية بعيدًا في الجنوب.

هناك في أعلى سلسلة التلال، وعلى القمم الأربع نفسها من السهل أن تسير؛ ستجد العشب قصيرًا، وكأنك تسير في حديقة، والحجر الرمادي الصغير متناثرًا

مقتحمًا النجيل. على امتداد سلسلة التلال، صعودًا وهبوطًا من القمة، مثل قطار في مدينة ملاهٍ، يرتفع وينخفض برقة، هناك ممر للعب. في صباح أحد الأيام، حينما كنت أخيم على التلال، جئت إلى هنا وسرت في الممر، ووجدت فيه مسارات جديدة وروث قطيع من الخراتيت. تلك الحيوانات الضخمة المسالمة، لا بد أنها تصعد إلى قمة التلال عند شروق الشمس، تسير في صفوف طويلة، ولا يمكنك أن تتخيل أنها قد تأتي لأي سبب آخر، إلا لأن تنتظر، عميقًا جدًا من كلا الجانبين، إلى الأرض التي تحتها.

كنا نزرع البن في مزرعتي. كانت الأرض ذاتها مرتفعة كثيرًا بما لا يناسب زراعة البن، وكان من الصعب المحافظة على الاستمرار في العمل بها؛ لم يكن لدينا فائض أبدًا، ولم نكن يومًا أثرياء. ولكن زراعة البن شيء يتعلق بك ولا يتركك أبدًا، ويبقى هناك دومًا عمل ما لم تفلح في إنجازه.

في مثل تلك الهمجية والفوضى التي كانت تعم البلاد، تبدو قطعة أرض منظمة ومزروعة طبقًا للقوانين الزراعية أمرًا رائعًا. وفيما بعد، حينما أحلق جوًا بالطائرة في أفريقيا، وأصبح منظر مزرعتي مألوفًا من الجو، كنت أتيه إعجابًا لزراعتي للبن، التي تبدو خضراء متألقة في أرض رمادية مخضرة، وأدركت كيف أن العقل الإنساني يتوق باهتمام للأشكال الهندسية. كل الأراضي المحيطة بنيروبي، وبشكل خاص في شمال المدينة، مخططة بالطريقة ذاتها. هنا يعيش أناس يفكرون ويتحدثون بشكل دائم في شأن الزراعة، تقليم أغصان الأشجار أو قطف البن، من يرقدون ليلاً ويتأملون، ويحلمون بتطوير مصانع البن خاصتهم.

زراعة البن مهمة طويلة الأجل. إنها لا تحدث كما تتخيلها، حينما تكون شابًا ومفعمًا بالتفاؤل، في أيام المطر المنهمر، تحمل الصناديق التي زرعت فيها شتلات البن الصغيرة المتألقة القادمة من حضاناتها، وبمساعدة كل من يعملون في

المزرعة، تراقب وضع النباتات في صفوف الحفر المعتادة في الأرض المبتلة، حيث من المفترض أن تنمو، ثم تظللها بقوة بعيدًا عن الشمس، بواسطة أفرع مقطوعة من الأشجار الصغيرة، حيث إن العتمة ميزة للكائنات الصغيرة. يستغرق الأمر من أربع إلى خمس سنوات حتى تصبح الأشجار متماسكة، وفي الوقت ذاته قد يصيب الجفاف الأرض، أو تصاب بالأمراض، وقد تنمو الأعشاب الضارة المحلية بكثافة في الحقول، أما أشجار البلوط المعطوبة؛ فيكون لها حبوب على شكل أوعية ذات قشرة غليظة تتعلق بملابسك وجواربك. لقد زُرعت بعض الأشجار بشكل سيئ، حيث ثنيت جذورها الوتدية الرئيسية؛ ستموت بمجرد أن تبدأ في الإزهار. يمكنك أن تزرع ما يفوق ستمائة شجرة أو أكثر قليلاً في الفدان الواحد، وكنت أمتلك ستمائة فدان من أشجار البن؛ أما ثيراني الضخمة المدربة؛ فقد كانت تقوم بنقل المزارعين إلى أعلى وأسفل الحقول، بين صفوف الأشجار، على مدى آلاف من الأميال، بصبر، منتظرة المكافأة.

هناك أوقات للجمال المبهر في مزرعة للبن. حينما تزهر النباتات في بداية الأمطار، كان منظرًا متوهجًا، مثل سحابة طباشيرية، في الضباب ورذاذ المطر، ممتدة على مساحة ستمائة فدان. لبراعم البن عطر رقيق ولاذع قليلاً. حينما يسود الحقل اللون الأحمر، لون الكريز الناضج، يدعى كل النساء والأطفال الذين يطلق عليهم توتوس؛ ليقطفوا البن من على الأشجار، بمساعدة الرجال، ثم ينقل البن على عربات البضائع والعربات التي تجرها الخيول إلى المصنع القريب من النهر. لم تكن الآلات أبدًا كما كان ينبغي أن تكون، ولكننا خططنا وبنينا المصنع بأنفسنا، واعتقدنا أنه مصنع عظيم. في إحدى المرات اندلع حريق في المصنع، واضطررنا لإعادة بنائه من جديد. دار مجفف البن الضخم لمرات عديدة، طاحنًا البن في جوفه الحديدي، بصوت يشابه حركة الحصاة المغسولة عند شاطئ البحر. في بعض الأحيان يجف البن، ويكون جاهزًا لنقله من المجفف في منتصف الليل. كانت تلك

لحظة بديعة تسر العين، فهناك العديد من الفوانيس المقاومة للرياح والأمطار في الحجرة الضخمة المظلمة في المصنع، كانت تلك المصابيح معلقة في كل مكان مع بيوت العنكبوت وقشور البن، وهناك تلك الوجوه المتطلعة المشرقة برغم سوادها، في ضوء المصابيح، حول المجفف؛ المصنع، كما قد تشعر، معلق في ليلة أفريقية عظيمة مثل جوهرة مشعة في أذن فتاة إثيوبية[٢]. وبعد ذلك يقشر البن، ويصنف باليد، ويعبأ في أكياس مخيطة بإبرة سراج.

ثم، وفي النهاية، في الصباح الباكر، والسماء ما زالت مظلمة، وأنا أرقد في السرير، أسمع صوت عربات البضاعة، وهي محملة عن آخرها بأكياس البن، أطنان من البن، وستة عشر حيوانًا يجرون كل عربة بضاعة، بادئين طريقهم من محطة سكة حديد نيروبي صاعدين الطريق الطويل المؤدي للمصنع على سفح التل، وكل ذلك الصياح والقرقعة المصاحبة لحركة العربات، والسائقون يركضون بجوار العربات. كنت سعيدة لأنني فكرت أن هذا هو التل الوحيد الذي ينبغي عليهم أن يصعدوه في طريقهم؛ لأن المزرعة كانت أعلى من مدينة نيروبي بألف قدم. في المساء، خرجت لمقابلة الموكب العائد، الحيوانات المنهكة، وهي تدلي رؤوسها أمام العربات الفارغة، وهناك توتو[٣] متعب صغير يقودها، والسائقون المرهقون يجرجرون أسواطهم على تراب الطريق. لقد أنجزنا الآن ما استطعنا إنجازه. سيكون البن على متن السفينة في خلال يوم أو اثنين، ولا نستطيع إلا أن نأمل في حظ طيب في مزاد البيع الكبير في لندن.

كان لديّ ستة آلاف فدان، وهكذا فقد كان هناك فائض كبير من الأراضي بخلاف زراعة البن. كان هناك جزء من المزرعة بمثابة غابة طبيعية، وحوالي ألف فدان امتلكها مزارعون بطريقة وضع اليد، فيما يسمونه شامبا. واضعو اليد هؤلاء سكان محليون، حازوا هم وأسرهم القليل من الفدادين في مزرعة الرجل

الأبيض، وفي المقابل عليهم أن يعملوا في خدمته لعدد معين من الأيام على مدار العام. كان ملاك الأرض الذين يعملون في خدمتي، كما أعتقد، يرون العلاقة بيننا من وجهة نظر مختلفة، حيث إن العديد منهم ولدوا في المزرعة، وآباؤهم من قبلهم، وهم يعتبرونني، على الأرجح، واضعة يد- ذات مقام رفيع- على ممتلكاتهم. كانت الأرض المخصصة لواضعي الأرض أكثر حيوية بكثير من سائر المزرعة، وكانت تتغير بتغير الفصول على مدار العام.

تنمو الذرة على ارتفاع يفوق رأسك، وأنت تسير على الممرات الضيقة الوعرة فيما بين حفيف أوراق الشجر الأخضر الطويل، ثم ومرة أخرى تحصد مجددًا. تورق البازلاء في الحقول، ثم تقوم النساء بجمعها ودرسها، وجمع الأغصان وقرون البازلاء ثم حرقها؛ ولهذا ففي مواسم معينة تتصاعد أعمدة رفيعة من الدخان هنا وهناك في كل أرجاء المزرعة. هنا في مزرعة الكيكويو تنمو أيضًا البطاطا، التي لها أوراق متسلقة تشابه اللبلاب وتنتشر على الأرض مثل حصيرة سميكة متشابكة، وهناك أيضًا أشكال متنوعة عديدة من القرع الأخضر المنقط.

أول ما سيجذب نظرك أينما سرت وسط مزارع الفاكهة الخاصة بقبيلة الكيكويو هو الجزء الخلفي من امرأة مسنة قليلاً وهي تسوي سطح التربة، فتبدو مثل صورة نعامة تدفن رأسها في الرمال. كل أسرة من قبيلة الكيكويو لديها أكواخ صغيرة ذات قمة مستديرة؛ المسافة بين الأكواخ مساحة تعج بالنشاط، الأرض صلبة؛ الأرض هنا مزروعة بالذرة، وهنا تحلب الأغنام، ويركض الأطفال والدجاج معًا. اعتدت أن أطلق النار على الدجاج الجبلي الضخم في حقول البطاطا المحيطة ببيوت واضعي اليد في وقت متأخر من الأمسيات الزرقاء وأسراب الحمام تهدل بأغنية عالية الصوت، في الأغصان العالية للأشجار المصفوفة حول المزرعة

التي تركت بلا عناية، هنا وهناك في مزارع الفاكهة، هي بقايا للغابة التي كانت تغطي في يوم ما كل المزرعة.

الأكثر من ذلك، كان لديّ فدانان من الأراضي العشبية في المزرعة. هنا ينمو العشب الطويل ويهرب مثل موجات البحر في مواجهة رياح قوية، بينما يقوم الرعاة الصغار برعاية أبقار آبائهم. في الموسم البارد، يحملون فحمًا طازجًا في سلال صغيرة من البامبو جلبوها معهم من الأكواخ، وفي بعض الأحيان يتسببون في حرائق كبيرة للأعشاب، كان لها تأثير مدمر على الرعي في المزرعة. في سنوات الجفاف تنزح مجموعات الحمر الوحشية والخراتيت إلى المراعي العشبية في المزرعة.

نيروبي كانت مدينتنا، على بعد اثني عشر ميلاً، على أرض منخفضة مسطحة قليلاً بين التلال. هنا كان مقر الحكومة والمكاتب المركزية الكبرى؛ من هنا كانت تدار البلاد.

من المستحيل ألا تلعب مدينة دورًا في حياتك؛ ليس ثمة فرق كبير في الحقيقة إذا ما كان لديك أمور سيئة أو جيدة لتذكرها عنها، إنها تجذب عقلك إليها، بالقانون العقلي للجاذبية. هذا الضباب المشع في السماء التي تعلو المدينة ليلاً، التي يمكنني أن أراها من بعض الأماكن من مزرعتي، جعلت أفكاري تنتعش، واستعدت ذكرى المدن الكبرى في أوروبا.

حينما جئت لأفريقيا للمرة الأولى، لم يكن ثمة سيارات في البلاد، وركبنا إلى نيروبي، أو قدنا عربة تجرها ستة بغال، وحجزنا حيواناتنا في إسطبلات هاي لاند ترانسبورت. خلال كل أوقاتي، كانت نيروبي مكانًا مختلطًا، بعض المباني الحجرية الجديدة، وأحياء قديمة تتجاور فيها المحال ذات أبواب من الصاج المضلع، المكاتب، والبيوت المعرشة بأفرع النخيل في صفوف من أشجار

اليوكاليبتوس على امتداد الشوارع المتربة الخيتية. كانت مكاتب المحكمة العليا، إدارة الشئون المحلية وإدارة الشئون البيطرية مزدحمة بشكل مرعب، وكنت أكن الكثير من الاحترام للموظفين الحكوميين الذين يمكنهم أن ينجزوا أي عمل على الإطلاق في الجو الحارق، وفي الحجرات المعتمة التي كانوا يجلسون فيها.

على الرغم من ذلك، كانت نيروبي مدينة؛ هنا كان يمكنك أن تشتري أشياء، وتسمع أخبارًا، وتتناول الغداء أو العشاء في الفنادق، وترقص في صالات الرقص. وكانت أيضًا مكانًا حيويًا، تجري الأحداث فيها بسرعة، كالمياه الجارية، وتتطور الأشياء فيها مثل شيء صغير ينمو ويتغير عامًا بعد عامٍ، بينما أنت بعيد في رحلة سفاري منشغلاً بالصيد. تأسس المقر الحكومي الجديد، منزل رئاسي لطيف، وبه صالة فاخرة للرقص وحديقة جميلة، وأنشئت الفنادق الكبرى، وأقيمت عروض زراعية ضخمة ومبهرة ومعارض زهور، أثر النظام المشابه للمستعمرة الصغيرة خاصتنا على الحياة في المدينة من وقت لآخر بفصول من الميلودراما السريعة. تقول لك نيروبي: *"انتفع بقدر ما تستطيع مني ومن الوقت"*.

بشكلٍ عامٍ كنا أنا ونيروبي على قدر كبير من التفاهم، وفي إحدى المرات قدت سيارتي إلى المدينة وفكرت: لا وجود للعالم مطلقًا بدون شوارع نيروبي.

كانت أحياء السكان المحليين والمهاجرين الملونين مزدحمة بشكل كبير بالمقارنة بالمدينة الأوروبية.

لم يكن للمدينة السواحيلية، الواقعة على الطريق إلى نادي موثايجا، سمعة جيدة على أية حال، ولكنها كانت مكانًا حيويًا، قذرًا، وصاخبًا، يضج بالأحداث في أي وقت من اليوم. لقد بنيت غالبًا من الصفيح المضغوط الصدئ، مثل الصخور المرجانية، البنية الصلبة، التي تهرب منها بشكل ثابت روح الحضارة المتقدمة.

تقع المدينة الصومالية بعيدًا عن نيروبي، حسب افتراضي، بسبب نظام الصوماليين لعزل نسائهم. في الزمن الذي قضيته هناك، كان هناك القليل من النساء الجميلات، وكانت المدينة كلها تعرف أسماءهن، من ذهبن للعيش في *البازار*، وسببن المتاعب للبوليس النيروبي بلا طائل؛ كانوا أناسًا أذكياء وساحرين. ولكن النساء الصالحات كن مختفين في المدينة، لا يراهن أحد. كانت المدينة الصومالية مكشوفة للرياح، بلا ظلال ومتربة، لا بد أنها تذكر الصوماليين بصحراء بلادهم. أما الأوروبيون، الذين يقطنون البلاد هنا منذ مدة طويلة، حتى لأجيال عديدة، في المكان ذاته فلا يمكنهم أن يتصالحوا مع الإهمال المحيط بمنازلهم، أو مع الأجناس المرتحلة. كانت البيوت الصومالية مبعثرة بشكل غير منظم على الأرض العارية، وبدت وكأنها قد دقت معًا بمكيال الحبوب أو بمسامير طولها أربع بوصات، لكي تبقى لمدة أسبوع. لقد كان أمرًا مدهشًا، أن تدخل أحد هذه البيوت، لتجدها من الداخل منظمة للغاية ومتجددة، ومعبأة بعطر عربي، ومفروشة بسجاد جيد، وعلى جدرانها بعض الأشياء المعلقة، أوعية من النحاس والفضة، وسيوف لها مقابض عاجية وشفرات رفيعة. للنساء الصوماليات طرق مميزة ورقيقة في تنظيم بيوتهن، وكن يتصفن بالكرم والمرح، ولهن ضحكات مثل أجراس فضية. كنت أشعر وكأنني في منزلي حينما أزور القرية الصومالية برفقة خادمي الصومالي، فرح عدن، الذي رافقني طوال الوقت الذي قضيته في أفريقيا، وذهبت لحضور العديد من أعيادهم. الفرح الصومالي الكبير احتفال تقليدي ساحر. بوصفي ضيفة شرف، أخذني الصوماليون إلى غرفة العروس، حيث كانت الجدران وسرير العرس مغطاة بمفارش مطرزة ذات طراز قديم رقيق وزاهٍ، وكانت العروس الصومالية الشابة ذات العينين الداكنتين تبدو صلبة، مثل عصا المارشال، مثقلة بالحرير والذهب والكهرمان.

يعمل الصوماليون في تجارة المواشي في أنحاء البلاد كلها. من أجل نقل بضائعهم كان الصوماليون يحتفظون في قريتهم ببعض الحمير الصغيرة الرمادية، ولقد رأيت بعض الجمال هناك أيضًا: ما تسفر عنه الصحراء من منتجات متصلبة، متغطرسة، وراء كل المعاناة الدنيوية، كالصبار، وكالصوماليين.

يجلب الصوماليون لأنفسهم الكثير من المتاعب بسبب نزاعاتهم القبلية. في هذا الشأن يفكرون ويشعرون بشكل مغاير عن سائر الناس. ينتمي فرح إلى قبيلة حبر يونس، وقد وقفت شخصيًا إلى صفهم في إحدى تلك النزاعات. في إحدى المرات كان هناك معركة كبيرة حقيقية في المدينة الصومالية بين قبيلتي دولبا هانتيس وحبر شاولو، استخدموا فيها البنادق والحرائق، وقتل فيها عشرة أشخاص أو اثنا عشر شخصًا، حتى تدخلت الحكومة. كان لفرح صديق شاب لطيف من قبيلته اسمه سيد، اعتاد أن يأتي للمزرعة لزيارته، ولهذا فقد شعرت بالأسى حينما أخبرني عمال المنزل أن سيدًا قد ذهب لزيارة أسرة حبر شاولو في منزلهم، حينما مر رجل غاضب من أبناء قبيلة دولبا هانتيس، وأطلق رصاصتين بشكل عشوائي على حائط المنزل وأصاب ساق سيد. حينما علمت بالأمر، قدمت مواساتي لفرح لإصابة صديقه وسوء حظه-"ماذا؟ سيد؟" صرخ فرح بعنف.

"سيد يستحق ذلك، لم تحتم عليه الذهاب لتناول الشاي في منزل حبر شاولو؟".

يستحوذ هنود نيروبي على الحي التجاري الكبير المسمى بالبازار، ويمتلك التجار الهنود الكبار فيلات صغيرة خارج حدود المدينة: جوفانجي، وسليمان، وفيرجي، وآليدينا فيسرام. لديهم جميعًا ذائقة خاصة للدرج الحجري، وأعمدة الدرابزين، وأواني الزهور، المقطوعة بشكل سيئ من حجر الأراضي اللين- مثل تلك الأبنية التي يبنيها الأطفال من قوالب الطوب الوردية الزخرفية. كانوا يقيمون

حفلات الشاي في حدائقهم، مع المعجنات الهندية بأسلوب قاطني الفيلات، وكانوا أناسًا يتسمون بالطيبة والذكاء ولديهم خبرة المسافر. ولكن الهنود في أفريقيا تجار جشعون، لدرجة أنك لا تدري أبدًا وأنت معهم إن كنت وجهًا لوجه مع فرد عادي أو مع رئيس شركة. لقد زرت منزل سليمان فيرجي، وحينما رأيت- ذات يوم- العلم نصف منكس على الصارية فوق مجمعه الكبير المخصص لتخزين البضائع، سألت فرحًا: "هل مات سليمان فيرجي؟" أجابني فرح: "نصف ميت". سألته: "هل ينكسون العلم بهذا الشكل حينما يكون نصف ميت؟". قال: "لقد مات سليمان، ولكن فيرجي لا زال حيًا".

قبل أن أتولى إدارة المزرعة، كنت حريصة على ممارسة الصيد، وكنت أخرج في رحلات سفاري عديدة. ولكنني حينما أصبحت مزارعة، وضعت بندقياتي جانبًا.

كان أفراد من قبيلة الماساي، والقبائل المرتحلة، وتلك التي تمتلك المواشي، يتعايشون كجيران في المزرعة، وكانوا يعيشون على الجانب الآخر من النهر؛ من وقت لآخر قد يأتي بعضهم لمنزلي ليشكوا من أسد يلتهم أبقارهم، ويطلبوا مني أن أذهب لإطلاق النار عليه من أجلهم، وكنت أفعل ذلك بقدر استطاعتي. في بعض الأحيان، في يوم السبت، كنت أسير في سهول أورانجي لكي أصطاد حمارًا وحشيًا أو اثنين، كغذاء لعمال مزرعتي، وكان يسير خلفي طابور طويل من شباب الكيكويو المتفائلين. كنت أصطاد العصافير في المزرعة، والدجاج البري والدجاج السوداني، وكلها طيور شهية للأكل. ولكن لسنوات طويلة لم أخرج لرحلات صيد استكشافية.

رغم ذلك، كنا نتحدث في المزرعة عن رحلات السفاري التي قمنا بها. ترسخ أماكن التخييم في ذهنك، وكأنك قضيت أوقاتًا طويلة من حياتك فيها. ستتذكر منحنى في طريق عربتك على السهل العشبي، مثل ملامح صديق.

هناك في رحلات السفاري، رأيت –ذات مرة– قطيعًا من الجاموس، مائة وتسعًا وعشرين جاموسة، خرجت في ضباب الصباح تحت السماء الفضية، واحدة وراء الأخرى، وكأن هذا القطيع من الحيوانات الضخمة داكنة اللون التي تشبه كائنات من حديد، بقرونها القوية المتأرجحة أفقيًا، لم تكن تتقدم نحوي، كانت تتخلق أمام عيني وأطلق العنان لها بمجرد الانتهاء من خلقها. رأيت قطيعًا من الأفيال يرتحل خلال الغابة المحلية الكثيفة، حيث ضوء الشمس موزع بين النباتات المتسلقة في نقاط ورقع صغيرة، تمشي بخطى وئيدة، وكأن لديها موعدًا في نهاية العالم. كانت، بحجم هائل، على حاشية سجادة فارسية قديمة وثمينة للغاية، مصبوغة بالأخضر، والأصفر، والبني الداكن. كنت أراقب يومًا بعد يوم تقدم الزرافات عبر السهل، بسلوكها غير المألوف، الذي لا يمكن محاكاته، في رشاقتها، وحياتها المنعزلة، وكأنها ليست قطيعًا من الحيوانات، ولكن مجموعة من الزهور النادرة الضخمة المرقطة ذات أعناق طويلة تتقدم ببطء. تتبعت خرتيتين في مسارهما الصباحي، حينما كانا يتشممان وينخران في هواء الفجر– هواء بارد جدًا لدرجة أنه قد يجرح الأنف– وقد بدا أنهما حجران كبيران جدًا ذوا عظام بارزة يتدحرجان في الوادي الطويل ويستمتعان بالحياة معًا. لقد رأيت الأسد الملكي، قبل شروق الشمس، تحت قمر يتضاءل، يعبر السهل الرمادي في طريقه للمنزل بعد أن فرغ من القتل، تاركًا مسارًا داكن اللون على العشب الفضي، ووجهه لا زال ملطخًا باللون الأحمر حتى أذنيه، أو في خلال وقت القيلولة، حينما يسترخي بشعور بالرضا وسط أفراد أسرته على العشب القصير وفي الظل الرقيق المشابه للربيع لأشجار الأكاسيا الوارفة في متنزهه الأفريقي.

كل تلك الأشياء كانت تشعرني بالسعادة حينما أفكر فيها عندما أشعر بالضجر في المزرعة. كانت المحمية الكبيرة لا تزال هناك، في أراضِيهم الخاصة؛ كان يمكنني أن أذهب لأراقبهم مرة أخرى إن أحببت. لقد منح قربهم وهجًا ومرحًا لجو المزرعة. كان فرح -على الرغم من اهتمامه المتزايد والحيوي مع مرور الوقت بشئون المزرعة- والخادمون المحليون القدماء المخصصون لرحلات السفاري، يعيشون على أمل القيام برحلات سفاري أخرى.

هناك في الغابات تعلمت أن أكون يقظة للحركات المباغتة. إن المخلوقات التي تتعامل معها هناك خجلة ومتيقظة، لديها موهبة تجنبك حينما لا تتوقع ذلك أبدًا. لا يمكن لحيوان أليف أن يظل ساكنًا مثل الحيوان الوحشي. لقد فقد الناس المتحضرون موهبة الثبات، وينبغي أن يأخذوا دروسًا في الصمت من الحياة الوحشية قبل أن تتقبلهم. إن فن الحركة برقة، بدون مفاجأة، هو أول ما ينبغي أن يتعلمه الصياد، ويزداد الأمر في حالة اصطحاب الصياد لكاميرا. لا يستطيع الصيادون أن يكون لهم طريقهم الخاص، لا بد أن يستسلموا للريح، وألوان وروائح المناظر الطبيعية، ولا بد أن يجعلوا من إيقاع الجوقة الموسيقية الصغيرة إيقاعهم الخاص. في بعض الأحيان قد يعيد الحيوان الوحشي حركة ما مرات ومرات، وينبغي أن يتعقبوها.

حينما تدرك إيقاع أفريقيا، تجد أنه مشابه لكل إيقاعها الموسيقي. ما تعلمته من أراضي المحمية كان مفيدًا لي في تعاملي مع السكان المحليين.

إن عشق المرأة والأنوثة صفة ذكورية، كما أن عشق الرجل والرجولة صفة أنثوية أيضًا، وهناك سمة شمالية للميل إلى الدول والأعراق الجنوبية. لا بد أن النورمانيين[٤] قد وقعوا في حب الدول الأجنبية أولاً مع فرنسا ثم مع إنجلترا. هؤلاء الإنجليز الأرستقراطيون القدماء الذين يظهرون في تاريخ وأدب القرن

الثامن عشر، بوصفهم مرتحلين دومًا لإيطاليا، واليونان، وإسبانيا، لم يكن لديهم أي أثر جنوبي واحد في طبيعتهم، ولكنهم انجذبوا وبقوا بسبب انبهارهم بأشياء مختلفة تمامًا عن طبيعتهم. حينما أتى الرسامونِ الألمان والإسكندنافيون، والفلاسفة والشعراء القدماء، إلى فلورنسا وروما، ركعوا ولهًا بالجنوب.

الأمر الغريب أن هؤلاء الناس المتسمين بقلة الصبر قد تحلوا بالصبر بشكل غير منطقي تجاه عالم غريب عنهم. وبما أنه من المستحيل لامرأة أن تضايق رجلاً، وبالنسبة للنساء، فإن الرجل لا يمكن أن يكون حقيرًا، ولا يمكن رفضه تمامًا، طالما بقي رجلاً، وهكذا كان الشماليون ذوو الشعر الأحمر والمتسمون بالتسرع يعانون بشكل دائم في تعاملهم مع الدول الاستوائية والأجناس. قد لا يحتملون أي سخافات من قبل أبناء بلادهم أو من قبل علاقاتهم الشخصية، ولكنهم في ذلك الوقت يحتملون قحط المناطق العالية في أفريقيا، وحالات ضربات الشمس، وطاعون الماشية الذي قد يصيب مواشيهم، وعدم كفاءة خدمهم المحليين بشعور من الذل والخضوع. لقد فقدوا حسهم بالفردية في ظل الاحتمالات التي تكمن في التفاعل بين هؤلاء الذين قد يندمجون في كيان واحد بسبب غرابتهم. إن مواطني أوروبا الجنوبية وهؤلاء الذين يحملون دماء مختلطة لا يحصلون على هذه القيمة؛ إنهم يلومونها أو يزدرونها. ولهذا فإن الشواذ من الرجال يزدرون المحب غير المكترث، والنساء العاقلات اللاتي لا يتحلين بأي صبر مع رجالهن، يشعرن أيضًا بالسخط من غريسيلدا.

بالنسبة لي، منذ أسابيعي الأولى في أفريقيا، شعرت بحب كبير تجاه سكان البلاد. لقد كان شعورًا قويًا أحاط كل الأعمار وكلا الجنسين. كان اكتشاف الجنس الأسود بالنسبة لي اتساعًا ساحرًا لعالمي. لو نشأ شخص ما يتسم بالتعاطف الداخلي مع الحيوانات في محيط لا يوجد فيه أية حيوانات، وقد أتيح له أن يتعرف على

عالم الحيوانات في وقت متأخر من حياته؛ أو إن كان هناك شخص لديه إحساس مميز للغابات والحياة الوحشية قد دخل غابة للمرة الأولى في حياته في سن العشرين؛ أو لو كان لأحدهم أذن موسيقية، وقد تصادف أن سمع الموسيقى للمرة الأولى حينما أصبح شابًا ناضجًا بالفعل؛ فإن حالاتهم ستبدو مشابهة لحالتي. بعد أن قابلت السكان المحليين، وضعت لنفسي روتينًا لحياتي اليومية بما يشابه الأوركسترا.

كان والدي يعمل ضابطًا في الجيش الهولندي والفرنسي، وكتب وهو ملازم أول شاب في دوبل، ذات يوم مخاطبًا أهل المنزل: "عند عودتي لدوبل كنت ضابطًا مسئولاً عن صف طويل من الجنود. كان عملاً شاقًا، ولكنه رائع. إن حب الحرب عاطفة مثل أي عاطفة أخرى، إنك تحب الجنود كما تحب النساء الصغيرات- إلى حد الجنون، إن أحد أشكال الحب لا يستثني الشكل الآخر، كما تعرف الفتيات. ولكن عشق النساء يمكن أن يتضمن فقط امرأة واحدة في كل مرة، والحب لجنودك يعني الكتيبة كلها، حتى أنك تأمل لو زاد عددها إن كان ذلك ممكنًا". لقد كان ذلك هو الأمر ذاته بالنسبة لي أنا وأهل البلاد المحليين.

لم يكن من السهل معرفة السكان المحليين. كانوا مرهفي السمع وسريعي الاختفاء؛ لو أخفتهم فإنه يمكنهم أن ينسحبوا في عالمهم الخاص في لحظة، مثل الحيوانات الوحشية التي تختفي ببساطة عند حركة متسرعة قد تصدر عنك. حتى يتسنى لك أن تعرف جيدًا أحد السكان المحليين، سيكون من المستحيل تقريبًا أن تجد إجابة مباشرة منه. على سبيل المثال لسؤال مباشر مثل: كم عدد الأبقار التي لديه؟، ستكون إجابته مضللة- "العدد الذي ذكرته لك البارحة". بالنسبة للأوروبيين سيبدو الأمر غير مريح أن يجيبهم أحد بهذه الطريقة ومن المحتمل أن تضايق مثل هذه الأسئلة أيضًا السكان المحليين. لو ضغطت أو أصررت على تكرار السؤال،

لكي يشرحوا لك موقفهم، فإنهم سيتراجعون بقدر ما يستطيعون، ثم سيقومون بتصرف شاذ فانتازي لكي يقودوك إلى الاتجاه الخاطئ. حتى الأطفال الصغار في مثل هذا الموقف يكون لديهم صفات لاعب البوكر، الذي لا يهمه في الواقع إن كنت تبالغ في تقديره أو تستهين بقدرته على اللعب، ما دمت لا تعرف طبيعته الحقيقية. حينما اقتحمنا بالفعل وجود السكان المحليين، وجدناهم يتصرفون مثل النمل، حينما تلكز بعصا مخبأ للنمل؛ فإنها تمحو ما علق بها من الدمار بطاقة دؤوبة، بسرعة وفي صمت- وكأنها تطمس فعلاً غير مهذب.

لا يمكن أن نعرف، ولا يمكن أن نتخيل كم المخاطر التي قد نسببها لهم. أنا شخصيًا أعتقد أنهم يخشون منا أكثر، ذلك الخوف الذي تشعر به إزاء مصدر إزعاج مفاجئ ومرعب، أكثر من خوفك من المعاناة أو الموت. وعلى الرغم من ذلك فمن الصعب أن تستدل على أي شيء؛ لأن الأفارقة كانوا يجيدون فن المحاكاة. في مزارع الفاكهة قد تصادف في بعض الأحيان وفي أحد الصباحات المبكرة دجاجة برية تركض أمام حصانك وكأن جناحها قد كسر، وتخاف أن يلتقطها الكلاب. ولكنك تدرك فيما بعد أن جناحها لم يكن مكسورًا، ولم تكن خائفة من الكلاب- يمكنها أن تحدث صوتًا كالطنين أمامهم في اللحظة التي تختارها- ربما كانت فقط تتدبر أمر صغارها في مكان ما بجوارها، وكانت تحاول أن تجذب انتباهنا بعيدًا عنهم. مثل الدجاج البري، قد يتظاهر السكان المحليون بالخوف منا بسبب مخاوف أخرى لا يمكن أن نخمن طبيعتها. أو في النهاية قد يكون سلوكهم نحونا نوعًا من المزاح الغريب، ولم يكن هؤلاء المتسمون بالخجل يخشوننا على الإطلاق. كان للسكان المحليين، وبشكل أقل بكثير من البيض، ذلك الإحساس بمخاطر الحياة. في بعض الأحيان، في رحلة سفاري، أو في المزرعة، في لحظة من التوتر الشديد، كنت أواجه عيون رفاقي المحليين، وأحس أننا على مسافة بعيدة كل منا عن الآخر، وكانوا يتعجبون ما إذا كنت أدرك الخطر الذي يجابهنا. جعلني

ذلك أفكر أنهم ربما كانوا، في الحياة ذاتها، في نطاق بيئتهم ذاتها، كما لن نستطيع أن نكون أبدًا، مثل الأسماك التي تعيش في أعماق الميـــاه، وبسبب طبيعـــة حياتها لا يمكن أن تتفهم خوفنا من الغرق. هذا الإحساس بالطمأنينة، فن السباحة هذا، الذي لديهم، كما أعتقد، قد كسبوه بسبب المعرفة التي احتفظوا بها وفقدناها نحن بسبب أجدادنا؛ أفريقيا من بين كل القارات، سوف تعلمك هذا الدرس: أن الرب والشيطان واحد، يتشاركان في الخلد، ليسا خالقين، بل خالق واحد، والسكان المحليين ليسوا شعبًا مرتبكًا، ولا منقسمين من داخلهم.

لقد تطور تعارفي بالسكان المحليين في رحلات السفاري التي قمنا بها، وفي المزرعة إلى علاقة مستقرة وشخصية. كنا أصدقاء جيدين. لقد تصالحت مع فكرة أن البيض لا يمكنهم أن يفهموهم أو يعرفوهم تمامًا، لكنهم عرفوني بعمق، وكانوا واعين بالقرارات التي سأتخذها، قبل أن أكون متيقنة منها بنفسي. كان لي لوقت ما مزرعة صغيرة هناك في منطقة عليا عند جل- جل، حيث كنت أعيش في خيمة، وكنت أسافر عن طريق السكك الحديدية ما بين جل- جل ونجونج. في جل- جل، كنت أقرر بشكل مفاجئ جدًا، حينما يبدأ المطر في الهطول، أن أعود ثانية للمنزل. ولكنني حينما أعود لكيكويو، التي كانت محطتنا على طريق السكك الحديدية، وكانت تبعد عشرة أميال عن المزرعة، كنت أجد أحد العاملين معي ينتظرني مصطحبًا بغله من أجل أن أركبه إلى البيت. حينما سألتهم: كيف يعرفون أنني سأعود؟، كانوا ينظرون بعيدًا، ويبدون متضايقين، وكأنهم مرتعبون أو يشعرون بالضجـــر، كما ينبغي أن نفعل لو أصر رجل أصم على أن نشرح له معنى سيمفونية ما.

حينما شعر السكان المحليون بالأمان معنا وباتوا في مأمن من الحركات والضوضاء المفاجئة، كانوا يتحدثون معنا بانفتاح كبير، ربما بطريقة أكثر انفتاحًا

مما لو كان أحد الأوروبيين يتحدث مع أوروبي آخر. لم يكن من الممكن الوثوق فيهم أبـدًا، ولكـن – إلـى حد كبير – يمكن القول إنهم مخلصون. الاسـم الجيد – ما يطلقون عليه هيبة – كان يعني الكثير في عالمهم الخاص. في وقت من الأوقـات، سيبدو أنهـم قد توصلوا إلى تقييم مشترك لك، وسيطلقون عليك اسمًا، لا يمكن أنٍ يقف ضده أي شخص أبدًا.

أحيانًا، كانت الحياة في المزرعة تبدو منعزلة للغاية، وفي مثل سكون تلك الأمسيات، حينما تتساقط الدقائق من الساعة، تبدو الحياة بشكل متزامن وكأنها تتساقط منك، فقط لاحتياجك لأناس بيض لتتحدث معهم. ولكن طوال الوقت، كنت أشعر أن الصمت يلقي بظلاله على السكان المحليين وهم يركضون بموازاتي، على طائرة مختلفة. كان صدى الصوت يسري من واحد لآخر.

يشكل السكان المحليون صورة لأفريقيا بلحمها ودمها. ذلك البركان العالي المتلاشي المسمى لونجونوت الذي يبرز على الوادي المتصدع وأشجار الميموسا العريضة على طول الأنهار، الفيل والزرافة، كل هذا لم يكن يمثل حقيقة أفريقيا بالمقارنة بالسكان المحليين أنفسهم– أشكال صغيرة في مشهد هائل. كانوا كلهم بمثابة تعبيرات مختلفة لفكرة واحدة، تنويعات على موضوع واحد. لم يكونوا تراكمات ملائمة لذرات متجانسة، ولكن تجميع متجانس لذرات متجانسة، كما هو الحال مع أوراق شجرة البلوط وشجرة البلوط والمادة المصنوعة من البلوط. نحن أنفسنا، ونحن نرتدي الأحذية الطويلة الرقبة، وفي تسرعنا المتزايد والدائم، دائما ما نتنافر مع الطبيعة. إن السكان المحليين يتوافقون مع هذا الأمر، وحينما يسافر هؤلاء ذوو القامة الطويلة، النحفاء، ذوو البشرة السمراء والعيون السوداء الضيقة – دومًا واحدًا وراء الآخر، حتى أن الطرق الأساسية للسكان المحليين تتكون من معابر ضيقة تكفي قدمًا واحدة – أو حينما يزرعون الأرض، أو يرعون الماشية،

أو يعقدون حفلات رقصهم الكبيرة، أو يقصون عليك حكاية، فهذه هي أفريقيا تتجول معك، وتراقصك وتسليك.

في الأراضي المرتفعة تتذكر كلمات الشاعر:

وجدت الشيء النبيل

أهل البلاد

والمهاجر الساذج

تتغير المستعمرة باستمرار، ولقد تغيرت بالفعل منذ أن عشت هناك. حينما أكتب بقدر ما أستطيع من الدقة عن خبراتي في المزرعة، في هذا البلد، ومع بعض ساكني السهول والغابات، فإن كتابتي سيكون فيها نوع ما من الفائدة التاريخية.

طفل محلي

كان كامانتي طفلاً صغيرًا من قبيلة كيكويو، ابن أحد الخادمين لديّ. اعتدت أن أعرف جيدًا أبناء الخادمين عندي؛ لأنهم كانوا يعملون معي في المزرعة، وقد اعتادوا أن يكونوا حول منزلي لرعاية أغنامهم في المروج المخضرة، اعتقادًا بأنه قد يحدث دومًا أمر ما مثير للاهتمام هنا. ولكن لا بد أن كامانتي كان قد عاش في المزرعة لبعض السنوات قبل أن أقابله لأول مرة؛ أفترض أنه كان يعيش وجودًا منعزلاً مثل حيوان مريض.

لقد صادفته للمرة الأولى في يوم ما حينما كنت أمتطي صهوة جوادي عبر سهل المزرعة، وكان يرعى أغنام قومه هناك. كان بمثابة أكثر الأشياء مدعاة للشفقة يمكن لعينيك أن تقع عليه. كان رأسه كبيرًا وجسده صغيرًا ونحيفًا بشكل مرعب، كان كوعاه وركبتاه يبدوان مثل عقد في عصا وساقاه مغطاتان بقرح تنثال من فخذيه حتى كعبيه. هنا على السهل يبدو صغيرًا بشكل استثنائي، ولهذا فإن مشهده يصدمك كشيء غريب، يبدو الأمر وكأن قدرًا كبيرًا من المعاناة يمكن أن يتكثف في نقطة واحدة. حينما توقفت وتحدثت معه لم يجب، وبدا كأنه يكاد لا يراني. تبدو عيناه بلا بريق في وجهه المسطح ذي العظام البارزة، المضطهد، والمريض دومًا، معتمة مثل عيني شخص ميت. بدا وكأنه لن يقوى على العيش سوى لأسابيع قليلة، ومن المتوقع أن ترى النسور، التي ليست بعيدة أبدًا عن الموتى عبر السهل، في لحظة ما فوق رأسه في ذلك الهواء الباهت المحترق. أخبرته أن يأتي إلى منزلي في الصباح التالي، حتى يمكنني أن أحاول أن أعالجه.

لقد عملت كطبيبة لمن يعملون بالمزرعة في معظم الصباحات من التاسعة إلى العاشرة، ومثل كل الدجالين، كان لي دائرة كبيرة من المرضى، وبشكل عام كان هناك ما بين اثنين وعشرة مرضى يأتون لمنزلي في ذلك الوقت.

يتكيف أهالي كيكويو على الأمور غير المرئية، واعتادوا على تصديق الأمور غير المتوقعة. وهنا يختلفون عن الرجال البيض، الذين يكافحون لكي يضمنوا لأنفسهم الأمان ضد المجهول، وما قد تخبئه الأقدار. الأفريقي الأسود متصالح مع القدر، حيث إنه بين يديه طوال الوقت؛ فهو بالنسبة له، بشكل ما، منزله، الإظلام المعتاد لكوخه، الذي يتخذ قالبًا مناسبًا لجذوره الضاربة في القدم. إنه يواجه أي تغيير في الحياة بهدوء شديد. بين القيم التي سيسعى للبحث عنها في سيد أو طبيب أو إله، يأتي التخيل، كما أعتقد، في مقدمة القائمة. يبدو أنه من دواعي القوة لمثل تلك الذائقة أن الخليفة هارون الرشيد ظل محتفظًا بمكانته، في قلوب العرب والأفارقة، كحاكم مثالي؛ لأن لا أحد بإمكانه أن يتوقع ما سيفعله في اللحظة التالية، ولا يمكنك أن تعلم أين يمكن أن تجده. حينما يتحدث الأفارقة عن شخصية الإله فإنهم يتحدثون عنه مثل أحاديث ألف ليلة وليلة أو مثل الفصول الأخيرة من كتاب أيوب؛ إنها نفس الصفة، القوة اللانهائية للخيال، التي يتأثرون بها.

لهذه الصفة المميزة في الناس المحيطين بي أدين أنا نفسي بالكثير، هكذا حصلت على شعبيتي، أو شهرتي، كطبيبة. حينما جئت منذ البداية إلى أفريقيا، ارتحلت في قارب مع عالم ألماني، كان يسافر للمرة الثالثة والعشرين، ليجري تجاربه حول اضطرابات النوم، وكان معه في القارب أكثر من مائة فأر وخنزير غيني. قال لي: إن الصعوبة التي تواجهه مع المرضى من السكان المحليين لم تكن أبدًا نتيجة لأي نقص في الشجاعة من جانبهم- ففي مواجهة الألم أو إجراء عملية خطيرة كانوا يظهرون خوفًا ضئيلاً- ولكن كانت الصعوبة تكمن في كرههم العميق

للنظام، لأي علاج متكرر، أو النظام بشكل عام؛ وهذا ما لم يستطع أن يفهمه الطبيب الألماني الكبير. ولكنني أنا نفسي، حينما اقتربت أكثر من السكان المحليين، كانت تلك الصفة أكثر ما جذبني إليهم. لقد كانوا يتسمون بشجاعة حقيقية: هذا الحب التام والتلقائي للخطر- الإجابة الصادقة للخلق لإعلانهم عن تقبلهم لنصيبهم في الحياة- صدى الأرض التي ولدوا عليها حينما تحدثت السماء. في بعض الأحيان، كنت أعتقد أنهم، في أعماق قلوبهم، يخافون منا بسبب نقص مخيلتنا وتصرفاتنا العملية. بين يدي الطبيب كانوا يموتون بسبب الحزن.

كان مرضاي ينتظرون في باحة مرصوفة خارج منزلي. هنا كانوا يجلسون القرفصاء- الهياكل العظمية الواهنة للرجال وسعالهم المستمر وعيونهم المتفحصة، المشاكسون الشباب النحفاء ذوو البشرة الناعمة وعيونهم السوداء وأفواههم المتألمة التي يميل لونها للأزرق، والأمهات يحملن أولادهن المصابين بالحمى، وكأنهم ورود جافة صغيرة، تتعلق حول رقابهن. كنت غالبًا ما أجد التهابات لعلاجها؛ لأن أهالي كيكويو ينامون غالبا بجوار النار المشتعلة في بيوتهم الصغيرة، وقد تنهار أكوام الخشب أو الفحم المشتعل فوقهم- في بعض الأحيان حينما كان يفرغ مخزوني من الأدوية كنت أجد العسل دهانًا لا بأس به للحروق. كان جو الباحة مفعمًا بالنشاط والطاقة مثل أجواء كازينوهات أوروبا. كان يتوقف التدفق المنخفض اللطيف لأحاديثهم حينما أخرج للباحة، ولكن الصمت كان محملاً باحتمالات، فقد جاءت اللحظة الآن التي يمكن أن يحدث فيها أي شيء. على الرغم من ذلك، كانوا ينتظرونني لكي أختار بنفسي المريض الذي سيدخل أولاً.

كنت أعرف القليل جدًا عن الطب، فقط ما قد تتعلمه في دراسة للإسعافات الأولية. ولكن شهرتي كطبيبة انتشرت بسبب بعض الحالات المحظوظة التي عالجتها بالصدفة، ولم تتناقص تلك الشهرة بسبب الأخطاء الكارثية التي وقعت فيها.

لو كان بإمكاني أن أضمن لمرضاي شفاءً في كل حالة منفردة، فمن يعرف أن عددهم كان سيتناقص؟ كان ينبغي وقتها أن أكسب هيبة مهنية– هنا بشكل واضح طبيب ذو كفاءة عالية من فولايا– ولكن هل كانوا لا يزالون على ثقة من أن الرب يعضدني؟ لأنهم يعلمون أشياء عن الرب الذي عرفوه من سنوات القحط الشديدة، من الأسود التي تقطن السهول في الليل والزواحف والفهود التي تربض بالقرب من المنازل، حينما يكون الأطفال بمفردهم هناك ومن أسراب الجراد التي قد تأتي إلى الأرض، لا أحد يعلم من أين، ولا تترك ورقة عشب أينما تمر. كانوا يعـــرفونه ، أيضًا، من ساعات السعادة حينما تمر تلك الأسراب على حقول الذرة ولا تستقر، وحينما تأتي الأمطار مبكرة وكثيفة في موسم الربيع، فتزهر كل السهول والحقول وتثمر محاصيل وافرة. ولهذا فإن تلك الطبيبة القديرة من فولايا قد تكون فـــي نهايـــة الأمر، بشكل ما، دخيلة حينما يتعلق الأمر بالأشياء الكبيرة الحقيقية في الحياة.

لدهشتي جاء كامانتي لمنزلي في اليوم التالي للقائنا. وقف هناك، بعيدًا قليلاً عن المرضى الموجودين وكانوا ثلاثة أو أربعة، برز بوجهه نصف الميت، وكأنه أخيرًا أصبح لديه قدر من التعلق بالحياة، وقد قرر الآن أن يجرب هذه الفرصة الأخيرة للتشبث بها.

أثبت مع مرور الوقت أنه مريض ممتاز. كان يأتي حينما يتلقى أمرًا بالمجيء، بدون خطأ، وكان يتذكر الوقت الذي أطلب منه أن يعاود المجيء، كل ثلاثة أو أربعة أيام، وهو ما يعد أمرًا غير مألوف بين السكان المحليين. تحمل العلاج الصعب لآلامه برزانة لم أعرف لها مثيلاً. في كل تلك الحالات كان ينبغي أن أظهره كنموذج يحتذي به الآخرون، ولكني لم أفعل ذلك؛ لأنه في الوقت ذاته كان يسبب لي الكثير من القلق.

نادرًا ما كنت أقابل كائنًا بدائيًا، إنسانًا منعزلاً تمامًا هكذا عن العالم، ولديه نوع من القبول الصارم والمميت للانغلاق تمامًا عن حياته المحيطة به. كنت أستطيع أن أجعله يجيب حينما أسأله، ولكنه لم يتطوع أبدًا بأن يتفوه بكلمة ولم ينظر إليَّ مطلقًا. لم يكن يشعر بالحسرة إزاء نفسه، وكان يحتفظ بضحكة تنم عن الازدراء، وبمعرفة أفضل، وإزاء دموع الأطفال المرضى الآخرين، حينما كانت جروحهم تغسل أو تضمد، ولكنه لم يكن ينظر إليهم أيضًا. لم يكن لديه أي رغبة لأي نوع من الاتصال بالعالم، العلاقات التي كان قد صنعها مع هذا العالم، كانت لسبب ما تتسم بالقسوة. كانت قوة روحه في مواجهة الألم توازي قوة روح محارب قديم. لم تكن تفاجئه أكثر الأمور سوءًا: لقد كان بسبب عمله وفلسفته معدًا لتوقع الأسوأ.

كان ذلك فيما يتعلق بالسلوك العام، ولهذا فقد تذكرت إعلان عقيدة بروميثيوس: "الألم هو العنصر الخاص بي، كما أن الكراهية هي لك. أنت تدفعني الآن لعدم الاهتمام". وبيت آخر "إنك تأتي بأسوأ أفعالك. أنت كلي القدرة".

ولكن كشخص في مثل حجمه لم يكن الأمر مريحًا، شيء يجعلك تفقد قلبك.

وبم سيفكر الرب -- فكرتُ – حينما يواجه بمثل هذا السلوك الصادر من مثل هذا الإنسان الصغير؟.

أتذكــر جيدًا المرة الأولى التي نظر فيها إليَّ وتحدث معي بمحض إرادته. لا بد أن ذلك قد حدث أثناء تعارفنا؛ لأنني كنت قد تخليت عن النمط الأول للعلاج، وكنت أجرب أمرًا جديدًا، كمادة ساخنة كنت قد بحثت عن طريقة إعدادها في كتبي. وبسبب شغفي لأن أقوم بالأمر بشكل متقن، جعلتها ساخنة جدًا، وأنا أضعها على ساقه وثبت الضمادة من فوقها تحدث كامانتي: "ماسابو"، قال لي، ثم رمقني بنظرة حادة. إن السكان المحليين يستخدمون تلك الكلمة الهندية حينما يخاطبون

سيدة بيضاء، ولكنهم ينطقونها بطريقة مختلفة قليلاً، ويغيرونها حتى تكون كلمة إفريقية، مصحوبة بجرس متباين. نطقها كامانتي الآن وكأنه يستغيث، ولكنها أيضًا كلمة للتحذير، كما قد تصدر عن صديق مخلص لك، لكي يوقفك عن الاستمرار في عمل لا يستحق أن يصدر عنك. فكرت في الأمر بشكل متفائل فيما بعد. كان لي طموح كطبيبة، وكنت أشعر بالأسف لأنني وضعت كمادة ساخنة جدًا، ولكنني كنت سعيدة أيضًا؛ لأن تلك كانت ومضة التفاهم الأولى بيني وبين طفل بدائي. ذلك المتألم بشكل صارخ، الذي لم يكن يتوقع شيئًا سوى المعاناة، لم يتوقع أن يتعرض لها بسببي.

طوال فترة علاجي له، لم تكن الأمور، على الرغم من ذلك، تسير على ما يرام. لوقت طويل، ظللت أقوم بغسل وتضميد ساقه، ولكن المرض كان خارج نطاق قدراتي. من وقت لآخر، كانت حالته تتحسن بشكل ضئيل، ولكن ما تلبث القروح أن تنتشر في مناطق جديدة. في النهاية، عقدت العزم على أن أصطحبه لمستشفى الإرسالية الإسكتلندية.

كان قراري ذلك حاسمًا بشكل مهلك، وكان يتضمن احتمالات كافية لجعل انطباع ما يظهر على وجه كامانتي- فهو لم يكن يريد الذهاب. لقد منعته وظيفته وفلسفته من الاعتراض كثيرًا على أي شيء، ولكنني حينما قدته إلى البعثة، واصطحبته إلى هناك، حيث مبنى المستشفى الكبير، في أجواء غريبة وغامضة تمامًا عنه، بدأ جسده يرتعش.

كانت كنيسة بعثة إسكتلندا تجاورني، على بعد اثني عشر ميلاً إلى الشمال الغربي، أعلى من مستوى المزرعة بخمسمائة قدم؛ أما البعثة الكاثوليكية الرومانية الفرنسية فكانت تبعد مسافة عشرة أميال إلى الشرق، على الأرض المسطحة، ومنخفضة عن مستوى المزرعة بخمسمائة قدم. لم أكن أتعاطف مع الإرساليتين،

ولكن بشكل شخصي كنت على علاقة ودودة مع كلتيهما، وكنت أشعر بالأسف أنهما فيما بينهما كانتا تعيشان حالة من العداء.

كان الآباء الفرنسيون من أفضل أصدقائي. اعتدت أن أصعد مع فرح، لكي أستمع إلى القداس معهم في صباح الأحد، لأنني من ناحية كنت أريد أن أتحدث الفرنسية مرة أخرى، ومن ناحية أخرى كنت أستمتع برحلة لطيفة إلى الإرسالية. على مسافة طويلة كان الطريق يمتد عبر مزرعة نباتات السنط القديمة التابعة لإدارة الغــابة، وكــان العطــر الطازج الصنوبري لأشجار السنط عذبًا ومبهجًا في الصباحات.

كان أمرًا استثنائيًا أن ترى كيف أن كنيسة روما كانت تحمل أجواءها معها أينما ارتحلت. لقد خطط الآباء وبنوا كنيستهم بأنفسهم بمساعدة تابعيهم المحليين، وكانوا فخورين بها للغاية. كانت هنا كنيسة جميلة رمادية كبيرة ببرج ذي أجراس؛ وقد أقيمت على ساحة فسيحة، فوق شرفات ودرج، وسط أشجار البن الأقدم في المستعمرة، وكانت تدار بمهارة عالية. على الجانبين الآخرين من الساحة كانت هناك صالة فسيحة مغطاة لتناول الطعام ومباني الراهبات والرهبان، ملحق بها المدرسة والطاحونة عند حافة النهر، ولكي تصل إلى الكنيسة كان عليك أن تعبر الجسر المقوس. كان مبنيًا كله بالحجر الرمادي، وأنت تعبره، كان يبدو منظمًا ورائعًا في هذه الطبيعة الخلابة، مشهد لا يمكن أن يوجد سوى في المقاطعة الجنوبية لسويسرا، أو في شمال إيطاليا.

كان الآباء الودودون يقبعون في انتظاري عند باب الكنيسة، حينما ينتهي القداس، ليدعونني إلى كوب صغير من النبيذ(٥) عبر الساحة في حجرة الطعام الهادئة؛ وهناك كان أمرًا رائعًا أن أعرف كيف يعرفون كل صغيرة وكبيرة تحدث في المستعمرة، حتى في أبعد أركانها. كان بإمكانهم أيضًا، تحت غطاء الحديث

العذب والمؤثر أن يلتقطوا منك أي نوع من الأخبار قد تكون بحوذتك، مثل مجموعة صغيرة لطيفة من النحل البني ذي الفراء- لأنهم جميعًا كان لديهم ذقون كثيفة وطويلة- تتعلق بالزهور بسبب ما تخزنه من عسل. ولكن بينما كانوا مهتمين بالحياة في المستعمرة، كانوا طوال الوقت في منفى خاص على الطريقة الفرنسية، مطيعين بشكل يتسم بقدر من المرح والصبر الأوامر العليا ذات الطبيعة المريبة. لو لم يتعلق الأمر بالسلطة المجهولة التي أبقتهم في المكان، لشعرت أنهم لن يكونوا هناك، ولا حتى كنيستهم ذات الأحجار الرمادية ذات البرج العالي ذي الأجراس، ولا الأروقة، أو المدرسة، ولا أي جزء آخر من المزروعات المنتظمة ومحطة الإرسالية. لأنه حينما تتردد كلمة الارتياح، فإن القائمين على كل تلك الأماكن سيتركون الشئون الخاصة بالمستعمرة لنفسها ويستقلون الخط المباشر عائدين إلى باريس.

كان فرح، الذي كان يمسك بصهوة الجوادين بينما كنت أذهب للكنيسة، ثم إلى صالة الطعام، في طريقي عائدة من المزرعة، يلاحظ مزاجي المرح- كان هو نفسه ملتزمًا بدين محمد، ولم يقرب الكحوليات قط، ولكنه كان يرى القداس والنبيذ أمورًا متسقة مع ديني.

كان الآباء الفرنسيون، في بعض الأحيان، يركبون دراجاتهم البخارية في طريقهم إلى المزرعة، وكانوا يتناولون الغداء هناك؛ كانوا يقرءون على مقاطع من روائع لافونتين، ويعطونني نصائح مهمة تخص زراعتي للبن. لم أكن أعرف الكثير عن الإرسالية الإسكتلندية. كان هناك منظر مبهر من ذلك المكان المرتفع، على كل منطقة الكيكويو الريفية المحيطة بنا، ولكن وبشكل مشابه منحتني انطباعًا بالعمى، وكأنها هي نفسها لا تتمكن من رؤية أي شيء. كانت كنيسة إسكتلندا تعمل جاهدة لكي تضع السكان المحليين في أردية أوروبية، لم تفدهم بأي شكل من أي

وجهة نظر. ولكن كان لدى الإرسالية مستشفى جيدة جدًا، وفي الوقت الذي كنت فيه هناك، كان يتولى مسئوليتها رئيس أطباء ذكي خير يدعى الطبيب آرثر. لقد أنقذوا حياة الكثير من الناس في المزرعة.

في الإرسالية الإسكتلندية أبقوا كامانتي ثلاثة أشهر. خلال هذا الوقت، رأيته لمرة واحدة. أتيت ممتطية صهوة جوادي، ومررت على الإرسالية في طريقي لمحطة كيكويو للسكك الحديدية، حيث يمر الطريق هنا لمسافة عبر أراضي المستشفى. لمحت كامانتي واقفًا في ساحة المستشفى؛ كان يقف بمفرده على مسافة قريبة من مجموعات أخرى ممن يتلقون العلاج. في ذلك الوقت كان قد تحسن بالفعل بشكل كبير، لدرجة أنه كان يستطيع أن يركض. حينما رآني جاء حتى وصل إلى السور، وركض معي كلما سمح له الطريق بأن يتبعني. أسرع عبر الطريق، على جانب السور الموازي له مثل حصان في منطقته المغلقة حينما تعبر أمامه على ظهر جواد، وأبقى عينيه على حصاني، ولكنه لم ينطق بكلمة. كان عليه أن يتوقف عند زاوية ساحة المستشفى، وبينما كنت أتقدم في سيري، نظرت للخلف، رأيته واقفًا في سكون، ورأسه مرفوع في السماء ويحدق خلفي، متبعًا السلوك الذي قد يبديه حصان حينما تسلك طريقك بعيدًا عنه. أشرت له بيدي مرتين؛ لم يبد أي رد فعل على الإطلاق في المرة الأولى، ثم، بشكل مفاجئ، ارتفع ذراعه لأعلى مثل رمح، ولكنه لم يفعل ذلك سوى مرة واحدة.

عاد كامانتي إلى منزلي صباح أحد عيد الفصح، وسلمني رسالة من موظفي المستشفى تفيد بأنه كان قد أصبح في حالة أفضل كثيرًا، وأنهم يعتقدون أنه قد شُفي للأبد. لا بد أنه كان يعرف شيئًا من فحوى الرسالة؛ لأنه كان يراقب وجهي عن كثب وأنا أقرأها، ولكنه لم يكن يريد أن يناقش الأمر، كان لديه أشياء أهم تشغل

ذهنه. كامانتي دومًا ما كان يبدو متماسكًا محافظًا على كرامته، ولكن هذه المرة كان وجهه يشع بانتصار مكبوت أيضًا.

كان لدى كل السكان المحليين حس قوي بالمؤثرات الدراماتيكية. كان كامانتي قد ربط الضمادات القديمة بعناية حول ساقيه حتى الركبتين، لكي يفاجئني. كان من الواضح أنه قد رأى أهمية اللحظة، ليس بسبب حظه الجيد فقط، ولكن وبشكل يفتقر للأنانية، بسبب السعادة التي جلبها لي. من المحتمل أنه تذكر الأوقات التي رآني فيها غاضبة تمامًا بسبب إخفاقي المستمر في علاجي له، وعرف أن نتيجة علاج المستشفى شيء مذهل وهو يفك الضمادات ببطء، ببطء من فوق ركبته حتى كعبه، ظهر، من تحتها، ساقان ملساوان، عليهما علامات لجروح رمادية فقط.

حينما استمتع كامانتي تمامًا، بأسلوبه الهادئ، باندهاشي وسعادتي، أدهشني مرة أخرى بإعلانه أنه الآن قد أصبح مسيحيًّا. قال: "إنني مثلك".

وأضاف أنه فكر أنني قد أمنحه روبية؛ لأن المسيح قد صعد في هذا اليوم.

ارتحل ليعرج على أهله. كانت أمه أرملة، وتعيش بعيدًا عن المزرعة. أعتقد، مما سمعته منها فيما بعد، أنه انحرف عن عادته في هذا اليوم، وأفرغ من قلبه الكثير من الانطباعات عن الغرباء الذين قابلهم، وكيف استقبلوه في المستشفى. ولكن بعد زيارته لأمه في كوخها، عاد إلى منزلي وكأنه اعتبر أمر انتمائه للمزرعة مفروغًا منه. منذ ذلك الوقت أصبح في خدمتي إلى أن جاء الوقت الذي رحلت فيه من البلاد- لمدة اثني عشر علمًا تقريبًا.

حينما قابلت كامانتي للمرة الأولى كان يبدو كأنه في السادسة من عمره، ولكن كان لديه أخ يبدو في الثامنة، وكلا الأخوين اتفقا على أن كامانتي هو الأكبر سنًا، ولهذا فإنني أفترض أنه قد أصيب بتأخر في النمو بسبب مرضه الطويل؛ من

المحتمل إذن أنه كان في التاسعة من عمره. لقد كبر الآن، ولكنه كان يعطي دومًا الانطباع بأنه قزم، أو مشوه بشكل ما، على الرغم من أنك لا تستطيع أن تشير بإصبعك بدقة على ما قد يجعله يبدو كذلك. كان وجهه الحاد يتخذ شكلاً مستديرًا مع مرور الوقت، كان يسير ويتحرك بيسر، ولم أفكر أنا شخصيًا أنه يبدو قبيحًا، ولكنني ربما نظرت إليه بنظرة مشابهة لعيني الخالق. ظلت ساقاه رفيعتين مثل العصى. كان يحتفظ دومًا بشكل مدهش، نصفه مرح ونصفه شيطاني؛ بتغير طفيف جدًا، قد يجلس ويحدق لأسفل، على قمة كاتدرائية نوتردام في باريس. كان بداخله شيء ما مبهج وحيوي؛ لو تخيلته يرسم لوحة ما فلربما بإمكانه أن يصنع بقعة غير معتادة من الألوان المكثفة؛ بهذه البقعة رسم بفرشاته منظرًا بديعًا لأهل منزلي. لم يكن أبدًا ذا عقل راجح، أو على الأقل، كان دومًا، ما يمكن أن يطلق الناس عليه شخصًا غريب الأطوار إن كان رجلاً أبيض.

كان عميق التفكير. ربما قد طورت لديه سنوات المعاناة الطويلة التي مر بها، نزعة لأن يفكر في ماهية الأشياء، وأن يخلص إلى استنتاجاته الخاصة من كل شيء يراه. لقد ظل طيلة حياته كائنًا منعزلاً، على طريقته الخاصة. حتى حينما كان يفعل الأشياء ذاتها التي يفعلها الآخرون، كان يفعلها بطريقة مختلفة.

كان لديّ مدرسة ليلية لأهل المزرعة، بها معلم محلي يقوم بتعليمهم. جئت بالمعلمين من إحدى الإرساليات، وفي الوقت الذي عشته هناك كان لديّ معلمون من الكنيسة الرومانية والكاثوليكية لإنجلترا، وكنيسة إسكتلندا. لأن التعليم المحلي لهـذا البلـد يجري بشكل صارم على الخطوط الدينية؛ حتى الآن، وبقدر علمي، لا توجد كتب أخرى مترجمة للغة السواحيلية غير الكتاب المقدس، وكتب التراتيل. أنا شخصيًا، طوال فترة حياتي كلها في أفريقيا، كنت أخطط لترجمة خرافات آيسوب، لكي ينتفع بها السكان المحليون، ولكنني لم أجد وقتًا أبدًا لكي أشرع في

تنفيذ خطتي. وبرغم ذلك، كانت مدرستي بالنسبة لي مكاني المفضل في المزرعة، مركز حياتنا الروحية، حيث قضيت ساعات مرحة لليال طويلة في المخزن القديم المصنوع من الحديد المموج حيث كانت المدرسة.

في تلك الأوقات كان كامانتي يأتي معي، ولكنه لا ينضم للأطفال في مقاعد المدرسة الخشبية، كان يقف على مسافة بعيدة قليلاً عنهم، وكأنه بشكل واع يصم أذنيه عن التعلم ويغتبط لبساطة هؤلاء الذين أذعنوا وتقبلوا الأمر، وقرروا أن ينصتوا. ولكن في مطبخي، وفي خصوصية تامة، رأيته ينسخ من الذاكرة، ببطء شـــديد وبشكل غريب، تلك الحروف والأشكال التي لاحظها على سبورة المدرسة. لا أعتقد أنه كان يستطيع أن يأتي مع الآخرين لو أراد ذلك؛ فقد حدث في وقت مبكر من حياته أن تحول شيء بداخله أو انغلق. والآن، إذا جاز القول، أصبح من الطبيعي بالنسبة له أن يكون خارج إطار المألوف. كان على وعي بانفصاله هذا، عن نفسه، وتلك الغطرسة العظيمة لروح قزم حقيقي، حينما يجد نفسه مختلفًا مع العالم بأسره فإنه يعتبره عالمًا مشوهًا.

كان كامانتي حكيمًا فيما يخص الشئون المالية: كان ينفق القليل، وأجرى عددًا من صفقات أغنام ناجحة مع أفراد من كيكويو. تزوج في سن مبكرة، برغم أن الزواج في عالم الكيكويو مسألة مكلفة. وفي الوقت ذاته كنت أسمعه يتفلسف، بشكل عاقل وأصيل، فيما يخص عدم قيمة المال. كان لديه علاقة نادرة بالوجود بشكل كلي؛ كان بارعًا في ذلك، ولكنه لم يكن لديه رأي مميز عنه.

لم يكن لديه أية موهبة يمكن الإعجاب بها. بإمكانه أن يعترف بذلك، ويفكر مليًا في حكمة الحيوانات، ولكن طوال الوقت الذي تعارفنا فيه، كان هناك إنسان واحد يتحدث معجبًا برهافة حسه؛ كانت امرأة صومالية شابة جاءت بعد سنوات للحياة في المزرعة. كان لها ضحكة متهكمة صغيرة، كانت تستخدمها في كل

المواقف، ولكن بشكل رئيسي كانت تطلقها كلما تخذلق أحدهم أو عبر شخص ما عن شعوره بالثقة. لدى كل السكان المحليين حس بالضغينة، فرح ضئيل، وغبطة حادة بالأمور التي تنحى منحى الخطأ، وخاصة تلك التي تجرح وتتمرد على الأوروبيين. لقد تميز كامانتي في هذه السمة تميزًا فائقًا، حتى وإن تعلق الأمر بالسخرية من نفسه، الأمر الذي كان يجعله يشعر بالسرور بسبب إخفاقاته وأزماته الشخصية، تقريبًا مثلما يشعر إزاء إخفاقات الآخرين.

لقد تعاملت مع ذهنية مماثلة، مع النساء المحليات العجائز، اللاتي نضجن على نار هادئة، اللاتي عركن القدر وتقاسمن حلوه ومره، وأدركن سخريته، كلما تعرضن له، بتعاطف جميل، وكأنه إحدى أخواتهن. اعتدت في المزرعة أن يوزع خدم المنزل من الصبية السعوط – تومباكو كما يقول السكان المحليون- للنساء العجائز في صباح أيام الآحاد، بينما أكون ما زلت في الفراش. فيما يتعلق بهذا الأمر، كان لديّ عدد غير عادي من الزبائن يتجمعون حول بيتي أيام الآحاد، الذي يصبح وقتها مثل ساحة قديمة مهتاجة لدجاجات صلعاء، ذوات عظام بارزة؛ بينما يتسرب صوت قواقها الخفيض- لأن السكان المحليين لن يتحدثوا بصوت عالٍ إلا فيما ندر- من خلال النوافذ المفتوحة في حجرة نومي. ذات صباح يوم أحد، تصاعد ذلك التدفق من الأحاديث الرقيقة إلى ضجيج ومشاحنات مرحة متوالية؛ لقد حدثت واقعة مضحكة للغاية هناك؛ لذا استدعيت فرح ليخبرني بما حدث. لم يرغب فرح أن يخبرني، لأن ما حدث هو أنه نسي أن يشتري السعوط، وهكذا أتت النساء العجائز لمسافة طويلة سدى أو "بوري" كما يقلن. هذا الحدث كان فيما بعد مصدرًا للتسلية لنساء كيكويو العجائز. في بعض الأحيان، حينما أقابل إحداهن في ممر في حقل الذرة، كانت تقف ساكنة أمامي، توخذني بإصبع معقوف ذي عظام بارزة، ويذوب وجهها الأسمر العجوز في ضحك مستمر، حتى أن تجاعيد وجهها تأخذ في الانسحاب ثم تنطوي معًا وكأن شخصًا ما يشدها بخيط خفي، كانت تذكرني بيوم

الأحد حينما جاءت هي وأختها وسارتا لمسافة طويلة حتى منزلى من أجل السعوط، فقط لتفاجآ بأنني قد نسيت شراءه، وأنه لم يكن هناك ولا حبة واحدة – هاهاها مسابو!.

يقول البيض غالبًا إنَّ أهل كيكويو لا يعرفون شيئًا عن الامتنان. لم يكن كامانتي في أي حالة غير ممتن، لقد كان يعبر حتى بكلمات عن شعوره بالالتزام. في عدد من المرات، بعد سنوات من لقائنا الأول، كان يخالف روتينه اليومي لكى يسدي لى خدمة لم أطلبها منه، وحينما سألته لماذا فعلها، قال إنه لولاي لكان في عداد الموتى منذ زمن طويل. كان حريصًا على أن يظهر اهتمامه بسلوك آخر أيضًا، سلوك خاص مؤثر، مساعد، أو ربما تكون الكلمة الصحيحة هي سلوكه المتسامح إزائي. ربما كان يعلم أنني أنا وهو نعتنق ديانة واحدة. في عالم الأغبياء، كنت، كما أعتقد، بالنسبة له، واحدة من أكثر الناس غباءً. من اليوم الأول الذي جاء فيه لخدمتي وربط مصيره بمصيري، شعرت بعينيه اليقظتين تخترقان وجودي، وحياتي كلها تخضع لنقد واضح وغير متحيز؛ أعتقد أنه منذ البداية، كان ينظر للانزعاج الذي انتابني وأنا أعالجه وكأنه أمر شديد الغرابة لا سبيل لفهمه. ولكنه طوال الوقت كان يظهر لي اهتمامًا وتعاطفًا كبيرين، وسخر نفسه لخدمتي ولإرشادي، فقد كنت أبدو بالنسبة له جاهلة جدًا. في بعض المواقف، كنت أجده يقضي وقتًا وهو يفكر في المشكلة التي تواجهه، وهذا معناه أنه يستعد لكي يوضح تعليماته، حتى تبدو سهلة حتى أفهمها.

بدأ كامانتي حياته في بيتي وكأنه كلب حقيقي؛ وفيما بعد أصبح مساعدي الطبي. في ذلك الحين اكتشفت كيف أن لديه يدين ماهرتين، على الرغم من أن ذلك لا يمكن أن يجول بخاطرك حينما تراهما، وقد أرسلته أيضًا إلى المطبخ لكي يكون صبي الطباخ، تحت إشراف عيسى، طباخي القديم، الذي قتل.

بعد وفاة عيسى تولى هو مهامه، وأصبح الآن كبير الطباخين طوال الوقت الذي قضاه معي.

يكن السكان المحليون عادة مشاعر محدودة للغاية للحيوانات، ولكن كامانتي كان مختلفاً عن النمط السائد هنا، كاختلافه في أمور أخرى. كان صبيًا يحب مصادقة الكلاب، ويتحدث معها بلهجة آمرة، وكان يعلن تعاطفه معها، وكان يأتي ليعلمني ما يرغبون فيه، أو ما يفتقدونه أو بشكل عام رأيهم في أشياء معينة. كان ينظف الكلاب من الحشرات، التي تعد آفة مؤذية في أفريقيا، ومرات عديدة في منتصف الليل، كنا نستيقظ أنا وهو، بسبب نباح الكلاب، وعلى ضوء مصباح الهراكين، أمسكنا بهم واحدًا تلو الآخر، لننظفهم من الحشرات، تلك الحشرات القاتلة الكبيرة، *السيافو*، التي تسير منفردة وتلتهم أي شيء في طريقها.

لا بد أيضًا أنه كان يراقب جيدًا في الوقت الذي قضاه في المستشفى –حتى لو كان الأمر، كما كان الحال به دومًا، قد حدث دون أي تبجيل أو تحيز– لأنه كان مساعد طبيب عميق التفكير ومبدعًا. بعدما توقف عن هذا العمل، كان يظهر فجأة من المطبخ ليتدخل في علاج حالة مرضية، وكان يعطيني نصائح مهمة جدًا.

أما كطباخ فإن الأمر كان يبدو مختلفاً، على نحو يحول دون أي تصنيف. لقد وثبت الطبيعة وثبة هائلة وقطعت الطريق على نظام أسبقية الكفاءات والمواهب، يبدو هذا الشيء الآن غامضًا وغريبًا، كما يحدث حينما تتعامل دومًا مع العباقرة. في المطبخ، في عالم الطهي، كان لكامانتي كل مؤهلات العبقرية، حتى لو قارنت الأمر بمصير العبقري – ضعف الفرد في مقابل قوته الخاصة. لو كان كامانتي قد ولد في أوروبا، ووقع بين يدي معلم ذكي، فلا بد أنه كان سيصبح شهيرًا، وكان سيترك أثرًا كبيرًا في التاريخ. هنا في أفريقيا، صنع لنفسه اسمًا، فقد كان سلوكه إزاء فنه سلوك أستاذ.

كان لديّ اهتمام شخصي بالطهي، وفي زيارتي الأولى لأوروبا، تلقيت دروسًا على يد طاهٍ فرنسي في مطعم شهير؛ لأننى فكرت أن الأمر سيكون مسليًا إن استطعت أن أطهو طعامًا جيدًا في أفريقيا. في ذلك الوقت، عرض على بيروشية، الطاهي الفرنسي، أن أشاركه العمل في المطعم، بسبب إخلاصي لهذا الفن. الآن حينما أجد كامانتي متاحًا، كروح أليفة يمكنني أن أطهو معه، مرة أخرى يغمـــرنـــي هـــذا الإخلاص تمامًا. كان هناك بالنسبة لي منظور عظيم لعملنا معًا. لا شيء، كما ظننت، يمكن أن يكون أكثر غموضًا من تلك الغريزة الطبيعية في ذلك البدائي من أجل أن نتفنن في طهينا. لقد جعلني ذلك أنظر بشكل آخر لحضارتنا؛ في النهاية قد تكون بشكل ما إلهية، مرسومة بيد القدر. شعرت بشعور ذلك الرجل الذي استعاد إيمانه بالله؛ لأن عالم فراسة الدماغ قد جعله يرى موضع المخ الإنساني ببلاغة لاهوتية: لو تمكنا من البرهنة على وجود البلاغة اللاهوتية، فإن وجود اللاهوت ذاته يمكن أن يبرهن معها، وفي النهاية وجود الله.

في كل شئون الطهي، كان لدى كامانتي براعة يدوية مدهشة. الخدع والحيل العظيمة كانت لعبة يديه المعقوفتين؛ كانت تعرف بفطرتها كل شيء عن الأومليت والفطائر والصلصة، والمايونيز. كان لديه موهبة خاصة لطهي الأكلات الخفيفة، وكما يحدث في الأساطير، يشكل المسيح طيورًا من الصلصال ويأمرها أن تطير. كان يزدري كل الأدوات المعقدة، وكأنه لا يطيق كل تلك الاستقلالية التي توحي بها، وحينما أعطيته أداة لخفق البيض، وضعها جانبًا حتى صدأت، وكان يخفق بياض البيض بسكين مصنوعة من العشب كنت أزيل بها الحشائش الضارة، وكان بياض بيضه يعلو مثل سحابات خفيفة. وكطباخ كان لديه عين ثاقبة وملهمة، ويمكنه أن يختار أكثر الدجاجات سمنة من ساحة المزرعة، وبشكل فائق المهارة يمكنه أن يزن بيضة في يده، ويعرف متى تفقس. كان يفكر في خطط لكي يطور من الأطعمة التي يقوم بطهيها لي، وببعض الاتصالات بصديق كان يعمل لدى

طبيب في الريف، جلب لي بذور خس من النوع الممتاز، كنت قد أمضيت سنوات أبحث عنها بلا طائل.

كان لديه ذاكرة قوية للوصفات. لم يكن يستطيع القراءة، ولم يكن يعرف الإنجليزية، وهكذا فلم تكن كتب الطهي ذات فائدة بالنسبة له، ولكن لا بد أنه كان قد احتفظ بكل ما تعلمه وخزنه في رأسه الأخرق، طبقا لنظام ما يخصه، لن يتسنى لي أن أعرفه أبدًا. كان يسمي الأطباق وفقًا للأحداث التي جرت في اليوم الذي قام فيه بالطهي، وهكذا كان يتحدث عن صلصلة البرق الذي صدم الشجرة، وصلصة الحصان الرمادي الذي مات. ولكنه لم يخلط بين أي اثنين من تلك الأشياء. كانت هناك نقطة واحدة حاولت أن أؤثر فيها عليه ولكن بلا أي نجاح يذكر: نظام وضع أصناف الطعام في وجبة واحدة. أصبح من الضروري بالنسبة لي، حينما يكون لدي ضيوف للعشاء أن أوضح للطاهي وكأنها قائمة طعام مصورة: أولاً طبق الشوربة، ثم السمك، ثم الحجل الطائر، ثم الخرشوف. لا أعتقد تمامًا أن هذا العيب فيه يرجع إلى ذاكرة مغلوطة، ولكنه، كما أعتقد، كان يصر في صميم قلبه على أن هناك حدودًا لكل شيء، وأنه لن يضيع وقته إزاء أمر ما غير ذي أهمية.

أمر مثير حقًا أن تعمل مع نصف إله. بشكل رئيسي كان المطبخ من اختصاصي، ولكن وفقًا لتعاوننا، كنت أشعر أن الأمر لا يتعلق فقط بالمطبخ، ولكن العالم كله الذي كنا نتعاون فيه معًا كان يمر من بين يدي كامانتي. لأنه يفهم بشكل ممتاز ما تمنيته له، وفي بعض الأحيان أجده يحقق أمنياتي حتى من قبل أن أخبره بها؛ ولكن بالنسبة لي لم يكن واضحًا كيف أو لماذا كان يعمل بهذا الشكل. يبدو لى أمــرًا غــريبًا أن يتمكن شخص من التفوق للغاية في فن لم يفهم معناه الحقيقي، ولا يشعر إزاءه سوى بالازدراء.

لم يكن لدى كامانتي أية فكرة عن مذاق أي طبق من أطباقنا، وكان رغم تحوله للمسيحية، واتصاله بالحضارة، في جوهره مواطنًا نمطيًا من كيكويو، متمسكًا بتقاليد قبيلته حتى النهاية، وبإيمانه بهم، وكأنها الطريقة الوحيدة للحياة التي تناسب الآدميين. كان في بعض الأحيان يتذوق الطعام الذي يطهوه، ولكن عندها يظهر على وجهه الازدراء، مثل ساحرة شريرة ترتشف رشفة من مرجلها. كان يتمسك بقوالح الذرة التي اعتاد آباؤه تناولها. وهنا يخونه ذكاؤه في بعض الأحيان، ويأتي ليقدم لي طبقًا شهيرًا لدى أهل الكيكويو – شرائح من البطاطا الحلوة المشوية أو قطعة من دهن الخراف – كما قد يفعل كلب متحضر، عاش لفترة طويلة مع الناس، أن يضع عظمة على الأرض أمامك، كهدية. أحسست، أنه طوال الوقت، كان ينظر بصدق إلى الإزعاج الذي نسببه لأنفسنا لنصنع طعامنا، بوصفه نوعًا من المرض العقلي. حاولت في بعض الأحيان أن أستخرج منه آراءه حول تلك الأشياء، ولكن برغم أنه كان يتحدث بصراحة شديدة في مواضيع كثيرة، فقد كان كتومًا في بعض الموضوعات الأخرى، ولهذا فقد عملنا معًا في المطبخ، تاركين أفكار كل منا عن الطهي جانبًا.

•

أرسلت كامانتي إلى نادي موثايجا لكي يتعلم، وإلى طهاة أصدقائي في نيروبي، حينما كنت أصنع طبقًا حلو المذاق وجديدًا في منزلهم، ولكن في الوقت الذي كان يستعرض فيه ما تدرب عليه، كان منزلي معروفًا في المستعمرة كلها بجودة مائدته. كان ذلك مدعاة لسعادة غامرة بالنسبة لي. كنت أشتاق لأن يكون هناك جمهور لفني، وكنت أفرح حينما يأتي أصدقائي لكي يتناولوا الطعام معي؛ ولكن كامانتي لم يكن يهتم بإشادة أي منهم. وبشكل مشابه كان يتذكر ذائقة كلٍ من أصدقائي على حدة، هؤلاء الذين اعتادوا المجيء للمزرعة. "أينبغي أن أطهو السمك في الويسكي الأبيض من أجل بوانا بيركلي كول"، قال، بنبرة جادة، وكأنه يتحدث عن شخص مجنون. "لقد أرسل لك نبيذًا أبيض لكي تطهي السمك به". لكي

أحصل على رأي من يمتلك حكمًا صائبًا على جودة الطعام، طلبت من صديقي القديم، السيد تشارلز بولبيت الذي يقطن في نيروبي، أن نخرج معًا لتناول الطعام. كان السيد بولبيت رحالة عظيمًا من الجيل السابق، حيث شكلوا جيلاً بمنأى عن فينياس فوج؛ فقد سافر عبر العالم، وتذوق في كل مكان أفضل ما يمكن أن يقدم فيه من طعام، ولم يكن يهتم بتأمين مستقبله بقدر استمتاعه باللحظة الراهنة. إن كتب الرياضة، وصعود الجبال، التي تعود لخمسين عامًا مضت، تحكي عن مآثره كرياضي، وعن تسلقه للجبال في سويسرا والمكسيك، وهناك كتاب يحوي مغامرات شهيرة يسمى" تعال بخفة وامش بخفة"، حيث يمكنك أن تقرأ كيف أنه قرر من أجل المغامرة أن يسبح في نهر التايمز في ملابس المساء مرتديًا قبعة عالية- ولكن فيما بعد، وبشكل أكثر رومانسية، سبح في الهيلزبونت مثل ليندر واللورد بايرون. كنت سعيدة حينما جاء إلى المزرعة لكي نتناول معًا عشاء على انفراد؛ هناك شعور خاص بالسعادة في أن تمنح المرأة رجلاً مغرمة به بشدة، طعامًا شهيًا تطهـوه بنفسـها. في المقابل منحني أفكاره الخاصة عن الطعام، وفي أشياء أخرى كثيرة في العالم، وأخبرني أنه لم يتناول طعامًا أفضل من طعامي في أي مكان آخر.

لقد منحني أمير ويلز شرفًا عظيمًا حينما زارني وتناول طعام العشاء في المزرعة، ومدح صلصة الكامبرلاند[٦]. وهذه هي المرة الأولى التي أرى فيها كامانتي منصتًا باهتمام بالغ، وأنا أكرر على مسمعه الإشادة بطهيه؛ لأن لدى السكان المحليين أفكارًا عظيمة عن الملوك، ويحبون الحديث عنهم. بعد ذلك بشهور عديدة، شعر باشتياق لأن يسمع تلك الإشادة مرة أخرى، وسألني بشكل مفاجئ، مرددًا عبارة مثل تلك التي ترد في كتاب قراءة فرنسي: "هل أحب ابن السلطان صلصة الخنزير؟ هل أكلها كلها؟".

أظهر كامانتي نيته الطيبة إزائي خارج المطبخ أيضًا. أراد وفقًا لآرائه الشخصية عــن الميــزات والمخــاطــر التي تكتنف المرء في حياته أن يقدم لي يد المساعدة.

في ليلة ما، بعد منتصف الليل، دخل حجرتي فجأة وهو يحمل مصباحًا مضاءً في يده، وهو صامت وكأنه يؤدي مهمة ما. لا بد أن ذلك قد حدث بعد وقت قصير فقط من مجيئه لمنزلي للمرة الأولى، لأنه كان ضئيل الحجم للغاية؛ وقف بجوار سريري مثل خفاش داكن اللون تسلل إلى غرفتي، وأذناه الكبيرتان تفترشان جانبي وجهه، أو مثل إفريقي صغير والمصباح في يده. تحدث إليّ بحزن شديد. "ماسابو" قال كامانتي، "أعتقد أنك ينبغي أن تنهضي". جلست في السرير وأنا مندهشة؛ ظننت لو أن شيئًا خطيرًا قد حدث، لكان فرح قد جاء ليأخذني، ولكنني حينما أخبرت كامانتي أن يذهب مرة أخرى، لم يتحرك. قال مرة أخرى "ماسابو"، "أعتقد أنه من الأفضل أن تنهضي. أعتقد أن الرب قادم". حينما سمعت هذه الجملة، نهضت وسألته: لماذا ظن كذلك؟. قادني بجدية بالغة إلى غرفة الطعام التي تطل على الغرب، باتجاه الجبال. من النوافذ كنت أرى ظاهرة غريبة. كان هناك حريق مستعر في الأعشاب، عند التلال، وكان العشب يحترق من قمة التلال إلى السهول؛ حينما رأيته من البيت كان يشكل خطًا رأسيًا تقريبًا. كان المنظر بالفعل يوحي بأن هناك شكلاً خرافيًا هائل الحجم يتحرك ويتقدم نحونا. وقفت لبعض الوقت ونظرت إليه، وهو يراقب المشهد بجواري؛ ثم بدأت أوضح الأمر له. أردت أن أهدئه؛ لأنني ظننت أنه كان مرتعبًا على نحو جارف. ولكن التوضيح لم يترك فيه أثرًا قويًا على أي نحو؛ من الواضح أنه اعتبر أنه قد أتم مهمته حينما جاء لاستدعائي. "حسنًا، نعم" قال كامانتي، "قد يكون الأمر كذلك. ولكنني اعتقدت أنه من الأفضل أن تنهضي في حالة ما إذا كان الرب هو القادم إلينا".

الهمجي في بيت المهاجرة

في إحدى السنوات لم تسقط الأمطار الغزيرة. كانت تلك تجربة مزعجة وضخمة، وأمرًا لن ينساه أبدا المزارع الذي عاشها. بعد ذلك بسنوات، بعيدًا عن أفريقيا، في المناخ المبلل السائد في بلاد شمالية، سيثب ليلاً، صائحًا مع صوت التدفق المفاجيء للأمطار، "أخيرًا، أخيرًا".

في السنوات العادية تبدأ الأمطار في الأسبوع الأخير من شهر مارس وتستمر حتى منتصف شهر يونيه. حتى وقت هطول الأمطار، كان العالم يأخذ في السخونة والجفاف كل يوم، وكأنه قد أصابته الحمى، كما في أوروبا قبل عاصفة هوجاء، يحدث الأمر فقط بشكل أكبر.

كان الماساي[٧]، جيراني في الجانب الآخر من النهر، يوقدون النار في السهول التي ينتشر فيها اللحاء الجاف لكي يحصلوا على عشب أخضر جديد من أجل ماشيتهم في بداية موسم المطر، بينما يرقص الهواء فوق السهول صانعًا شعلات استثنائية؛ حيث تصنع طبقات الدخان الرمادية الممتدة دوائر ملونة فوق العشب، وقد انتقلت رائحة الاشتعال والحريق فوق الأرض المزروعة، وكأنها تأتي من فرن مشتعل.

تجمعت السحب العملاقة، وذابت مرة أخرى، فوق المشهد الطبيعي؛ تدفق خفيف وبعيد من الأمطار رسم خطوطًا زرقاء منزلقة عبر الأفق. لدى العالم كله فكرة واحدة.

ذات ليلة فقط قبل غروب الشمس، يقترب المشهد منك، يلف حولك، تقترب التلال، وتصبح مفعمة بالقوة، ذات مغزى في ألوانها الواضحة وفي زرقتها واخضرارها العميقين. بعد ساعتين، تخرج فتجد النجوم قد رحلت، وتشعر بنسيم الليل الناعم العميق والمحمل بهبات غير مرئية.

حينما يجول الصوت المتسرع الآخذ في العلو فوق رأسك، سيكون ذلك هو صوت الرياح تعصف بأشجار الغابة العالية- وليست الأمطار. حينما تسمع ثمة ما يركض على طول الأرض، فإنها الرياح تعصف بالشجيرات متعددة السيقان والعشب الطويل- وليست الأمطار. حينما يأتيك صوت حفيف الأشجار أو صوت خشخشة فقط فوق سطح الأرض، فإنه صوت الرياح في حقول الذرة- حيث إن صوتها يشابه صوت الأمطار كثيرًا لدرجة أنك يمكن أن تنخدع بها، مرة بعد أخرى، حتى أنك تأخذ منها ثمة إحساس بالرضا، وكأنك، على الأقل، قد شاهدت شيئًا قد اشتقت إليه وهو يتحرك الآن على المسرح أمامك- ولكنه أيضًا ليس صوت المطر.

ولكن حينما ترد الأرض مثل لوحة ذات رنين في ضجيج عميق وخصب، ويغني العالم من حولك في كل أبعاده، من فوقك ومن تحتك- فسيكون ذلك فقط هو صوت المطر. يبدو الأمر وكأنك تعود للبحر، بعد أن ابتعدت عنه لفترة طويلة، كما تعانق معشوقتك.

ولكن، ذات عام خذلتنا الأمطار. في مثل ذلك الوقت، تشعر وكأن الكون قد تخلى عنك. يزداد الجو برودة، في بعض الأيام سيكون الجو باردًا، ولكن ليس هناك علامة على الرطوبة في الجو. كل شيء أصبح أكثر جفافًا وقسوة، وبدا الأمـــر وكأن كل القوة والرحمة قد انسحبت من العالم. لا يتعلق الأمر بطقس جيد أو سيئ، ولكنه نقيض لكل أشكال الطقس، وكأنه أرجئ إلى أجل غير مسمى. تمر

ريح قاسية، مثل الجفاف الشديد، من فوق رأسك، كل الألوان خبت من كل الأشياء؛ رحلت الرائحة بعيدًا عن الغابات والحقول. تشعر بأنك مهان بينما تمارس القوى العظمى ضغطها عليك. إلى الجنوب ترقد السهول المحترقة سوداء ومهملة، بينما يرسم الرماد عليها خطوطًا رمادية وبيضاء.

كل يوم، ونحن ننتظر الأمطار بلا جدوى، تتخافت الآمال والتوقعات إزاء المزرعة وتذوي. لقد انتهى الحال بأعمال الحرث، وتقليم أطراف أغصان الشجر والزراعة التي قمنا بها في الأشهر الماضية حتى بدت وكأنها من عمل الأغبياء. لقد تناقص حجم العمل في المزرعة، ثم تجمد. في السهول وفوق التلال، جفت آبار المياه، وجاءت أنواع جديدة من البط والأوز إلى بركتي. إلى البركة التي على حدود المزرعة، يأتي الحمار الوحشي متجولاً في ساعات الصباح الباكر، وعند الغروب لكي يشرب، في صفوف طويلة، بأعداد كبيرة تصل إلى المائتين أو الثلاثمائة، المهرات تسرن مع الأفراس، ولم أشعر أنها تخافني حينما أمتطي حصاني وأسير بينهم. ولكننا حاولنا أن نبقيها بعيدًا عن الأرض من أجل قطعان أغنامنا؛ لأن المياه كانت تغطس في البرك. كان ما زال أمرًا ممتعًا أن نذهب إلى هناك، حيث ينمو القصب في الطين صانعًا بقعًا في المشهد الطبيعي الذي يسوده لون بني.

أصبح السكان المحليون صامتين في ظل هذا القحط. لم أستطع أن أحصل على كلمة منهم حول أية احتمالات، على الرغم من أنك قد تعتقد أنه لا بد أنهم يعرفون أكثر منا عن العلامات المتعلقة بالجو. كان كيانهم نفسه معرضًا للخطر؛ لم يكن الأمر بالنسبة لهم شيئًا لم يخطر ببالهم- ولم يخطر ببال آبائهم- أن يخسروا تسعة أعشار قطعانهم في سنوات القحط الكبرى. تعرضت مزارع الفاكهة خاصتهم للجفاف، مع قليل من البطاطا الحلوة ونباتات الذرة الذابلة.

بعد وقت تعلمت أن أسلك سلوكهم ذاته، وتخليت عن الكلام عن الأوقات الصعبة أو الشكوى منها، والتصرف كشخص مهان. ولكنني كنت أوروبية، ولم أعش لفترة طويلة في هذا البلد لكي أكتسب هذه السلبية المطلقة التي يتسم بها السكان المحليون، وكما قد يفعل بعض الأوروبيين ممن يعيشون لعقود عديدة في أفريقيا. كنت صغيرة السن، وبغريزة البقاء، كان ينبغي أن أستجمع طاقتي من أجل شيء ما، إن أردت ألا أذهب أدراج الرياح مع التراب في الطرق المؤدية للمزرعة، أو مع الدخان الذي يلف السهول. بدأت في كتابة القصص في المساء، حكايات وكتابات رومانسية، تلك الكتابات التي قد تذهب بذهني بعيدًا، لبلاد وأوقات أخرى.

بدأت أحكي بعض تلك القصص لصديق حينما يأتي للبقاء في المزرعة.

حينما نهضت وذهبت للخارج، كانت هناك ريح عاصفة شديدة، كانت السماء صافية وممتلئة بملايين النجوم الصارمة، كل شيء كان جافًا.

في البداية كنت أكتب في الأمسيات فقط، ولكن فيما بعد كنت غالبًا ما أجلس للكتابة في الصباح أيضًا، حينما كان ينبغي عليّ أن أكون في المزرعة. كان أمرًا شاقًا، هناك، أن أقرر عما إذا كان ينبغي علينا أن نحرث حقل الذرة مرة أخرى ونزرعه مرة ثانية، وما إذا كان ينبغي أن نجني ثمار البن الذابلة لكي ننقذ الأشجار أم لا. كنت أؤجل القرارات يومًا بعد يوم.

اعتدت أن أجلس لأعمل في غرفة تناول الطعام، والأوراق منثورة في كل مكان على طاولة العشاء؛ لأنه كان عليّ الانتهاء من حسابات وتقديرات خاصة بالمزرعة، في الفترة ما بين فترات كتابتي للقصص، وتلك المذكرات القصيرة المنفصلة التي ينبغي أن أكتبها للرد على مدير مزرعتي. كان صبية المنزل

يسألونني عما أفعل؛ حينما أخبرتهم أنني أحاول أن أكتب كتابًا. نظروا إليه كآخر محاولة لإنقاذ المزرعة من الأوقات العسيرة، وبدءوا الاهتمام به.

وفيما بعد سألوني: ما أخبار تطور الكتاب؟. كانوا يأتون، ويبقون لوقت طويل يراقبونني وأنا أكتب، وفي الغرفة الواسعة المسيجة كانت رؤوسهم تتلون تقريبًا مثل لون السياج، لدرجة أنهم يبدون ليلاً وكأنهم مجرد أردية بيضاء، مرافقة لي وظهورها ملاصقة للحائط.

غرفة الطعام خاصتي تطل على ناحية الغرب، وبها ثلاث نوافذ تفتح للخارج لتطل على الشارع الممهد، المرجة المخضرة والغابة. تتزلق الأرض هنا إلى أسفل النهر الذي يشكل حدًا بيني وبين قبيلة الماساي. لا يمكنك أن ترى النهر ذاته من البيت، ولكن يمكنك تتبع مساره المنعطف بجوار التشكيل الطبيعي لأشجار الأكاسيا الخضراء الداكنة التي تنمو على حافته. من الجانب الآخر هناك غابة مكسوة بالأشجار تزهر مرة أخرى، وفيما وراء الغابات هناك السهول الخضراء التي وصلت لأسفل تلال نجونج.

"وحيث إن إيماني قوي جدًا لدرجة أن بإمكانه أن يحرك جبالاً، ها هو الجبل الذي أود أن أصنعه يأتي إليّ".

تعصف الرياح من ناحية الشرق بأبواب غرفة الطعام المحجوبة عن الريح، المشرعة دومًا، ولهذا السبب فإن الجانب الغربي من البيت كان يأتيه السكان المحليون دومًا، يقطعون طريقهم بحيث يمرون به لكي يكونوا على علم بما يحدث بالداخل. بالدافع ذاته، كان الرعاة الصغار من السكان المحليين يجلبون أغنامهم حول المكان ويتركونها تكلأ في المرج الأخضر.

بشكل ما صنع أولئك الأطفال الصغار الذين يتجولون في المزرعة برفقة قطعان الأغنام والخراف التي يملكها آباؤهم وهم يبحثون عن مرعى لهم، رابطة ما بين الحياة في منزلي المتحضر وبين الحياة البدائية. لم يكن صبية المنزل يثقون بهم ولم يرغبوا أن يدعوهم يدخلون إلى الغرفات، ولكن الأطفال كان لديهم حب وحماسة حقيقيان للحضارة؛ بالنسبة لهم، لم يكن ذلك يشكل خطرًا عليهم مطلقًا؛ لأنه بإمكانهم أن يتخلوا عنها مرة أخرى وقتما يريدون. كان الرمز الرئيسي للحضارة بالنسبة لهم ساعة ألمانية قديمة ذات طائر وقواق معلقة في حجرة تناول الطعام. كانت الساعة بشكل مطلق شيئًا يرمز للرفاهية في الأراضي الأفريقية. طوال العام كله، يمكنك أن تعرف الوقت، من موضع الشمس. ولأنه ليس لديك تعامل مع قطارات السكك الحديدية. ويمكنك أن تنظم حياتك في المزرعة وفقًا لرغباتك الخاصة، لا يكون للساعة أهمية تذكر. ولكنها كانت ساعة جميلة. في وسط حزمة من الزهور الوردية اللون، كل ساعة كاملة، يظهر الطائر الوقواق، ويفتح بابه بحركة سريعة ويلقي بنفسه للأمام لكي يعلن الساعة بصوت سليط واضح. كانت روحه المرحة التي يبعثها في كل مرة بمثابة سعادة متجددة للصغار الذين يقطنون المزرعة. من مركز الشمس، كانوا يستطيعون أن يحددوا بدقة اللحظة التي سيأتي فيها نداء الطائر ليعلن منتصف النهار، وفي الثانية عشرة إلا الربع كنت أراهم يقتربون من المنزل من كل الجوانب، وهم في أذيال أغنامهم، التي لم يجرؤوا أن يتركوها جانبًا. كانت رؤوس الأطفال والأغنام تسبح خلال الشجيرات والعشب الطويل للغابة مثل رؤوس الضفادع في مستنقع.

كانوا يتركون قطعانهم في الحديقة المزروعة بحشيش مجذوذ ويأتون دون ضجة بأقدامهم الحافية؛ كان أكبرهم سنًا في حوالي العاشرة والأصغر في الثانية من العمر. كانوا يتصرفون بشكل جيد جدًا، ويحافظون على نوع من الاحتفالية الذاتية لزياراتهم، الأمر الذي انتهى إلى هذا النحو: كانوا يجولون بحرية في

المنزل، ما داموا لا يلمسون شيئًا، ولا يجلسون، ولا يتكلمون إلا إذا تحدث معهم شخص ما. وبينما الطائر يخرج مسرعًا إليهم، يظهر على وجوههم شعور كبير بالنشوة بينما ضحكات مكتومة تتردد بين المجموعة كلها. قد يحدث أحيانًا أيضًا أن يعود راع صغير السن جدًا ، ليس لديه شعور بالمسئولية إزاء الأغنام، في الساعات الأولى من الصباح بمفرده تمامًا، ويقف لوقت طويل أمام الساعة، وهو صامت تمامًا، ويخاطبها بلغة الكيكويو بأغنية حب بطيئة كإعلان عن الحب، ثم وبحزن يخرج مرة أخرى. كان صبية المنزل يضحكون على الرعاة الصغار وأسروا لي أن هؤلاء الرعاة كانوا شديدي الجهل؛ فقد كانوا يظنون أن الطائر حي.

الآن يأتي صبية منزلي بأنفسهم لكي يراقبوا عمل الآلة الكاتبة، كان كامانتي يقف أحيانًا بجوار الحائط لمدة ساعة في المساء، وكانت عيناه تجريان للأمام ثم للخلف مثل قطرات داكنة تحت رموش عينيه، وكأنه يريد أن يتعلم ما يكفي عن الآلة لكي يقوم بفكها لقطع صغيرة ثم يعيد تركيبها من جديد.

في ليلة ما وأنا أنظر لأعلى، رأيت تلك العيون الحذرة التي تنظر إلي بعمق وبعد لحظة تحدث. قال: "ماسابو"، "أتعتقدين أنه بإمكانك أن تكتبي كتابًا؟".

أجبت بأنني لا أعرف.

لكي تقيم حوارًا مع كامانتي عليك أن تتخيل وقفة طويلة مشحونة بالمعاني المخزونة وكأنه شخص جدير بالثقة، قبل كل جملة. كل السكان المحليون أساتذة في فن التوقف للحظات أثناء الحديث؛ لذلك فإن الحوار معهم له بعد خاص.

يتوقف كامانتي وقفة طويلة الآن، ثم يقول: "لا أصدق هذا الأمر".

لم يكن هناك أي شخص يمكنني أن أناقش معه أمر الكتاب؛ وضعت أوراقي على المائدة وسألته: لم لا؟. أجده الآن وقد فكر في المناقشة التي تدور بيننا من قبل، وأعد نفسه؛ وقف والأوديسة ذاتها وراء ظهره، ثم وضعها على المائدة.

"انظري، ماسابو"، قال كامانتي، "هذا كتاب جيد، إنه متسق من بدايته وحتى نهايته. حتى لو رفعته لأعلى وهززته بقوة، فلن يتفكك إلى أجزاء منفصلة. إن الرجل الذي كتبه ذكي جدًا. ولكن ما تكتبينه"، استمر في حديثه، بازدراء، وبنوع من التعاطف الودي، "عبارة عن أشياء هنا وأشياء هناك. حينما ينسى الناس أن يغلقوا الباب، ستطير الأوراق في كل ناحية، وعلى الأرض أيضًا، وعندئذ ينتابك الغضب. لن يكون كتابًا جيدًا".

شرحت له أن الناس في أوروبا سيتمكنون من تثبيت أوراقه كلها معًا.

"هل سيكون كتابك في ذلك الحين بمثل ثقل هذا الكتاب؟" سألني كامانتي وهو يزن الأوديسة.

حينما رآني مترددة دفع بالكتاب في يدي لكي أحكم بنفسي.

"لا"، قلت، "لن يكون بهذا الثقل، ولكن كما تعلم، هناك كتب أخرى في المكتبة أقل وزنًا".

سألني، "ولها مثل هذا الغلاف القوي؟".

قلت إن الغلاف القوي للكتاب أمر مكلف جدًا.

وقف لوقت ما صامتًا، ثم أعرب عن آماله الكبيرة لأن أنجز كتابي، وربما أيضًا عن ندمه للشكوك التي ساورته، فقد قام بجمع الأوراق التي تناثرت على الأرض ووضعها على المنضدة. لا زال لم يذهب بعيدًا، ولكنه وقف عند المنضدة وانتظر، ثم سألني بحزن: "ماسابو، ماذا هناك في تلك الكتب؟".

كتوضيح، أخبرته بقصة من الأوديسة عن البطل بوليفيموس، وكيف أن أوديسيوس قد أطلق على نفسه اسم نعمان، وقد اقتلع عين بوليفيموس، واختفى وهو مربوط تحت بطن كبش.

أنصت كامانتي لي باهتمام وعبر عن رأيه قائلاً: لا بد أن الكبش من الفصيلة ذاتها لخراف السيد لونج الذي يقطن في الميناتاييتا، الذي كان قد رآه في عرض الماشية في نيروبي. لقد عاد مرة أخرى إلى بوليفيموس، وسألني إن كان له لون أسود، مثل قبيلة الكيكويو. حينما قلت: لا، أراد أن يعرف إن كان أوديسيوس من قبيلتي أو عائلتي.

سألني: "كيف كان يقول كلمة نعمان، بلغته هو؟، قوليها لي".

"كان يقول أويتيس، لقد أطلق على نفسه اسم أويتيس التي تعني بلغته نعمان". قلت له.

"أينبغي أن تكتبي عن الشيء ذاته؟" سألني.

قلت: "لا، يمكن أن يكتب الناس عن أي شيء يحبونه. قد أكتب عنك مثلاً".

توقف كامانتي، الذي كان يتحدث بتلقائية، مرة أخرى وبشكل مفاجئ عن الحديث؛ نظر لنفسه وسألني بصوت خفيض، سأكتب عن أي جزء منه؟.

"قد أكتب عن الوقت الذي كنت مريضًا فيه وكنت تخرج بالخراف إلى السهول" قلت له، "ما الذي كنت تفكر فيه حينئذ؟".

جالت عيناه في الغرفة، لأعلى وأسفل، ؛ ثم قال في النهاية بشيء من الغموض: سيجوي– لا أعرف.

سألته: "أكنت خائفًا؟".

بعد وقفة، قال بحزم "أجل"، "كل الصبية يخافون في بعض الأحيان وهم فوق السهول".

قلت: "مم كنت خائفًا؟"

وقف كامانتي صامتًا لبرهة قصيرة، ثم نظر لي؛ بدت ملامحه جادة، وعيناه محدقتين إلى الداخل:

قال "من أويتيس". "الصبية يخافون من أويتيس حينما يقفون على السهول".

بعد ذلك بأيام قليلة، سمعت كامانتي يشرح لصبية المنزل الآخرين أن الكتاب الذي كنت أكتبه يمكن أن يصبح كتابًا متماسكًا في أوروبا، وأنه من الممكن أن يتكلف تكاليف باهظة، يمكن أن يكون غلافه قويًا مثل الأوديسة، الذي عرضه عليهم مرة أخرى. على الرغم من ذلك، لم يكن كامانتي نفسه موقنًا أن الغلاف يمكن أن يكون بلون أزرق.

كان لدى كامانتي موهبة خاصة أصبح يستخدمها في منزلي. أعتقد أنه كان يمكنه أن يبكي حينما يريد.

لو أنبته ذات مرة بجدية، كان يقف منتصبًا أمامي وينظر إلى وجهي مباشرة، وعلى وجهه علامات الحذر والحزن الجارف، تلك العلامات التي ترتسم على وجوه السكان المحليين في لحظة ما؛ ثم تتضخم عيناه وتمتلئ بدموع ثقيلة، تتكور واحدة تلو الأخرى وتنزلق على خديه. كنت أعرف تمامًا أن ما هي إلا دموع تماسيح، ومع أشخاص آخرين لم تكن لتؤثر فيّ مطلقًا. ولكن مع كامانتي كان الأمر مختلفًا. وجهه المسطح الأخرق، كان في تلك الأوقات، يغوص مرة أخرى في عالم مظلم ووحدة أبدية، كان يعيش فيها لسنوات عديدة. تلك الدموع الثقيلة الخرساء كان يمكن أن يطلقها وهو يبكي كولد صغير يرعى الأغنام من

حوله على التلال. كانت تلك الدموع تجعلني أشعر بالضيق، ولهذا كنت أنظر للخطايا التي ارتكبها وعنفته بسببها بمنظور مختلف، نظرة أقل صرامة، حتى أنني لم أعد أرغب في الحديث عنها. بشكل ما كان أمرًا مربكًا. لا زلت أعتقد أنه بقوة التفاهم الإنساني الحقيقي الموجود بيننا، عرف كامانتي بقلبه أنني أنظر إلى دموع ندمه ولا أعطي لها معنى أكثر من حقيقتها -أما هو- بالطبع فكان ينظر إليها كطقس ينبغي أن يؤديه للقوى الأعلى شأنًا، وليس كمحاولة للخداع.

غالبًا ما يشير كامانتي إلى نفسه كمسيحي. لم أكن أعرف شيئًا عن الأفكار التي كان يريد إلصاقها بهذا الاسم، وحاولت مرة أو اثنتين أن أعلمه الدين بطريقة السؤال والجواب، ولكنه شرح لي أنه كان يؤمن بما أؤمن به، لم يكن هناك إذن معنى لأن أسأله. وجدت أن ذلك يمكن أن يكون محاولة منه لتجنب الحديث ليس أكثر، لقد كان الأمر بشكل ما بمثابة برنامجه الإيجابي، أو اعترافه أو إيمانه. لقد أسلم نفسه لإله الإنسان الأبيض. كان على استعداد لأن ينفذ أي أمر لخدمته، ولكنه لم يأخذ على عاتقه أن يعطي أسبابًا لنظام معمول به قد يثبت أنه لا منطق له، مثل الأنظمة التي يعمل في إطارها الإنسان الأبيض ذاته.

في بعض الأحيان كان يحدث أن يصطدم سلوكي مع تعاليم الإرسالية الإسكتلندية، حيث اعتنق هناك المسيحية؛ كان حينئذٍ يسألني من يملك الرأي الصائب.

إن عدم ميل السكان المحليين للتحيز هو أمر لافت للنظر؛ لأنه من المتوقع أن تجد تابوهات متحجرة لدى البدائيين. وهذا يرجع، كما أتوقع، لتعارفهم بأجناس وقبائل متنوعة، ولتفاعلهم الحيوي الإنساني الذي حل بشرق أفريقيا، أولا مع تجار العاج والعبيد القدامى، وفي أيامنا مع المستعمرين وصيادي الغابات المفتوحة الكبرى. لقد تعرض تقريبًا كل ساكن محلي من أكبرهم إلى أصغر راعي ماشية

على السهول، في حياته لموقف وجهًا لوجه مع تنوع واسع من الجنسيات المختلفة، وتختلف مؤكدًا عنه، مثل اختلاف السيشيلي عن رجال الإسكيمو: البريطانيين، والبويريين(٨)، العرب والهنود الصوماليين، السواحيليين، والماساي، والكافيروندو(٩). وبقدر تقبل الأفكار، ينظر للساكن المحلي بشكل كبير بوصفه رجل العالم أكثر من كونه ساكن ضاحية أو مستعمرًا إقليميًا أو مبشرًا، قد نشأ في مجتمع متسق يتسم بمجموعة من الأفكار المستقرة. إن الكثير من انعدام الفهم بين البيض والسكان المحليين ينشأ من هذه الحقيقة.

كان هناك طفل صغير من قبيلة كيكويو يدعى كيتاو، جاء من محمية كيكويو ليعمل في خدمتي. كان صبيًا متأملاً، خادمًا متمسكًا بالتقاليد، ويقظًا، وقد أحببته كثيرًا. بعد مضي ثلاثة أشهر، وفي أحد الأيام، طلب مني أن أعطيه خطاب تزكية لصديقي القديم شيخ علي بن سالم، والي المنطقة الساحلية، في مومباسا، حيث كان قد رآه في منزلي والآن، كما يقول، يرغب في أن يذهب ليعمل لديه. لم أكن أريد أن يغادر كيتاو المنزل بعد أن تعلم نظامه، وقلت له إن بإمكاني أن أعطيه أجرًا أعلى. قال لي: لا. لم يكن يريد أن يغادر ليحصل على أجر أعلى، ولكنه لا يستطيع البقاء. قال لي إنه قد عزم أمره، حينما كان يعيش في المحمية هناك، على أن يكون إما مسيحيًا أو محمديًا، إنه لا يعرف حتى الآن أيهما سيختار. ولهذا السبب، فقد جاء ليعمل معي، حيث إنني مسيحية، وبقي لثلاثة أشهر في منزلي لكي يرى طرق العبادة لدى المسيحيين. ومن منزلي سيذهب إلى منزل الشيخ علي في مومباسا لمدة ثلاثة أشهر ويدرس طرق العبادة لدى أتباع محمد؛ ثم سيتسنى له بعد ذلك أن يقرر. أعتقد أنه لو عرضت هذه الحقائق أمام رئيس الأساقفة لقال، أو على الأقل ظن، كما قلت: "يا إلهي الرحيم، يا كيتاو، كان ينبغي أن تخبرني بذلك حينما جئت إلى هنا".

لن يأكل المحمديون لحم أي حيوان لم يذبح بواسطة أحد المحمديين بالطريقة التقليدية. كان ذلك غالبًا ما يشكل صعوبة في رحلات السفاري، حيث تحمل بعض المؤن القليلة معك، وتكون مسئولاً عن إطعام خدمك في الغابة المفتوحة التي تصطاد فيها. حينما تصطاد وعلاً ويسقط، سيركض المحمديون إليه، وكأنهم يمتطون أجنحة، ليصلوا في الوقت الصحيح ليذبحوه قبل أن يموت، وأنت تراقبهم بشغف، بعينين ملتهبتين، حيث إنك لو رأيتهم واقفين فوقه وذراعاه ورأسه متدليان، فإن هذا معناه أن الوعل قد مات قبل أن يصلوا إليه، وينبغي عليك إذن أن تقترب متلصصًا من وعل آخر، وإلا سيتضور حاملو بنادقك جوعًا.

حينما كنت أخرج في بداية الحرب بالعربة التي تجرها الثيران، في الليلة السابقة على بداية الصيد، حدث أن صادفت شريفًا محمديًّا هناك في كيجابي؛ سألته إن كان بإمكانه أن يمنح الخادمين لديّ إعفاءً من الشريعة في مدة السفاري.

تحدث الشريف، وكان رجلاً شابًا، ولكنه حكيم، مع فرح وإسماعيل وأعلن: "هذه السيدة تابعة للمسيح عيسى. حينما تطلق النار من بندقيتها، سوف تقول، أو على الأقل ستقول بقلبها، باسم الله، الأمر الذي سيجعل طلقاتها مساوية لتأثير السكين وفقًا للتقاليد المحمدية. طوال مدة هذه الرحلة، يمكنكم أن تأكلوا من لحم الحيوانات التي تصطادها".

لقد ضعفت هيبة الديانة المسيحية في أفريقيا بسبب عدم التسامح الذي تظهره كنيسة تجاه الأخرى.

في ليالي الكريسماس عندما كنت في أفريقيا اعتدت أن أقود مركبتي إلى الإرسالية الفرنسية؛ لكي أستمع إلى قداس منتصف الليل. بشكل عام كان الجو ساخنًا في ذلك الوقت من العام؛ وأنت تقود سيارتك خلال سياج الأغصان الرقيقة المجدولة للنباتات، وتستمع إلى رنين جرس الإرسالية قادمًا من بعيد في الهواء

الدافئ الصافي. هناك حشد من الناس السعداء المتسمين بالحيوية يقفون حول الكنيسة حينما تصل، إنهم أصحاب المحلات من الفرنسيين والإيطاليين في نيروبي مع أسرهم. تجيء أيضًا الراهبات من مدارس أديرة الراهبات وجماعات المصلين من السكان المحليين في أفواج مرتدين ملابس مبهجة.

حينما جاء الكريسماس، في العام الأول لمجيء كامانتي لمنزلي، قلت له إنني سآخذه معي إلى القداس، كرفيق مسيحي، ووصفت له الأشياء الجميلة التي سيراها هناك، بالأسلوب الذي يتحدث به الآباء أنفسهم. أنصت كامانتي إلى الحديث كله، وهيأ نفسه، ولبس أفضل ثياب لديه. ولكن حينما جاءت العربة لدى الباب، عاد مرة أخرى وقد توقد ذهنه بشكل مفاجئ، وقال إنه ليس بإمكانه أن يأتي معي. لم يرد أن يوضح أسبابه، وانصرف عن أسئلتي؛ وفي النهاية تحدث. لا، لن أستطيع الذهاب، لقد أدرك الآن أنني قد قصدت أنني سآخذه معي إلى الإرسالية الفرنسية، وكان قد تلقى تحذيرًا قويًا منها حينما كان يعالج في المستشفى. أوضحت له أن كل هذا كان من قبيل سوء الفهم، وأنه ينبغي عليه أن يأتي الآن. ولكن عند هذه اللحظة بدأ يتحول إلى حجر أمام عينيّ؛ لقد مات، غابت عيناه حتى ظهر الجزء الأبيض منهما فقط وبللت وجنتيه الدموع.

همس، "لا، لا، ماسابو، لن آت معك. هناك بداخل تلك الكنيسة الكبيرة، إنني أعرف ذلك جيدًا، هناك، ماسابو، من يدعى مابايا سانا"- يا له من أمر بشع.

حينما سمعت كلامه هذا أصبت بالحزن، ولكنني ظننت أنه ينبغي عليّ أن آخذه معي بالفعل حتى تقوم العذراء بنفسها بتنويره. كان الآباء يحتفظون في كنيستهم بتماثيل بحجم الإنسان مصنوعة من ورق مقوى للعذراء، كلها باللونين الأزرق والأبيض، وبشكل عام ينبهر السكان المحليون بالتماثيل، بينما من الصعب عليهم أن يفهموا الفكرة التي قد تحملها صورة. ولهذا فقد وعدت كامانتي بأن أحميه

وأخذته معي، وحينما دخل إلى أروقة الكنيسة، وهو ملتصق بكعبي قدمي، نسي كل شكوكه. لقد تصادف أن يكون ذلك أجمل حفل قداس عيد ميلاد أقاموه منذ بدء نشاط الإرسالية. كان هناك في الكنيسة تمثيلية شعبية عن ميلاد المسيح– تجسد المغارة التي مكثت فيها العائلة المقدسة، قادمة من باريس للتو، كانت مضاءة بنجوم مشعة في سماء زرقاء، وحولها مائة لعبة من الألعاب التي تتخذ شكل حيوانات، أبقار خشبية وحملان من القطن والصوف الأبيض، بدون أي اعتبار طفيف لحجمها، من المؤكد أن ذلك أشاع البهجة في قلوب أهل قبيلة كيكويو.

بعدما أصبح كامانتي مسيحيًا، لم يعد يخشى أن يلمس جسمًا ميتًا.

في سنوات عمره الأولى، كان يخشى هذا الأمر، وحينما كان يحمل رجلاً ميتًا على نقالة إلى الشرفة بجوار منزلي، كان لا يمد يد المساعدة كالآخرين؛ لم يتراجع، كالآخرين، إلى المرجة الخضراء، ولكنه كان يقف بلا حراك على الرصيف، مثل تمثال صغير داكن اللون. لماذا يخاف الكيكويون، الذين يمتازون بشكل شخصي بخوف ضئيل من الموت، لم يخافوا من أن يلمسوا جثة، بينما يتعامل البيض الذين يخشون من الموت مع الميت بسهولة، لا أعرف السبب. هنا، مرة أخرى، تجد أن حقيقتهم تختلف عن حقائقنا. ولكن كل المزارعين يعلمون أن هذا مجال لا يمكن أن تسيطر فيه على السكان الأصليين، وأنك ستوفر على نفسك المتاعب إذا تخليت عن الفكرة منذ البداية؛ لأنهم في الحقيقة سيفضلون الموت على تغيير أسلوبهم في الحياة.

الآن وقد اختفى الرعب من قلب كامانتي؛ كان يزدري هذا الشعور لدى أقاربه، لدرجة أنه كان يستعرض شعوره هذا أحيانًا، وكأنه يفتخر بقوة إلهه. لقد حدث أن كانت هناك فرص لاختبار قوة إيمانه، فقد كان علينا أنا وكامانتي أن نحمل ثلاثة أموات بيننا، في مجرى عملنا في المزرعة. كانت واحدة منهم طفلة

صغيرة من قبيلة الكيكويو، كانت قد دهستها عربة يجرها ثور خارج منزلي. الثاني كان شابًا من الكيكويو أيضًا قُتل وهو يقوم بقطع الأشجار في الغابة. أما الثالث فقد كان رجلاً أبيض كبير السن جاء ليعيش في المزرعة، ولعب دورًا في الحياة فيها، ومات هناك.

لقد كان أحد أبناء بلدي، هولنديًا كبير السن وأعمى اسمه كنودسن. في أحد الأيام، حينما كنت في نيروبي، كان يتلمس طريقه وتعثر أمام سيارتي، وقدم نفسه لي، وطلب مني أن أمنحه منزلاً على أرضي، حيث إنه لا يوجد لديه أي مكان على وجه الأرض ليمكث فيه. في ذلك الوقت كنت أقوم بخفض عدد البيض الذين يعملون معي في الزراعة، وكان لديّ بيت صغير لا يسكنه أحد، وكان يمكنني أن أعيره إياه، وهكذا جاء ليعيش في المزرعة لستة شهور.

كان كنودسن شخصية فريدة في مزرعة تقع في أراضٍ مرتفعة: فقد كان يشابه، إلى حد كبير، مخلوقات البحر، وبدا الأمر وكأن لدينا طائر القطرس البحري وقد نزعته لتوه من صورة. لقد كان محطمًا تمامًا من جراء مصاعب الحياة، وبسبب المرض واحتساء الخمور، كان محنيًا ومعقوفًا، ولديه هذا اللون الغريب للشعر الأحمر وهو يتحول للأبيض، وكأنه في الواقع قد نثر رمادًا فوق رأسه، أو كأن هناك من قد قرر أن يمنحه ميزة بسبب طبيعته الخاصة، ثم قام بتمليحه. ولكن كانت هناك شعلة متوهجة فيه لا يمكن أن يغطيها أي رماد. لقد جاء من سلالة دينماركية من صيادي الأسماك، وكان بحارًا، وفيما بعد أصبح واحدًا من أوائل الذين ارتادوا أفريقيا- ترى أي الرياح تلك التي أتت به إلى هناك؟.

لقد جرب كنودسن العجوز أشياء كثيرة في حياته، كلها بشكل ما متعلقة بالماء أو السمك أو الطيور، ولم يحسن الأداء في أي منها. ذات مرة، أخبرني، أنه كان لديه مؤسسة تجارية للصيد في بحيرة فيكتوريا، على مقربة أميال من أفضل

شبكات الصيد في العالم، وكان لديه قارب آلي. ولكنه فقد كل ذلك خلال الحرب. حينما يتذكر مأساته تلك، كانت هناك دومًا لحظة سوداء حاسمة من عـــدم الفهـــم، أو لنقل خيانة صديق. لا أعرف أيهما؛ لأن الحكاية لم تتكرر بشكل واحد أبدًا في الأوقات المختلفة حينما رواها لي، وكان لها تأثير سيئ للغاية على كنودسن العجوز، حينما كان يصل إلى هذه النقطة من سرد وقائع قصته. لقد كان هناك، بشكل مشابه، بعض الحقائق السليمة في القصة؛ لأنه وتعويضًا عن خسارته، دفعت له الحكومة في الوقت الذي كان يعيش فيه معي، نوعًا من المعاش بمقدار شلن في اليوم.

روى لي كل ذلك في الأوقات التي كان يجيء فيها لزيارتي في منزلي. كان دومًا ما يلجأ لي؛ لأنه لم يكن يشعر بالراحة في البيت خاصته. لقد اعتاد الأطفال المحليون، الذين خصصتهم كخدم له، الهروب منه لأنه كان يخيفهم بالركض ناحيتهم بشكل عشوائي متعثرًا في عصاته. ولكنه حينما يكون في حالة مزاجية رائقة كان يجلس في شرفتي لاحتساء فنجان من القهوة، وكان يغني لي أغاني دينماركية وطنية، يغنيها كلها بنفسه، وبطاقة هائلة. كان حديثنا بالدينماركية يجلب السعادة لكلينا، ولهذا فقد كنا نتبادل الملاحظات عن بعض الأحداث غير المهمة التي تجري في المزرعة، فقط استمتاعًا بالحديث. ولكنني لم أكن صبورة كثيرًا معه؛ لأنه بمجرد أن يأتي يكون من الصعب أن توقفه عن الكلام وتذهب لشأنك؛ فـــي تعاملاتنا اليومية كان له، كما هو متوقع، الكثير من ملامح الملاح القديم(١٠)، أو عجوز البحر.

كان فنانًا ماهرًا في صنع الشباك- أفضل شباك الصيد في العالم، هكذا أخبرني- وهنا في بيت المزرعة الصغير صنع الكيبوكوس- الأسواط التي يقطعها السكان المحليون من جلد فرس البحر. اعتاد أن يشتري جلد فرس البحر من

السكان المحليين أو من المزارعين عند بحيرة نايفاشا، وإن كان محظوظًا فبإمكانه أن يصنع خمسين كرباجًا من جلد واحد. لا زلت أحتفظ بسوط للركوب أعطاه لي؛ إنه سوط ممتاز جدًا. ينشر هذا النوع من العمل رائحة كريهة حول منزله، مثل تلك الرائحة الكريهة التي توجد حول عش جيفة قديمة لطائر. فيما بعد، حينما صنعت بركة في المزرعة، كان دائم الوجود هناك، يفكر بعمق، بينما تنعكس صورته تحته بشكل رأسي، وكأنه طائر بحر في حديقة للحيوان.

لدى العجوز كنودسن في صدره الغائر الهزيل قلب بدائي، بسيط، عنيف، غضوب، قلب صبي صغير، يشتعل بحب نقي للعراك؛ لقد كان بلطجيًا رومانسيًا كبيرًا ومحاربًا. كان حاقدًا بشكل انفرادي، مهتاجًا وحانقًا وغاضبًا دومًا تجاه معظم الناس والمؤسسات التي كان يتصل بها؛ كان ينادي السماء من أجل أن تدع النار والكبريت تندلع في هؤلاء الناس، و"كان يرسم الشيطان على الحائط" كما نقول في الدينمارك، بأسلوب مايكل أنجلو. كان يشعر بسعادة بالغة حينما يتمكن من أن يجعل الناس يتشابكون، مثل صبي صغير يتسبب في عراك كلبين، أو يجعل كلبًا يهاجم قطة. كان أمرًا هائلاً ومؤثرًا أن روح كنودسن العجوز لا زالت تصرخ- بعد حياته الطويلة الشاقة، وبعدما أصبح له أخيرًا، إذا جاز القول، مأوى هادئ يمكنه أن يلجأ إليه، حيث لا بد له أن يرقد وقد أرخى أشرعته- من أجل المعارضة وشعـوره بالشقـاء، مثل روح طفل. لقد جعلني هذا الأمر أحترمه مثل روح مجنون هائج.

لم يكن يتحدث عن نفسه أبدًا سوى بضمير الغائب، مثل "كنودسن العجوز"، ولم يقلها أبدًا دون افتخار أو تباه لأقصى درجة. لم يكن هناك شيء في العالم لم يؤده أو ينفذه كنودسن العجوز، ولم يكن هناك محارب بطل لم يقض عليه العجوز كنودسن. ولكن حيثما يتعلق الأمر بأناس آخرين، كان متشائمًا للغاية، وكان يتنبأ

بنهاية كارثية وقريبة، يستحقها هؤلاء بسبب كل ما يقومون به. ولكن فيما يخصه كان متفائلاً غاضبًا. قبل أن يموت بفترة وجيزة، أخبرني، بعد وعد بالسرية، عن خطة هائلة. بموجبها كان يمكن لكنودسن العجوز في النهاية أن يكون مليونيرًا، وأن يلحق الخزي بكل أعدائه. أخبرني أنه كان سيحمل من قاع بحيرة نايفاشا، مائة ألف طن من سماد ذرق طيور البحر الملقى هناك، منذ بدء خليقة العالم، والذي خلفها الطيور السابحة. باذلاً جهدًا ضخمًا- يبدو أنه آخر مجهوداته- قام برحلة من المزرعة إلى بحيرة نايفاشا، لكي يدرس وينفذ تفاصيل خطته. لقد مات بسبب ما كان يبدو عليه هذا الأمر من وهج. لقد كان لهذه الخطة كل العناصر القريبة لقلبه: المياه العميقة، والطيور، والكنوز المخبوءة؛ إن لها أيضًا نكهة الأشياء التي لا ينبغي أن يتحدث عنها أحد مع السيدات. في نهاية هذا الأمر، رأى ببصيرته الذهنية، كنودسن العجوز المنتصر نفسه، ممسكًا بصولجان ذي ثلاث شعب، وهو يتحكم في الأمواج. لا أتذكر إن كان قد أوضح لى أبدًا كيف يمكن أن يخرج هذا السماد من قاع البحيرة.

إن إنجازات ومآثر كنودسن العجوز وشهرته في كل شيء، وهو يبلغني بتلك الأشياء تختلف بشكل واضح مع الضعف والعجز الباديين على الرجل العجوز؛ مما يجعلك في النهاية تشعر بأنك إزاء شخصين مختلفين بشكل أساسي. تظهر الشخصية الرائعة لكنودسن العجوز في الخلفية، منتصرًا ولا يمكن هزيمته، بطل كل المغامرات، ثم يظهر خادمه المرهق والمحني الذي أعرفه، والذي لا يمل أبدًا من سرد حكاياته عنه. هذا الرجل ضئيل الحجم، المتواضع جعل رسالته في الحياة أن يساند ويمجد اسم كنودسن العجوز، حتى الموت. لأنه في الحقيقة قد رأى كنودسن العجوز، كما لم يره أحد أبدا سوى الله، وبعد ذلك لن يتفهم أي هرطقة أخرى.

سمعته لمرة واحدة يستخدم ضمير المتكلم. لقد كان ذلك قبل وفاته بأشهر قليلة. كان يعاني من أزمة قلبية سيئة، وهو الأمر ذاته الذي قتله في النهاية، وحينما اختفى لأسبوع في المزرعة ذهبت لرؤيته في بيته الصغير لأعرف أخباره، ووجدته وسط الرائحة الكريهة المنبعثة من جلد فرس النهر، ممددًا في الفراش في حجرة خالية تعمها الفوضى. كان وجهه ممتقعًا بلون رمادي وعيناه الذابلتان غائرتين عميقًا. لم يجبني أو يتحدث بكلمة حينما تحدثت إليه. فقط، وبعد وقت طويل، وحينما نهضت أخيرًا لأرحل، قال فجأة بصوت مبحوح، "أنا مريض للغاية". في ذلك الوقت لم يكن ذلك كلام كنودسن العجوز، الذي من المؤكد أنه لم يمرض أو يهزم من قبل؛ لقد كان الخادم، الذي سمح لنفسه أخيرًا أن يعبر عن مأساته ومعاناته الفردية.

بدا كنودسن العجوز بطيء الفهم فيما يتعلق بالمزرعة، ولهذا فقد كان يغلق باب منزله، يولي الأدبار ويختفي من مجال نظرنا. في أغلب الأحوال، كما أظن، حينما كانت تأتيه أخبار بأن أحد أصدقائه القدامى، أحد رواد ماضيه المجيد، قد وصل إلى نيروبي. كان يرحل لأسبوع أو أسبوعين، حتى ننسى وجوده تقريبًا، وكان دائمًا ما يعود مريضًا ومرهقًا بشكل مفزع، حتى أنه لا يستطيع أن يجر قدميه أو يغلق بابه. ثم كان ينعزل ليومين. أعتقد أنه في هذه المناسبات كان يساوره الخوف مني؛ لأنه كان يظن أنني لن أوافق مطلقًا على مغامراته، وأنني الآن سأستغل ضعفه لأنتصر عليه. كان كنودسن العجوز، على الرغم من أنه كان يغني لعروس البحار، التي تحب الأمواج، يشعر بعدم الثقة بالمرأة، وكان يراها عدوًا للرجل، بشكل غريزي، ومبدئي، إنها هناك لتوقف متعته.

في يوم وفاته كان غائبًا كعادته لأسبوعين، ولم يدرك أحد في المزرعة عودته. ولكن لا بد أنه نفسه كان قد قصد هذه المرة أن يكون هناك استثناء من

القاعدة التي رسمها لنفسه؛ لأنه كان يسير في الطريق من منزله إلى منزلي، عبر ممر يخترق المزروعات، حينما سقط أرضًا ومات. وجدناه أنا وكامانتي راقدًا على الممر، حيث خرجنا في وقت متأخر من بعد الظهيرة لنبحث عن عش الغراب فوق السهول، بين طيات العشب القصير الجديد، كنا في بداية أبريل، في بداية موسم الأمطار الطويلة. يبدو من المناسب القول بأن كامانتي هو من وجده أولاً، حيث إنه بخلاف سائر السكان المحليين، كان يظهر تعاطفًا إزاء كنودسن العجوز. الأكثر من ذلك أنه قد أظهر اهتمامًا به، بشكل يحيد عن اهتمامه الطبيعي بشخص آخر، وكان من وقت لآخر يحضر له البيض طواعية، ويضع عينه على التوتو خاصته، الذين منعهم من الهروب معًا.

رقد الرجل العجوز على ظهره، وقد انبعجت قبعته قليلاً حينما سقط، لم تكن عيناه مغلقتين تمامًا. في لحظة الموت، بدا رزينًا بشكل جوهري. ها أنت أخيرًا، كنودسن العجوز- هكذا فكرت.

أردت أن أحمله إلى منزله، ولكنني كنت أعرف أنه لا فائدة ترجى إن ناديت أيًا من أبناء الكيكويو الذين قد يكونون على مقربة أو يعملون في مزارع الفاكهة المجاورة، لكي يساعدوني؛ قد يهربون في الحال حينما يرون السبب الذي ناديتهم من أجله. أمرت كامانتي أن يعود للمنزل ويأتي بفرح لكي يساعدني. ولكن كامانتي لم يتحرك.

"لم تريديني أن أركض؟"

"حسنًا، أنت ترى بنفسك" قلت، "إنني لا أستطيع أن أحمل بوانا العجوز وحدي، وأنتم أيها الكيكويون أغبياء، تخافون من أن تحملوا رجلاً ميتًا".

دفع كامانتي بضحكة ساخرة هادئة على وجهه. ثم قال، "ماسابو، لقد نسيتِ ثانية أنني مسيحي".

حمل قدمي الرجل العجوز بينما رفعت أنا رأسه، وحملناه بيننا إلى بيته الريفي. وبين الحين والحين كنا نقف لنضعه أرضًا، ونستريح؛ ثم وقف كامانتي منتصبًا ونظر مباشرة إلى قدمي كنودسن العجوز، بما أعتقد أنه سلوك تتبعه الإرسالية الأسكتلندية في حضور الموت.

بعد أن أرقدناه على سريره، تجول كامانتي في الغرفة، وذهب إلى المطبخ، بحثًا عن منشفة ليغطي بها وجهه- وجد فقط جريدة قديمة. "لقد فعل المسيحيون ذلك في المستشفى،" أوضح لي.

بعد ذلك بوقت طويل كان كامانتي يشعر برضاء كامل حينما كان يتذكر تلك الواقعة التي أظهرت جهلي. كان يعمل معي في المطبخ، وقد امتلأ ببهجة سرية، ثم ينفجر فجأة ضاحكًا. "هل تتذكرين، ماسابو، حينما نسيت أنني مسيحي، وظننت أنني ينبغي أن أكون خائفًا ولا أستطيع أن أحمل الموسنجو ماسي؟"- الرجل الأبيض العجوز.

كمسيحي، لم يعد كامانتي خائفًا أيضًا من الثعابين. لقد سمعته يحكي للصبية الآخرين أن المسيحي يمكنه في أي لحظة أن يضع كعبه على رأس أكبر حية ويسحقها. لم أره يحاول أن يفعل ذلك، ولكنني رأيته يقف بلا حراك، بوجه ثابت ويداه وراء ظهره، على مسافة قريبة من كوخ الطباخ حينما ظهرت أفعى أفريقية من السقف. انتشر كل الأطفال في منزلي في دوائر كبيرة حوله، مثل الهشيم قبل الرياح، مطلقين عويلاً وحشيًا، بينما دخل فرح إلى المنزل لكي يحضر مسدسي، ليطلق النار على الأفعى.

حينما انتهى الأمر تمامًا، وهدأ الحال مرة أخرى، قال نيور، ابن رجل الإسطبل، لكامانتي، "يا كامنتي، لماذا لم تضع كعبك على رأس الأفعى الكبيرة الشريرة، وتسحقها؟".

قال كامانتي: "لأنها كانت هناك فوق السطح".

في إحدى المرات، حاولت أن أصطاد برمح وقوس. كنت قوية، ولكن كان من الصعب على أن أثني قوس الواندروبو(١١) الذي أتى لي به فرح؛ في النهاية وبعد مران طويل، أصبحت ماهرة مثل رامي سهام محترف.

كان كامانتي صغيرًا جدًا في ذلك الوقت: اعتاد أن يراقبني حينما كنت أصطاد في المرج الأخضر، وكان يبدو متشككًا في قدرتي على الصيد، وفي أحد الأيام قال لي: "أتظلين مسيحية حينما تصطادين بالقوس؟ كنت أعتقد أن الطريقة المسيحية هي الصيد بالبندقية".

أشرت له في الكتاب المقدس المصور خاصتي إلى رسم لحكاية ابن هاجر: "وكان الرب مع الولد؛ وكبر، ونما في العراء، وأصبح رامي سهام".

"حسنًا،" قال كامانتي، "لقد كان مثلك".

كان كامانتي ماهرًا مع الحيوانات المريضة، بمثل مهارته مع المرضى من السكان المحليين. كان يستخرج شظايا الزجاج من أقدام الكلاب، وذات مرة عالج أحد الكلاب حينما لدغته حية.

لوقت ما، كان لديّ طائر من طيور اللقلق في منزلي وكان جناحه مكسورًا. كان له شخصية حازمة: كان يسير عبر الغرف وحينما جاء إلى غرفتي خاض معركة هائلة، مثل معركة مع سيف طويل مدبب الطرف، بجناحين متبخترين مرفرفين، وكانت صورته في عدسة نظارتي. كان يتبع كامانتي في سيره بين

المنازل، وكان من المستحيل ألا تصدق أنه يتعمد محاكاة مشية كامانتي المحسوبة والصارمة. كانت لأقدامهما الغلظة ذاتها. كان للصبية المحليين روح ساخرة، وصاحوا بمرح حينما رأوا الاثنين وهما يمران. فهم كامانتي المزحة، ولكنه لم يهتم أبدًا بما كان يظن به الآخرون. أرسل كامانتي الصبية الصغار لجمع الضفادع من أجل اللقلق في المستنقع.

لقد كان كامانتي هو من تولى أيضًا مسئولية لولو.

غزالة

إلى منزلي جاءت لولو من الغابات كما جاء إليه كامانتي من السهول.

تقع محمية غابة نجونج إلى منزلي في جهة الشرق من مزرعتي، كانت تلك المحمية وقتها بمثابة غابة عذراء تقريبًا. كان أمرًا محزنًا لم يستوعبه ذهني، حينما قطعوا الأشجار في الغابة القديمة، وزرعت أشجار اليوكالبتوس المعطرة والجريفيليا مكانها؛ لا بد أنها قد صنعت مكانًا يبعث على السعادة ومتنزهًا لنيروبي.

الغابة الأفريقية المحلية إقليم غامض. تمتطي جوادك في أعماق لوحة كبيرة ذات رسوم تطريزية، في أماكن قد خفت بريقها، وأخرى باتت داكنة بفعل الزمن، ولكنها ثرية بشكل بارع في ظلالها الخضراء. لا يمكنك أن ترى السماء هناك على الإطلاق، ولكن ضوء الشمس يتلاعب بطرق عديدة غريبة، ساقطًا خلال أوراق الشجر الخضراء. تبدو الفطريات، مثل ذقون طويلة مدلاة على الأشجار، والنباتات المتسللة معلقة في كل مكان، بشكل يمنح الغابة المحلية روحًا سرية مفعمة بإشارات مستغلقـــة. اعتــدت أن أمتطي صهوة جوادي هنا مع فرح في أيام الآحاد، حينما لا يكون هناك شيء أفعله في المزرعة، صاعدة وهابطة على المنحدرات، وعبر مجاري الغابة الصغيرة الهادرة. كان الهواء هناك باردًا مثل المياه، ومفعمًا برائحة النباتات، وفي بداية الأمطار الكثيفة حينما تزهر النباتات المتسللة، فإنك تتجول ما بين مدار عطري تلو آخر. أحد أشكال النباتات الأفريقية العطرية في الغابات، والتي تزهر نوعًا من البراعم ذات اللون الكريمي اللزج، كان لها عطر غامر، مثل زهرة الليلك، وزهور الزنبق البري المنتشرة في الوادي. بينما تنتشر هنا، وهناك سيقان الأشجار المجوفة معلقة في أردية على الأغصان؛ علقها الكيكويون هناك

لكي يجعلوا النحل يبني بيوته بداخلها، ولكي يحصلوا على العسل. في إحدى المرات، حينما انعطفنا في زاوية من الغابة، رأينا فهدًا يجلس على الطريق، يا له من حيوان مزخرف.

هنا، وفي منطقة أعلى من الأرض يعيش شعب ثرثار لا يهدأ، إنها القردة الرمادية الصغيرة. حيثما ترتحل مجموعة من القردة عبر الطريق، تبقى رائحتها تتأرجح في الجو لمدة طويلة، رائحة جافة معطنة لا لون لها. وأنت تتابع السير قد تسمع بشكل مفاجئ صوت اندفاع أو أزيز فوق رأسك، والمستعمرة تعبر في طرقها الخاصة. إذا بقيت ثابتًا في المكان ذاته لبعض الوقت فقد تحظى بمشاهدة قرد يجلس بلا حراك على شجرة، ثم تكتشف بعد وقت قصير أن الغابة كلها من حولك كانت مملوءة حياة بعائلته، حيث اتخذوا أماكنهم مثل الفاكهة على الأغصان، في أشكال رمادية أو داكنة وفقًا للكيفية التي يسقط بها ضوء الشمس عليهم، وأذيالها الطويلة مدلاة إلى الأسفل من خلفها. كانوا يصدرون أصواتًا غريبة، مثل قبلة صافعة، تتبعها كحة صغيرة؛ لو حاولت أن تقلدها وأنت واقف على الأرض، فإنك ترى القرود وهي تدير رؤوسها من ناحية لأخرى بطريقة مؤثرة، ولكنك إذا قمت بحركة مفاجئة فإنها تغادر جميعًا في لحظة واحدة، ويمكنك إذن أن تتبع صوت تراطمها المتخافت وهي تتشبث بأعالي الأشجار، وتختفي في الغابة مثلما يختفي سرب من الأسماك في أمواج البحر.

في غابة نجونج رأيت أيضًا في ممر ضيق في منتصف يوم حار خنزيرًا ضخمًا، شكلاً من النادر أن تصادفه. جاء بشكل مفاجئ ناحيتي، مع زوجته وخنازيره الثلاثة الصغار، بسرعة كبيرة، تبدو الأسرة كلها وكأنها ترتدي زيًا واحدًا، أشكالاً أكبر وأصغر قطعت من ورقة داكنة، في مقابل الخضرة التي

تضيئها أشعة الشمس من خلفها. كان منظرًا بديعًا، مثل انعكاس في بركة في الغابة، مثل شيء حدث قبل ألف عام.

كانت لولو ظبية من فصيلة الظبيان المرقطة، ربما من أجمل فصائل الظبيان الأفريقية. هي أكبر قليلا من الغزال المرقط؛ وتعيش في الغابات، أو بين الشجيرات، وتمتاز بخجلها وسرعتها في الاختفاء، وهكذا فلا يمكن رؤيتها غالبًا مثلما يمكنك رؤية غزلان السهول. ولكن مرتفعات نجونج، والريف المحيط بها كانت أماكن جيدة لصيد الظبيان الأفريقية المرقطة، ولو أقمت معسكرًا في المرتفعات، وخرجت للصيد في الصباح الباكر، أو في وقت الغروب، سوف تراها خارجة من الأحراش إلى الممرات التي تخترق الغابة، وبينما تسقط أشعة الشمس فوقها، يسطع لون فرائها بلون أحمر مثل النحاس. للذكر زوج من القرون المعقوفة برقة.

أصبحت لولو فردًا من أفراد منزلي على النحو التالي:

كنت أقود سيارتي ذات يوم من المزرعة إلى نيروبي. كانت الطاحونة في المزرعة قد احترقت قبل وقت قليل، وكان عليَّ أن أقود السيارة إلى المدينة لمرات عديدة لكي أحصل على التأمين وأتمكن من صرفه؛ في ذلك الصباح المبكر كان رأسي مزدحمًا بأرقام وتقديرات. وأنا أقود السيارة عبر طريق نجونج صاحت في وجهي مجموعة من أطفال كيكويو من جانب الطريق، ورأيتهم يحملون ظبيًا أفريقيا صغيرًا جدًا لأعلى حتى أراه. كنت أعرف أنهم قد وجدوا الظبي بين الشجيرات، وأنهم يريدون أن يبيعوه لي الآن، ولكنني كنت قد تأخرت على موعد لي في نيروبي، ولم أكن أفكر في تلك الأشياء، وأنا أقود سيارتي على الطريق.

في طريق عودتي ليلاً وكنت أعبر المكان ذاته، كان هناك مرة أخرى صياح عال من الجانب الآخر من الطريق، وكانت المجموعة الصغيرة لا تزال

هناك، متعبة قليلاً ومحبطة، يبدو أنهم قد حاولوا أن يبيعوا الظبي لأناس آخرين كانوا يمرون خلال اليوم، ولكنهم كانوا حريصين الآن أن ينجزوا الصفقة قبل غروب الشمس، وقد رفعوا الظبي عاليًا لإغرائي بشرائه. ولكنني كنت قد قضيت يومًا طويلاً في المدينة، وواجهت بعض الصعاب من أجل الحصول على التأمين، ولهذا فلم أهتم بالوقوف أو التحدث، وهكذا فقد مررت أمامهم وانتهى الأمر. لم أفكر في الأمر حتى حينما عدت إلى منزلي، وتناولت الغداء وذهبت للفراش.

في اللحظة التي خلدت فيها للنوم استيقظت مرة أخرى وقد انتابني شعور قاتل بالرعب. صورة الصبية والظبي الصغير، قد تجمعت الآن واتخذت شكلاً، برزت في مخيلتي، بوضوح، وكأنها مرسومة، وجلست في الفراش، مفزعة، وكأن هناك من يريد أن يخنقني. كنت أفكر، ترى ماذا سيكون حال الظبي وهو بين هؤلاء الصبية الذين أسروه ووقفوا به طيلة هذا اليوم الحار، ورفعوه عاليًا من ساقيه المقيدتين؟ من المؤكد أنه صغير للغاية بحيث لا يمكنه أن يأكل بنفسه. لقد مررت به بنفسي مرتين في اليوم ذاته، مثل القسيس والتوراتي وهما يسيران معًا(١٢)، ولم أفكر فيه مطلقًا، والآن، في هذه اللحظة، أين تراه يكون؟ نهضت وقد أصابني رعب حقيقي، وأيقظت كل صبية المنزل. أخبرتهم بأن عليهم أن يعثروا على الظبي، وأن يجلبوه لي في الصباح، وإلا سيفقدوا كلهم عملهم لديّ. استعدوا جميعًا للفكرة في الحال. صعد صبيان معي في السيارة في اليوم ذاته، ولم يبد عليهما أي اهتمام بالصبية أو بالظبي؛ الآن ذهبا لمسافة أبعد وأعطيا وصفًا مفصلاً عن المكان والساعة وأسرة الصبية. كانت ليلة قمرية؛ انتشر أفراد منزلي والعاملون معي في المكان وتنامى بينهم حوار حيوي عن الموقف؛ سمعتهم مسترسلين في الحديث في شأن الاستغناء عنهم في حال عدم تمكنهم من العثور على الظبي.

في وقتٍ مبكر من صباح اليوم التالي حينما أحضر لي فرح الشاي، دخل جوما معه وهو يحمل الظبي بين ذراعيه. كانت أنثى، وأسميناها لولو، حيث أخبروني أنه الاسم السواحيلي للؤلؤ.

في ذلك الوقت لم يكن حجم لولو يتجاوز حجم قطة كبيرة، بعينين كبيرتين بنفسجيتين هادئتين. كان لها ساقان رقيقتان للغاية لدرجة أنك تخشى أنها لن تحتمل أن تثني ساقيها وتفردهما مرة أخرى، وهي ترقد أرضًا ثم تقوم مرة أخرى. كانت أذناها ناعمتين كالحرير، ومعبرتين بشكل كبير. كان أنفها أسود مثل الكمء. وقد منحتها حوافرها الدقيقة إحساس فتاة صينية صغيرة في المدرسة القديمة، بقدمين ناعمتين. من النادر أن تمسك بشيء مثالي هكذا بين يديك.

كيفت لولو نفسها بعد ذلك على المنزل وسكانه، وكانت تتصرف وكأنها تعيش في منزلها. خلال الأسابيع الأولى كانت الأرضية المصقولة للمنزل بمثابة مشكلة في حياتها، وحينما كانت تسير خارج السجاجيد كانت سيقانها تتجه في كل الاتجاهات الأربعة؛ بدا الأمر كارثيًا، ولكنها لم تدع الأمر يقلقها كثيرًا، وفي النهاية تعلمت كيف تسير على الأرض الملساء صانعة صوتًا مثل تتابع نقرات أصابع صغيرة غاضبة. كانت منظمة بشكل لافت للنظر في كل تصرفاتها. كانت عنيدة بالفعل مثل طفل، ولكنني حينما أمنعها من فعل الأشياء التي تريد، تتصرف وكأنها تقول: سأرضخ لأي شيء بدلاً من أن أتورط في مشهد فضائحي.

جلب كامانتي لها زجاجة رضاعة، وكان ذلك كفيلاً بإسكاتها ليلاً؛ لأننا كان ينبغي أن نكون على حذر منها لأن الظبيان كانوا يحومون حول المنزل بعد حلول المساء. ولهذا كان يلازمها ويتبعها حيثما ذهبت. من وقت لآخر، حينما كان لا يفعل ما تريده، كانت تنطح ساقيه برأسها بقوة، وكانت جميلة لدرجة أنك لا تستطيع أن تفعل حيالها شيئًا، حينما تنظر للاثنين معًا، فإنك تراهما كرسمة

جديدة متناقضة لحكاية الجميلة والوحش. بقوة هذا الجمال والرشاقة الكبيرين، أحرزت لولو لنفسها مكانتها المهيبة في المنزل، وكانت تعامل باحترام من قبل الجميع.

في أفريقيا، لم يكن لديّ أبدا أي كلاب من أية فصيلة سوى كلاب الصيد الإسكتلندية. ليس هناك كلاب أنبل ولا حلوة المعشر مثلها. لا بد أنها عاشت لقرون عديدة مع الناس لكي تتفهم طبيعة الحياة وشروطها. ستجدها أيضًا في اللوحات والرسوم التطريزية القديمة، ولديها ميل لتغيير، بأشكالها وتصرفاتها، الأشياء المحيطة بها في اللوحة المطرزة؛ إن منظرها يوحي لك بمناخ إقطاعي.

منحت اسم داسك لأول أعضاء قبيلة كلاب الصيد الإسكتلندية خاصتي، وكنت قد تلقيته كهدية زواج، وجاء معي حينما أتيت إلى أفريقيا، على متن مايفلاور. كان له شخصية شجاعة وكريمة. لقد رافقني في شهور الحرب الأولى، حينما كنت أعمل بالنقل لحساب الحكومة بعربة تجرها الثيران في محمية الماساي. ولكن بعد عامين قتله حمار وحشي. وفي الوقت الذي جاءت فيه لولو لتقيم في منزلي كان لديّ اثنان من أبنائه هناك.

استطاع الكلب الإسكتلندي أن يتكيف مع المشهد الأفريقي والسكان الأفارقة. ربما يرجع ذلك إلى الارتفاع عن مستوى البحر- لحن المناطق المرتفعة- لأنه لم يبد منسجمًا مع مستوى البحر في مومباسا. بدا الأمر وكأن الطبيعة العظيمة بسهولها وتلالها وأنهارها، لم تكن مكتملة حتى انضمت كلاب الصيد الإسكتلندية إليها أيضًا. كل هذه الفصيلة من الكلاب كانت تصطاد بمهارة وحاسة الشم لديها أقوى كثيرًا من الكلاب الطويلة المسماة بالجرايهوند، ولكنها كانت تصطاد بالرؤية، وكان أمرًا رائعًا أن ترى كلبين يعملان معًا. كنت أصطحبها معي وأنا أمتطي جوادي في أراضي المحمية الطبيعية، وهو أمر لم يكن مسموحًا لي به، وهناك

كانت تتسبب في تفرقة قطعان الحمير الوحشية والحيوانات الوحشية الأفريقية الأخرى على السهل، وكأن كل نجوم الجنة تركض بسرعة وحشية إلى السماء. ولكنني حينما كنت أخرج للصيد في محمية الماساي، لم أكن لأفقد أبدًا أي حيوان أطلقت النار عليه لو كانت كلاب الصيد الإسكتلندية برفقتي.

كانت تبدو بشكل جيد في الغابات المحلية أيضًا، بلونها الرمادي الداكن في الظلال المعتمة. أحدهم، هنا، قتل بنفسه ذكر قردوح ببوان ضخم الحجم، وفي معركته معه عض أنفه في الحال، مما أفسد صورته النبيلة، ولكن كل من في المزرعة اعتبر ذلك مدعاة للفخر؛ لأن الببوان بالنسبة للسكان المحليين حيوانات متوحشة مدمرة ومكروهة.

كانت كلاب الصيد الهولندية حكيمة جدًا، وكانت تعرف من بين صبية المنزل من يتبع محمدًا؛ لأنه لم يكن مسموحًا له لمس الكلاب.

خلال سنواتي الأولى في أفريقيا، كان لي حامل بندقية صومالي يدعى إسماعيل، وقد توفي بينما كنت ما أزال هناك. كان واحدًا من حملة السلاح القدامى، وليس هناك الآن مثل هذا النمط من الناس. كان أحد صيادي البراري العظام قد جاء به في بداية القرن، حينما كانت أفريقيا متنزهًا حقيقيًا للغزلان. كان تعرفه على الحضارة بشكل كامل هو كل ما يعرفه عن حقول الصيد، وكان يتحدث إنجليزية عالم الصيد، حتى أنه كان يتحدث عن بندقيتي الكبيرة والصغيرة. بعدما عاد إسماعيل لأرض الصومال، وصلني خطاب منه موجهًا إلى اللبوة بليكسن، وفتحته: كان موجهًا إلى اللبوة الشريفة كان إسماعيل محمديًا ملتزمًا، تعهد ألا يلمس طيلة عمره كلبًا، الأمر الذي سبب له قلقًا كبيرًا في مهنته. ولكنه منح داسك استثناءً كبيرًا، لم يكن يعترض إن اصطحبته معنا لصنع فخ للبغال، والأكثر من ذلك أنه كان يدع داسك ينام في خيمته. لأن داسك، كما يقول، كان يعرف تابع محمد حين

يراه، ولا يلمسه أبدًا. بالفعل، أكد إسماعيل ذات مرة قوله لي، أن داسك يستطيع أن يعرف في الحال من هو محمدي مخلص حقيقي. في إحدى المرات قال لي: "أعرف الآن أن داسك من القبيلة ذاتها التي أتيت منها أنت. إنه يسخر من الناس".

أدرك الآن كلابي سلطة لولو ومكانتها في المنزل. لم تكن غطرسة الصيادين العظام شيئًا بالنسبة لكبريائها. كانت تدفعهم بعيدًا عن إناء اللبن وعن أماكنهم المفضلة أمام المدفأة. كنت قد ربطت جرسًا صغيرًا حول سير اللجام على رقبة لولو، وقد جاء الوقت حينما كانت الكلاب تسمع صوت صليله يقترب عبر الغرفات، وكانت تنهض مذعنة من مضاجعها الدافئة من جانب المدفأة وتذهب لتنام في جانب آخر من الغرفة. برغم ذلك، ليس هناك أرق من لولو سلوكًا حينما كانت تأتي وترقد، بسلوك السيدة الرائعة التي تلملم أطراف تنورتها بوداعة ولا تعترض طريق أحد. كانت تشرب اللبن ويبدو على سحنتها أنها تتناوله بدقة مبالغ فيها، وكأن مضيفتها شديدة الطيبة قد ألحت عليها لتتناوله. كانت تصر على أن يداعبها أحد خلف أذنيها، بطريقة لطيفة رؤوفة، مثل زوجة صغيرة تسمح لزوجها بجرأة أن يداعبها.

حينما كبرت لولو، وأصبحت في قمة جمالها وزهوها، أصبحت أنثى غزال نحيفة ورقيقة، من أنفها حتى أصابع أقدامها، كانت جميلة بشكل مدهش. كانت تبدو مثل رسم توضيحي منمق لأغنية هاين عن الغزلان الحكيمة والرقيقة بجوار مجرى نهر جانجس.

ولكن لولو لم تكن رقيقة في الحقيقة، كان لديها ما يسمى بالشيطان بداخلها. كان لديها، لدرجة فائقة، السمة الأنثوية للظهور بشكل كامل في موقف الدفاع عن النفس، مركزة على حماية حياتها، حينما كانت، بكل قوة لديها تخضع المهاجم لرغبتها. ولكن ضد من يحدث ذلك؟ ضد العالم كله. كان مزاجها يبدو خارج

السيطرة أو التوقع، ويمكنها أن تهاجم حصاني، إن فعل ما يثير حفيظتها. أتذكر رجلاً عجوزًا كان يعمل في سيرك هاجنبيك في هامبورج، قال لي ذات مرة إنه من بين سباقات الحيوانات، بما في ذلك الحيوانات الضارية، الغزلان هي أقل الحيوانات التي يمكن الاعتماد عليها، وإنه بإمكانك أن تثق في النمر، ولكنك إن وثقت في ظبي صغير، فإنه عاجلاً أو آجلاً سيسقط في المؤخرة.

كانت لولو عروس المنزل حتى وإن تصرفت مثل مغناجة شابة جريئة؛ ولكننا لم نكن مصدرًا لسعادتها. كانت في بعض الأحيان، تغيب عن المنزل لساعات، أو لفترة ما بعد الظهيرة كلها. في بعض الأحيان حينما يعتل مزاجها وتبلغ حالة عدم الرضا من المكان حولها ذروتها، فإنها ستؤدي، من أجل إرضاء قلبها، رقصة حرب في المرج الأخضر أمام المنزل، كانت تبدو مثل صلاة متعرجة موجزة للشيطان.

"أوه يا لولو"، فكرت، "أعرف أنك قوية بشكل فاتن، وأن بإمكانك أن تقفزي أعلى من قامتك، إنك غاضبة منا الآن، تتمنين لو نموت جميعًا، وبالفعل سنكون ذلك إن راق لك أن تقتلينا. ولكن المشكلة ليست كما تظنينها الآن، إننا وضعنا عوائق عالية حتى لا يمكنك أن تقفزي، وكيف يتسنى لنا أن نفعل ذلك بك أيتها الوثابة العظيمة؟ الأمر هو أننا لم نضع أية عوائق على الإطلاق. القوة العظيمة، بداخلك أنت يا لولو، والعوائق بداخلك أيضًا، والأمر هو، أنه لم يأت الأوان بعد".

في إحدى الليالي لم تعد لولو للبيت، وبحثنا عنها لأسبوع كامل بلا طائل. كانت تلك صفعة قاسية لنا جميعًا. أعلنت بشكل واضح عن خروجها من منزلي، وربما من المنازل الأخرى. كنت أفكر في النمور الموجودة بجانب النهر، وفي ليلة ما تحدثت عنها مع كامانتي.

كعادته انتظر لبعض الوقت قبل أن يجيب، لكي يستوعب ما كان يبدو عليَّ من نقص في البصيرة. استغرق الأمر أيامًا قليلة قبل أن يحادثني في هذا الشأن. قال كامانتي: "أتعتقدين أن لولو قد ماتت، ماسابو".

لم أكن أريد أن أتحدث بشكل مباشر، ولكنني أخبرته أنني في حيرة لعدم عودتها.

قال كامانتي: "لولو، لم تمت، لقد تزوجت".

كانت تلك أخبار سعيدة ومدهشة، وسألته كيف علم بهذا الأمر.

"أوه، أجل"، قال كامانتي. "لقد تزوجت، إنها تعيش في الغابة مع البوانا خاصتها" زوجها، أو سيدها. "ولكنها لم تنس الناس؛ فإنها تعود في معظم الأيام صباحًا إلى المنزل. إنني أضع لها الذرة المسحوقة خلف المطبخ، ثم قبل أن تسطع الشمس، تسير حول المكان آتية من الغابات وتأكلها. يأتي زوجها معها، ولكنه يخاف الناس؛ لأنه لم يعتد عليهم أبدًا. يقف تحت الشجرة البيضاء الكبيرة من الناحية الأخرى من المرج. ولكنه لا يجرؤ على الاقتراب من المنزل".

قلت لكامانتي أن يأتي ليناديني حينما يرى لولو في المرة القادمة.

كان صباحًا لطيفًا، وقد انسحبت آخر النجوم بينما كنا ننتظر، كانت السماء صافية وساكنة، ولكن العالم الذي كنا نسير فيه كان كئيبًا وساكنًا تمامًا. كان العشب مبللاً؛ وهناك تحت الأشجار حيث الأرض منزلقة تلمع بالندى الذي اتخذ لونًا فضيًا خافتًا. كان هواء الصباح باردًا، كان به ذلك الوخز الذي يعني في الدول الشمالية أن هطول الثلوج ليس أمرًا بعيدًا. على الرغم من أنك تتعرض غالبًا لهذه التجربة- كما أعتقد- لا زال من المستحيل أن تصدق، في هذه البرودة والظل، أن حرارة الشمس ووهج السماء، في الساعات القليلة المقبلة، سيكون من الصعب احتماله.

يسكن الضباب الرمادي فوق التلال، يتخذ أشكاله منها على نحو غريب؛ قد يكون الجو قارص البرودة بالنسبة للجاموس لو كان هناك الآن، يرعى عند التلال وكأنه يرتع في سحابة.

بدت القبة السماوية الضخمة من فوق رؤوسنا معبأة بصفاء غريب مثل كأس مملوءة خمرًا. وببطء، وبينما تميل الأرض باتجاه الشمس، تتحول المنحدرات العشبية أسفل الجبل إلى لون ذهبي رقيق، وتنخفض غابات الماساي لأسفل. والآن، عند قمم الأشجار العالية في الغابة، على جانبنا من النهر، تتخذ لونًا أحمر كالنحاس. كانت تلك ساعة طيران حمام الغابة الكبير ذي اللون البنفسجي الذي يحط على الأغصان لينام بجوار أشجار الكستناء الأفريقية في غابتي. كان هنا فقط لموسم قصير في العام. جاءت الطيور مسرعة في السماء بشكل مدهش، مثل هجوم سلاح الفرسان. لهذا السبب، فإن صيد الحمام في الصباح في المزرعة كان أمرًا محببًا مع أصدقائي في نيروبي؛ أن تكون في الخارج بجوار المنزل في الوقت المحدد، فقط عند شروق الشمس. لقد اعتاد أصدقائي أن يأتوا في وقت مبكر جدًا لدرجة أنهم كانوا يحومون حول طريقي ومصابيح سياراتهم لا زالت مضاءة.

عند الوقوف بهذا الشكل في الظل الرائق، والنظر لأعلى باتجاه المرتفعات الذهبية والسماء الصافية، ستشعر بأنك في الحقيقة تسير عبر قاع البر، والمياه تجري بجانبك، بينما تحدق لأعلى باتجاه سطح المحيط.

بدأ عصفور يزقزق، ثم سمعت، في مكان بعيد قليلاً في الغابة، صليل جرس. نعم، كان أمرًا ممتعًا، لقد عادت لولو لتحوم حول أماكنها القديمة! اقتربت أكثر، يمكنني أن أتبع حركاتها من خلال إيقاعها؛ كانت تسير، ثم تتوقف، ثم تواصل سيرها مرة أخرى. قادها ناحيتنا أحد منعطفات أكواخ الصبية. وفجأة أصبح شيئًا غير عادي ومثيرًا للبهجة أن ترى غزالاً على بعد قليل جدًا من

المنزل. وقفت الآن بلا حراك، يبدو أنها كانت مستعدة لرؤية كامانتي، وليس لرؤيتي. ولكنها لم تول الأدبار، نظرت إلى بدون خوف ودون أن تتذكر أيًا من مناوشاتنا في الماضي، أو نكرانها للجميل بهروبها هكذا بدون إنذار.

تبدو لولو القادمة الآن من الغابات كائنًا مستقلاً متفوقًا، لقد حدث لها ثمة تغير جوهري، لقد كانت تستحوذ على زمام الأمور. لو تصادف لي أن تعرفت على أميرة صغيرة في المنفى، بينما لا تزال تطالب بحقها المزعوم في العرش، ثم قابلتها ثانية في حالتها الملكية الكاملة بعدما حصلت على حقوقها، فإن لقاءنا سيكون له الطابع ذاته.

لم تظهر لولو أي قسوة أكثر من تلك التي أظهرها الملك لويس فيليب حينما أعلن أن ملك فرنسا لا يتذكر استياء دوق أورليانز. لقد أصبحت الآن لولو كاملة. ذهبت عنها تلك الروح العدوانية؛ لأنه لم يعد هناك من ينبغي أن تواجهه، وليس ثمة داع. كانت تقف بهدوء واثقة من حقوقها الإلهية. لقد تذكرتني بما يكفي لكي تشعر أنها لا يمكن أن تخاف مني أبدًا. حدقت في وجهي لدقيقة؛ عيناها البنفسجيتان الداكنتان كانتا بلا تعبير تمامًا ولم تطرفا، وتذكرت أن عيون الآلهة أو الآلهات لا تطرف أبدًا، وشعرت أنني أقف وجهًا لوجه في مقابل هيرا[١٣] ذات عينين يشبهان عينا الثور. نقرت بخفة ورقة عشب وهي تمر أمامي، وثبت وثبة جميلة صغيرة، وسارت حتى خلفية المطبخ، حيث نثر كامانتي لها الذرة الصفراء على الأرض.

لمس كامانتي ذراعي بإصبع واحد ثم أشار به تجاه الغابات. وأنا أتتبع الاتجاه، رأيت، تحت شجرة الكستناء الأفريقية، ظبيًا أفريقيًا، كان يبدو مثل خيال ضئيل ذي لون أسمر مائل للصفرة، له قرنان جميلان، يقف عند أطراف الغابة. كان الظبي ثابتًا لا يتحرك مثل جذع شجرة، نظر إليه كامانتي لبعض الوقت ثم ضحك.

"انظـــري هنـــا الآن" قـــال كامانتي، "أوضحت لولو لزوجها أنه ليس هناك ما يخيف عند البيوت، ولكنه لا يزال لا يجرؤ أبدًا على الاقتراب. كل صباح يعتقد أنه سيأتي اليوم لمسافة أقرب، ولكنه، حينما يرى البيت والناس، يقف بلا حراك وكأنه يحمل حجرًا ثقيلاً في أحشائه -هذا أمر شائع في العالـــم المحلـــي، وغالبًا ما يعيق مسار العمل في المزرعة- ثم بعد ذلك يقف بجوار الشجرة".

لفترة طويلة تالية كانت لولو تجيء إلى البيت في الصباح المبكر. كان صوت جرسها الواضح يعلن أن الشمس تسطع فوق التلال؛ اعتدت أن أنام في السرير، وأنتظر سماع هذا الصوت. كانت في بعض الأحيان تبقى بعيدًا لأسبوع أو أسبوعين، وكنا نفتقدها ونبدأ نتحدث عمن يذهبون للصيد عند التلال. ولكن مرة أخرى يعلن صبية المنزل: "لقد جاءت لولو" وكأنها ابنة صاحبة المنزل المتزوجة وقد جاءت في زيارة. مرات قليلة أخرى كنت أرى أيضًا خيال الظبي الأفريقي بين الأشجار، ولكن كامانتي كان محقًا، فلم يستجمع قط شجاعته للاقتراب من المنزل.

في أحد الأيام، وأنا عائدة من نيروبي، كان كامانتي يترقب مجيئي خارج باب المطبخ، وتقدم للأمام، وهو فرح للغاية، لكي يخبرني أن لولو قد جاءت إلى المزرعة في اليوم ذاته برفقة-رضيعها- توتو. بعد ذلك بأيام، كان لي شخصيًا شرف لقائها بين أكواخ الصبية، وهي متيقظة نوعًا ما، ولا تسمح لأحد أن يلمسها، وهناك ظبي صغير يسير عند كعبيها، يسير بحركات متوازنة وبرقة، مثل لولو ذاتها حينما عرفناها لأول مرة. حدث ذلك بعد هطول المطر الكثيف فقط، وخلال شهور الصيف هذه، كنا نجد لولو بالقرب من البيوت في فترة ما بعد الظهيرة، وحينما ينبلج الصباح أيضًا. قد تصادفها أيضًا حول المكان في منتصف الظهيرة، باقية في ظل البيوت.

لم يكن ظبي لولو الصغير يخاف الكلاب، وكان يدعها تشم جسده كله، ولكنه لم يستطع الاعتياد على السكان المحليين أو عليّ، وإذا ما حاولنا الإمساك به ذات مرة، فإن الأم والطفل يبتعدان.

لم تجئ لولو ذاتها أبدًا، بعد غيابها الطويل عن البيت، بالقرب من أي منا لدرجة أن نستطيع لمسها. ولكنها كانت ودودة بطريقة أخرى؛ لقد فهمت أننا نريد أن ننظر إلى ظبيها الصغير، فسمحت لنا أن نمنحها مكعب سكر لتلتقطه من يد ممدودة لها. سارت إلى باب غرفة الطعام، وحدقت بإمعان في نور الغرف الخافت، ولكنها لم تعبر العتبة مرة أخرى أبدًا. كانت قد فقدت جرسها في ذلك الوقت، وكانت تأتي وتذهب في صمت.

اقترح صبية المنزل أنني ينبغي أن أسمح لهم بالإمساك بظبي لولو الصغير، وأن نبقيه لدينا، كما أبقينا لولو من قبل. ولكنني اعتقدت أن هذا قد يكون أمرًا غير مهذب وسيضعف ثقة لولو بنا ولطفها معنا.

بدا لي أيضًا أن الارتباط الحر بين منزلي والظبي أمر فريد، أمر يدعو للفخر. لقد جاءت لولو من عالم وحشي لكي تثبت أننا على علاقة طيبة معه، وقد جعلت من منزلي بيتًا لنطبيعة الأفريقية، حتى لا يمكن لأحد أن يعرف أين يبدأ أحدهما وينتهي الآخر. عرفت لولو مكان مخبأ خنزير الغابة الضخم، وكانت قد رأت جماع وحيد القرن.

في أفريقيا هناك طائر وقواق يغني في منتصف النهارات الحارة وسط الغابة مثل دقة قلب صاخبة للعالم بأسره. لم يكن لي الحظ أبدًا لرؤيته، ولا لأي ممن أعرفهم؛ لأنه لا أحد يمكنه أن يخبرني كيف كان يبدو. ولكن لولو ربما قد سارت على مسار الغزلان الأخضر الضيق تمامًا تحت غصن الشجرة الذي كان يجلس عليه طائر الوقواق. لقد كنت وقتها أقرأ كتابًا عن إمبراطورة الصين القديمة

العظيمة، وكيف أنها بعد مولد ابنها، جاء ياهانوالا الشاب لزيارة بيتها القديم؛ بدأت رحلتها من المدينة المحرمة[١٤] في محفتها الذهبية الخضراء المحمولة على الأعناق. فكرت أن منزلي، كان الآن مثل منزل والد الإمبراطورة الصغيرة ووالدتها.

كان الظبيان، الكبير والصغير، يحومان حول منزلي طوال الصيف؛ في بعض الأحيان كانت هناك فترات استراحة ربما لأسبوعين، أو ثلاثة، بين زياراتهما، ولكن في أوقات أخرى كنا نراهما كل يوم. في بداية موسم المطر التالي أخبرني صبية منزلي أن لولو قد عادت بظبي صغير آخر. لم أر الظبي الصغير بنفسي؛ لأنه في هذا الوقت لم تعد لولو تأتي هي وصغارها قرب المنزل تمامًا، ولكنني فيما بعد رأيت ثلاثة ظبيان معًا في الغابة.

ظل ارتباط لولو وأسرتها بمنزلي مستمرًا لأعوام عديدة. غالبًا ما كان الظبيان يسيران بجوار المنزل، كانا يأتيان من الغابة ويعودان ثانية وكأن أرضي إقليم لبلاد وحشية. كانا يأتيان في معظم الأحيان وقت غروب الشمس، ويتحركان أولاً بين الأشجار وكأنهما ظلال رقيقة داكنة على العشب الأخضر الداكن، ولكنهما حينما كانا يتحركان لكي يرتعا في المرج الأخضر في ضوء شمس ما بعد الظهيرة كان فرائهما يتلألأ مثل النحاس. كانت لولو واحدة منهم، لأنها كانت تجيء قرب المنزل وتتجول برزانة، ترهف أذنيها حينما تصل سيارة، أو حينما نفتح نافذة؛ وكانت الكلاب تتعرف عليها. كلما كبرت أصبح لونها غامقًا بدرجة أكبر. في إحدى المرات كنت أقود سيارتي، واقتربت من منزلي مع صديق، ووجدنا ثلاثة غزلان في الساحة هناك أمام المنزل، حول الملح الذي كان قد وضع من أجل أبقاري.

كان أمرًا يدعو للعجب أنه بخلاف الظبي الكبير الأول القائد الذي جاءت لولو برفقته، ذلك الذي وقف تحت شجرة الكستناء الأفريقية، ورأسه مرتفع، لم يكن هناك ظبيان ذكور بين الغزلان التي جاءت لمنزلي. يبدو أننا نتعامل مع نظام اجتماعي السلطة فيه للأم وحدها.

اهتم الصيادون وباحثو التاريخ الطبيعي في المستعمرة بأمر غزلاني، فضلاً عن حراس المحمية الكبيرة الذين كانوا يقودون سياراتهم إلى المزرعة لكي يشاهدوها، وكانوا يشاهدونها هنا. كما كتب مراسل عنهم في جريدة إيست أفريكان ستاندرد.

كانت تلك السنوات التي جاءت فيها لولو وأسرتها إلى بيتي أسعد السنوات التي قضيتها في أفريقيا. لهذا السبب، كنت أتذكر تعرفي على غزلان الغابة وكأنني أتأمل نعمة عظيمة قد جاءتني، كرمز للصداقة من أفريقيا. كانت البلدة كلها مندمجة في هذه البهجة، الفأل الحسن، العهود القديمة، أغنية:

"سارعي، حبيبتي، وكوني مثل أنثى الظبي الأحمر أو كوعل صغير فوق جبل التوابل".

خلال سنواتي الأخيرة في أفريقيا كنت نادرًا ما أرى لولو وأسرتها. خلال السنة التي سبقت رحيلي لا أعتقد أني رأيتها أبدًا. لقد تغيرت الأمور؛ فقد منحت المنطقة الجنوبية من مزرعتي لمزارعين، وتم إخلاء الغابة هنا، وبنيت مكانها بيوت. كانت الجرارات تقوم بعملها في الممرات التي تخترق الغابات. كان العديد من السكان الجدد رياضيين، وكان صوت البندقية يدوي في المكان الطبيعي. أعتقد أن المتنزه الكبير تقلص إلى الغرب، وانضم إلى غابات محمية الماساي.

لا أعلم لأي مدى يمكن لغزال أن يعيش؛ من المحتمل أن لولو قد ماتت قبل وقت طويل.

في أوقات كثيرة، كثيرة جدًا، في ساعات الفجر الساكنة كنت أحلم أنني كنت أسمع صوت جرس لولو الواضح، وكان قلبي يدق ممتلئًا بفرح وأنا نائمة. كنت أستيقظ متوقعة حدوث شيء ما غريب وعذب للغاية، في لحظة.

حينما رقدت وقتها وفكرت في لولو، تساءلت ما إذا كانت في حياتها في الغابات قد حلمت بالجرس. هل مرَّ ذلك بخلدها، مثل الظلال فوق الماء، صور الناس والكلاب؟.

فكرت لو أنني أعرف أغنية عن أفريقيا، عن الزرافة، وقمر أفريقي جديد يتمدد على ظهرها، عن المحاريث في الحقول، ووجوه جامعي القهوة التي يتصبب منها العرق، فهل تعرف أفريقيا أغنية عني؟ هل يهتز الهواء فوق السهل بلون كنت أحب ارتداءه، أو يخترع الأطفال لعبة يسمونها باسمي، هل يلقى القمر الكامل ظلاً فوق الحصى المنثور على المعبر الذي كان يشبهني، أو تبحث نسور نجونج عني؟.

لم أسمع أي أخبار عن لولو، منذ أن رحلت، ولكن كانت تصلني أخبار من كامانتي ومن صبية المنزل الآخرين من أفريقيا. لقد مضى أكثر من شهر منذ أن وصلني آخر خطاب منه. ولكن تلك الاتصالات من أفريقيا كانت تأتيني بطريقة غريبة وغير واقعية، كأنها ظلال، أو سراب، وليس بوصفها أخبارًا حقيقية.

لأن كامانتي لا يستطيع الكتابة، ولا يعرف الإنجليزية. فحينما يقفز في ذهن كامانتي، أو الناس الآخرين، أن يرسلوا لي بأخبارهم، فإنهم يذهبون لأحد المتمرسين الهنود أو لشخص من المحليين الذين يجيدون كتابة الرسائل، الذين يجلسون خارج مكاتب البريد على مكاتبهم الخاصة التي تتراكم عليها أوراقهم

وأقـــلام الحبـــر، ثـــم يشرحون لهم ما يودون أن يكتبوه في الخطاب. برغم ذلك، لا يعرف الكتاب المحتــرفون الكثير من الإنجليزية أيضًا، ناهيك عن الكتابة التي لا يعرفونها إلا بصعوبة بالغة، ولكنهم يصدقون أنهم يستطيعون كتابة خطاب بالإنجليزية. ولكي يستعرضوا مهارتهم فإنهم يثرون الخطابات بتنميق الخط الأمر الذي يجعل فك طلاسمها أمرًا صعبًا. إنهم عادة ما يكتبـــون الخطابات بثـــلاثـــة أو أربعة أنواع مختلفة من الحبر، وأيًا كان دافعهم من وراء ذلك، فإن ذلك يعطيني انطباعًا بأن الحبر قد نفد لديهم وبأنهم يعصرون آخر قطرة من عدد من زجاجاته. من كل هذه الجهود يأتي نوع الخطابات التي يحصل عليها الناس من دلفي[١٥] مصدر الوحي والإلهام. هناك عمق ما في الخطابات التي تصلني؛ يمكنك أن تشعر أن ثمة رسالة جوهرية كانت ثقيلة على قلب الراسل، جعلته يسير مسافة طويلة من محمية الكيكويو إلى مكتب البريد. ولكنه في النهاية خطاب ملغز. تلك الورقة الصغيرة الرخيصة القذرة، التي، حين تأتيك، تكون قد ارتحلت لآلاف من الأميال، يبـــدو أنهـــا تتكلم وتتكلم، أو حتى تصرخ في وجهك، ولكنها لا تخبرك بشيء على الإطلاق.

على الرغم من ذلك، يبدو كامانتي في هذا الأمر، كحاله في الأمور الأخرى، مختلفًا عن سائر الناس. ككاتب مراسلات، كان له أسلوب يخصه وحده. كان يضع خطابين أو ثلاثة في الظرف ذاته، وكان يضع عليها علامات: الخطاب رقم ١، الخطاب رقم ٢، وهكذا. كانت كلها تتضمن الحديث ذاته مكررًا مرة تلو الأخرى. ربما يريد أن يترك انطباعًا عميقًا عليَّ عن طريق التكرار، كان لديه تلك الطريقة في الكلام حينما يكون هناك أى شيء يريدني أن أفهمه بوجه خاص أو أن أتذكره. ربما من الصعب عليه أن يتوقف عن الحديث حينما يشعر أنه على اتصال مع صديق على مسافة بعيدة جدًا عنه.

يكتب كامانتي أنه قد توقف عن العمل لفترة طويلة. لم أتعجب من سماع هذا الأمر؛ لأنه حقيقة كان بمثابة الكافيار لعامة الناس[٢٦]. لقد قمت بتعليم طباخ ملكي ثم تركته في مستعمرة جديدة. كان الأمر معه مثل حالة "افتح يا سمسم". الآن، فُقدت الكلمة، وأغلقت الصخرة للأبد حول الكنوز الغامضة التي تختبئ وراءها. حيثمـــا ســـار رئيس الطبـــاخين وهو مستغرق في تفكير عميق، مفعم بالمعرفة، لا يمكن لأحد أن يرى أى شيء سوى فتى مقوس الساقين من كيكويو، سوى قزم ذي وجه ساكن لا يعبر عن شيء.

ما الذي كان يود كامانتي قوله حينما سار إلى نيروبي، واتخذ مكانه أمام كاتب الخطابات الهندي الطماع المتغطرس، وشرح له ما يود أن يكتبه في رسالة عليها أن ترتحل حول نصف العالم؟ السطور مائلة وليس هناك أي ترتيب لجمل الخطاب. ولكن كامانتي كان يحمل بداخله طاقة روحانية عظيمة حتى يمكن لمن خبر هذه الروح أن يستمع للحن فى موسيقى متصدعة غير منتظمة، حتى إن كان اللحن صدى بعيدًا لنغمات آلة الهارب التى كان يعزفها النبي داوود راعى الغنم.

هذه هي "الرسالة رقم ٢":

"لم أكن لأنساك يا ميمصاحب. الكريمة ميمصاحب. الآن كل خدمك ليسوا سعداء أبدًا؛ لأنك كنت من البلاد. لو كنا طيورًا لطرنا ورأيناك. ثم نعود. ثم مزرعتك القديمة كانت مكانًا جيدًا لأبقار صغيرة وعجل صغير. الناس السود الآن ليس لديهم أي شيء أبقار معزة خراف ليس لديهم ولا أي شيء. الآن كل الناس السيئين يتمتعون في قلوبهم لأن خادمك القديم أصبح ناسًا فقيرة الآن. الآن الله يعلم في قلبه كل ذلك لكي يساعد في وقت ما خادمك".

وفي الخطاب رقم ٣" يعطى كامانتي مثالاً للطريقة التي يمكن للسكان المحليين أن يقولوا لك كلامًا رقيقًا، يكتب:

"اكتبي واخبرينا إن كنت تعودين. نعتقد أنك تعودين. بسبب لماذا؟ نحن نعتقد أنك لن أبدًا تستطيعي أن تنسينا. بسبب لماذا؟ نحن نعتقد أنك تتذكرين لا زلت كل وجهنا وأسماء أمهاتنا".

إن أراد رجل أبيض أن يقول شيئًا لطيفًا لك، فإنه سيكتب: "لن أستطيع نسيانك أبدًا". أما الأفريقى فيقول: "نحن لا نعتقد أنك، أنك تستطيعين أبدًا أن تنسينا".

هوامش الفصل الأول

ملاحظة : الهوامش الموجودة فى نهاية الفصول من إعداد المترجمة.

(١) Game Reserve: تقصد بها تلك المناطق التي تحتوي على حياة برية ويتم تسييجها في أفريقيا لغرض سياحي أو بيئي.

(٢) وردت العبارة في مسرحية شكسبير روميو وجوليت فى الفصل الأول "جمالها يطغى على خد الليل مثل جوهرة ثمينة فى أذن فتاة إثيوبية".

(٣) التوتو: يعني صبيًا صغيرًا يرعى الغنم.

(٤) النورمانيون: نسبة إلى إقليم نورماندي بفرنسا.

(٥) وردت العبارة بالفرنسية.

(٦) كامبرلاند: مقاطعة تاريخية تقع شمال غرب إنجلترا.

(٧) الماساي: مجموعة عرقية شبه بدوية من الناس يقطنون شمال كينيا وتنزانيا، بسبب عاداتهم وملابسهم وإقامتهم بجوار المتنزهات المفتوحة، هم من أكثر المجموعات المعروفة في شرق أفريقيا. إلى جانب لغتهم المحلية يتحدثون الإنجليزية والسواحيلية. وعلى الرغم من الإجراءات الحديثة التي تقوم بها الحكومة الكينية لجعلهم يتخلصون من عاداتهم القديمة، فلا يزالون متمسكين بطرائق حياتهم الخاصة. بلغ تعدادهم حوالي أربعمائة ألف في عام ١٩٨٩.

(٨) البويريون: أهالي جنوب أفريقيا ذوو الأصل الهولندي.

(٩) الكافيروندو: اسم إقليم بشرق أفريقيا، كان تحت الاحتلال البريطانى.

(١٠) أغنية الملاح القديم: قصيدة طويلة للشاعر البريطاني صامويل تيلور كوليريدج كتبها ١٧٩٧--٩٨.

(١١) الواندروبو: اسم قبيلة إفريقية.

(١٢) إشارة إلى حكاية من حكايات المسيح الأخلاقية وفيها يعبر قسيس وتوراتي معًا على شخص جريح ويقوم انقسيس بمساعدته.

(١٣) إلهة إغريقية قديمة، زوجة وأخت زيوس.

(١٤) Forbidden City: المدينة المحرمة، هو القصر الإمبراطوري الصيني من أسرةٍ مينج إلى نهاية أسرة كينج. بني القصر عام ١٤٠٦ ومنذ القرن العشرين صار مكانا متحفيًا.

(١٥) دلفي: مدينة قديمة في وسط اليونان على مرتفعات مون بارنساس، مصدر وحـــي وإلهام أبوبو.

(١٦) استعارت الكاتبة هنا مقولة شكسبير الشهيرة:

the general public, that is ' t was caviary to the general,"

الفصل الثاني

حادث إطلاق النار في المزرعة

حادث إطلاق النار في المزرعة

في مساء التاسع عشر من ديسمبر، خرجت من منزلي قبل أن أذهب لمخدعي لكي أتحقق من مجيء أية أمطار. الكثير من المزارعين في الأراضي المرتفعة، كما أعتقد، يفعلون الأمر ذاته في تلك الساعة. في بعض الأحيان، في عام يتسم بالحظ الجيد، كان يمكننا الحصول على القليل من الأمطار الكثيفة فقط في الكريسماس، وكان ذلك أمرًا عظيمًا بالنسبة لنباتات البن الصغيرة الموجودة على الأشجار بعد الإزهار في موسم الأمطار القصيرة في أكتوبر. في تلك الليلة لم يكن هناك أية علامة على هطول المطر. كانت السماء صافية ومبتهجة بانتصارها، زاهية بنجومها.

السماء الكوكبية الواقعة عند خط الاستواء أكثر ثراءً من تلك الشمالية، وتشاهدها أكثر لأنك تخرج ليلاً أكثر. ليالي الشتاء في أوروبا الشمالية باردة للغاية لدرجة لا تسمح للمرء بقدر وافر من الاستمتاع بالتأمل بمشاهدة النجوم، وفي الصيف يمكن للمرء بالكاد أن يلاحظها في سماء الليل الصافية، الشاحبة مثل زهرة البنفسج.

لليلة الاستوائية أنس الكاتدرائية الرومانية الكاثوليكية مقارنة بالكنائس البروتستانتية في الشمال، التي تسمح لك بالدخول لإنجاز عملك فقط. هنا في الغرفة الضخمة الكل يأتي ويذهب، هذا هو المكان الذي تجري الأحداث فيه. بالنسبة لبلاد العرب وأفريقيا، حيث يمكن لشمس الظهيرة أن تقتلك، الليل هو وقت للترحال ولإنجاز العمل. للنجوم أسماؤها هنا، لقد أرشدت الناس لقرون عديدة، تقودهم في

خطوط طويلة عبر رمال الصحراء والبحار، واحدة باتجاه الشرق، وأخرى باتجاه الغرب، أو الشمال، والجنوب. تسير السيارات بشكل جيد ليلاً. قيادة السيارة تحت سقف النجوم أمر يبعث على السرور؛ يقودك ذلك لعادة ثابتة لزيارة أصدقائك في المناطق المرتفعة، حينما يكون القمر بدرًا في المرة التالية. إنك تبدأ رحلات السفاري مع القمر الجديد، لكي تستفيد بالليالي القمرية كلها. إنه إذن أمر غريب، حينما تعود في زيارة لأوروبا، لتجد أصدقاءك في المدينة يعيشون بدون إدراك لحركة القمر، وتقريبًا بجهل بها. إن القمر غير المكتمل كان علامة الحركة لراعي الجمل خاصة خديجة، هذا الراعي الذي كانت قافلته تبدأ عندما يظهر القمر في السماء. وبينما يولي وجهه إزاءه كان بمثابة أحد "الفلاسفة الذين فقدوا السيطرة على أنفسهم داخل أنظمة الإضاءة القمرية التي تنير الكون". لا بد أنه كان ينظر إليه كثيرًا؛ لدرجة جعلت منه علامته التي يود قهرها.

لقد منحني السكان المحليون اسمًا؛ لأنه تصادف عدة مرات أن أكون أول من يرى القمر الجديد في المزرعة، مثل قوس رفيع فضي في غروب الشمس؛ بشكل خاص لأن على مدى عامين أو ثلاثة مضت، كنت أول من يحظى برؤية هلال شهر رمضان، الشهر المقدس لأتباع محمد.

يدير المزارع عينيه ببطء حول الأفق كله؛ أولاً ناحية الشرق، لأن المطر، فى حال مجيئه يأتي من الشرق، وهناك تقف نجمة واضحة في مدار العذراء. ثم إلى الجنوب، لتحية الصليب الجنوبي، حارس بوابة العالم الفسيح، صديق الرحالة المخلص والأحب إلى قلوبهم، وعاليًا، تحت الشريط المضيء لطريق المجرة، النجوم اللامعة فى القنطور[1]. وإلى الجنوب الغربي يتألق كوكب الشعرى، ضخمًا في السماء، والنجمة اللامعة الثانية المتأملة في السماء، ومن ناحية الغرب فوق الحدود الخارجية الواهية لمرتفعات نجونج، المتتابعة الآن تقريبًا، الماسة المشعة

المزركشة، النجمة الضخمة الأولى في مدار أوريون، بيتيلجيز، وبيلاتريكس. يعود في النهاية إلى الشمال؛ لأننا نعود للشمال في النهاية، وهناك يركض فوق الدب الكبير نفسه، إنه يقف الآن فقط بهدوء على رأسه بسبب المنظور السماوي، وكل ذلك له مسحة مزحة ثقيلة، يمكنها أن تبعث المرح في قلب مهاجرة قادمة من أوروبا الشمالية.

من يحلمون أثناء نومهم ليلاً، يعرفون نوعًا خاصًا من السعادة لا يستوعبها عالمنا اليوم، نشوى لطيفة، وراحة قلبية، لها مذاق العسل على اللسان. إنهم يعرفون أيضًا أن المجد الحقيقي للأحلام في مناخ الحرية اللامحدودة التي تنعم بها. إنها ليست بحرية الديكتاتور، الذي يفرض إرادته على العالم، ولكنها حرية الفنان، المسلوب الإرادة، المتحرر من إرادته. بهجة الحالم الحقيقي لا تكمن في جوهر الحلم، ولكن في حقيقة أن الأشياء تحدث بدون أي تدخل من جانبه، وبشكل كلي خارج نطاق سيطرته. هناك تخلق المناظر الطبيعية نفسها، المناظر الرائعة الممتدة، الألوان الغنية الناعمة، الطرق، البيوت، التي لم يرها أو يسمع عنها أحد من قبل. يظهر الغرباء وهم إما أصدقاء أو أعداء، على الرغم من أن الحالم لم يفعل شيئًا إزائهم أبدًا. إن الأفكار الخاصة بالطيران والمطاردة شائعة في الأحلام، وهي فاتنة بشكل مساو. الأشياء الفطنة الرائعة يقولها الجميع. صحيح أن المرء لو تذكر الأحلام في النهار فإنها ستخبو وتفقد معناها؛ لأنها تنتمي لمستوى آخر، ولكن بمجرد أن يرقد الحالم ليلاً، فإن الدائرة تغلق من جديد ويتذكر روعتها. يحوطه طوال الوقت الشعور بحرية هائلة وتسري داخله مثل الهواء والضوء، نشوة تقشعر لها الأبدان. إنه شخص مميز، لا يجد ما يفعله، ولكن لإسعاده ولإثرائه، تجلب له الأحلام كل الأشياء دفعة واحدة؛ حتى أن ملوك تارشيش[٢] سيجلبون له الهدايا. قد يشارك في معركة كبيرة أو حفلة راقصة، ويتعجب من الوقت القصير الذي ينبغي أن يمضيه، في خضم تلك الأحداث، وهو مرفه ومستلق

على فراشه. يحدث حينما يبدأ المرء فقدان وعيه بالحرية، وحينما تبدأ فكرة الضرورة تدخل العالم، حينما يكون هناك سرعة أو توتر في مكان ما، خطاب ينبغي أن تكتبه أو قطار تلحق به، حينما ينبغي عليك أن تعمل، أن تجعل أحصنة الحلم تثب، أو أن تجعل البنادق تطلق نيرانها، وقتها ينحسر الحلم، وينقلب إلى كابوس، ومن ثم ينتمي إلى أفقر وأكثر درجات الأحلام تبجحًا.

فـــي عـــالم اليقظـــة الأمـــر المشابه للحلم هو الليل في مدينة كبيرة، حيث لا يعرف أحد الآخر، أو دعني أقول الليلة الأفريقية. هناك أيضًا حرية لا حدود لها: هناك حيث تسير الأمور، وتدبر المصائر من حولك، هناك نشاط من كل جانب، وهي أمور ليست في دائرة اهتمامك.

هنا الآن، بمجرد أن غربت الشمس، بدت السماء مليئة بالخفافيش، تطوف بلا ضوضاء كما تسير العربات على الأسفلت؛ يمر الصقر الليلي أيضًا: ذلك الطائر الذي يجلس على الطريق وتومض في عينيه أضواء سيارتك بلون أحمر للحظة قبل أن يرفرف عاليًا بشكل عمودي أمام عجلات سيارتك. الأرانب البرية الصغيرة التي تظهر في الربيع تنطلق في الطرق، تتحرك بطريقتها الخاصة، تجلس على الطريق فجأة وتقفز للأمام وفقًا لإيقاع ما، مثل الكنجارو الصغيرة، بينما تغني حشرات الزيزان أغنية لانهائية بين الأعشاب الطويلة، تسري الروائح على مدار الأرض وتركض النجوم الساقطة فوق السماء، مثل دموع تنثال على الخد. إنك الشخص المرفه الذي تأتيه كل الأشياء. ينبغي أن يجلب ملوك تارشيش الهدايا.

على بعد أميال قليلة، في محمية الماساي، يغير الحمار الوحشي الآن منطقة الرعي خاصته، تتجول القطعان على السهل الرمادي وكأنها خطوط مقلمة خفيفة فوقه، بينما ترتع الجواميس على منحدرات التلال الطويلة. قد يأتي الشباب الذي

يعملون معي في المزرعة، اثنين أو ثلاثة معًا، يسيرون الواحد وراء الآخر مثل ظلال داكنة منحسرة في المرعى الأخضر؛ كانوا يسيرون على أقدامهم متجهين صوب هدفهم، لم يكونوا يعملون من أجلي، ولم يكن حضورهم ذا أهمية بالنسبة لي. يؤكدون ذلك الوضع بسيرهم على مهل حينما يلاحظون منظر سيجارتي المشتعلة عند نهايتها وأنا واقفة خارج المنزل، ثم يلقون التحية دون توقف.

"جامبو ماسابو"

"جامبو موراني"- أيها المحاربون- "إلى أين أنتم ذاهبون؟".

"نحن ذاهبون إلى مانياتا كاثيجو. كاثيجو لديه ناجوما هذه الليلة. مع السلامة، ماسابو".

لو أنهم يسيرون معًا في جماعات أكبر، فسيجلبونً معهم طبلتهم للرقص، وستسمعهم من بعد، مثل خفقان نبض صغير في إصبع ليلاً. وبشكل مفاجئ، لأذن لم تكن تنصت إليها يأتي ما لا يمكن أن تعتبره بشكل كبير صوتًا، بقدر كونه اهتزازًا عميقًا للهواء، زئير أسد قادم من بعيد. إنه يأتي على قدميه، إنه يصطاد، تجري الأمور هناك حيثما يكون. لا يتكرر الأمر، ولكن أفق الحركة يتسع؛ حتى تتخيل أن الدونجا[٣]، وبقع الأرض المنخفضة حيث يتجمع الماء في طريقها إليك.

وأنا أقف أمام منزلي وقعت طلقة، ليست بمكان بعيد. طلقة واحدة. ثم مرة أخرى أطبق سكون الليل من كل الجهات. بعد فترة، وكأنهم قد توقفوا فقط ليسمعوا صوت الطلقة، والآن يستعدون لطلقة أخرى، سمعت حشرات الزيران تغني أغنيتها الانفرادية الصغيرة صانعة رنينًا بين الأعشاب.

حينما تنطلق طلقة واحدة ليلاً فلا بد أن هناك شيئًا ما حاسمًا وكارثيًا. يبدو الأمر وكأن أحدهم قد صاح برسالة لك من كلمة واحدة، ولن يعيدها. وقفت لبعض

الوقت متسائلة عما كان يعنيه هذا الأمر. ليس هناك من يصوب أي بندقية صوب أي شيء فـــي هــذه الساعة، ولإخافة أي مخلوق، ينبغي أن يطلق المرء طلقتين أو أكثر.

قد يكون النجار الهندي العجوز بووران سينغ، هناك عند الطاحونة، يطلق النار على زوج من الضباع قد تسللا إلى ساحة الطاحونة وكانا يأكلان شرائط الأوكسيد المعلقة هناك، بأحجار ثقيلة كأوزانهم لكي تصنع كسيور لجام لعرباتنا. لم يكن بووران سينغ بطلاً، ولكنه ربما قد ترك باب كوخه نصف مغلق من أجل سيور اللجام خاصته، وأطلق طلقة من مسدسه. مرة أخرى، لو كان الأمر كذلك لكان قد ترك ماسورتيه.

ومن المحتمل أن يحشو بندقيته ويطلق النار مرة أخرى، بمجرد أن ذاق طعم البطولة. ولكن أن يطلق طلقة واحدة– ثم يسود الصمت.

انتظرت لبعض الوقت لسماع الطلقة الثانية؛ ولم يحدث شيء، وأنا أنظر مرة أخرى إلى السماء، لم يكن هناك أي أمطار قادمة، ولهذا فقد ذهبت إلى السرير، أخذت كتابًا معي، وتركت المصباح مشتعلاً. في أفريقيا، حينما تلتقط كتابًا يستحق القراءة، من بين البضائع المهلكة التي تحملها السفن الجيدة طوال كل هذا الطريق من أوروبا، فإنك تقرأه كما يود كاتبه أن يقرأ، تدعو الله أن يمضي الكتاب جميلاً كما بدأ. يركض رأسك، ينتقل، عبر كل مسار أخضر ذي عمق.

بعد دقيقتين جاءت دراجة بخارية بسرعة رهيبة وتوقفت أمام المنزل، ودق أحدهم بقوة على الزجاج الطويل لحجرة الجلوس خاصتي. لبست تنورة معطفي وحذائي، أخذت المصباح وخرجت. كان بالخارج مدير طاحونتي، بعينين وحشيتين والعرق ينساب منه في ضوء المصباح. كان يدعى بيلكناب، كان أمريكيًا، وله قدرة استثنائية، ميكانيكي ملهم، ولكن عقله غير منظم. لم تكن الأمور معه لتقترب من

الرخاء والسعادة، ولا كانت سوداء بلا بصيص من الأمل. حينما تولى الوظيفة في البداية كان يضايقني برؤاه المختلفة عن الحياة، وباحتمالات نجاح المزرعة وأحوالها، وكأنه قد وضعني عاليًا في أرجوحة ذهنية ضخمة؛ ثم اعتدت كل ذلك فيما بعد. تلك التقلبات المزاجية لم تكن سوى نوع من التمارين العاطفية لطبع حيوي، في حاجة شديدة للتمرين، لم يكن يتلقى سوى قدر يسير منه؛ إن هذه ظاهرة منتشرة بين الرجال البيض صغار السن المفعمين بالطاقة، وبشكل خاص أولئك الذين قضوا سنواتهم الأولى في المدن. ولكنه هنا خرج من بين أيدي مأساة ما، وكان مترددًا فيما يتعلق بما ينبغي أن يتخم روحه الجائعة عن طريق فعل ما بوسعه فعله، أو الهروب من صرامتها بأن يندمج بأقل ما يمكنه الاندماج فيها، وفي هذه الورطة كان يبدو مثل طفل صغير جدًا يهرب طوال حياته كي يتجنب إعلان كارثة؛ تلعثم وهو يتحدث. في النهاية، أفصح عن القليل من الأمر؛ لأنه لم يكن هناك دور ما يؤديه، فقد خذله القدر مرة أخرى.

في هذا الوقت كان فرح قد جاء من بيته، وأنصت معي لحكايته.

أخبرني بيلكناب كيف بدأت المأساة بشكل سلمي ومرح. كان طباخه قد حصل على يوم عطلة، وفي غيابه أقام طفل في السابعة من عمره حفلة في المطبخ. ذلك الطفل يدعى كابيرو، ابن أحد واضعي اليد على الأرض وأقرب جار للمزرعة، وهو الذئب كانينو العجوز. ومع تأخر الليل، وحينما اندمجت مجموعة الصبية في المرح بصخب، أحضر كابيرو مسدس سيده وقام بتمثيل دور الرجل الأبيض أمام أصدقائه البدائيين الذين يقطنون السهول ومزارع الفاكهة. كان بيلكناب مزارع دواجن فطن: كان يربي الديوك المخصية، ويصنع الدجاج بالطريقة التي يشتهي الشباب تناولها ويجلب سلالات نقية من الدواجن للبيع في نيروبي، وكان يحتفظ بطلقات مسدسه في شرفته ليخيف الصقور والقطط البرية. حينما تحدثنا في

الأمر فيما بعد، أصر بيلكناب أن المسدس لم يكن محشوًا، وأن الأطفال قد بحثوا عن الطلقات ووضعوها بنفسهم، ولكني أعتقد أن ذاكرته قد خانته في هذه النقطة، لم يكونوا ليفعلوا ذلك حتى وإن أرادوا، والأمر الأكثر احتمالاً أنه ولو لمرة واحدة قد ترك مشحونًا في الشرفة. على الرغم من ذلك، حدث الأمر، كانت الطلقة في ماسورة البندقية حينما صوب كابيرو، في أوج شبابه وشعبيته الفائقة، البندقية مباشرة بين ضيوفه وضغط على الزناد. صنعت الطلقة فرقعة داخل المنزل. أصيب ثلاثة من الأطفال إصابة طفيفة، وهربوا من المطبخ وهم مرعوبون. بقي اثنان الآن، وقد أصيبا بشكل خطير وربما قد لقيا حتفهما. أنهى بيلكناب حكايته بلعنة طويلة لقارة أفريقيا وللأشياء التي تحدث فيها.

بينما كان يتحدث، خرج صبية منزلي، وهم صامتون تمامًا؛ دخلوا مرة أخرى، وأحضروا مصباح الهراكين[٤]. أحضرنا ضمادات ومطهرات. كانت محاولتنا لإدارة محرك السيارة مضيعة للوقت، وركضنا بسرعة بقدر ما استطعنا عبر الغابة حتى وصلنا إلى بيت بيلكناب. ألقى مصباح الهيراكين المتأرجح بظلالنا من أحد جوانب الطريق الضيقة إلى الجانب الآخر. وواصلنا الركض، وصدمنا بتتابع من الصرخات العالية المذعورة القصيرة المتقطعة- صراخ موت متقطع لطفل.

كان باب المطبخ مواربًا، وكأن الموت، بعدما دخل مسرعًا، خرج مسرعًا مرة أخرى، وترك المكان في دمار شديد، وكأنها حظيرة دواجن كان بها فرو الغرير للتو. كان هناك مصباح مطبخ مشتعل فوق الطاولة، ويتصاعد دخانه إلى عنان السماء، وفي الغرفة الصغيرة، كانت رائحة البارود لا زالت عالقة في الجو. كان المسدس ملقى على الطاولة بجوار المصباح. كانت الدماء مراقة في كل مكان بالمطبخ: جعلتني أنزلق على الأرض. من الصعب توجيه مصابيح الهراكين إلى

أي نقطة معينة، ولكنها تمنح إضاءة هائلة لغرفة بأكملها أو لموضع برمتة؛ أتذكر الأشياء التي رأيتها عن طريق ضوء مصباح الهراكين بشكل أفضل من غيرها.

كنت أعرف الطفلين اللذين أطلق عليهما النار، لقد رأيتهما في سهول المزرعة، حيث كانوا يرعيان خراف آبائهم. واماي ابن جوجونا، طفل صغير نشط كان قد التحق لفترة ما بالمدرسة، كان ملقى على الأرض بين الباب والطاولة. لم يكن ميتاً، ولكنه لم يكن بعيدًا عن الموت، وكان فاقدًا للوعي بالرغم من أنه كان يئن قليلاً. رفعناه جانبًا حتى نستطيع أن نتحرك. أما الطفل الذي كان يطلق صراخًا متقطعًا فقد كان وانيانجيري، أصغر المجموعة سنًا في المطبخ. كان جالسًا، ومائلاً للأمام، باتجاه المصباح؛ بينما كانت الدماء تسيل من وجهه مثل تدفق الماء من ماسورة، إن كان للمرء أن يقول ذلك، لأنه لا بد من أنه كان يقف مباشرة أمام أنبوبة البندقية حينما أطلق عليه النار وأودت بفكه السفلي. كان يحرك ذراعاه لأعلى وأسفل مثل مضخة، مثلما يرفرف جناحا دجاجة بعد قطع رأسها.

حينما تجد نفسك فجأة في خضم مأساة كتلك، لا يكون هناك سوى نصيحة واحدة- إنها علاج حقل الصيد وساحة المزرعة: ينبغي عليك وبشكل سريع أن تقتل وبأي ثمن. وبرغم ذلك، فإنك تعرف أنك لا تستطيع القتل، ويدور عقلك بخوف. وضعت يديَّ على رأس الطفل وضغطت بيأس، وبدا الأمر وكأنني قتلته بالفعل، بينما توقف هو في اللحظة نفسها عن الصراخ، ونهض بينما ذراعاه تتدليان لأسفل، وكأنه مصنوع من الخشب. وهكذا فإنني أعرف الآن كيف يبدو الأمر حينما تعالج من خلال استغلال اليدين.

من الصعب أن تغطي بضمادة مريضًا أصيب في نصف وجهه، وبينما تحاول أن توقف نزيفه قد تضطر لأن تذبحه. اضطررت أن أرفع الطفل الصغير على ركبة فرح وجعلت فرح يحمل رأسه في مواجهتي؛ لأنها لو سقطت إلى الأمام

لم أكن لأستطيع أن أربط الضمادة، ولو سقطت للخلف، فإن الدماء كانت ستنهمر لتملأ حنجرته. في النهاية عندما جلس في وضع ساكن تمامًا، تمكنت من ربط الضمادة.

رفعنا واماي على الطاولة ورفعنا المصباح لأعلى لكى ننظر إليه. لقد تلقى طلقة المسدس كاملة في حنجرته وصدره. لم يكن ينزف كثيرًا، خط متعرج طويل فقط من الدماء كان يسيل من زاوية فمه. كان أمرًا مدهشًا أن ترى طفلاً من أبناء البلدة مفعمًا بالحياة مثل غزال صغير ساكن تمامًا الآن.

وبينما كنا ننظر إليه تغيرت ملامح وجهه واتخذت تعبير الاندهاش العميق. أرسلت فرح للمنزل لكي يأتي بالسيارة، لم يكن لدينا وقت لإضاعته إذ كان علينا أن نذهب بالأطفال للمستشفى.

بينما كنا ننتظر، استفسرت عن كابيرو، الطفل الذي أطلق النار، وأراق كل تلك الدماء. أخبرني بلكناب وقتها قصة غريبة عنه. قبل يومين، كان كابيرو قد اشترى بنطالاً قصيرًا قديمًا من سيده، وكان سيدفع له روبية من أجره. حينما انطلقت الرصاصة، وركض بلكناب إلى المطبخ، كان كابيرو واقفًا في منتصف الغرفة، والمسدس الذي ينبعث منه الدخان في يده. حدق في بلكناب لثانية، ثم أدخل يده لتسبح في جيب البنطال ذاته الذي كان اشتراه حديثًا، وكان ارتداه من أجل الحفلة، سحب روبيًا ووضعه على الطاولة. وفي تلك التسوية النهائية مع العالم رحل؛ إنه في الحقيقة، على الرغم من أننا لم نعلم ذلك في لحظتها، بتلك الإيماءة العظيمة، قرر أن يختفي من على وجه الأرض. لقد كان سلوكًا غير مألوف بالنسبة لمواطن محلي، لأنهم بشكل عام يتمكنون من الحفاظ على ديونهم، وبشكل خاص ديونهم لرجل أبيض، كفكرة غير ملحة في أذهانهم. ربما قد بدت اللحظة لكابيرو بشكل كبير مثل يوم الحساب حتى أنه شعر أنه ينبغي أن يبالغ في التعبير عن

مـــأزقه؛ ربما كان يحاول، في وقت الحاجة، أن يضمن صديقًا. أو ربما الصدمة، أو الفرقعة، أو موت أصدقائه من حوله، قد أفقد الصبي صوابه ومحيط أفكاره الصغير، وهكذا فإن هذا الهامش الضئيل قد انفتح سريعًا ومباشرة في مركز وعيه.

في ذلك الوقت كان لديَّ سيارة من طراز أوفرلاند. لن أكتب أي شيء يدينها؛ لأنها خدمتني على مدى سنوات عديدة. ولكن كان نادرًا ما يستطيع المرء إغراءها بأن تسير بسرعة أكثر من السرعة الثانية. كانت أنوارها معطلة أيضًا، ولهذا فقد اعتدت أن أقودها إلى حفلات الرقص في موثايجا كلوب وأنا أحمل معي مصباح الهراكين ملفوفًا في منديل حريري أحمر، وأستخدمه كإضاءة خلفية. كان ينبغي أن يدفعها شخص ما لكي تبدأ الحركة، وفي تلك الليلة استغرق أمر دفعها وقتًا طويلاً.

كان زائرو منزلي يشتكون من حالة الطريق المؤدي لمنزلي، وخلال قيادة الموت في تلك الليلة أدركت أنهم كانوا محقين. جعلت فرح يقود أول الأمر، ولكنني كنت أعتقد أنه يخوض متعمدًا في الحفر العميقة ومسارات العربات التي تجرها خيول على الطريق، وتوليت القيادة بنفسي. ولهذا، فقد كان عليَّ أن أترجل عند البركة لكي أغسل يديَّ في المياه الداكنة. كانت المسافة لنيروبي تبدو طويلة بشكل لانهائي. فكرت أنني ربما قدت السيارة إلى منزلي في الدينمارك في الوقت ذاته الذي استغرقته السيارة إلى نيروبي.

يقع المستشفى المحلي لنيروبي أسفل زاوية المدينة. كان الظلام قد حل الآن، وبدا المكان مسالمًا. عانينا كثيرًا من أجل إيقاظ هذا المشهد النائم؛ وفي النهاية عثرنا على طبيب عجوز أو مساعد طبيب، خرج في روب نسائي من نوع غريب. كان رجلاً سمينًا له سلوك هادئ، ولديه طريقة غريبة في صنع الإيماءة ذاتها بيده ثم تكرارها باليد الأخرى. وأنا أساعد في حمل واماي من السيارة، أعتقد أنه هز

نفسه وتمطى قليلاً، ولكننا حينما حملناه للغرفة المضاءة جيدًا في المستشفى، كان قد مات. ظل الطبيب المساعد يلوح بيده إليه قائلاً: "إنه ميت". ثم، مرة أخرى ملوحًا إلى وانيانجيري، قائلاً "إنه حي". لم أر ذلك الرجل العجوز مرة أخرى؛ لأنني لم أعد مرة ثانية للمستشفى ليلاً، حيث من المحتمل أن تكون ورديته في ذلك الوقت، فكرت أن سلوكه كان مثيرًا للضيق، ولكنني شعرت بعد ذلك وكأن القدر نفسه مرتدٍ عددًا من العباءات الكبيرة البيضاء، واحدة فوق الأخرى، قد قابلنا على مشارف البيت، ثم بدأ يوزع، بانهماك شديد، بطاقات الحياة والموت على السواء.

أفاق وانيانجيري من غفوته عندما أخذناه إلى المستشفى، وفي الحال انتابه ذعر شديد؛ لم يكن يهدأ إلا وهو متشبث بي أو بأي شخص قريب منه، كان يبكي وينتحب بلوعة شديدة. هدأه الطبيب المساعد في النهاية بحقنة، نظر إلى من فوق نظارته، وقال: "إنه حي". تركت الطفلين هناك الميت والحي، على مسافتين من قدريهما المختلفين.

فكر بيلكناب الذي كان قد أتى معنا على دراجته النارية، غالبًا لكي يساعدنا في دفع السيارة للتحرك، إذا ما توقفت في الطريق، في أن نبلغ البوليس بالحادثة. وهكذا قدنا السيارة في المدينة إلى محطة شرطة روود ريفر، وهكذا دخلنا في خضم حياة الليل في نيروبي. حينما وصلنا لم يكن هناك أي شرطي أبيض، وبينما أرسلوا في طلبه انتظرنا في الخارج داخل السيارة. كان للطريق جادة من أشجار اليوكالبتوس العالية الشجرة الموجودة في كل المدن الرائدة في الأراضي المرتفعة؛ حيث تنبعث ليلاً من أوراقها الطويلة جدًا والرفيعة رائحة ذكية غريبة، وتبدو غريبة في ضوء مصابيح الشوارع. كانت هناك امرأة سواحيلية شابة حسناء ممتلئة الجسم يدفعها رجال الشرطة المحليون إلى داخل محطة البوليس؛ كانت تقاوم بكل قوتها، وخدشت وجوههم، وكانت تصرخ مثل خنزير. كانت هناك مجموعة من

المشاغبين قد دفعهم بدورهم رجال الشرطة وهم على درج محطة البوليس، وكانوا لا زالوا متحمسين للعراك أثناء دخولهم؛ ثم لص، أعتقد أنه كان قد تم الإمساك به للتو، جاء للشارع ووراءه طابور طويل من المعربدين ليلاً الذين كانوا يدافعون عنه أو يتبنون وجهة نظر الشرطة ويتناقشون في القضية بصوت عال. وصل في النهاية ضابط بوليس شاب مباشرة، كما أعتقد، من حفلة صاخبة. كان مخيبًا لأمل بيلكناب، حيث بدأ يدون تقريره باهتمام شديد وبسرعة رهيبة، ولكنه بعد ذلك استغرق في تفكير عميق، وسحب قلمه ببطء من على الصفحة، وأخيرًا تخلى عن الكتابة، ووضع قلمه ثانية في جيبه. كنت أشعر بالبرد في الهواء الليلي. وفي النهاية استطعت أن أقود سيارتي عائدة للمنزل.

في الصباح التالي، وبينما كنت لا زلت في الفراش، شعرت، بسبب السكون المكثف خارج المنزل، أن هناك الكثير من الناس حوله. عرفت من هؤلاء: الرجال العجائز من المزرعة، يجلسون القرفصاء على الأحجار الصغيرة، يقرشون، ويتنشقون التومباكو خاصتهم، يتفلون، ويهمسون. كنت أعرف أيضًا ماذا يريدون: لقد أتوا ليبلغوني أنهم يرغبون في عقد "قيامة" في قضية إطلاق النار الليلة البارحة، وموت الأطفال.

القيامة هي تجمع لكبار السن في المزرعة، معترف بها من قبل الحكومة، لتسوية الخلافات المحلية بين المتشاجرين. يجتمع أعضاء القيامة لمناقشة جريمة أو حادثة، وسوف يجلسون لمناقشتها لأسابيع عديدة، يركزون في الأمر ويلتصقون به كالتصاق الشحم بلحم الماعز، يتحدثون بشأن الكارثة. عرفت أن الرجال المسنين يريدون الآن أن يتحدثوا عن الموضوع برمته معي، وأنهم يرغبون، لو استطاعوا، أن آتي إلى محكمتهم لكي أعطي الحكم النهائي في القضية. لم أكن أريد أن أشارك

في مناقشة لا نهاية لها لمأساة تلك الليلة، في تلك اللحظة، وأرسلت لطلب حصاني، لكي أخرج وأرحل بعيدًا عنهم.

وأنا خارجة من المنزل وجدت، كما توقعت، الدائرة كلها من الشيوخ على اليسار، بجوار أكواخ الصبية. لكي يحافظوا على شعورهم بالكرامة كتجمع، تظاهروا بأنهم لم يروني، حتى أدركوا أنني رحلت بعيدًا. وقتها واصلوا سيرهم وهم يتعثرون بأرجلهم العجوزة بسرعة كبيرة، وبدءوا يلوحون بأذرعهم نحوي. في المقابل أشرت بيدي إليهم، وانطلقت على حصاني.

التجول في المحمية

قدت حصاني في محمية ماساي. كان عليَّ أن أعبر النهر لكي أصل إلى هناك؛ ممتطية صهوة جوادي، وصلت إلى متنزه المحمية في ربع ساعة. استغرق الأمر مني بعض الوقت، بينما كنت أعيش في المزرعة، لكي أجد مكاناً، حيث يمكنني أن أعبر النهر على ظهر الجواد: كان المنزل حجريًا، والمنحدر في الجهة الأخرى كان شديد الانحدار، ولكن "بمجرد وجودك هناك-- ما أجمل الروح المبتهجة وهي تتحرق شوقًا للمتعة".

هنا تبدو أمامك مساحة مائة ميل للركض فوق العشب وأرض متموجة بلا نهاية؛ ليس ثمة سور أو أخدود، وليس ثمة طريق. لم يكن هناك من يقطن المكان سوى قرى الماساي، وتلك كانت مهجورة لنصف العام، حينما اقتلع المتجولون العظام أنفسهم وقطعانهم إلى مراعٍ أخرى. كانت هناك أشجار شائكة وقصيرة منتشرة بشكل منتظم على السهول، والأودية العميقة الطويلة التي لها قاع نهر جاف ممتلئة بأحجار كبيرة مسطحة، حيث عليك أن تجد ممرًا للغزلان هنا وهناك ليأخذك عبر مساره. بعد قليل بينما أصبحت مدركة كم كان المكان المحيط ساكناً هنا، كتبت بيتا من الشعر عنه:

عبر السهل يجري العشب الطويل، أمام الطقس العاصف.

في الوحدة، يندمج السهل، الرياح، الرياح والقلب في لعبة معًا.

الآن وأنا أستعيد حياتي في أفريقيا، أعتقد أنه يمكن وصفها بكاملها كوجود شخص جاء من عالم مزعج وسريع الإيقاع، إلى بلد يلفه السكون.

قبل هطول المطر بوقت قليل، يحرق الماساي العشب الجاف القديم وبينما السهول تبدو سوداء ومهملة، لا يبدو أمر السير عليها أمرًا باعثا على السرور: سوف تتلقى التراب الأسود الحارق الذي تثيره حوافر حصانك، حول جسدك كله، وفي عينيك، وأغصان العشب المحروقة، حادة مثل الزجاج؛ حيث تجرح أقدام كلابك. ولكن حينما تأتي الأمطار ويبدو العشب الأخضر الصغير ناضجًا على السهول، تشعر وكأنك تمتطي حصانك فوق الينابيع، والحصان يبدو مجنونًا قليلاً لشعوره بالسعادة. تأتي الغزلان بأنواعها المختلفة للأماكن الخضراء لكي ترعى، وهناك تبدو مثل دمى حيوانات تقف على طاولة بلياردو. قد تتجول بين قطيع من الظبيان الأفريقية؛ تلك الكائنات الوحشية المسالمة سوف تسمح لك بالاقتراب منها قبل أن تبدأ في الهرولة بعيدًا، بينما تنطلق قرونها الطويلة للخلف فوق رقابها المرفوعة، تلك الوثبات الطليقة الكبيرة حيث تندفع بصدورها، تجعلها تبدو كأشكال مربعة، متأرجحة وهي تهتز. يبدو وكأنها قد جاءت من نقوش على قبور مصرية قديمة، ولكنها هناك كانت تحرث الحقول، الأمر الذي منحها روحًا أليفة ومنزلية. تبقى الزرافات بعيدًا في المحمية.

في بعض الأوقات، في بداية شهر سقوط الأمطار، يظهر نوع من الزهور البرية وردية اللون والبيضاء تنشر عطرها الغني في أرجاء المحمية كلها حتى أن السهول تبدو عن بعد وكأنها مكسوة برقع من الثلج.

لقد لجأت إلى عالم الحيوانات بعيدًا عن عالم الرجال؛ كان قلبي مثقلاً بمأساة الليلة الفائتة. هؤلاء الرجال المسنون الجالسون عند منزلي جعلوني أشعر بالضيق؛ في الأزمنة القديمة كان الناس لديهم الشعور ذاته حينما يظنون أنه ربما تكون ساحرة جارة لهم قد ركزت كل تفكيرها عليهم، أو كانت في تلك اللحظة بالذات تحمل تمثالاً مصنوعًا من الشمع لطفل تحت ملابسها، لكي تعمده باسمهم.

كانت لعلاقتي بالسكان المحليين في الشئون القانونية الخاصة بالمزرعة طبيعة غريبة. حيث إنني، قبل أي شيء، كنت أريد أن يحل السلام على الأرض، لم أكن أستطيع أن أنفصل عنهم؛ لأن أي نزاع بين متشاجرين، لا يتم تسويته بشكل رصين كان بمثابة تلك الآلام التي تشعر بها في أفريقيا، والتي يسمونها هناك حروقًا: إنها تشفى سطحيًا إذا تركتها، وتستمر في التدهور والسريان تحت الجلد حتى تحفر لكي تصل للقاع لتنظفه كله. كان السكان المحليون أنفسهم على وعي بذلك، وإذا أرادوا بالفعل تسوية أمر من الأمور كانوا يطلبون مني أن أصدر حكمًا.

ولأنني لم أكن أعرف شيئًا عن قوانينهم فقد كنت أتخذ في تلك المحاكمات الكبيرة مظهر المغنية الأولى في الأوبرا التي لا تتذكر كلمة من دورها، وينبغي أن يذكرها به بقية الفريق. هذه المهمة كان يتولاها الشيوخ بالدبلوماسية والصبر. في أوقات أخرى قد يتخذ المشهد أيضًا شكل مغنية الأوبرا الأولى المنزعجة والمصدومة بسبب دورها وترفض أن تستمر في أدائه فتنصرف عن خشبة المسرح. حينما يحدث ذلك، كان جمهوري يعتبرها صفعة قاسية من يد القدر، فعلاً سماويًا خارجًا عن نطاق فهمهم؛ كانوا يتأملون الموقف في سكون ويبصقون.

إن أفكار العدالة في أوروبا وأفريقيا ليست واحدة وتلك الخاصة بعالم لا يمكن تحملها في عالم آخر. بالنسبة للأفريقي هناك طريقة واحدة لمعادلة كوارث الحياة، ينبغي أن تتم عن طريق الإحلال؛ إنه لا يبحث عن دافع الفعل. لا يختلف الأمر إن رقدت في انتظار عدوك لتقطع رقبته في الظلام؛ أو أسقطت شجرة، ومر غريب عابر فوقعت عليه وقتلته: ما دام هناك من ينفذ العقوبة. الشيء نفسه بالنسبة لعقل المحليين. إن الفقد يعوضه المجتمع، وينبغي أن يحدث ذلك، في مكان ما، بواسطة شخص ما. لن يخصص المواطن المحلي وقتًا لموازنة الذنب أو الجزاء: بل إنه يخشى أن يقوده هذا الأمر إلى نقطة بعيدة جدًا أو أن يفكر في أن مثل تلك الأشياء

ليست ذات أهمية بالنسبة له. ولكنه سيكرس تفكيره، في مضاربات لانهائية، لمناقشة السبيل لموازنة أمر ارتكاب جريمة أو وقوع كارثة بحجم الخراف والماعز التي ينبغي أن تعوضها- وهكذا فإن الوقت لا يعني له شيئًا؛ إنه يقودك بشكل محزن إلى متاهة ذهنية. في تلك الأيام لم تكن تلك الطريقة تتوافق مع أفكاري الخاصة عن العدالة.

كل الأفارقة متشابهون في تلك الطقوس. للصوماليين طريقة تفكير مختلفة للغاية مقارنة بأهالي الكيكويو، ويحملون لهم ازدراءً عميقًا، ولكنهم سيجلسون بالأسلوب ذاته لكي يوازنوا التعويض المناسب لجريمة قتل أو اغتصاب، أو مؤامرة ضد قطعانهم هناك في الأراضي الصومالية- حيث يحفظون في قلوبهم أسماء الإناث من الجمال والخيول المحبوبة لديهم وأيضًا تلك الأنواع النادرة.

ذات مرة شاعت الأخبار في نيروبي عن حادثة قيام أخي فرح الصغير، الذي كان في العاشرة من عمره، بالتقاط حجر وإلقائه على طفل من قبيلة أخرى، محطمًا سنتين من أسنانه. بهذا الخصوص التقى ممثلون من كلتا القبيلتين في المزرعة لكي يجلسوا على أرض منزل فرح ويتحدثون، ليلة وراء أخرى. جاء رجال مسنون ذوو ظهور محنية، كانوا في زيارة لمكة، وكانوا يرتدون عمائم خضراء اللون، وشباب صوماليون متغطرسون، كانوا يعملون كحاملي أسلحة للرحالة والصيادين الأوروبيين العظام حينما لا يكون هناك ما يلزمهم بحضور مثل تلك الأمور المهمة، والصبية ذوو العيون الداكنة والوجوه المستديرة، الذين كانوا يمثلون بحياء أسرهم، كانوا لا ينطقون بكلمة ولكنهم ينصتون بإخلاص ويتعلمون. أخبرني فرح بأن الأمر يعد خطيرًا جدًا؛ لأن وجه الطفل قد تشوه: قد يواجه صعوبة، حينما يحين وقت زواجه، وقد تنخفض مسوغاته في مقابل سن أو جمال عروسته. في النهاية ثبتت العقوبة إلى تعويض بخمسين جملاً، ما يعني نصف

الدية، حيث إن الدية الكاملة تساوي مائة جمل. اشترت القبيلة إذن خمسين جملاً في الأراضي الصومالية البعيدة، لكي تضاف، بعد عشر سنوات، إلى ثمن العروسة الصومالية، ولكي تشيح بعينيها بعيدًا عن السنتين المفقودتين لعريسها؛ ربما كانت هذه هي التسوية المناسبة لتلك المأساة. أما فرح فقد خرج من المأزق بسهولة، حسبما أعتقد.

لم يدرك المواطنون المحليون أبدًا وجهة نظري في أنظمتهم القانونية، وكانـــوا يأتـــون إليَّ قبل أي شيء من أجل مسألة التعويضات حينما يصيبهم أي حظ سيئ.

في إحدى المرات، في موسم جني البن، دهست عربة يجرها ثور مخصي فتاة صغيرة من قبيلة الكيكويو تدعى وامبوي خارج منزلي وقتلتها. كانت العربات تنقل البن من الحقل إلى المصنع، وكنت قد منعت الجميع من قيادتها. بخلاف ذلك، كان ينبغي في كل رحلة أن أصطحب مجموعة من الفتيات المرحات اللاتي يقمن بقطف البن والأطفال الذين يتمتعون بنزهة بطيئة- لأنه يمكن لأي شخص أن يمشي أسرع من العجل الصغير- عبر المزرعة كلها، وكانوا يشكلون حملاً ثقيلاً على عجولي الصغيرة. هؤلاء الصغار الذين كانوا يقومون بالقيادة، على الرغم من ذلك، لم يعمدوا لأن يبعدوا عن طريقهم الفتيات الحالمات اللاتي كن يركضن بجوار عرباتهم ويتوسلن إليهم أن يمنحوهن مثل تلك المتعة الرائعة؛ كل ما استطاعوا فعله هو أن يشيروا إليهن أن يقفزن من العربة حينما يبدأ طريق منزلي من الاقتراب من مرمى البصر. ولكن وامبوي سقطت وهي تقفز ودهست عجلات العربة رأسها الســـوداء الصغيـــرة وكســـرت جمجمتهـــا؛ جرى خط صغير من الدماء على مسار العربة.

أرسلت في طلب أبيها وأمها العجوزين، اللذين قدما من حقل قطف البن كانا ينتحبان من أجلها. كنت أعرف أن ذلك قد يعني أيضًا خسارة فادحة بالنسبة لهم؛ لأن الفتاة كانت في سن الزواج، وكانت ستجلب لهم بمهرها الخراف والماعز وبقرة صغيرة أو اثنتين. هذا الأمر كانا يتطلعان إليه منذ ميلادها. كنت أفكر إلى أي حـــد ينبغي أن أســـاعدهما، حينما لجآ إلى بطاقة مذهلة، مطالبين إياي بتعويض كامل.

قلتُ: لا، لن أدفع شيئًا. لقد أخبرت الفتيات في المزرعة ألا يركبن العربات، كل الناس يعرفون ذلك. أومأ العجوزان؛ لم يكن هناك شيء هنا لم يوافقا عليه، ولكنهمـــا تشبثا بمطلبهمـــا. كانا يجادلان بأن شخصًا ما ينبغي أن يدفع التعويض. لم يكونا ليقتنعا بما يخالف المبدأ المغروس في رأسيهما، ولا أن يدرك عقلاهما بالطبع نظرية النسبية. ولم يكن الطمع أو الضغينة التي، حينما قطعت المناقشة وتركتهما عائدة للمنزل، هما ما دفعهما لتتبع خطوات قدميّ؛ كان الأمر وكأنني كنت بالفعل مغنطيسية، إنه قانون الطبيعة.

جلسا وانتظرا أمام بيتي. كانا فقيرين، ضئيلي الحجم وضعيفين؛ مثل حيواني فرو الغرير صغيرين في المرج الأخضر المجاور لمنزلي. جلسا هناك حتى غربت الشمس، وكان من الصعب أن أميزهما من بين الأعشاب. لقد غرقا في حزن عميق؛ لوعتهما وفقدهما المالي قد ذابا في شعور طاغ بالأسى. كان فرح غير موجود في ذلك اليوم، أثناء غيابه، وفي ذلك الوقت الذي تضاء فيه المصابيح في منزلي، أرسلت لهم مالاً لكي يبتاعوا خروفًا ليأكلوا. كان تصرفًا سيئًا من جانبي؛ فقـــد اعتبـــراه إشارة أولى للانهيار في مدينة محاصرة وظلا جالسين طيلة الليل. لا أعرف إن كانا ينتويان أن يرحلا في مثل ذلك الوقت المتأخر من الليل، لولا أنهما قد أدركا فكرة أن يحولا هجومهما إلى سائق العربة الصغير ويعتبراه مسئولاً

عن الخسارة التي لحقت بهما. تلك الفكرة جعلتهما ينهضان عن العشب ويرحلان بعيدًا، بشكل مفاجئ، بدون أن يقولا كلمة، وجعلتهما يذهبان في الصباح الباكر إلى داجوريتي، حيث يعيش القائم بمهام مساعد الحي.

لقد جلب ذلك للمزرعة قضية قتل طويلة الأجل والكثير من ضباط الأمن من الشبان المحليين المتغطرسين. ولكن كل ما عرضته الـ"A.D.C" لهم هو أن يشنق السائق جزاءً على القتل، وحتى هذا الأمر قد تخلى عنه حينما حصل على دليل القضية، ولم يستطع العجوزان أن يقيما قيامة بهذا الشأن، حيث قمنا أنا وهو بإغلاق هذه القضية. وهكذا، في نهاية الأمر اضطر العجوزان أن يستسلما لقانون النسبية الذي لم يفهما منه كلمة واحدة، كما اضطر آخرون للاستسلام له أيضًا.

في بعض الأوقات كان ينتابني الإرهاق من العجائز الذين يمارسون تلك القيامة، وكنت أقول لهم ما أفكر به حيالهم- "أنتم أيها العجائز"، قلت لهم، "تفرضون غرامة على الشباب حتى يكون من المستحيل عليهم أن يدخروا أي أموال لأنفسهم. لا يستطيع الشباب أن يتحركوا بسببكم، ثم تقومون أنتم أنفسكم بشراء كل الفتيات". كان الرجال المسنون يستمعون باهتمام، بينما تتوهج تلك العيون الصغيرة في وجوههم المتجعدة الجافة، كانت شفاههم تتحرك برقة وكأنهم يكررون كلماتي: كانوا سعداء لسماعهم، لمرة واحدة، مبدأ ممتازًا يقال في شكل خطابي.

برغم كل آرائنا المختلفة، انطوت مكانتي كقاضية لقبيلة الكيكويو على طاقات كامنة وافرة لديّ، وكانت أمرًا عزيزًا على نفسي. كنت صغيرة السن في ذلك الوقت، وكنت قد تأملت مليًا أفكار العدالة والظلم، ولكن غالبًا من وجهة نظر الشخص الذي تجري محاكمته؛ لم أكن حقيقة في مقعد القاضية. كنت أعاني كثيرًا لكي أصدر حكمًا صائبًا، ومن أجل أن يحل السلام في المزرعة. في بعض

الأحيان، حينما تصبح المشاكل معقدة، كان عليّ أن أتنحى عن منصبي وأمضي وقتًا في التفكير مليًا في الأمور، وأنا أغطي رأسي بعازل ذهني حتى لا يأتي أحد ويتحدث معي عنها. كان ذلك دومًا تصرفًا فعالاً مع العاملين في المزرعة، وكنت أسمعهم، بعد ذلك بوقت طويل، يتحدثون باحترام عن قضية معقدة جدًا، حتى أنه لا يمكن لأحد أن يتدبرها في أقل من أسبوع. يستطيع المرء دومًا أن يؤثر في مواطن محلي بإضاعة وقت أكبر في أمر ما، أكثر مما قد يضيعه هو نفسه، إنه فقط أمر صعب إنجازه.

ولكن أن يريد المواطنون المحليون أن يتخذوني كقاضية لهم، ويعتبرون حكمي ذا قيمة بالنسبة لهم، هو أمر يمكن أن يكون له تفسير في معتقداتهم الأسطورية أو اللاهوتية. لقد فقد الأوربيون القدرة على بناء معتقدات أو خرافات، ونعتمد على إمدادات الماضي في حاجتنا لمثل تلك الأشياء. ولكن عقل الأفريقي يتحرك بشكل طبيعي وبسهولة عبر تلك المسارات العميقة والظليلة. إن موهبتهم تلك تظهر بقوة في علاقتهم بذوي البشرة البيضاء.

إنك تجد ذلك بالفعل في الأسماء التي يتعاملون بها مع الأوروبيين الذين يظلون على اتصال بهم بعد تعارف قصير. عليك أن تعرف تلك الأسماء إن أردت أن ترسل أحدهم راكضًا لكي يسلم رسالة لصديق، أو لكي تجد الطريق لكي تصل بسيارة لمنزله، لأن عالم المواطنين المحليين لا يعرف له اسمًا آخر. كان لديّ جار غير اجتماعي، لم يكن ليرفه أبدًا عن ضيف في منزله، كان يطلقون عليه اسم ساهانا مودجا- غطاء واحد. أما صديقي السويدي إيرك أوتر فقد حظي باسم ريسيس مودجا- أو طلقة واحدة، وهو ما كان يعني أنه لا يحتاج أكثر من طلقة واحدة لكي يقتل، وهو ما كان يعد اسمًا لطيفًا ينادونه به. كان هناك قائد سيارة ماهر من معارفي كانوا يلقبونه بـــ "نصف إنسان- نصف عربة". حينما كان

المواطنون المحليون يلقبون الرجال البيض بأسماء الحيوانات- السمكة، والزرافة، والثور السمين، كانت عقولهم تعرف معاني الحكايات الخرافية القديمة، حيث يظهر هؤلاء الرجال البيض، كما أعتقد، في وعيهم المظلم على شكل رجال وكائنات متوحشة.

وهناك سحر في الكلمات: إن الشخص الذي عرف لسنوات طويلة لكل من حوله باسم حيوان، يصل في النهاية لشعور بأنه متآلف معه ومنتسب إليه. وحينما يعود إلى أوروبا، يبدو من الغريب بالنسبة له أن يشعر بأنه لم يعد أحد ينسبه إليه.

في إحدى المرات، في حديقة حيوان لندن، رأيت مرة أخرى مسئولاً حكوميًا عجوزًا متقاعدًا، كنت أعرفه في أفريقيا بلقب بوانا تيمبو، السيد فيل. كان يقف، منفردًا تمامًا، أمام بيت الفيل، وهو غارق في تأمل عميق للأفيال. ربما كان كثيرًا ما يذهب إلى هناك. ربما فكر خادماه المحليان، وفقًا لترتيب مسار الأمور، أنه ربما سيذهب إلى هناك، ولكن لم يكن من المحتمل أن يكون هناك في لندن كلها، باستثنائي- حيث مكثت هناك أيامًا قليلة- من سيفهمه تمامًا كما فعلت.

يعمل ذهن المواطن المحلي بطرق غريبة، ويتصل بشكل ما بعقول أناس راحلين تخيلوا بشكل طبيعي أن أودن(٥)، لكي يتمكن من النظر إلى العالم برمته، تخلى عن إحدى عينيه؛ وتخيل إله الحب بوصفه طفلاً، يجهل معنى الحب. من المحتمل أن يكون ناس كيكويو قد رأوا عظمتي كقاضية في كوني لا أعرف شيئًا البتة عن القوانين التي أحكم بموجبها.

بسبب موهبتهم في نسج الخرافات، يمكن للمواطن المحلي أيضًا أن يفعل أشياء لك لا يمكن أن تحمي نفسك أو أن تفلت منها. يمكنهم أن يحولوك إلى رمز. كنت على وعي كبير بهذه العملية، ولاستخدامي الشخصي كنت أحتفظ بكلمة لها- في ذهني كنت أقول إنهم يحولونني إلى ثعبان وقح(٦). سوف يفهم الأوربيون الذين

عاشوا لفترة طويلة مع المواطنين المحليين ما أقصده، حتى وإن كانت الكلمة ليست مستخدمة طبقًا للكتاب المقدس. أعتقد أنه بالرغم من كل أنشطتنا في الأرض، بالرغم من كل التقدم العلمي والتقني هناك، وبالرغم من السلام البريطاني(٧) ذاته، تلك هي فقط الفائدة العملية الوحيدة التي استفادها المحليون منا.

لم يتمكنوا من الاستفادة من كل الرجال البيض لهذا الغرض، وليس بشكل مساو من رجل لآخر. لقد منحونا، داخل عوالمهم، أولوية للترتيب وفقًا لفائدتنا بالنسبة لهم كثعابين وقحة. لقد وضع المحليون العديد من أصدقائي- دينيس فينش- هاتون، كل من جالبريث وبيركلي كول، السيد نورثرب ماكميلان، في مرتبة عالية بسبب منزلتهم لديّ.

كان اللورد ديلامير ثعبانًا وقحًا من الدرجة الأولى. أتذكر أنني ذات مرة سافرت في الأراضي العالية في الوقت الذي تعرضت الأرض فيه لوباء الجراد. كان الجراد هناك العام السابق، الآن ظهر أبناؤهم الصغار ذوو اللون الأسود، لكي يأكلوا ما قد تركوه، ولكي لا يتركوا ورقة عشب واحدة حيثما يمرون. بالنسبة للسكان المحليين كان ذلك ضربة مزعجة؛ بعد ما مروا به كان ذلك أكثر من احتمالهم بكثير. لقد انكسرت قلوبهم، تنهدوا، أو انتحبوا مثل الكلاب التي تلفظ أنفاسها الأخيرة، ألقوا رؤوسهم في مواجهة الحائط. ثم تصادف أن أخبرتهم كيف أنني قدت السيارة خلال مزرعة ديلامير ورأيت الجراد فوقها، في المكان كله، في الحقول الصغيرة المجاورة للإسطبلات التي يكسوها العشب وفي المراعي، وأضفت أن ديلامير كان في شدة الغضب واليأس بشأنها. في تلك اللحظة ذاتها أصبح المستمعون هادئين، وشعروا بالارتياح. سألوني: ماذا قال ديلامير عن حظه التعس؟، ومرة أخرى طلبوا مني أن أكرر ذلك، ثم لم يقولوا شيئًا.

لم أكن، بوصفي ثعبانًا وقحًا، أحمل ثقل اللورد ديلامير، لا زالت هناك مناسبات حينما أكون فيها ذات نفع للسكان المحليين.

خلال الحرب، حينما حلت كارثة حاملة السفن كوربس بالعالم المحلي بأســره، اعتــاد المستأجــرون غيــر القانونيين أن يأتوا ويجلسوا حول منزلي. لم يتحدثوا، ولا حتى فيما بينهم، لقد سلطوا عيونهم عليَّ، وصنعوا مني ثعبانهم الوقح. لم أستطع أن أبعدهم؛ لأنني كنت أرى أنهم لم يقوموا بأي أذى، إلى جانب ذلك، لو أنني فعلت ذلك، لذهبوا وجلسوا في مكان آخر. لقد كان على نحو انفرادي أمر يشق على المرء احتماله. لقد عاونني في هذا الأمر أن كتيبة أخي كانت قد أرسلت في ذلك الوقت إلى أقصى خندق عند فيمى ريدج: كان بإمكاني أن أحول نظري إليه وأجعل منه الثعبان الوقح خاصتي.

جعل مني أهالي الكيكويو رئيسة المنتحبات، أو امرأة الأحزان، حينما يحل بأس شديد علينا في المزرعة. هذا ما كان سيحدث الآن في حادثة إطلاق النار. لأنني حزنت حزنًا شديدًا على الأطفال، وجد ناس المزرعة الأمر مناسبًا؛ لأن يضعوا الأمر جانبًا في الوقت الحالي. فيما يتعلق بحظنا السيئ، كان المحليون ينظرون إليَّ كما ينظر المتعبدون للقس الذي يشرب الكأس وحده نيابة عنهم.

هناك ذلك الأمر فيما يتعلق بصنعة الساحرة الشريرة، التي بمجرد أن تمارس سحرها عليك، لن تستطيع أن تخلص نفسك أبدًا منه. فكرت أنه أمر مؤلم، مؤلم حقًا أن تعلق نفسك على العصا، تمنيت أن أستطيع الإفلات من ذلك. لا زال، بعد ذلك بسنوات كثيرة، ستكون هناك مناسبات حينما تجد نفسك تفكر: "هل سأعامل بمثل تلك الطريقة؟- أنا من كنت بالنسبة لهم ثعبانًا وقحًا!".

وأنا أمتطي جوادي عائدة إلى المزرعة، عابرة النهر وواقعيًا أخوض في المياه، قابلت مجموعة من أبناء كانينو، ثلاثة شباب وصبي. كانوا يحملون الرماح

وجاءوا بسرعة. حينما أوقفتهم وسألت عن أخبار أخيهم كابيرو، وقفوا والماء يكاد يصل إلى ركبتهم، ووجوههم ساكنة- لا زالت- وعيونهم منخفضة؛ تحدثوا ببطء، قالوا: كابيرو، لم يعد ثانية، ولم يسمع أحد عنه بعدما هرب الليلة الماضية. كانوا متأكدين الآن أنه قد لقي حتفه. ربما قتل نفسه يأسًا- حيث إن فكرة الانتحار تأتي بشكل طبيعي جدًا لكل السكان المحليين، وحتى لأطفالهم- أو أنه قد ضل طريقه بين الأشجار الصغيرة والتهمته الحيوانات الوحشية. انتشر إخوانه في المكان بحثًا عنه في كل الاتجاهات؛ إنهم الآن في طريقهم إلى المحمية، محاولين أن يجدوه هناك.

حينما وصلت لضفة النهر في الأرض الخاصة بي، التفت وألقيت نظرة على السهل؛ كانت أرضي على مستوى مرتفع من أرض المحمية. لم يكن هناك إشارة للحياة في أي مكان على السهل، فيما عدا طريق طويل كانت الحمير المخططة ترعى فيه وتتقافز هنا وهناك. بينما ظهرت مجموعة الباحثين من الشجيرات من الناحية الأخرى للنهر، مضوا مسرعين، سائرين واحدًا وراء الآخر؛ بدت المجموعة الصغيرة مثل دودة قز قصير يتلوى بسرعة في طريقه عبر الأعشاب. في بعض الأوقات تومض الشمس على أسلحتهم. يبدو أنهم واثقون تمامًا من اتجاههم، ولكن ماذا يعني ذلك؟ في بحثهم عن الطفل المفقود، سيكون مرشدهم الوحيد هو النسور التي دومًا ما تحلق في السماء فوق جسد ميت على السهل، وسوف تعطيك النقطة الصائبة لضحية قتلها الأسد.

ولكنه مجرد جسد صغير جدًا، ليس مهرجانًا حقيقيًا لنسور السماء؛ لن يكون هناك الكثير منهم لكي يحددوا مكانه، ولن يبقوا هناك لوقت طويل.

كان التفكير في كل ذلك أمرًا محزنًا. عدت للمنزل ممتطية جوادي.

واماي

ذهبت إلى "القيامة" يتبعني فرح. كان فرح دومًا معي في تعاملاتي مع أهالي الكيكويو؛ لأنه بينما يظهر إحساسًا ضئيلاً بمعاركه الشخصية، ومثل كل الصوماليين سيفقد عقله تمامًا حينما يتعلق الأمر بمشاعره وضغائنه القبلية، فإنه يبدو حكيمًا ودبلوماسيًا حينما يتعلق الأمر بالنزاعات بين الناس. إلى جانب ذلك، كان المترجم خاصتي، حيث كان يتحدث السواحيلية بمهارة شديدة.

علمت قبل أن أصل إلى التجمع أن الموضوع الرئيسي للمفاوضات كان تجريد كانينو بقدر الإمكان من ممتلكاته. سيجد خرافه تذهب في كل اتجاه، بعضها لتعويض أسر الأطفال المقتولين والمصابين، وبعضها لاستمرار القيامة. من البداية كان ذلك في غير صالحي؛ لأن كانينو، كما أعتقد، قد فقد ابنه مثل الآباء الآخرين، وبدا لي أن قدر طفله الأكثر مأساوية من غيره، كان قد لقي واماي حتفه، وانتهى الأمر، ووانيانجيري في المستشفى، حيث هناك من يعتنون به، ولكن كابيرو قد تخلى عنه الجميع، ولا يعرف أحد أين ترقد عظامه.

الآن أعار كانينو نفسه بشكل استثنائي تمامًا لدور الثور، حيث بدا وكأنه قد جرى تجهيزه كثور سمين لمهرجان أو عيد. لقد كانَ واحدًا من كبار المؤجرين غير القانونيين للأرض، في قائمة المؤجرين يمتلك خمسة وثلاثين رأسًا من الخراف، خمس زوجات، وستين ماعزًا. كانت قريته قريبة من غابتي: ولهذا السبب كنت أرى أبناءه وقطيع الماعز خاصته كثيرًا، وكنت ألجأ بشكل مستمر لنسائه ليقمن بقطع أشجاري الكبيرة. لم يعرف أهالي الكيكويو شيئًا عن الرفاهية:

أكثرهم ثراءً كان يعيش مثل الفقراء، وإن ذهبت إلى كوخ كانينو لم أكن لأجد شيئًا هناك له علاقة بالأثاث ربما باستثناء مقعد خشبي صغير لأجلس عليه. ولكن كان هناك عدد من الأكواخ في قرية كانينو، وعدد وافر من النساء العجائز، والشباب والأطفال. وصف طويل من الماشية، في وقت حلب الأبقار عند الغروب، متقدمة باتجاه القرية عبر السهول، تمشي برقة، ملقية بظلالها الزرقاء على العشب بجانبهم. كان كل ذلك يمنح الرجل العجوز محني الظهر المغطى بالجلد، وشبكة التجعيدات اللطيفة في وجهه الداكن الخبيث الممتلئ بالأوساخ، هالة أرثوذكسية لثري المزرعة.

كان لي مع كانينو العديد من المناقشات العنيفة. كنت أهدده بالفعل بالطرد من المزرعة، بسبب أمر خاص به. كان كانينو على علاقة طيبة بقبيلة الماساي المجاورة له، ومنح أربعًا أو خمسًا من بناته كزوجات لرجال الماساي. أخبرني أهالي الكيكويو أنفسهم كيف أن رجال الماساي في السنين الماضية كانوا يفكرون بينهم وبين أنفسهم أن يتزاوجوا مع نساء الكيكويو. ولكن في أيامنا هذه، كان على تلك الأمة الغريبة المحتضرة، لكي تؤجل اختفاءها الأخير، أن تنتقص من كبريائها؛ لم تعد نساء الماساي ينجبن أبناء بينما ازداد الطلب على شابات الكيكويو من أبناء القبيلة. كل أبناء كانينو كان لهم مظهر حسن، وقد جلب مرة أخرى عددًا من الأبقار الناعمة المرحة الصغيرة عبر حدود المحمية في مقابل تزويج بناته. أصبح الكثير من أرباب الأسر المسنين من الكيكويو أثرياء في هذا الوقت بالطريقة ذاتها. لقد أرسل الرئيس الكبير للكيكويو، كينانجوي، كما أخبروني، أكثر من عشرين ابنة له للماساي، وحصل على أكثر من مائة رأس من الماشية منهم في المقابل.

ولكن منذ عام مضى كانت محمية الماساي قد وضعت تحت الحجر الصحي بسبب أمراض خاصة بالفم والقدمين، ولم يكن من الممكن أن يؤخذ منها قطعان.

وكان ذلك بمثابة ورطة ضخمة في وجود كانينو؛ لأن قبيلة الماساي متجولة، ويغير أفرادها منازلهم طبقًا للموسم والمطر، والمرعى، وتلك الأبقار في قطعانهم التي يمتلكها كانينو قانونيًا قد سحبت عبر الأراضي التي قد تبعد مائة ميل في بعض الأحيان، حيث لا يعرف أحد ما يجري لها. كان الماساي تجار ماشية لا أخلاقيين مع الجميع، وبشكل خاص مع الكيكويو الذين يكرهونهم. إنهم محاربون جيدون ويقال إنهم عشاق رائعون. في قبضتهم كانت تتحول قلوب بنات كانينو مثل قلوب نساء وسط إيطاليا قديمًا، ولا يعود بالإمكان الاعتماد عليهن. ولهذا فإن الكيكويو العجوز العبقري لجأ لأن يجعل خرافه تنتقل مساء عابرة الماء إلى مزرعتي، حينما يكون مفوض المنطقة وإدارة الماشية نائمين. لقد كان ذلك سلوكًا بشعًا من جانبه؛ لأن نظام الحجر من بين تلك الأشياء التي يفهمها المحليون ويقدرونها بشكل كبير. فإذا ما عثر على تلك الأبقار في أرضي، فإن المزرعة ذاتها كانت ستوضع تحت الحجر. ولهذا فقد وضعت حراسًا بجوار النهر ليمسكوا بخدم كانينو، وفي الليالي القمرية كان هناك الكثير من الكمائن الضخمة، ورحلات جوية سريعة عبر المجرى الفضي، حتى أن الأبقار الصغيرة، التي تحول إليها كل الاهتمام، كانت تتدافع وتجري بعيدًا في كل الاتجاهات.

من الناحية الأخرى، كان جوجونا والد الطفل واماي المقتول، رجلاً فقيرًا. كان لديه فقط زوجة مسنة، وكل ما كان يملكه في العالم ثلاثة رؤوس من الماعز. لم يكن من المحتمل أن يمتلك أكثر من ذلك؛ لأنه شخص بسيط جدًا. كنت أعرف جوجونا جيدًا. وقع قبل الحادثة، ومجلس القيامة بعام حادث قتل بشع في المزرعة. قُتل ليلاً اثنان من الهنود اللذين كانا يؤجران مصنعًا مني يقع هناك بعيدًا عند النهر، وكانوا يطحنون فيه الذرة من أجل الكيكويو، وسرقت بضائعهما، ولم يعثر على الجناة أبدًا. لقد أثار الحادث الرعب في قلوب كل الهنود والباعة في متاجر الحي وأبعدهم عن المكان، وكأن عاصفة قد عصفت بهم؛ كان علي أن أسلح بوران

سينج العامل في مصنعي بمسدس قديم لكي أبقيه في العمل، حتى أن ذلك الأمر تطلب مني جهدًا لإقناعه. كنت أظن أنا نفسي، في الليالي الأولى بعد الحادث، إنني أسمع خطوات أقدام حول منزلي، ولهذا ولأسبوع تال أبقيت حارسًا ليليًا هناك، وكان هذا الرجل هو جوجونا. كان لطيفًا جدًا، ولم يكن له فائدة ترجى إزاء القتلة، ولكنه كان رجلاً عجوزًا ودودًا، ويبعث فيك السرور حينما تتحدث إليه: كان له سلوك طفل سعيد، ولديه تعبير على وجهه العريض، تعبير ينم عن الإلهام والحرص، وكلما نظر إليّ كان يضحك. إنه الآن يبدو مسرورًا جدًا لدى رؤيتي في القيامة.

ولكن القرآن ذاته، الذي كنت أدرسه في تلك الأيام، يقول: إننا لا ينبغي أن تطوع عدالة القانون لمصلحة الفقراء.

بخلافي، كان هناك على الأقل عضو واحد من أعضاء المجلس يدرك أن غرضه الآن كان سلخ جلد كانينو: كان ذلك كانينو ذاته. جلس بقية العجائز حولنا، منتبهين للغاية وبكل حواسهم اجتمعوا للمحاكمة. سحب كانينو، الجالس على الأرض، عباءته الكبيرة المصنوعة من جلد الماعز فوق رأسه، وكان من وقت لآخر يصدر من تحتها نشيج أو أزيز، مثل ذلك الذي يصدر عن كلب قد أنهكه النباح ويريد فقط أن يبقى بؤسه على مسمع ممن حوله.

كان الرجال المسنون يريدون أن يبدءوا بقضية الطفل الجريح وانيانجيري؛ لأنها تمنحهم فرصة لا نهائية للجدال. ما هو التعويض الذي كان سيقتضيه الأمر لو أن وانيانجيري قد مات؟ أو تشوه؟ أو فقد قدرته على الكلام؟ أخبرهم فرح نيابة عني أنني لن أناقش هذا الأمر حتى أذهب إلى نيروبي وأتحدث مع طبيب المستشفى. ابتلعوا خيبة أملهم، وتحولوا بجدالهم للقضية الثانية الجاهزة.

أخبرتهم بواسطة فرح أن الأمر يعود لمجلس القيامة إن أراد أن ينهي هذه القضية بسرعة، وأنه ينبغي عليهم ألا يمضوا بقية حياتهم في مناقشتها. كان من الواضح أنها ليست قضية قتل، وإنما حادث سيئ.

أسبغ أعضاء القيامة الشرف على حديثي بانتباههم إليه، ولكن بمجرد أن انتهيت منه عارضوه.

قالوا: "ماسابو، نحن لا نعرف أي شيء". "ولكن هنا نرى أنك لا تعرفين ما يكفي أيضًا، ونحن لا نفهم سوى القليل مما تقولينه لنا. إن ابن كانينو هو من أطلق الرصاص. وإلا فكيف حدث أنه الوحيد الذي لم يصب بهذه الطلقة؟ إن أردت أن تسمعي المزيد عن الأمر فإن موج هنا سوف يخبرك. فقد كان ابنه هناك واخترقت الرصاصة إحدى أذنيه".

كان موج أحد الأثرياء من مؤجري الأرض غير القانونيين، يعد بشكل نسبي منافسًا لكانينو فيما يتعلق بالمزرعة. كان ينظر إليه بوصفه رجلاً حكيمًا جدًا، كلماته لها وزن، على الرغم من أنه يتكلم ببطء شديد ومن وقت لآخر كان عليه أن يتوقف ليفكر. قال: "ماسابو، أخبرني ابني أن الأطفال قد أمسكوا المسدس واحدًا تلو الآخر وصوبوه تجاه كابيرو. ولكنه لم يشرح لهم كيف يطلقون النار، لم يكن ليشرح لهم ذلك مطلقًا. في النهاية، أخذ المسدس مرة أخرى، وفي اللحظة ذاتها انطلقت الرصاصة، وأصابت كل الأطفال، وقتلت واماي، ابن جوجونا. هذا ما حدث بالضبط".

قلت: "إنني أعرف ذلك بالفعل، وهذا ما يسمى حظًا سيئًا أو حادثًا. قد أطلق النار من منزلي، أو تطلقه أنت يا موج من منزلك".

خلق هذا زوبعة كبيرة في القيامة. نظروا كلهم إلى موج، الذي بدا قلقًا جدًا. ثم تحدثوا لبعض الوقت بين أنفسهم، بصوت خفيض جدًا، وكأنهم يتهامسون. وفي النهاية عادوا إلى نقاشهم مرة أخرى، قالوا: "ماسابو، هذه المرة نحن لا نفهم كلمة واحدة مما تقولين. يمكننا أن نصدق فقط أنك تفكرين في بندقية، حيث إنك تطلقين الرصاص بمهارة. لو كان الأمر يتعلق ببندقية، لكان رأيك صائبًا تمامًا. ولكن لا أحد يمكنه أن يطلق رصاصة من مسدس من منزلك أو من منزل موج، حتى من بيت بوانا مينانيا، ويقتل من في المنزل".

قلت، بعد صمت قصير: "الكل يعرف الآن أن ابن كانينو هو من أطلق الرصاص من المسدس. سيقوم كانينو بإعطاء جوجونا عددًا من الخراف لتعويض خسارته. ولكن الكل يعلم أيضًا أن ابن كانينو لم يكن بطفل سيئ، ولم يعمد إلى قتل واماي، وأن كانينو لن يدفع عدد الخراف ذاتها التي كان سيدفعها إن كانت تلك هي القضية".

وهنا تحدث رجل عجوز اسمه أوارو. كان على اتصال وثيق بالحضارة أكثر من الآخرين، حيث كان قد قضى سبع سنوات في السجن.

قال: "ماسابو، أنت تقولين إن ابن كانينو لم يكن شريرًا، ولهذا فإن كانينو لن يعطي عددًا كبيرًا من الخراف. ولكن إن كان ابنه يريد قتل واماي، وكان لهذا ولد شرير جدًا، هل هذا أمر جيد لكانينو؟ هل كان ذلك ليسره جدًا، أن عليه أن يمنح عددًا أكبر من الخراف؟".

قلت: "أوارو، أنت تعلم أن كانينو قد فقد ابنه. أنت تذهب للمدرسة بنفسك، وتعلم أن هذا الطفل كان متفوقًا في دراسته. إن كان طفلاً جيدًا في كل الجوانب الأخرى، فإن فقدانه أمر سيئ جدًا بالنسبة لكانينو".

ساد صمت طويل، لا صوت في الحلقة المجتمعة. انتهى الأمر بنحيب طويل أطلقه كانينو، وكأن ثمة من ذكره فجأة بألمٍ منسيٍّ أو واجبٍ ينبغي أن يقوم به.

"ميمصاحب،" قال فرح، "دعوا رجال الكيكويو هؤلاء ليقرروا الرقم الذي يرغبون فيه". تحدث بالسواحيلية لي، حتى يفهمه المجلس، ونجح بسهولة في إثارة التوتر بينهم؛ لأن الرقم أمر محدد، لا يحب أي محلي أن يقرره. جعل فرح عينيه تجولان في الحلقة المجتمعة ثم اقترح بطريقة متعجرفة: "مائة". مائة خروف كان رقمًا رائعًا، لم يكن لأحد أن يفكر فيه بجدية. حل صمت على مجلس القيامة. شعر الرجال العجائز أنهم كانوا تحت رحمة سخرية تجيئهم من صومالي، واختاروا أن يتستروا منها. همس رجل عجوز جدًا "خمسون"، ولكن يبدو أن الرقم لم يكن له أي ثقل سوى أنه تلاشى لأعلى في مجرى الهواء الذي أثارته مزحة فرح.

بعد دقيقة قال فرح بسرعة: "أربعون" بطريقة تاجر الماشية الخبير بشئون الأرقام والقطيع. أيقظت الكلمة الأفكار المستترة للمجتمعين؛ فقد بدءوا يتحدثون بشكل حيوي جدًا فيما بينهم. إنهم الآن سيحتاجون وقتًا، وسوف يتدبرون الأمر ويثرثرون كثيرًا، وكما يحدث دومًا، ها هي بداية مناسبة لمفاوضات جديدة. قال لي فرح بثقة حينما عدنا للمنزل مرة أخرى: "أعتقد أن أولئك الشيوخ سيأخذون أربعين خروفًا من كانينو".

في مجلس القيامة، كان على كانينو أن يواجه محنة أخرى. لأن كاثيجو العجوز ذا البطن المنتفخة، أحد المؤجرين غير القانونين في المزرعة، وهو أب وجد لعدد ضخم من الأولاد، نهض وأعلن أنه سيحدد بنفسه الخراف والماعز التي ينبغي على كانينو أن يسلمها، واحدة واحدة. كان ذلك ضد تقاليد أي قيامة تمامًا. لم يكن جوجونا أبدًا ليخترع مثل تلك المؤامرة، ويمكنني أن أظن فحسب أنها حبكت على أساس اتفاق بين كاثيجو وجوجونا، لمصلحة كاثيجو.

بدايةً، يبدو أن كانينو قد استسلم للاستشهاد، فقد أخفض رأسه وبكى بصوت رفيع، وكأنه يقتلع سنة من أسنانه مع كل تحديد لحيوان من حيواناته. ولكن حينما حدد كاثيجو، في النهاية، بعدما كان مترددًا، ماعز صفراء كبيرة بدون قرون، انفطر قلب كانينو وخارت قواه. تحرك للأمام، خارجًا من عباءته، في التفاتة عظيمة. في لحظة واحدة، زأر في وجهي، مثل ثور، جأر طلبًا للعون، في حركة مرعبة، حتى رأى، بنظرة خاطفة، أنني كنت في جانبه، وأنه لن يخسر الماعز الأصفر. عندئذ جلس ثانية دون أن يصدر صوتًا آخر؛ فقط بعد فترة وجيزة ألقى على كاثيجو بنظرة ساخرة ثاقبة.

بعد حوالي أسبوع من الجلسات الزائدة للقيامة، ثبت التعويض في النهاية على أربعين رأسًا من الماشية يعطيها كانينو لجوجونا، ولكن لن يشار إلى أي منها على وجه التحديد حينما يحين وقت التسليم.

وبينمـــا كنت أتنـــاول طعـــامي بعد أسبوعين أخبرني فرح بأنباء طازجة عن القضية.

أخبرني بأن ثلاثة من رجال الكيكويو، من نايبيري، قد أتوا إلى المزرعة الليلة البارحة. كانوا قد سمعوا بالقضية وهم في أكواخهم هناك في نايبيري، وقد ساروا من هناك حتى يكونوا في مسرح الحدث ولكي يزعموا أن واماي لم يكن ابن جـــوجونا وإنما ابن أخيه المتوفى؛ لذا فإن التعويض عن موته ينبغي، قانونًا، أن يدفع لهم.

ابتسمت بسبب تلك الوقاحة، وأشرت لفرح بأن تلك كانت بالضبط طبيعة أهل كيكويو في نايبري. "لا"، قال فرح، مفكرًا بعمق، كان يعتقد أنهم على حق. جاء جوجونا بالفعل من نايبيري إلى المزرعة قبل ست سنوات، ومما فهمه فرح، أن واماي لم يكن ابن جوجونا، "لم يكن ابنه أبدًا" كما قال فرح. "لقد كان"، أردف فرح،

"ضربة حظ كبيرة، إنه قد تسلم قبل يومين خمسة وعشرين رأسًا من الأربعين خروفًا. وإلا كان سيجعلها كانينو تجول بعيدًا إلى نابيري حتى يجنب نفسه الألم. قال فرح، إن وجودها في المزرعة الآن لم يكن مجديًا، حيث إنها لم تعد في حوزته. إلا أن جوجونا لا زال عليه أن يكون على حذر؛ لأنه لم يكن من السهل إثناء أهل كيكويو القادمين من نابيري عن عزمهم. لقد اتخذوا من المزرعة مستقرًا لهم، وكانوا يهددون بإثارة القضية لدي. ال. د. سي.

بهذا الشكل أعدني فرح للظهور، بعد أيام قليلة، أمام منزلي، لمناقشة هؤلاء القلة من ناس نابيري، الذين ينتمون لطبقة حقيرة من قبيلة الكيكويو، ولهم مظهر ثلاثة ضباع قذرة مشعثة قد انسلوا خفية قاطعين مائة وخمسين ميلاً على مسار دماء واماي. جاء معهم جوجونا، وهو في حالة شديدة من الغضب والامتعاض. إن اختلاف سلوك الطرفين ربما نشأ من حقيقة أن القادمين من نابيري لم يكن لديهم ما يخسرونه، بينما حصل جوجونا على خمسة وعشرين خروفًا. جلس الغرباء الثلاثة على الحصا، لم يكن يبدو أن هناك أي إعلان آخر عن الحياة سوى ثلاثة قرادات تربض على فراء خروف. لم يكن لديّ أيّ تعاطف إزاء قضيتهم؛ لأنه أيًا كانت الظروف فلم يكن لديهم أي اهتمام بالطفل الميت بينما كان على قيد الحياة، وكنت أشعر الآن بالحزن من أجل جوجونا، الذي تصرف بشكل جيد في القيامة، وقد حزن حزنًا جارفًا، كما أعتقد، على واماي. عندما سألت جوجونا، ارتعش وتحسر، وهكذا كان من المستحيل أن أفهم ما يدور بخلده، ولم نتحدث مرة أخرى في هذا الأمر.

ولكن بعد يومين عاد جوجونا في الصباح الباكر، حينما كنت أعمل على آلتي الكاتبة، وطلب مني أن أكتب له واقعة أقارب الطفل المقتول وأسرته. كان يريد أن يأخذ التقرير إلى د. سي في دوجوريتي. كان سلوك جوجونا البسيط جدًا

مؤثرًا؛ لأنه شعر بالأشياء بقوة كبيرة، ولم يكن واعيًا تمامًا، وكان ذلك دليلاً على أنه كان يفكر في قراره الحالي بوصفه مشروعًا ضخمًا، تحفه الأخطار؛ لقد اتجه إليه بخشية.

كتبت له التقرير الذي أراده، واستغرق ذلك وقتًا طويلاً؛ لأنه كان تقريرًا مطولاً عن الأحداث التى جرت قبل أكثر من ست سنوات، وهي ذاتها معقدة جدًا. بينما كان جوجونا يروي تلك الأحداث، كان عليه أن يتوقف بشكل متكرر ليقطع سرد حكايته ليفكر في الأشياء مليًا، ثم يعود لها ويعيد بناءها. كان، معظم الوقت، ممسكًا برأسه بين يديه، وفي بعض الأحيان يضرب قمة رأسه بشدة وكأنه يرج الحقائق. في إحدى المرات سند وجهه على الحائط، كما تفعل نساء الكيكويو حينما يلدن أطفالهن.

أخذت نسخة من التقرير؛ لا زالت بحوزتي.

كانت متابعة الأحداث أمرًا شديد الصعوبة؛ لأن هناك الكثير من الظروف المعقدة والتفاصيل التي ليس لها علاقة بالموضوع. لم يكن مدهشًا لي أن يجد جوجونا صعوبة في التذكر، كان الأمر الأكثر غرابة هو قدرته على تذكر الحقائق. بدأ التقرير كما يلي:

"حينما كان واويرو واماي، من أبناء بلدة نايبيري، على وشك الوفاة – نا تاكا كوفا، أو رغب في الموت، كما يقولونها بالسواحيلية – كان لديه زوجتان. إحدى الزوجتين كان لها ثلاث بنات؛ تزوجت بعد وفاة واميرو من رجل آخر. أما الزوجة الثانية، فلم يكن واويرو قد دفع مهرها كاملاً: فقد كان لا زال مديونًا لأبيها بماعزتين. هذه الزوجة أجهدت نفسها بشكل مبالغ فيه حينما حملت حملاً ثقيلاً من خشب الوقود، وأجهضت ولم يكن أحد ليعرف إن كانت قد حملت أولادًا آخرين...".

سار التقرير بتلك الطريقة، مستدرجًا القارئ إلى متاهة محيرة لأحوال وعلاقات قبيلة الكيكويو:

"تلك الزوجة كان لها طفل واحد صغير اسمه واماي. في ذلك الوقت كان مريضًا، وكان الناس يعتقدون أنه مريض بالجدري. كان واويرو مغرمًا جدًا بزوجته وبطفلها، وحينما كان يحتضر كان قلقًا جدًا؛ لأنه لم يكن يعرف ما الذي سيؤول إليه حالها بعد أن يموت. وهكذا فقد أرسل في طلب صديقه جوجونا كانياجا الذي لم يكن يقطن بعيدًا. كان جوجونا في ذلك الوقت مدينًا لواويرو بثلاثة شلنات من أجل زوج من الأحذية. اقترح الآن واويرو عليه أنهما ينبغي أن يصلا إلى اتفاق...".

انتهى الاتفاق إلى أن يتولى جوجونا أمر زوجة صديقه المحتضر وابنها، وأن يعطي لأبيها المعزاتين المستحقتين له من ثمن شرائها. من هنا، بدأ التقرير يتحول إلى قائمة من النفقات، التي جلبها جوجونا على نفسه خلال عملية تبني الطفل واماي. لقد صرح بأنه قد اشترى دواءً فائق الجودة من أجل واماي بعد أن تولى تربيته، حينما كان مريضًا. في بعض الأحيان كان يشتري له الأرز من دكان هندي؛ لأنه لم يكن يرغب في تناول الذرة. في إحدى المناسبات كان عليه أن يدفع خمس روبيات لمزارع أبيض جار له؛ لأنه قال إن واماي قد طارد ديكًا روميًا له حتى البركة. يبدو أن هذه الكمية الأخيرة من النقود، التي من المحتمل أن يكون قد وجد صعوبة في دفعها، نجحت في الالتصاق بذهن جوجونا؛ فقد عاد ليذكرها أكثر من مرة. يبدو من سلوك جوجونا أنه كان قد نسي، في ذلك الوقت، أن الطفل الذي فقده لم يكن ابنه. لقد ارتجف بسبب وصول الرجال الثلاثة وادعائهم، وظهر عليه الارتباك بصور مختلفة. يبدو أن هؤلاء البسطاء جدًا لديهم موهبة تبني الأطفال، والشعور حيالهم بالعطف وكأنهم أبناؤهم؛ القلوب الطيعة للأوروبيين تشعر بالأمر ذاته بلا مجهود.

حينما وصل جوجونا أخيرًا لنهاية قصته، وكتبتها كلها، أخبرته أنني الآن سأقوم بقراءتها له. تحول جوجونا بعيدًا عني وأنا أقرأ، وكأنه يريد أن يتجنب أي تشتيت لانتباهه.

ولكنني وأنا أقرأ اسمه، "وأرسل في طلب جوجونا كانياجا، صديقه الذي لم يكن يقطن بعيدًا"، حول وجهه بسرعة نحوي، ورمقني بنظرة شرسة متوهجة، مفعمة بالضحك لدرجة أنها حولت الرجل العجوز إلى صبي، إلى رمز حقيقي للشباب. مرة أخرى، وأنا أنهي الوثيقة وكنت أقرأ اسمه، حيث ظهر كإثبات تحت بصمة إصبعه، أعاد النظرة الحيوية المباشرة مرة أخرى، في هذه المرة كانت معمقة وهادئة، بشعور جديد بالكرامة.

مثل تلك النظرة، ألقاها آدم على الرب حينما شكله من التراب، وتنفس من فتحتي أنفه نفس الحياة وأصبح الرجل روحًا حية. لقد خلقته، وأطلعته على نفسه: جوجونا كانياجا هذا الحي الخالد. حينما سلمته الورقة، أخذها باحترام وطمع، طواها ووضعها في زاوية عباءته وأبقى يده فوقها. لم يكن ليحتمل تبعات فقدها، فقد كانت الدليل على وجوده. هنا شيء أداه جوجونا كانياجا، وسيحفظ اسمه للأبد: تبدل اللحم إلى كلمة وحل بيننا مفعمًا باللطف والصدق.

انفتح عالم الكلمة المكتوبة أمام سكان أفريقيا المحليين حينما ذهبت للعيش هناك. عندئذ كانت لديّ الفرصة، إن أردت، لأن أمسك الماضي من ذيله، وأن أعيش من خلال جزء صغير من تاريخنا الخاص: الفترة التي عاشها الأوروبيون البسطاء وبالطريقة ذاتها حينما كشف لهم سر الحروف. حدث ذلك في الدينمارك قبل مائة عام، ومما أخبرني به العجائز حينما كنت طفلة، أعتقد أن ردة الفعل في الحالتين، كانت متشابهة تقريبًا. لا يستطيع البشر أن يظهروا مثل ذلك التفاني المنتشي والمتواضع لمبدأ الفن للفن سوى بشكل نادر.

تلك الرسائل بين شاب محلي وآخر كانت لا تزال تؤلف بشكل عام من قبل كتبة الرسائل المهنيين؛ لأنه على الرغم من أن بعض المسنين تتملكهم الحماسة لروح العصر، فإن عددًا قليلاً من عجائز الكيكويو كانوا يحضرون إلى مدرستي ويجهدون أنفسهم بأناة لتعلم حروف الهجاء، فالكثير من الجيل الأكبر قد انسحبوا باشمئزاز من هذه الظاهرة. يستطيع القليل فقط من السكان المحليين القراءة، ولهذا فإن صبية منزلي، ومؤجري الأرض غير القانونيين، والعمال في المزرعة كانوا يأتون لي بالرسائل لكي أقرأها لهم. وأنا أفتح وأدرس رسالة بعد الأخرى، كنت أتعجب لتفاهة محتواها. لقد كان ذلك بمثابة خطأ شائع لشخص متحضر منحاز. قد تلجأ أيضًا لأن تحلل الأصل العشبي لفرع الزيتون الصغير الذي حملته حمامة نوح في طريق عودتها. أيًا كان الأمر، فقد كان لها أهمية أكثر من السفينة وكل الحيوانات بداخلها؛ لقد احتوت على عالم أخضر جديد.

كانت خطابات السكان المحليين متشابهة للغاية، فقد كانت ملتزمة بشكل كبير بصيغة مقدسة ومقبولة، وكانت تجري بشكل أو بآخر كما يلي: "صديقي العزيز كاماو موريفو، سوف ألتقط القلم الآن في يدي"- بحس أحادي الجانب؛ لأن الكاتب المحترف كان هو الذي يكتب الرسائل في كل مرة. يستطرد الخطاب: "لكي أكتب لك رسالة، لأنني ولوقت طويل كنت أرغب في كتابة رسالة لك. إنني في أحسن حال، وأتمنى أن تكون كذلك، بنعمة من الله، في أحسن حال. أمي في أحسن حال. زوجتي ليست في حال جيدة، ولكني لا زلت آمل أن زوجتك ستكون، بنعمة الله في حال جيدة"- وهنا ستأتي قائمة طويلة من الأسماء، مع تقرير قصير ملحق بكل منها، غير مهم غالبًا، على الرغم من أنه في بعض الأحيان يكون رائعًا. ثم تنتهي الرسالة. "الآن يا صديقي كاماو، سأنتهي من هذا الخطاب؛ لأن لديَّ وقتًا قليلاً جدًا لأكتب إليك. صديقك ندويتي لوري".

لنقل رسائل مشابهة بين شباب أوروبيين مولعين بالدراسة قبل مائة عام، كان سائقو المركبات يقفزون على صهوة الفرس، تثب الخيول، ترن الأبواق الثابتة، وتصنع الأوراق ذات حواشٍ على شكل شرائط ذهبية. كانت الخطابات شيئًا يرحب الناس به، ينشدونه، ويصونوه؛ لقد رأيت القليل منها بنفسي.

قبل أن أتعلم التحدث بالسواحيلية، كانت علاقتي بعالم الحروف المحلي ذات ملمح مشوق: كنت أستطيع أن أقرأ ما يكتبونه دون أن أفهم كلمة منه. لم يكن للسان السواحيلي أي لغة مكتوبة حتى تعهد البيض أن يخترعوا لهم لغة؛ بشيء من الاهتمام كانت تنطق كما كانت تلفظ، ولم يكن لها أية قواعد هجائية بالغة القدم يمكنها أن توقع القارئ في شرك. كنت إذن أجلس وأقرأ عاليًا كتاباتهم حرفيًا، كلمة بكلمة، بينما متلقو الرسائل يقفون حولي في حالة من الإثارة والانبهار، وكنت أستطيع أن أتتبع تأثير ما أقرأه عليهم دونما أعرف مطلقًا ما قد تعنيه تلك الكلمات. فـــي بعض الأحيـــان كـــانت تنهمـــر دموعهم بسبب الكلمات التي أتلوها عليهم، أو يفركون أيديهم توجعًا، في أوقات أخرى كانوا يصرخون فرحًا؛ أكثر ردود أفعالهم شيوعًا في هذا الطقس القرائي كان الضحك، وكانوا بشكل مستمر ينحنون بسبب التقلصات العضلية التي تصيبهم من جراء الضحك أثناء قراءتي للرسائل.

فيما بعد حينما فهمت ما كنت أقرأه، تعلمت أن الخبر المكتوب له تأثير كبير على السكان المحليين. الرسائل الشفاهية التي كانت من قبل تستقبل بشك وخيبة أمل- لأن كل السكان المحليين متشككون-أصبحوا يتلقونها الآن كحقيقة لا جدال فيها. وبالطريقة ذاتها، يتسم المحليون بسرعة التقاط أي كلمة مربكة في الحديث؛ مثل ذلك الخطأ كان يمنحهم لذة خبيثة، ولن ينسوا هذا الأمر أبدًا، ويمكن أن يطلقوا على رجل أبيض اسمًا للسخرية طيلة حياته بسبب زلة لسان، ولكن لو حدث الخطأ كتابة، وهو ما يكون عليه الأمر عادة، حيث إن كاتبي المخطوطات كانوا أناسًا

جاهلين، فقد يصرون على تفسيره بشكل ما، وقد يتعجبون لهذا الخطأ ويناقشونه، ولكنهم قد يصدقون أكثر الأشياء غرابة بدلاً من أن يجدوا خطأً في كلمة مكتوبة.

في إحدى الخطابات التي قرأتها لصبي في المزرعة، ذكر كاتب الرسالة بين أخبار أخرى، خبرًا مقتضبًا: "لقد طهوت ببوانا"، فشرحت أنه ربما كان يقصد أنه أفلح في الإمساك ببابون، حيث إن الكلمتين متشابهتان أيضًا في اللغة السواحيلية. ولكن متلقي الرسالة لم يوافق على هذا الأمر بأي شكل.

"لا، ماسابو، لا" قال، "ماذا كتب في رسالتي؟ ما الكلمات التى كتبها؟".

"لقد كتب" أجبته، "إنه قد قام بطهي بابون، ولكن كيف يمكنه أن يطهو بابونا؟ ولو أنه فعل ذلك، لكان قد أطال في رسالته ليخبرك كيف ولماذا فعل ذلك".

استاء الكيكويو الصغير كثيرًا من مثل هذا النقد للكلمة المخطوطة؛ طلب أن يسترد خطابه، طواه بعناية ثم سار بعيدًا حاملاً الخطاب في يده.

لقد أثبت تقرير جوجونا الذي دونته كشهادة أهميته الكبيرة؛ لأنه حينما قرأه ال د. سي، أعرض عن الدعوى التي أقامها رجال نابيري، الذين قفلوا عائدين بوجوههم العابسة إلى قريتهم، دون أن يحصلوا على أي شيء من المزرعة.

لقد أصبحت تلك الوثيقة الآن كنز جوجونا الثمين. رأيت التقرير ثانية أكثر من مرة. صنع له جوجونا حقيبة جلدية صغيرة مطرزة بالخرز، وعلقها بشريط حول عنقه. من وقت لآخر، غالبًا في صباح أيام الآحاد، كان يظهر فجأة عند بابي، ينزع الحقيبة عن عنقه ويخرج الورقة لكي أقرأها له. في إحدى المرات حينما كنت مريضة، وكنت بعد شفائي في طريقي مرة أخرى فوق حصاني للتنزه، التقطني بعينيه من على بعد، وركض ورائي لمسافة كبيرة، ووقف بجوار حصاني لاهثًا، لكي يسلمني وثيقته. عند كل قراءة كان يظهر على وجهه الانطباع ذاته، شعور

بانتصار ديني عميق، وبعد القراءة كان يطوي ورقته برقة وبحرص فائقين، ويضعها مرة أخرى في الحقيبة. لم تضعف أهمية هذه الواقعة مع مرور الزمن بل زادت، وكان الأمر الأكثر إثارة للعجب بالنسبة لجوجونا أنها لم تتغير. الماضي، الذي كان من الصعب للغاية استحضاره للذاكرة، والذي بدا أنه يتغير في كل مرة كلما فكرت فيه، قد تم الإمساك به هنا، تم قهره، وارتكز بين عينيه. لقد أصبح تاريخًا؛ بلا أية متغيرات أو ظل لتحول.

وانيانجيري

حينما ذهبت لنيروبي في المرة التالية، ذهبت لرؤية وانيانجيري في المستشفى المحلي.

لأنني كنت على اتصال بكثير من الأسر المؤجرة أراضيَ في مزرعتي، كان دومًا لدي مريض هناك، لقد كنت *زائرة منتظمة للمستشفى*[٨]، وبشكلٍ وديّ احتفظت بعلاقة جيدة مع رئيسة الممرضات وموظفي الأمن. لم أر امرأة أبدًا تضع على وجهها طلاءً أو بودرة بشكل كثيف هكذا مثل رئيسة الممرضات، يبدو وجهها العريض من بين تصفيفة شعرها التي تظهر بياضًا مشابهًا وجوه تلك الدمى الروسية الخشبية التي حينما تفكها، تجد أخرى ثم أخرى بداخلها، والتي تباع باسم كاتينكا. كانت رئيسة الممرضات طيبة وقديرة، كما تتوقع من كاتينكا. في أيام الخميس كانوا ينقلون الأسرة كلها من الأجنحة إلى مربع مفتوح بينها، بينما ينظفون ويجددون الهواء في حجرات المنزل؛ كان ذلك بمثابة يوم سعيد في المستشفى. كان المنظر فائق الجمال من الساحة، مع سهول آثي الجافة في المقدمة، وهناك بعيدًا تقع جبال دونيو سابوك الزرقاء ومرتفعات موا الممتدة. كان أمرًا غريبًا أن ترى نساء كيكويو العجائز في الأسرة، وعليهن الملاءات البيضاء، وكأنك ترى بغلاً عجوزًا متعبًا، أو دابة مريضة منهكة هناك؛ إنهم أنفسهن يضحكن لي بسبب حالتهن تلك، ولكن بمرارة، كما قد يفعل بغل عجوز؛ لأن السكان المحليين يخشون المستشفيات.

في المرة الأولى التي رأيت فيها وانيانجيري في المستشفى، كان مرتجفًا وهزيلاً لدرجة أنني فكرت أن الموت كان أفضل شيء بالنسبة له. كان مرتعبًا من كل شيء، كان ينتحب طوال الوقت الذي قضيته معه، متوسلاً أن أعيده إلى المزرعة، كان يرتجف ويرتعد وهو ملفوف في ضماداته.

لم أستطع المجيء ثانية قبل مرور أسبوع آخر. وجدته في ذلك الحين هادئًا ومستجمعًا شجاعته، استقبلني بوقار. لقد كان على الرغم من ذلك فرحًا جدًا لرؤيتي، وقد أخبرني موظف الأمن أنه كان ينتظر مجيئي بصبر فارغ. لأنه بإمكانه اليوم أن يخبرني بكثير من التأكيد، وأن يلفظ بالكلمات من خلال أنبوب في فمه، إنه قد قتل في اليوم السابق، وأنه سيقتل مرة أخرى في غضون أيام قليلة.

ذهب الطبيب الذي عالج وانيانجيري إلى الحرب في فرنسا، وقد وضع الضمادات على وجوه الكثير من الناس؛ لقد تحمل العناء من أجله ونجح في عمله. لقد وضع شريطًا معدنيًا من أجل عظمة الفك وربطها بالعظام المتبقية في الوجه، وانتزع بقايا اللحم الممزق وقام بخياطتها معًا لكي يصنع له ما يشبه الذقن. أخبرني وانيانجيري أنه قد أخذ قطعة من الجلد من الكتف للترقيع. في نهاية العلاج حينما أزيلت الضمادات، كان وجه الطفل قد تغير كثيرًا، وبدا غريبًا، مثل رأس السحلية؛ لأنه لم يكن له ذقن. ولكنه كان يستطيع أن يأكل بشكل طبيعي وأن يتحدث، على الرغم من أنه بعد الحادث كان دومًا ما يلثغ قليلاً. لقد استغرق ذلك شهورًا عديدة. حينما أتيت لرؤية وانيانجيري طلب مني سكرًا، ولهذا فقد اعتدت أن أحضر معي قدرًا قليلاً من السكر في ورقة صغيرة.

إن لم يصب السكان المحليون بالشلل والخدر بسبب رعبهم من المجهول، فإنهم يزمجرون ويشتكون كثيرًا ويخترعون خططًا لكي يهربوا من المستشفى. الموت هو إحدى تلك الخطط؛ إنهم لا يخشونه. بمرارة يشكو الأوروبيون الذين بنوا

المستشفيات وجهزوها بمعدات طبية، وعانوا الكثير من أجل سحب المرضى إلى هناك، إن السكان المحليين لا يعرفون شيئًا عن الامتنان، وإنهم يتصرفون بالطريقة ذاتها مهما فعلت لهم.

بالنسبة للبيض هناك شيء ما مزعج ومهين في تلك الحالة العقلية التي يتسم بها المحليون. إنك تواجه بالطبع برد الفعل ذاته مهما فعلت لهم؛ لا يمكنك أن تفعل سوى القليل، وما تفعله يتلاشى، ولن تسمع عنه ثانية؛ إنهم لا يشكرونك، ولا يحملون لك أية ضغينة، وحتى إن أردت أن توقع بهم الأذى فإنك لن تتمكن من فعل ذلك. إنها صفة مزعجة؛ يبدو أنها تلغي وجودك كإنسان فردي، وتفرض عليك دورًا ليس من اختيارك، وكأنك ظاهرة في الطبيعة، وكأنك الهواء.

في هذا الأمر، يختلف الصوماليون المهاجرون عن سكان البلاد المحليين. إن تصرفاتك معهم تؤثر فيهم بشكل كبير، في الحقيقة لا يمكنك أن تتحرك دون أن تؤثر في أشد المتزمتين المتصلفين من أبناء الصحراء بطريقة أو بأخرى، وغالبًا، دون أن تؤلمهم بقسوة. إن لديهم حسًا قويًا بالامتنان، وسوف يحملون لك أيضًا الضغينة للأبد. المنفعة، كالإساءة أو الاحتقار، مكتوبة على حجر في قلوبهم. إنهم محمديون متشددون، ومثل كل أتباع محمد سوف يقومون بتقدير مكانتك. مع الصوماليين يمكنك أن تصنع مكانتك أو تدمرها في ساعة.

يحتفظ أهل الماساي هنا بموقع فريد لأنفسهم بين القبائل المحلية. إنهم يتذكرون، يمكنهم أن يشكروك، ويحملوا لك ضغينة. إنهم جميعًا يحملون لنا ضغائن، سوف تمحى فقط حينما تمحى القبيلة نفسها من على وجه الأرض.

ولكن غير المحظوظين من الكيكويو، واكامباس، أو كافيروندوس ليس لديهم أي قانون. إنهم يعتقدون أن معظم الناس قادرون على فعل معظم الأشياء، وأنك لا تستطيع أن تصدمهم إن أردت ذلك. يمكن القول إن الكيكويو الفقير أو المنحرف

أخلاقيًا هو من يقدر ما تفعله من أجله. وفقًا لسجيتهم ولتقاليد وطنهم، سوف ينظرون إلى ما نقوم به من أفعال وكأنها جزء من فعل الطبيعة. إنهم لا يصدرون أحكامًا عليك، ولكنهم يحرصون على مراقبتك. محصلة مراقبتهم لك، هو ما يمثل مكانتك بالنسبة لهم، اسمك الطيب أو السيئ.

إن أشد الناس فقرًا في أوروبا، إذا اتبعنا هذه الطريقة، يماثلون الكيكويين. إنهم لا يطلقون أحكامًا عليك، ولكنهم يقدرون قيمتك الحقيقية. إن أحبوك أو قدروك على الإطلاق، فسيكون ذلك كما يحب الناس الله؛ ليس بسبب ما تفعله من أجلهم، ولكن بسبب كينونتك.

ذات يوم خلال تجولي في أروقة المستشفى رأيت ثلاثة مرضى جددًا هناك، رجلاً داكن السواد ذا رأس غليظ وثقيل وبرفقته صبيان، كانوا كلهم يحملون ضمادات على رقابهم. كان أحد موظفي الأمن أحدب وحكاء وكان يشعر بالسعادة حينما يشرح لي أكثر الحالات جاذبية. وحينما رآني أتوقف عند أسرة المرضى الجدد جاء ليخبرني بقصتهم.

كانوا نوبيين وأعضاء في فرقة البنادق الأفريقية الملكية، الجنود السود في كينيا. كان الصبيان يعزفان على الطبلة، والرجل عازف بوق. كان لعازف البوق بعض الخلافات الحادة في حياته، وفقد عقله بسببها كما يحدث للسكان المحليين. أولاً، أطلق النار من بندقيته يمينًا ويسارًا باتجاه الثكنات، وحينما فرغت خزانة البندقية حبس نفسه مع الصبيين، هناك في كوخه المصنوع من الحديد المعقوف، وحاول أن يذبحهم ويذبح نفسه. شعر موظف الأمن بالأسف حيالي؛ لأنني لم أرهم حينما وصلوا المستشفى في الأسبوع الماضي، في ذلك الوقت كانت الدماء تغطيهم بالكامل، وكنت سأعتقد أنهم كانوا في عداد الموتى. الآن قد أصبحوا في مأمن واستعاد القاتل حواسه مرة أخرى.

وبينما كان يروي حكايته، كان المرضى الثلاثة أبطال الحكاية يتابعون روايته بكثير من الشغف. كانوا يقاطعونه لكي يصححوا بعض التفاصيل، حتى أن الصبيين اللذين كان لديهما صعوبة بالغة في التحدث، استدارا إلى الرجل الراقد في السرير بينهما لكي يجعلاه يؤكد صحة مقولتهما، واثقين من أنه سيساعدهما في أن أحصل على القصة بأكبر قدر من التأثير.

"ألم تزبد بفمك، ألم تصرخ فزعًا؟" سألاه. "ألم تقل إنك ستقطعنا إلى قطع في حجم أبي النطيط؟".

قال قاتل البشر: "أجل، أجل" بينما ظهر الحزن على سحنته.

في بعض الأوقات كنت أبقى في نيروبي لنصف اليوم، منتظرة اجتماع عمل، أو توقعًا لبريد آت من أوروبا حينما يتأخر القطار القادم من الساحل. في مثل تلك الأحوال، كنت عندما لا أجد ما أفعله، أقود سيارتي إلى المستشفى المحلي وأصطحب معي اثنين من المرضى اللذين يمضيان فترة النقاهة في نزهة قصيرة بالسيارة. في الوقت الذي كان فيه وانيانجيري بالمستشفى، كان المحافظ السيد إدوارد نورثي يحتفظ بزوج من الأسود، كان سيرسلهما لحديقة حيوان لندن، وحبسهما في أرض المنزل الحكومي. كانا عاملي جذب كبير لنزلاء المستشفى؛ كانوا كلهم يطلبون أن يذهبوا لرؤيتهم. كنت قد وعدت مرضى فرقة البنادق الأفريقية الملكية بأن آخذهم إلى هناك حينما يكونون في حالة تسمح بذلك، ولكن أحدًا منهم لن يأتي إلا حينما يستطيع الكل الذهاب معًا. كان عازف البوق أبطأهم شفاءً، بينما خرج أحد الصبيين من المستشفى قبل أن يتعافى تمامًا، وكان يستطيع الذهاب معي. كان الصبي يعود للمستشفى كل يوم لكي يستفسر عن صحته، ولكي يتأكد من حصوله على نزهته. وجدته هناك في إحدى الأمسيات بالخارج، وأخبرني أن نافخ البوق كان لا زال يعاني من صداع بشع، ولكن ذلك كان متوقعًا، حيث إن رأسه محشو تمامًا بالشياطين.

في النهاية، جاءوا ثلاثتهم، ووقفوا أمام القفص، وغرقوا في التأمل. نهض فجأة أحد الأسدين الصغيرين، وقد شعر بالغضب لتحديقهم فيه لوقت طويل، تمطى ثم زأر زئيرًا قصيرًا، حتى يثير الرعب في قلوب الناظرين إليه، فاحتمى الطفل الأصغر وراء نافخ البوق. وفي طريق عودتنا قال له: "لقد كان الأسد شريرًا جدًا مثلك".

خلال كل ذلك الوقت كانت قضية وانيانجيري هادئة في المزرعة. كان أهله يأتون في بعض الأحيان ويسألونني عن حالته، فيما عدا أخاه الصغير، كان يبدو أنهم مرتعبون من الذهاب لرؤيته. حام كانينو أيضًا حول منزلي في وقت متأخر من الليل، مثل الغرير العجوز مستطلعًا أخبار الطفل. كنا نقدر معاناته أنا وفرح، وكنا نحسبها بما يقابلها من خراف.

أخبرني فرح أيضًا بعد الحادث بشهرين عن ملمح جديد للقضية.

في مثل تلك المناسبات كان يأتيني وأنا أتناول طعامي، ويقف متحفزًا بجواري عند نهاية الطاولة ويأخذ على عاتقه مهمة تنويري وتخليصي من الجهل. كان فرح يتحدث الإنجليزية والفرنسية بشكل جيد، ولكنه يصر على أخطاء معينة أصبحت سمة لحديثه. كان يقول "تمامًا" بدلاً من "فيما عدا"– "كل الأبقار عادت للمنزل، تمامًا البقرة الرمادية"، وبدلاً من أن أصحح له أخطاءه بدأت أستخدم التعبيرات ذاتها وأنا أتحدث معه. كان وجهه ومحياه مطمئنين وواثقين وعليهما سمة الكرامة، ولكنه غالبًا ما يبدأ بأسلوب غامض، قائلاً: "ميمصاحب، الكابيرو". كان ذلك هو موجز الأخبار إذن. وكان عليّ انتظار ما سيلي.

بعد وقفة قصيرة عاد فرح للموضوع ثانية. "ميمصاحب، أتظنين أن كابيرو قد مات والتهمته السباع. إنه لم يمت. إنه لدى الماساي".

سألته بتردد: كيف علم بهذا الأمر؟ "أوه، أنا أعرف"، قال: "لدى كانينو الكثير من البنات اللاتي تزوجن من الماساي. حينما لا يجد كابيرو من يساعده كان يركض إلى زوج أخته. صحيح أنه قد قضى وقتًا سيئًا، جلس الليلة كلها أعلى الشجرة، وكانت السباع تقف تحت الشجرة في انتظار سقوطه. ولكنه الآن يعيش مع الماساي. هناك رجل ثري عجوز من قبيلة الماساي يمتلك مئات الأبقار وليس لديه أية أطفال، ويريد أن يأخذ كابيرو. يعرف كانينو كل ذلك جيدًا ، وقد خرج لكي يتحدث في هذا الشأن مع الماساي مرات عدة.

ولكنه يخشى أن يخبرك بهذا الأمر، إنه يظن أن البيض لو عرفوا هذا الخبر، فسيشنق كابيرو في نيروبي".

كــان فرح يتحدث دومًا عن الكيكويو بطريقة متغطرسة. "زوجات الماساي لا يلدن أطفالاً كثيرين. سيسعدن بالحصول على أطفال الكيكويو. إنهن يسرقن الكثير من الأطفال. ورغم ذلك فإن كابيرو هذا" استطرد فرح، "سيعود للمزرعة حينما يكبر؛ لأنه لن يرغب في أن يعيش حياة الماساي، الذين يرتحلون دومًا من مكان لآخر. إن أهل كيكويو كسالى جدًا لا يقوون على ذلك الترحال".

من المزرعة، يمكن تتبع القدر المأساوي لقبيلة الماساي المختفية عند الجانب الآخر من النهر من عام لآخر. كانوا محاربين توقفوا عن القتال، أسدًا محتضرًا نزع فكاه، أمة مخصية. لقد انتزعت رماحهم منهم، وحتى مجناتهم الواقية الكبيرة الجسورة، وفي المتنزه الكبير كانت الأسود تطارد قطعان أغنامهم. ذات مرة، في المزرعة، كان لديّ ثلاثة ثيران صغيرة تحولوا إلى ثيران مخصية مسالمة من أجل محاريثي وعرباتي، وبعد ذلك كانت تحبس في ساحة المصنع. وهناك في الليل التقطت السباع رائحة الدم فجاءت وقتلتهم. أعتقد أن ذلك كان مصير الماساي.

قال فرح: "ستشعر زوجة كانينو بالحزن لفقد ابنها لسنوات عديدة قادمة".

لم أرسل في طلب كانينو؛ لأنني لم أكن أعرف إن كان عليّ أن أصدق حديث فرح أم لا، ولكنه حينما جاء في المرة التالية لمنزلي خرجت للحديث معه. سألته: "هل كابيرو على قيد الحياة؟ هل يعيش لدى الماساي؟ لن تجد أبدًا أي ساكن محلي غير مستعد لأي فعل يصدر منك، ففي الحال انفجر كانينو منتحبًا على طفله المفقود. أنصت إليه ونظرت إليه لبرهة. "كانينو،" قلت مرة أخرى، "أحضر كابيرو هنا. لن يشنق. ستبقيه أمه معها في المزرعة". لم يتوقف كانينو عن النحيب لكي يصغي إلي، ولكن من المؤكد أنه قد التقط كلمة يشنق البائسة؛ ولهذا فقد انتقل نشيجه إلى درجة أعمق، هوى في وصف الوعود التي قطعها كابيرو على نفسه وكيف أنه كان يفضله على سائر أبنائه الآخرين.

كان لكانينو الكثير من الأطفال والأحفاد، الذين كانوا دومًا يحومون حول منزلي، لقربه من قريتهم. كان من بينهم حفيد صغير جدًا له، ابن إحدى بنات كانينو التي كانت قد تزوجت في محمية الماساي، ولكنها عادت من هناك وجلبت ابنها معها. هذا الابن يدعى سيرونجا. اختلاط دمائه قد أثمر عن حيوية جذابة، كم كان يبدو عليه من خصوبة وحشية مبتكرة ورغبات، حتى أنه لم يكن يبدو إنسانيًا تمامًا: شعلة صغيرة، وعصفور ليلي، وجني المزرعة الصغير. ولكنه كان لديه داء الصرع، وبسبب ذلك، كان الأطفال الآخرون يخافون منه، ويبعدونه عن ألعابهم ويطلقون عليه شيطاني –الشيطان– ولهذا فقد تبنيته ضمن أهل بيتي. بينما كان مــريضًا، لم يكن يستطيع القيام بأي عمل، ولكنه كان يفي بالغرض لوظيفة غبي أو مهرج، وكان يتبعني في كل مكان تقريبًا مثل ظل أسود متململ. كان كانينو يعرف ولعي بالطفل، وحتى الآن كان يبتسم لهذا الأمر بطريقة أبوية؛ أما الآن فقد انتهز الأمر وحول الأمر ضدي حتى يحصل على ما يريد تمامًا. أعلن بقدر كبير من رباطة الجأش أنَّه يفضل أن تلتهم النمور سيرونجا عشر مرات عن فقده

لكابيرو، والآن ما دام كابيرو قد فقد، فليذهب سيرونجا هو الآخر، لن يختلف الأمر كثيرًا- لأن كابيرو، كابيرو كان قرة عينه والدماء التي تجري في قلبه.

لو كان كابيرو قد لقي حتفه بالفعل، فإن ذلك هو حزن النبي داوود على ابنه أبسالوم، وهي تراجيديا متفردة. ولكنه إن كان حيًا أو يعيش مع الماساي فسيكون الأمر أكثر مأساوية، إنه بمثابة معركة أو انهزام، صراع من أجل حياة الصبي.

على السهول، رأيت الغزلان تلعب هذه اللعبة حينما جئت وأنا غير مدركة لهذه الرقعة، حيث كانت تخفي ظبيها الصغير. قد يرقصون لك، يبالغون في الأمر أمامك، يقفزون، يثبون، أو قد تتظاهر إحداهن بكونها عرجاء وغير قادرة على الركض- كل ذلك لكي تشتت انتباهك عن ظبيها الصغير. وفجأة وفعليًا تحت حوافر حصانك، ترى الظبي غير قادر على الحركة، يمتد الرأس الصغير إلى الخارج على العشب، يستتر حرصًا على حياته بينما أمه ترقص من أجله. ستفعل الطيور الحيل ذاتها لكي تحمي صغارها. يخفق الطير بجناحيه، يرفرف، بل إنه وبذكاء يلعب دور الطير الجريح، الذي يجر جناحه المكسور على الأرض.

هكذا كان كانينو يؤدي دوره أمامي. أكان هناك الكثير من الدفء لدى هذا الكيكويو العجوز ووثبات عديدة في جعبته حينما ظن أن حياة ابنه في خطر؟ لقد أصدرت عظامه صريرًا في رقصته تلك، حتى أنه كان يكاد أن يحول جنسه، ويتخذ مظهر امرأة عجوز، دجاجة، لبؤة- لقد كانت اللعبة فعلاً أنثويًا محضًا. كان عرضًا شاذًا، ولكنه في الوقت ذاته فائق الاحترام، مثل ذكر النعام، حينما ينوب عن النعامة في الرقاد على بيضها. لا يمكن لقلب امرأة ألا يتأثر بتلك المناورة.

"كانينو" قلت له "يمكن لكابيرو أن يعود للمزرعة حينما يريد ولن يصيبه أذى. ولكن في ذلك الوقت عليك أن تحضره إليَّ بنفسك". سكت كانينو تمامًا مثل

سكون الموتى، نكس رأسه وسار بعيدًا حزينًا وكأنه قد فقد الآن آخر صديق له في العالم.

من الجائز أيضًا أن أقول هنا أن كانينو تذكر، وفعل كما قيل له. بعد ذلك بخمس سنوات، وكنت قد شارفت على نسيان الأمر برمته، طلب من خلال فرح مقابلتى في يوم ما. وجدته واقفًا خارج المنزل، على قدم واحدة ويبدو رزينًا للغاية، ولكن في أعماق قلبه كان هناك ما يقلقه. خاطبنى بطريقة ودية. قال "لقد عاد كابيرو". في ذلك الحين كنت قد تعلمت فن التوقف عن الحديث، فلم أنطق بكلمة. أحس الكيكويو العجوز بثقل صمتي. بدل قدمه التى يقف عليها، بينما كان جفناه يرتجفان. "لقد عاد ابنى كابيرو مرة أخرى للمزرعة" قال مكررًا حديثه. سألت: "هل عاد من عند الماساي؟". في الحال ولكونه جعلنى أتحدث، أدرك كانينو أن تصالحنا قد أضحى ساريًا؛ لم يبتسم، ولكن كل تلك التجاعيد الماكرة في وجهه كانت معدة للابتسام. "نعم، ماسابو، نعم، لقد عاد من عند الماساى، لقد عاد للعمل لديك". في ذلك الوقت كانت الحكومة قد شرعت فيما أطلق عليه كيباندا، تسجيل كل مواطن محلى، في البلاد، ولهذا فقد كان علينا أن نتصل بضابط الشرطة في نيروبى لكى يأتى لكى يسجل كابيرو بشكل قانونى كأحد سكان المزرعة وقمت بتحديد اليوم.

في ذلك اليوم، وصل كانينو وابنه قبل مجيء ضابط الشرطة بوقت طويل. قدم كانينو كابيرو لي بأسلوب بشوش، ولكنه في أعماق قلبه كان مرتعبًا من ابنه الذي استرده لتوه. كان هناك سبب لشعوره ذاك، فقد أخذت قبيلة الماساي من المزرعة حملاً صغيرًا، والآن أعادت إلينا نمرًا صغيرًا. لا بد أن كابيرو يحتفظ بدماء الماساي تحت جلده؛ لأن عادات ومبادئ حياة الماساي ليست كفيلة في حد

ذاتها أن تنجز هذا التغيير الجوهري. وها هو هنا، شاب من الماساي من رأسه حتى أخمص قدميه.

لمحارب الماساي مظهر جميل. إن لهؤلاء الشباب، لدرجة قصوى، ذلك الشكل الخاص بالشخص الفطن الذي نسميه أنيقًا، شجاع ورائع بشكل وحشي كما يبدو، لا زالوا متماثلين بشكل حقيقي وبلا تردد مع طبيعتهم الشخصية وبشكل أقرب للمثالية. أسلوبهم ليس سلوكًا مفترضًا وليس تقليدًا لنموذج مثالي غريب؛ لقد طوروا ذلك من داخلهم، وهو تعبير عن عرقهم وتاريخهم. أسلحتهم وثيابهم الفاخرة، إلى حد كبير، جزء من وجودهم مثل قرون الظبي المتشعبة.

لقد اتخذ كابيرو موضة الماساي في تصفيف الشعر، أبقى شعره طويلاً وعقصه بدوبارة في شكل ذيل خنزير سميك وشريطة جلدية حول جبهته. لقد اكتسب طريقة سير الماساي، حركة الرأس والذقن ممدودة للأمام، وكأنه يقدم إليك وجهه المتغطرس المتجهم على صينية. كان له أيضًا الملامح الحادة والسلبية الوقحة للموراني(٩)، التي تجعل منه شيئًا جديرًا بالتأمل مثلما يدعوك لذلك تمثال، شكل يمكنك أن تراه ولكنه لا يرى.

يعيش الموراني الصغير من قبيلة الماساي على اللبن والدم؛ ربما كان ذلك النظام الغذائي هو الذي يمنحهم تلك النعومة والحريرية الرائعة لجلودهم. وجوههم والعظام البارزة في وجناتهم وعظام الفك المتأرجحة بثقة ناعمة، بدون أية تجاعيد أو ترهلات، متورمة؛ العينان الضيقتان اللتان لا تكاد تراهما يرقدان هناك مثل حجرين سوداوين مثبتين بإحكام في قطعة فسيفساء؛ في كل الأحوال، يميل الموراني الشاب للإعجاب بالفسيفساء. عضلات رقابهم منتفخة بطريقة معينة مزعجة، مثل رقبة أفعى الكوبرا الغاضبة، ذكر النمر، أو الثور المحارب، وسمكها بشكل بسيط إشارة إلى الرجولة التي تعني إعلانًا للحرب على كل العالم باستثناء

النساء. التناقض الكبير، أو الانسجام، بين تلك الوجوه المنتفخة الملساء، والرقاب الغليظة، وأكتافهم المستديرة العريضة، والضيق المدهش لوسطهم وأردافهم، رقة ونحول الفخذ والركبة، الساق الطويلة والمستقيمة القوية، تمنحهم مظهر المخلوقات التي اجتازت تدريبات قاسية لأقصى درجات الجشع والطمع والشراهة.

يسير رجل الماساي بشكل صارم، بحيث يضع قدمًا نحيفة واحدة أمام الأخرى، ولكنه يحرك ذراعه، رسغه، ويده بخفة ورشاقة. حينما يصوب شاب من الماساي بقوس ورمح، ويطلق خيط القوس، سيبدو لك أنك تسمع عصب رسغه الطويل وهو يطن في الهواء مع السهم.

كان ضابط بوليس نيروبي رجلاً شابًا جاء مؤخرًا من إنجلترا مفعمًا بالحماسة. كان يتحدث السواحيلية بشكل ممتاز، حتى أنني وكانينو لم نكن نفهم ما يقول، وقد أصبح غارقًا في اهتمامه بالقضية القديمة لحادث إطلاق النار، وأخذ يستنطق كانينو، حتى تحول الكيكويو إلى لوح من الخشب. حينما انتهى من الاستجواب، أخبرني أنه كان يعتقد أن كانينو قد عومل بطريقة بشعة، وأن القضية كلها ينبغي أن يجري التحقيق فيها في نيروبي. "سوف يعني ذلك سنوات من عمرك وعمري،" أجبته. طلب مني أن أسمح له أن يبدي ملاحظته بأن هذا الأمر لا يمكن أن يؤخذ بعين الاعتبار، حيث إننا كنا نتحدث بشأن تنفيذ العدالة. نظر كانينو لي: أعتقد للحظة أنه وقع في مصيدة. في النهاية وجد المحققون أن القضية أصبحت قديمة جدًا حتى يجري التحقيق فيها، ولم يحدث أمر آخر بشأنها، سوى أن كابيرو كان يسجل بشكل منتظم في المزرعة.

ولكن كل تلك الأشياء كانت ستحدث فقط بعد ذلك بوقت طويل. لخمسة أعوام كان كابيرو بمثابة شخص ميت بالنسبة للمزرعة، حيث كان يقضي حياته متجولاً مع الماساي، وكان هناك الكثير من الأمور لا زال على كانينو الخوض

فيها. قبل أن تنتهي القضية، كانت قوات الأمن تقوم بدور فعال الأمر الذي أثر عليه وجعله يبدو قليل الشأن.

عن تلك الأمور لا يمكنني أن أقول الكثير. أولاً لأنها كانت، في حد ذاتها، مستترة بشكل طبيعي، وثانيًا كانت هناك أمور تحدث لي أنا في ذلك الوقت أبعدت تفكيري عن كانينو وقدره، وتركت، الشئون العامة للمزرعة في الخلفية من رأسي مثل كليمينجارو ذلك الجبل البعيد، الذي أتمكن من رؤيته في بعض الأحيان من أرض مزرعتي، وأحيانًا لا يمكنني ذلك. قد يستقبل السكان المحليون مثل أوقات تشتتي تلك بخنوع، وكأنني في الحقيقة قد رفعني أحدهم من مجال وجودهم إلى سطح آخر؛ وفيما بعد يشيرون إلى تلك الأوقات بوصفها الأوقات التي رحلت فيها بعيدًا. "لقد سقطت هذه الشجرة الكبيرة"، كما يقولون. "مات ابني، بينما كنت مع الناس البيض".

بعد أن تعافى وانيانجيري على نحو يمكنه من مغادرة المستشفى، عدت به إلى المزرعة، ومنذ ذلك الوقت كنت أراه على فترات متقطعة، في نجوما أو على السهول.

بعد عودته بأسابيع قليلة، قدم أبوه وينايينا وجدته إلى منزلي. كان وينايينا رجلاً صغير الحجم متكور البدن، وهو أمر نادر في الكيكويو؛ لأنهم كلهم تقريبًا نحفاء. كان له لحية مدببة، وهناك أمر آخر خاص به هو أنه لم يكن يستطيع أن ينظر مباشرة في وجهي. لقد أعطاني انطباعًا بأنه أحد سكان الكهوف، يريد أن يتركه الناس لحاله. جاءت معه أمه، وهي امرأة مسنة جدًا.

تحلق النساء المحليات رؤوسهن، ومن الغريب أنك أنت نفسك وبسرعة ستشعر أن تلك الجماجم الصغيرة النظيفة المستديرة، التي تشبه نوعًا من المكسرات قاتمة اللون، كانت علامة الأنوثة الحقيقية، وأن الشعر القصير مثل لحية على رأس

امرأة، أمرًا لا علاقة له بالأنوثة. لقد تركت والدة وانيانيا العجوز بعض الخصلات القليلة من شعرها الأبيض، على فروة رأسها الضامرة لكي تنمو، هكذا، تمامًا مثل رجل غير حليق، نقلت الانطباع بقلة الحياء والوقاحة. كانت متكئة على عصاتها وتركت الحديث لوانيانيا، ولكن صمتها كان بمثابة شرارات مدهشة؛ بدت وكأنها محملة بحيوية فظة، لم تورثها لابنها. كان الاثنان في الحقيقة مثل أوراكا ولاسكارا، ولكنني لم أعرف هذا الأمر سوى في وقت متأخر.

لقد جاءا إلى منزلي وهما يجرجران خطواتهما في مهمة سلمية. لا يستطيع وانيانجيري، كما أخبرني أبوه، أن يمضغ الذرة، كانوا أناسًا فقراء ليس لديهم ما يكفي من الدقيق وليس لديهم بقرة حلوب. ألا يمكنني، إلى أن تحل قضية وانيانجيري، أن أسمح له بقليل من اللبن من أبقاري؟ وإلا، فإنهم لن يجدوا طريقة لكي يحافظوا بها على الطفل على قيد الحياة حتى يحين وقت تعويضه عن ما ألم به من خسارة. كان فرح في ذلك الوقت في نيروبي في إحدى شئونه الصومالية الخاصة، وفي غيابه وافقت على أن أسمح لوانيانجيري بزجاجة من اللبن كل يوم من قطيع الأبقار المحلية خاصتي، وأعطيت الأوامر لصبية منزلي الذين بدوا، بشكل غريب، غير راغبين أو لا يشعرون بالراحة إزاء الاتفاق بأن يأتي ليأخذ زجاجته منا كل صباح.

مر أسبوعان، أو ثلاثة؛ ثم جاء كانينو في ليلة ما إلى المنزل. وقف فجأة في الغرفة، حيث كنت أقرأ بجوار المدفأة بعد العشاء. لأن المحليين بشكل عام يفضلون أن يدور النقاش خارج المنزل؛ لذلك فقد جعلتني الطريقة التي أغلق بها الباب خلفه أستعد لحديث مدهش.

ولكن المفاجأة الأولى هي أن كانينو كان قد أصابه الخرس. كان لسانه المعسول والفطن ميتًا، وكأنه قد اقتطع من فمه، وظلت الغرفة، في وجود كانينو،

صامتة. كان الكيكويو العجوز يبدو متعبًا جدًا، كان يستند على عكازه، وكأن لا أحد بداخل عباءته، كانت عيناه زائغتين مثل عيني جثة، وأخذ يرطب شفتيه الجافتين بلسانه.

حينما بدأ حديثه في النهاية، كان لكي يعلن، ببطء وكآبة، أنه كان يظن أن الأمور تسير على نحو سيئ. وبعد قليل أضاف بأسلوب غامض، وكأن الأمر برمته يمكن تجاهله، إنه الآن كان قد باع ما يفوق عشر خراف لوايناينا. والآن يريد واينانيا، استطرد في قوله، بقرة وعجلاً صغيرًا منه أيضًا، وأنه ينتوي منحهما له. لم فعل ذلك، سألته، بينما لم يصدر حكم بعد؟ لم يجب كانينو، ولم ينظر إليَّ حتى. لقد كان في هذه الليلة مسافرًا أو حاجًا لن يعبر مدينة تالية. لقد جاء، كعادته، لكي يقدم تقريره لي، والآن سيرحل مرة أخرى. لم أستطع أن أفكر سوى بأنه كان مريضًا، بعد وقفة قصيرة قلت إنني سآخذه للمستشفى في اليوم التالي. وعندها رمقني بنظرة متألمة قصيرة: إن الساحر العجوز يتعرض الآن لسخرية مريرة. ولكنه قبل أن يمضي فعل شيئًا غريبًا، رفع يدًا على وجهه وكأنه يمسح دمعة. كان أمرًا غريبًا، مثلما تزهر عصا الحاج، أن يكون لدى كانينو دموع ليذرفها، والأمر الأكثر غرابة أنه يذرفها دون أن ينتفع بها. تعجبت ماذا كان يحدث في المزرعة بينما كنت شاردة الذهن عنها. حينما مضى كانينو أرسلت في طلب فرح وسألته.

في بعض الأحيان كان فرح يعرض عن الخوض في شئون السكان المحليين، وكأنهم في مرتبة أدنى منه لا يستحقون أن نتناول أخبارهم أو أن أستمع إليها. في النهاية وافق على أن يخبرني، بينما ظل طوال الوقت يتجاوزني بنظره خارج النافذة، شاخصًا ببصره إلى النجوم. ما تسبب في خسارة كانينو، في حقيقة الأمر، هي والدة واينانيا، الساحرة بعد أن أصابته بلعنتها.

قلت "ولكن يا فرح، كانينو، بالتأكيد، رجل عجوز وحكيم بدرجة لا تسمح له بأن يؤمن باللعنة".

"لا"، قال فرح ببطء. "لا، ميمصاحب؛ لأن هذه الزوجة العجوز من قبيلة الكيكويو تستطيع بالفعل أن تقوم بتلك الأشياء، كما أعتقد".

لقد أخبرت المرأة العجوز كانينو ببطء أن أبقاره ستعيش لليوم الذي سترى فيه أنه كان من الأفضل بالنسبة لها لو أن كانينو قد أعطاها لوينايينا من البداية. الآن شارفت أبقار كانينو على الإصابة بالعمى واحدة وراء الأخرى. وفي هذه المحنة ينفطر قلب كانينو ببطء، كعظام وأنسجة هؤلاء الناس الذين كانوا يتعرضون للتعذيب من جراء الأثقال المتزايدة التي يضعونها عليهم قديمًا.

تحدث فرح عن أعمال السحر في كيكويو بأسلوب جاف وقلق بوصفها الحمى القلاعية في المزرعة، التي لن تصيبنا نحن، ولكن بسببها قد نفقد قطعان الماشية خاصتنا.

جلست في وقت متأخر من الليل أفكر في أعمال الشعوذة في المزرعة. في البداية بدا الأمر قبيحًا، وكأنها جاءت من قبر قديم لكي تبسط أنفها على زجاج شباكي. سمعت الضبع يعوي من بعيد، هناك أسفل النهر، وتذكرت أن الكيكويو لديهم أشخاص مسخت على هيئة ذئاب، النساء العجائز اللاتي يتخذن ليلاً شكل الضباع. ربما كانت والدة وانيانيا تهرول على ساحل النهر الآن كاشفة عن أسنانها في هواء الليل. وقد اعتدت الآن فكرة السحر، بدا الأمر وكأنه شيء معقول، هناك الكثير من الأشياء تحوم ليلاً في أفريقيا.

"إن هذه المرأة العجوز حقيرة،" فكرت بالسواحيلية، "إنها تستخدم فنونها لكي تصيب أبقار كانينو بالعمى، وتترك أمر إبقاء حفيدها على قيد الحياة لي، على زجاجة من اللبن كل صباح من أبقاري".

فكرت: "هذه الحادثة وعواقبها، قد باتت تسري في دماء المزرعة، وأن الأمر برمته حدث بسبب ما ارتكبته من خطأ. ينبغي أن أستـــدعي قوى جديدة، وإلا ستنقلب المزرعة إلى حلم سيئ، إلى كابوس. أعرف ما سأفعله، سوف أرسل في طلب كينانجوي.

رئيس الكيكويو

يعيش الرئيس الكبير كينانجوي في محمية الكيكويو التي تبعد عن المزرعة بتسعة أميال من جهة الشمال الشرقي بجوار الإرسالية الفرنسية، وكان يحكم أكثر من مائة ألف مواطن من قبيلة الكيكويو. كان رجلاً عجوزًا مكارًا، وله أسلوب لطيف، وحضور حقيقي كبير، على الرغم من أنه لم يولد لكي يكون رئيسًا، ولكنهم جعلوه هكذا منذ سنوات عديدة، بواسطة الإنجليز، حينما فشلوا في التواصل مع الحاكم الشرعي لأبناء الكيكويو في تلك المنطقة.

كان كينانجوي صديقًا لي، وقد ساعدني في كثير من المناسبات. كانت المانياتا[١٠]، خاصته التي ارتدتها مرات قليلة، قذرة ومليئة بالحشرات الطائرة مثل تلك التي يمتلكها أهالي الكيكويو الآخرون. ولكنها كانت أكبر بكثير من كل ما رأيت من قبل؛ لأنه بسبب منصبه كرئيس للكيكويو قد منح نفسه بالكامل لمتعة الزواج. كانت القرية مليئة بزوجاته من كل الأعمار، من الحيزبونات العجائز النحيفات بشدة اللاتي فقدن أسنانهن، إلى الشابات ذوات القوام الرشيق والوجه المستدير كالقمر، وعيني الغزال، أذرعتهن وسيقانهن الطويلة ملفوفة بأسلاك النحاس اللامعة. بينما كان أطفاله في كل مكان، متجمعين في شكل عنقودي مثل الذباب. كان الشباب، أبناؤه، ينتصبون، برؤوس مزخرفة، يجيئون ويذهبون، مسببين الكثير من الإزعاج. أخبرني كينانجوي ذات مرة أنه كان لديه في تلك اللحظة خمسة وخمسون ابنًا قد أخذوا صفة المحارب الموراني.

في بعض الأحيان كان يأتي الرئيس العجوز سائرًا إلى مزرعتي بعباءة فاخرة من الفراء، مصحوبًا باثنين أو ثلاثة من أعضاء مجلس شيوخه والقليل من أبنائه المحاربين، في زيارة ودية، أو ليرتاح من المهام الحكومية. كان وقتها يمضي المساء على كرسي من كراسي شرفات المنزل الذي كان يخرجه الخدم من أجله إلى الساحة الخضراء الواسعة أمام المنزل، يدخن السيجار الذي أرسله له، بينما يجلس أعضاء مجلسه البلدي وحراسه القرفصاء على العشب حوله. حينما كانت تصل أخبار عن مجيئه لصبية منزلي ولواضعي اليد من ملاك الأرض، كانوا يأتون ويتجمعون هناك، ويسلونه بأحداث المزرعة. كانت المجموعة كلها تبدو نوعًا من النادي السياسي المنعقد تحت الأشجار الطويلة. في تلك الاجتماعات كان لكينانجوي تصرفاته الخاصة: حينما كان يعتقد أن الجالسين يستطردون لوقت طويل في المناقشات كان يميل للوراء في كرسيه، وبينما يبقي سيجاره مشتعلاً، يغلق عينيه ويسحب نفسًا عميقًا ببطء، بشخير منخفض ومنتظم، في نوع من النوم الصوري الرسمي، الأمر الذي ربما طوره في المجلس الشعبي خاصته. في بعض الأحيان كانوا يحضرون لي كرسيًا خارج المنزل لكي أجلس للتحدث معه، وفي تلك المناسبات كان كينانجوي يصرف جميع الموجودين لكي يؤكد أنه سيهيمن على العالم الآن بشكل جاد. لم يكن، في الوقت الذي عرفته فيه، الرجل الذي كان، فقد أخذت منه الحياة الكثير. ولكنه حينما تحدث بحرية ودون قيود، وأفضى لي بحديث خاص، أظهر أنه على درجة عالية من الإبداع العقلي، وأن لديه روحًا ثرية وشجاعة واسعة الخيال؛ كان يفكر في أمر الحياة مرارًا وكان له اراء قوية بشأنها.

قبل ذلك بسنوات قليلة حدث أمر كان من شأنه تقوية أواصر الصداقة بيني وبين كينانجوي.

جاء إلى منزلي في يوم ما حينما كنت أتناول غدائي مع صديق كان في طريقه للريف؛ لم يكن لدي وقت لأحادث رئيس الكيكويو حتى رحل صديقي. توقع كينانجوي أن يقدم له مشروبًا بينما هو في انتظاري، بعد سيره الطويل تحت وطأة الشمس، ولكنني لم يكن لدي ما يكفي من مشروب واحد لكي أقدم كوبًا ملآن له ولصديقي أيضًا، ولهذا فقد ملأت قدحًا بأنواع مختلفة من المشروبات الروحية التي كانت لديّ في المنزل. كنت أعتقد أنني كلما جعلت المشروب قويًا، سيبقيه ذلك منشغلاً، وقدمته له بنفسي. ولكن كينانجوي، بعد أن بلل شفته ابتسم ابتسامة ذكية، ورمقني بنظرة عميقة لم يرمقني بها رجل من قبل أبدًا، رجع برأسه للخلف وسكب الكأس في جوفه حتى آخر قطرة.

بعد ذلك بنصف ساعة، حينما رحل صديقي للتو، جاء صبية المنزل، وقالوا: "لقد مات كينانجوي". شعرت للحظة بأن المأساة والعار يظهران أمامي كظلال كئيبة كبيرة. وخرجت لرؤيته.

كان يرقد على الأرض بجوار المطبخ، بلا أي تعبير على وجهه، وشفتاه وأصابعه تتلون بلون أزرق، بارد برود الموتى. كان الأمر يبدو وكأنك أطلقت النار على فيل: لم يعد هذا المخلوق القوي الساحر، الذي جاب الأرض سيرًا، ولديه آراؤه الخاصة في كل شيء، ولم يكن يقوى على السير. كان يبدو ذليلاً أيضًا، حيث إن أبناء الكيكويو قد صبوا الماء عليه، ونزعوا عنه عباءته الكبيرة المصنوعة من جلد القردة. عاريًا، كان يبدو مثل حيوان حينما تنزع منه غنيمته التي قتل من أجلها.

كنت قد نويت أن أرسل فرحًا لطلب الطبيب، ولكننا لم نتمكن من تشغيل السيارة، وأخذ أتباع كينانجوي يتوسلون إلينا أن ننتظر قليلاً قبل أن نفعل أي شيء.

بعد ذلك بساعة، وكنت في طريقي للخروج مرة أخرى، بقلب مثقل، للحديث معهم، جاءني صبيتي مرة أخرى وقالوا: "لقد ذهب كينانجوي إلى منزله". يبدو أنه نهض فجأة، التحف بعباءته، وخدمه من حوله، ورحل، سائرًا الأميال التسعة إلى قريته، دون أن ينبس بكلمة.

بعد تلك المرة، أعتقد أن كينانجوي قد شعر أنني جازفت، أو أنني تحديت خطرًا لكي أجعله سعيدًا– لأنه ليس مسموحًا لك أن تعطي السكان المحليين المشروبات الكحولية. جاء لزيارتي في مرة تالية في المزرعة منذ تلك الواقعة، ودخن سيجارًا معنا، ولكنه لم يشر إلى أي شراب. كان ينبغي أن أعطيه له لو طلبه مني، ولكنني عرفت أنه لن يطلب أي مشروب بعد الآن.

أرسلت الآن أحد السعاة إلى قرية كينانجوي وشرحت له أمر حادث إطلاق النار كاملاً. وطلبت منه أن يأتي للمزرعة لإنهاء هذا الأمر. اقترحت أننا ينبغي أن نعطي واينانيا البقرة والعجل اللذين تحدث عنهما كانينو، وأن ننهي الأمر كله عند هذا الحد. كنت أنتظر وصول كينانجوي؛ لأن لديه قيمة يقدرها الجميع في الصديق، وهي قدرته على التأثير فيمن حوله برسالتي هذه، أثارت القضية، التي كانت قد هدأت لبعض الوقت، الزوابع ثم انتهت بشكل درامي.

في ظهيرة يوم من الأيام وأنا أقود حصاني عائدة للمنزل، لمحت سيارة قادمة بسرعة رهيبة، تدور على عجلتين حول الممشى. كانت سيارة قرمزية اللون مطلية بكثير من النيكل. عرفتها، إنها سيارة القنصل الأمريكي في نيروبي، وتساءلت عن الأمر العاجل الذي جلب القنصل إلى منزلي قاطعًا مثل تلك المسافة. ولكنني وأنا أترجل عن حصاني خلف المنزل، جاء فرح ليخبرني أن الرئيس كينانجوي وصل. لقد جاء بسيارته الخاصة، التي اشتراها في اليوم السابق من القنصل الأمريكي، ولم يكن يريد أن يخرج منها قبل أن أراه بداخلها.

وجدت كينانجوي جالسًا منتصبًا في السيارة، مثل وثن لا يتحرك. كان يرتدي عباءة كبيرة زرقاء من جلد القردة، وفوق رأسه قبعة، من النوع الذي يصنعه أهل الكيكويو من معدة الخراف. كان دومًا شخصية تترك انطباعًا على من حولها، له قامة طويلة وعريضة، بلا أي شحم في أي مكان؛ كان وجهه أيضًا يحمل علامات الكبرياء، طويلاً وكثير العظام، وجبهة منحدرة مثل تلك التي لدى الهندي الأحمر. كان له أنف عريض، معبر جدًا لدرجة أنه يشابه النقطة المركزية للرحل، وكأن الشكل الجليل كله وجد فقط لكي يحمل هذا الأنف العريض. مثل خرطوم فيل، كان جريئًا وحساسًا لأقصى حد، فطنًا، حادًا في هجومه، وفي دفاعه عن نفسه أيضًا. وأخيرًا، فإن فيلاً مثل كينانجوي، سيكون له رأس يمتاز بنبل عظيم، حتى وإن لم يكن يبدو ذكيًا جدًا.

لم يفتح كينانجوي فمه أو يجفل بينما كنت أعرب له عن إطرائي على السيارة، كان يحدق مباشرة إلى الأمام حتى أرى وجهه من الناحية الجانبية، وكأنه وجه محفور على ميدالية. وأنا أسير متجولة حول السيارة حتى وصلت لمقدمتها، أدار وجهه باتجاهي حتى يبقي زاويته المهيبة التي تليق بالملوك؛ ربما كان يفكر بالفعل في رأس الملك الذي يزين الروبية. كان أحد أبنائه الشباب يقود له سيارته، وكان صوت محرك السيارة مرتفعًا بشدة. حينما انتهت المراسم، دعوت كينانجوي لكي يخرج من السيارة. لملم عباءته الكبيرة حوله بإيمائة ساحرة ثم نزل، وفي تلك الحركة خطا للخلف ألفي عام، بإنصاف إلى الكيكويو.

على الحائط الغربي من منزلي كان هناك كرسي حجري وأمامه طاولة صنعت من حجر الرحى. ذلك الحجر له تاريخ درامي: كان حجر الرحى لطاحونة تخص هنديين مقتولين. بعد القتل، لم يجرؤ أحد أن يتولى أمر الطاحونة، حتى أنها صارت مهجورة وصامتة لوقت طويل، رأمرت أحد الخادمين أن يأتي بالحجر

لمنزلي لكي أصنع منه مسطح الطاولة، لكي تذكرني بالدينمارك. لقد أخبرني الطحانون الهنود أن طاحونتهم قد جاءت عبر البحار من بومباي، حيث إن أحجار أفريقيا ليست صلبة بما يكفي للطحن. على الجانب العلوي كان هناك شكل محفور، به بعض النقاط البنية المحفورة عليه، التي كان صبية المنزل يعتقدون أنها دماء الهنديين، التي لن تمحى أبدًا. بشكل ما شكلت طاولة حجر الرحى مركز المزرعة، حيث إنني اعتدت أن أجلس أمامها في كل الاتفاقات التي عقدتها مع السكان المحليين. من هذا المقعد الحجري خلف حجر الرحى، استمتعنا أنا ودينيس فينش هاتون في ليلة العام الجديد برؤية القمر الجديد وكوكبي فينوس وجوبيتر بجوار بعضهما، في مجموعة في السماء؛ لقد كان مشهدًا مشعًا، لا تكاد تصدق أنه حقيقي، ولم أره أبدًا مرة أخرى.

جلست هناك الآن، بينما جلس كينانجوي على يساري. اتخذ فرح موقعه على يميني، ومن هناك أبقى عينيه مفتوحتين على ناس الكيكويو، الذين كانوا يتجمعــون حول المنزل، حيث أخذوا يتوافدون مع انتشار خبر مجيء كينانجوي إلى المزرعة.

كان سلوك فرح مع السكان المحليين رائعًا كمشهد متنوع الألوان. ليس هناك أكثر روعة من زي وملامح محاربي الماساي، وكأنها قد صنعــت بالأمس فقط، أو اليوم السابق عليها؛ لقد كان ذلك نتاج قرون مضت. القوى التي كونت تلك الملامح قد شيدت المباني العظيمة بالحجر أيضًا، ولكنها انهارت متحولة إلى تراب قبل وقت طويل.

حينما تجيء للبلاد لأول مرة، وتهبط في مومباسا، سترى، بين أشجار الباوباب القديمة ذات اللون الرمادي الفاتح - التي لا تبدو مثل نبات خارج من الأرض، ولكن مثل متحجرات مسامية ضخمة أسطوانية منقرضة - سترى أنقاض

أحجار رمادية لبيوت ومآذن، وآبار. هذا النوع من الحطام موجود أيضًا على امتداد الطريق إلى الساحل، في تاكاونجا، وكاليفي، ولامو. إنها البقايا القليلة للمدن والتجار العرب القدامى الذين كانوا يتاجرون في الماس والعبيد.

لقد عرفت مراكب التجار الشراعية كل الطرق الأفريقية الملتوية، وارتادت الممرات الزرقاء لسوق زينزبار المركزي. كانوا على علم بها حينما أرسل علاء الدين إلى السلطان أربعمائة عبد أسود محملين بالمجوهرات، حينما احتفلت السلطانة مع حبيبها الأسود بينما كان زوجها في رحلة للصيد، وحكم عليها بالموت من أجل ذلك.

من المحتمل، بينما ازداد هؤلاء التجار ثراءً، أنهم جلبوا حريمهم معهم إلى مومباسا وكاليفي، وبقوا هم في فيلاتهم، بجوار الموجات العارمة الطويلة البيضاء للمحيط، والأشجار المزهرة المشتعلة، بينما أرسلوا بعثاتهم الاستكشافية إلى الأراضي المرتفعة.

لأنهم حصلوا على ثرواتهم من تلك البلاد البدائية الصعبة، السهول الحارقة الجافة، والامتدادات المجهولة الجافة من المياه، من أرض أشجار الأشواك العريضة على طول الأنهار، والأزهار الصغيرة البرية ذات الرائحة القوية للتربة السوداء. هنا فوق سطح أفريقيا، تجول حامل العاج الصارم، الساحر ذو الحكمة. لقد كان غارقًا في أفكاره وأراد أن يتركه الناس وحيدًا. ولكن هناك من تتبع خطواته، ورشقه المتجولون ذوو البشرة الداكنة بالسهام المسمومة، وفوهات البنادق المحشوة، والبنادق المزخرفة بالفضة التي حملها العرب؛ لقد أوقع به كفريسة ومزقوه لقطع صغيرة، كل ذلك من أجل الأنياب الطويلة الملساء ذات اللون البني الفاتح، التي كانوا يجلسون في انتظارها في زنزبار.

هنا، أيضًا، نُظفت قطع صغيرة من تربة الغابة، وأحرقت، وزرعت بالبطاطا والذرة، بأيدي أبناء هذه الأمة الخجولة المحبة للسلام، الذين لم يجيدوا الحرب، أو اختراع أي شيء، ولكنهم أرادوا أن يتركوا في شأنهم، هذه الأمة التي كانت، من أجل العاج، مطلوبة بشدة في السوق.

"كل الطيور الحزينة التي تتغذى على لحم الإنسان...

تتجمع. يترك بعضها جماجم صلعاء.

فيما تمسح الأخرى بصلبانها مناقيرها المتوحشة

وثمة أخرى تهرب من العدوان الأسود بصراخ مكتوم..".

لقد جاء العرب قساة القلب الشهوانيون، مستهينين بالموت، وعقولهم، بعيدًا عن أوقات العمل، مشغولة بالتنجيم، وعلم الجبر، وبحريمهم. جاء معهم إخوانهم الصغار غير الأشقاء من الصوماليين- المتهورين، محبي الشجار المتقشفين والطماعين، الذين عوضوا نقصهم في أصالة نسبهم، بكونهم محمديين حماسيين، وأكثر إخلاصًا لأوامر نبيهم أكثر مما يكون عليه الأبناء الشرعيون للإسلام. لقد سار السواحيليون في مضمارهم، وهم عبيد وبقلوب مستعبدة، قاسية، شهوانية، مجرمة، مليئة بحس طيب وبالعظمة، وأجسامهم تميل إلى السمنة مع تقدم العمر.

هناك في أعالي البلاد قابلوا الطيور الكاسرة المحلية للمناطق المرتفعة. جاء الماساي، صامتين، مثل ظلال طويلة سوداء رفيعة، برماح ومجنات ثقيلة، مستائين من الغرباء، متلبسين بجريمة بيع إخوانهم.

لا بد أن طيورًا مختلفة قد حطت هنا وتحدثت معًا. أخبرني فرح أنه في قديم الزمان، قبل أن يأتي الصوماليون بنسائهم من الأراضي الصومالية؛ كان الشباب الصومالي لا يتزوج سوى من بنات الماساي من بين كل قبائل البلاد. لا بد

أن ذلك كان يعد تحالفًا غريبًا؛ لأن الصوماليين أناس متدينون، والماساي ليس لهم أي دين، ولا أي اهتمام يذكر بأي شيء على وجه الأرض. يتسم الصوماليون بالنظافة والاعتناء بالاغتسال وبالصحة العامة، بينما الماساي أمة قذرة. يعطي الصوماليون أيضًا أهمية كبيرة لعذرية فتياتهم اللاتي في سن الزواج، أما فتيات الماساي الصغيرات فإنهن يعطين أهمية ضئيلة لتلك الأخلاقيات. قدم فرح لي تفسيرًا على الفور. أخبرني أن الماساي لم يكونوا أبدًا عبيدًا. ولم يمكن أن يستعبدوا، ولا يمكن حتى أن يضعهم أحد في السجون. إنهم يموتون في السجن إذا أدخـــلهم أحـــد هناك، في غضون ثلاثة أشهر، ولهذا فإن القانون الإنجليزي للبلاد لا يضع عقوبة السجن للماساي: يحكم عليهم بدفع غرامة. عدم القدرة المطلقة على البقاء على قيد الحياة تحت نير الاستعباد منحتهم وحدهم دون كل القبائل المحلية منزلة الأرستقراطية المهاجرة.

كل الطيور الجارحة عاشت وعيونها الثاقبة على الحيوانات القارضة الرقيقة على الأرض. للصوماليين هنا مكانتهم الخاصة. لا يجيد الصوماليون الاعتماد على أنفسهم، من السهل إثارتهم، وأينما ذهبوا، لو تركوا لشأنهم فسوف يهدرون الكثير من الوقت والدماء بسبب نظامهم الأخلاقي القبلي. ولكنهم يصلحون بشكل جيد في الصف الثاني للقيادة، وربما منحهم الرأسماليون العرب دومًا مسئوليات تتطلب جرأة وتنقلات صعبة بينما بقوا هم أنفسهم في مومباسا. ولهذا فإن علاقتهم بالسكان المحليين كانت تقريبا مثل علاقة كلب الراعي بالخراف. كانوا يراقبونهم بلا كلل، كاشفين عن أنيابهم الحادة. هل سيموتون قبل أن يصلوا إلى الساحل؟ هل سيهربون؟ للصوماليين حس حاد إزاء المال والقيم، سوف يتخلون عن تناول الطعام وعن النوم من أجل ما يحصلون عليه من مال، ويعودون من البعثات الاستكشافية منهكين حتى يكادوا يلفظون نفسهم الأخير. لا زالت تلك العادة في دمائهم. حينما أصابت المزرعة الأنفلونزا الأسبانية، أصيب فرح نفسه بها إصابة بالغة، ولكنه

كان يتبعني في كل مكان، وهو يرتجف من وطأة الحمى، لكي يحضر أدوية لواضعي اليد من ملاك الأرض، ولكي يجبرهم على تناولها. لقد قيل له إن البارافين كان له مفعول جيد جدًا ضد المرض، ولهذا فقد جلب البارافين للمزرعة. كانت إصابة أخيه الصغير عبد اللاي، الذي كان معنا في ذلك الحين، بالأنفلونزا سيئة جدًا، وكان فرح شديد القلق عليه. إلا أن ذلك كان مجرد ميل قلبي وأمرًا طائشًا. الواجب والخبز والسمعة كلها أمور تقع على عاتق العامل في المزرعة، وعلى راعي الخراف المتهالك أن يلتزم بالعمل. كان لفرح أيضًا رؤية ثاقبة لما يجري في دوائر المحليين، على الرغم من أنني لم أكن أعرف من أين يستقي معلوماته؛ لأنه باستثناء كبار القوم، لم يكن يرافق أيًا من أهالي الكيكويو.

الخراف نفسها، تلك الشعوب الصابرة، التي بلا أسنان أو أنياب، التي بلا قوة ولا حماية على الأرض، يمكنها أن تمضي في سبيلها كما هي الآن، بسبب موهبتها الهائلة للرضوخ. لم يموتوا تحت نير الاستعباد، مثل الماساي، أو يصرخوا في وجه القدر، كما يفعل الصوماليون حينما يعتقدون أنهم قد أصيبوا، أو خدعوا، أو أهينوا. كانوا أصدقاء الله في بلاد غريبة، مقيدين في سلاسل. لقد حافظوا أيضًا على شعور ذاتي نادر في علاقاتهم بمن قاموا باضطهادهم. لقد كانوا على وعي بأن فائدة ومكانة معذبيهم تقع على عاتقهم أنفسهم: لقد كانوا الشخصيات المركزية في المطاردة والتجارة، لقد كانوا بمثابة البضاعة. على المسار الطويل للدماء والدموع، صنعت الخراف لنفسها في عمق قلوبها الخرساء المظلمة، فلسفة غوغائية، ولم تمنح الرعاة أو الكلاب قدرًا عاليًا من الاحترام. كانوا يقولون "إنكم لم ترتاحوا يومًا ولا ليلة. أنتم تلهثون وألسنتكم الساخنة خارج أفواهكم، تلهثون، لقد بقيتم مستيقظين ليلاً حتى أن عيونكم الجافة توخزكم نهارًا، كل ذلك من أجلنا. أنتم هنا لصالحنا. لقد وجدتم من أجلنا، لم نوجد من أجلكم". في بعض الأحيان يكون

لدى أهل الكيكويو الذين يقطنون المزرعة سلوك طائش باتجاه فرح، كحمل يمكن أن يثب بخفة في وجه كلب راعي الخراف فقط لكي يجعله ينهض ويجري.

لقد التقى فرح وكينانجوي هنا، الكلب راعي الخراف والكبش العجوز. وقف فرح منتصبًا وهو يرتدي عمامة رأسه الحمراء والزرقاء والمعطف العربي ذا الصدرية المزخرفة، والرداء العربي الحريري، بدا شخصية وقورة، محتشمة، كأي شخص يمكن أن تجده في أي مكان في العالم. كان كينانجوي يفترش المقعد الحجري، عاريًا فيما عدا عباءته المصنوعة من فراء القردة التي فردها على كتفيه، مواطن محلي عجوز، كتلة من تراب الأراضي المرتفعة الأفريقية. كانا يعاملان بعضهما البعض باحترام، على الرغم من ذلك، كانا حينما لا يكون بينهما تعامـل مبـاشر، بالتـوافق مع بعض الطقوس المتعارف عليها، يتظاهران بأنهما لا يريان بعضهما البعض.

كان من السهل تخيل الاثنين، منذ مائة عام أو أكثر، يتحادثان بشأن الاتفاق على شحنة من العبيد، أعضاء غير مرغوب فيهم من القبيلة، يريد كينانجوي أن يخلص نفسه منهم. سيحتفظ فرح طوال الوقت في خلفية ذهنه بفكرة القفز على الرئيس العجوز نفسه كقطعة سمينة، حتى يمكن أن يضمنه في جعبته. سيتابع كينانجوي، بلا أخطاء، كل فكرة من أفكار فرح، وخلال الجلسة كلها، سيحمل ثقل هذا الموقف، أيضًا، ثقل قلبه المهموم المرتعب. لأنه كان الشخصية المحورية، كان بمثابة البضاعة.

بدأ الاجتماع المهم للوصول لتسوية بشأن حادث إطلاق النار بروح سلمية. كان ناس المزرعة مسرورين كلهم لرؤية كينانجوي. نهض واضعو اليد وجاءوا لكي يتبادلوا بعض الملاحظات معه، ثم عادوا ثانية متخذين مكانهم على العشب. حيتني امرأتان كانتا جالستين في المحيط الخارجي للدائرة المتجمعة بصيحة عالية:

"جامبو جيري!" جيري هو اسم من أسماء قبيلة الكيكويو. كانت نساء المزرعة العجائز ينادينني بهذا الاسم، وقد استغله الأطفال الصغار في المزرعة أيضًا، ولكن الشباب والرجال لم يكونوا ينادونني به مطلقًا. حضر كانينو الاجتماع، بين أسرته الكبيرة، مثل خيال مآتة وقد استدعي للحياة، بعينيه المشتعلتين المتيقظتين. جاء وينايينا مصطحبًا والدته وجلسا بعيدًا قليلاً عن الآخرين.

أخبرت الناس ببطء وبأسلوب مؤثر، أن الأمر الذي بين كانينو وواينايينا قد تم تسويته، وأن التسوية قد سجلت على الورق. ولقد جاء كينانجوي ليشهد بصحتها. كانينو سيعطي واينايينا بقرة مع عجل وعند هذا الحد ينبغي أن ينتهي هذا الأمر، حيث لا يمكن لأحد أن يتحمل الأمر أكثر من ذلك.

أبلغ كانينو وواينايينا بهذا القرار قبل مجيئهما، وقد تلقى كانينو أمرًا بأن يجهز البقرة والعجل. كانت أنشطة واينايينا ذات طبيعة سرية، في وضح النهار كان يبدو مثل نبتة على الأرض، وكان يبدو ناعمًا مثلها.

بعد أن قرأت الاتفاق على الحاضرين أخبرت كانينو بأن عليه أن يجلب البقرة. نهض كانينو ملوحًا بكلتا ذراعيه أعلى وأسفل مرات عديدة لاثنين من أبنائه الصغار، اللذين كانا يمسكان بالبقرة خلف كوخ الصبية. فتحت الدائرة بينما قاد الولدان البقرة والعجل ببطء إلى منتصفها.

في اللحظة ذاتها تغير جو الاجتماع وكأن عاصفة رعدية تجيء في الأفق، وبسرعة تصعد لمنتهاها.

ليس هناك شيء في العالم يجذب انتباه الكيكويو أكثر من مشهد البقرة والعجل من ورائها. إن إراقة الدماء وأعمال السحر، والحب الجنسي، أو عجائب عالم الرجل الأبيض، كلها تتبخر وتختفي إزاء عاطفتهم المتوقدة والمتأججة تجاه

الماشية الحية، الأمر الذي يشعرك أنك تعيش في أجواء العصر الحجري، مثل نار توقدها بحجر الصوان.

راحت أم واينواينا تنتحب لوقت طويل ثم هزت ذراعها الجافة وأصبعها باتجاه البقرة. ثم شاركها واينواينا النحيب، متلعثمًا في حديثه كله، وكأن شخصًا آخر كان يتكلم من خلاله؛ رفع صوته للسماء. لم يكن ليوافق على البقرة لكونها أكبر أبقار كانينو سنًا ومن المحتمل أن يكون ذلك العجل الذي يرافقها آخر العجول التي يمكن أن تلدها في حياتها.

صاح عشيرة كانينو وقاطعوه بصوت غاضب متقطع في محاولة لتقييم صفات البقرة، تستشعر منه مرارة كبيرة وازدراء للموت.

لم يكن من عادة أهل المزرعة أن يظلوا صامتين بينما تدور مناقشة حول بقرة وعجل. أدلى كل الحاضرين بدلوهم. اشتبك المسنون من الرجال ببعضهم، ولفظوا أنفاسهم المصابة بالربو استحسانًا أو إنكارًا للبقرة. أما نساؤهم العجائز فقد كانت أصواتهن الحادة تسقط وتتبعهم لأعلى، مثل طلقات المدفع. بينما كان الشباب يتلفظون بملاحظات قصيرة عدوانية وكأنهم يبصقون على بعضهم البعض. في غضون دقيقتين أو ثلاث أصبح المكان المفتوح أمام منزلي يغلي مثل قدر الساحرة.

نظرت باتجاه فرح ونظر إليَّ هو في المقابل، ولكن كرجل في حلم. رأيته كسيف نصف مسلول من جعبته، من الممكن أن يومض في لحظة يمينًا ويسارًا في خضم النزاع. لأن الصوماليين أنفسهم هم ملاك وتجار قطعان ماشية. رمقني كانينو بنظرة غريق حملته الأمواج أخيرًا. ألقيت نظرة على البقرة. كانت بقرة رمادية بقرنين معقوفين بعمق، وكانت تقف بصبر تمامًا في وسط الطوفان الذي أثارته. حينما كانت كل الأصابع موجهة إليها بدأت في لعق عجلها. أظن أنها بشكل ما، كان لها مظهر البقرة العجوز.

في النهاية، أدرت نظري مرة أخرى لكينانجوي. لم أعرف ما إذا كان ينظر إلى البقرة أم لا. بينما كنت أنظر إليه لم يبد أي تعبير غاضب على وجهه. جلس بلا حراك، مثل متاع مهمل بلا أي ذكاء أو تعاطف، فقط كان جالسًا بجوار المنزل وحسب. أدار جانبه إلى الحشد الصارخ، وأدركت كم أن صورته الجانبية هي بحق وجه لملك. إنها قدرة من قدرات المحليين إذن، أن تحول نفسك، بحركة واحدة، إلى شيء فاقد الوعي. لا أعتقد أن كينانجوي كان يستطيع أن يتحدث أو يتحرك بدون أن يحرك أشجان من حوله، وهكذا بقي على حالته تلك لكـــي يبث فيهم السكـــون. لا يمكن لأي شخص أن يفعل ذلك.

شيئًا فشيئًا خمد الغضب الشديد، توقف الناس عن الصراخ الحاد، وبدءوا يتحدثون في أمور الحياة اليومية؛ وفي النهاية التزموا الصمت واحدًا وراء الآخر. أما والدة واينانيا، حينما اعتقدت أن لا أحد كان يراقبها، زحفت خطوات قليلة على عصاتها لكي تلقي نظرة عن قرب على البقرة. استدار فرح وعاد إلى التمدن، بابتسامة صغيرة ساخرة.

بعد أن ساد الهدوء، جعلنا أطراف القضية يجلسون حول المائدة الحجرية، ويغمس كل منهم إبهامه في إناء الشحم، ويبصم على وثيقة الاتفاق. فعل واينانيا ذلك بتردد شديد، حتى أنه أخذ يئن قليلاً حينما وضع إبهامه على الورقة، وكأنها تحرقه. كان الاتفاق ينص على ما يلي:

لقد أبرم الاتفاق التالي في نجونج اليوم، السادس والعشرين من سبتمبر، بين واينانيا وا بيمو وكانينو وا ميوتيور. حضر الاتفاق الرئيس كينانجوي وشهد على الأمر برمته. ينص الاتفاق على أن يدفع كانينو لواينانيا بقرة وعجلاً، وينبغي أن يسلما لوانيانجيري ابن واينانيا، الذي تعرض في التاسع عشر من ديسمبر من العام الماضي لإصابة عن طريق الخطأ من طلقة مسدس كان يحمله كابيرو ابن كانينو.

بدفع هذه البقرة وعجلها تكون الشورى قد تم تسويتها. ولا ينبغي لأحد بعد ذلك أن يتحدث في هذا الأمر أو يذكره مطلقاً.

نجونج، في السادس والعشرين من سبتمبر.

بصمة وايناينا

بصمة كانينو

لقد كنت هنا وسمعت تلاوة الوثيقة

بصمة الرئيس كينانجوي

لقد تم تسليم البقرة والعجل لوايناينا في وجودي

البارونة بليكسن

هوامش الفصل الثانى

(١) القنطور: مجموعة من الأجسام الجلدية تشبه الكويكبات والمذنبات على حد سواء، تدور حول الشمس فى مسارات بيضاوية معظمها في المنطقة الواقعة بين زحل ونيبتون.

(٢) مدينة قديمة، ليس لها مكان محدد، ولكنها ذكرت في الكتاب المقدس.

(٣) الدونجا: مراكب خشبية طويلة.

(٤) مصباح لا تنطفئ شعلته بسبب الأمطار أو العواصف.

(٥) أودن: إله الحكمة والفن والثقافة لدى الإسكندنافيين القدامى.

(٦) استخدمت الكاتبة كلمة Serpent وقد وردت في الكتاب المقدس بمعنى شيطان، أو الكائن الذي أغوى حواء.

(٧) Pax Britannica: هي الكلمة اللاتينية للسلام البريطاني، وهي فترة ساد فيها السلام في أوروبا، حيث سيطرت الإمبراطورية البريطانية على طرق التجارة البحرية، وتمتعت بنفوذ قوي بعد معركة ووترلو عام ١٨١٥.

(٨) وردت العبارة بالفرنسية.

(٩) يطلق لفظ الموراني على محارب الماساي.

(١٠) المانياتا: هو اسم مستوطنة في الإقليم الشرقي لكينيا.

الفصل الثالث

زائرو المزرعة

"بعد أن فقدت هذه المسألة"

رقصات كبيرة

كان هناك العديد من الزائرين للمزرعة. تعد الضيافة في الدول الرائدة أمرًا ضروريًا في الحياة ليس بالنسبة للمسافرين وحدهم ولكن للمستقرين في المكان أيضًا. الزائر صديق، إنه يجلب الأخبار، الجيدة أو السيئة، التي تعد بمثابة الخبز للرؤوس الجائعة في البقاع المنعزلة. مجيء صديق حقيقي للمنزل هو بمثابة حلول رسول إلهي، يجلب معه خبز الملائكة[١].

حينما عاد دينيس فينش - هاتون بعد واحدة من رحلاته الاستكشافية الطويلة، كان مشتاقًا للحديث، ووجدني في المزرعة مشتاقة كذلك للحديث، ولذا جلسنا إلى مائدة العشاء حتى ساعات الصباح الأولى، متحدثين عن كل الأشياء التي استطعنا أن نفكر فيها، تحدثنا فيها على نحو رائع، وضحكنا كثيرًا. حينما يعيش البيض لفترة طويلة مع السكان المحليين، يعتادون على قول ما يعنونه تمامًا؛ لأنه لا يكون لديهم سبب أو فرصة للتخفي أو الخداع، وحينما يلتقون مرة أخرى فإن حديثهم يحتفظ بنغمة محلية. احتفظنا في ذلك الوقت بنظرية مفادها أن قبيلة الماساي البدائية، من موقعهم في المانياتا[٢] الخاصة بهم تحت التلال، يمكن أن يروا المنزل مضاءً، مثل نجمة في السماء، مثلما رأى فلاحو أمبريا[٣] المنزل حيث كان القديسان فرانسيس وكلير يسليان أحدهما الآخر بعلم اللاهوت.

كانت النجوما، وهي الرقصات المحلية الكبيرة، من الوظائف الاجتماعية الكبرى للمزرعة. في تلك المناسبات كنا نقدم هذا الترفيه لألف وخمسمائة أو ألفين من الضيوف. بالرغم من ذلك كان الترفيه المقدم من المنزل في حد ذاته متواضعًا.

كنا نعطي النساء العجائز ذوات الرؤوس الصلعاء المشتركات في رقصة الموراني والفتيات اللاتي لم تخضعن لعملية الختان -والخادمات- سعوطًا، والأطفال- في تلك الرقصات التي يجلب فيها الأطفال- سكرًا، وكان كامانتي يقوم بتوزيعها بملاعق خشبية، وفي بعض الأحيان كنت أطلب إذن الإدارة المحلية من أجل واضعي اليد في مزرعتي من أجل أن يصنعوا التيمبو، وهوَ مشروب قاتل، مصنوع من قصب السكر. ولكن المؤديين الحقيقيين، الراقصين صغار السن الذين لا يصيبهم إرهاق أبدًا، كانوا يشيعون بوجودهم شعورا بالمجد ورفاهية الاحتفالات، كانوا محصنين ضد أي تأثير خارجي، ويركزون انتباههم على الروح المرحة والمتأججة التي بين جنوبهم. أمر واحد كانوا يطلبونه من العالم من حولهم: مساحة من الأرض المستوية يتمكنون من الرقص فوقها. تلك المساحة كانت موجودة بجوار منزلي: المساحة الخضراء الكبيرة كانت مسطحة تحت الأشجار، وكان المربع الواقع بين أكواخ صبيتي في الغابة ممهدًا. لهذا السبب، كانت المزرعة مكانًا يتطلع إليه شباب البلد، كما كانت الدعوات لحفلاتي تلقى تقديرًا كبيرًا.

في بعض الأحيان كانت حفلات النجوما تقام صباحًا وأحيانًا ليلاً. في النهار كانت النجوما تحتاج إلى مساحة أكبر، حيث كانوا يجذبون مشاهدين بمثل عدد الراقصين؛ ولهذا كانت تقام في المساحة الخضراء الواسعة أمام المنزل. في معظم حفلات النجوما كان الراقصون يقفون في دائرة كبيرة، أو في عدد من الدوائر الأصغر، وهناك يتقافزون لأعلى وأسفل، يلقون برؤوسهم للخلف، أو تترك أقدامهم نقشًا على الأرض متبعين إيقاعًا ما، ملقين بأنفسهم للأمام على قدم واحدة، ثم يعودون للخلف على القدم الأخرى، أو مرة أخرى ببطء وبشكل مفرد يسيرون حول الطرق الجانبية ووجوههم متجهة إلى مركز الحلقة، بينما يفصل الراقصون الرئيسيون أنفسهم عن الحلقة لكي يرقصوا، ويتقافزوا، ويركضوا في منتصفها. كانت النجوما التي تقام نهارًا تترك آثارها على تلك المساحة الخضراء على شكل

حلقات أكبر وأصغر، وكأن العشب قد احترق هنا بفعل حريق ما، وسرعان ما تختفي تلك الحلقات السحرية.

كانت حفلات النجوما الكبيرة في الصباح تأخذ طابع المعرض وليس حفلة رقص. كانت قوافل كبيرة من المشاهدين تتبع الراقصين وتتجمع في مجموعات تحت الأشجار. حينما كانت تنتشر شائعة إقامة حفل نجوما بشكل واسع كنا نرى نساء نيروبي المتشاجرات- الملايا، وهي كلمة جميلة بالسواحيلية- يصلن بشكل مميز، في مركبة على خان، مركبة ذات عجلتين يجرها بغل واحد، ملفوفات في ثياب طويلة مرحة كبيرة منقوشة، وكن يظهرن، حينما يجلسن، مثل ورود كبيرة مسجاة على العشب. الفتيات المتواضعات في المزرعة في تنوراتهن وعباءاتهن الجلدية التقليدية المزيتة والمدهونة يتخذن مواقعهن بالقرب منهن، ويناقشن بصراحة ملابسهن وسلوكياتهن، ولكن جميلات المدينة كن يجلسن القرفصاء، ويبقين هادئات مثل دمى لها عيون زجاجية في غابة مظلمة، ويدخن سجائرهن الصغيرة.

كانت هناك أفواج من الأطفال، المسحورين بالرقصات، والحريصين على تعلمها وتقليدها، يقتحمون حلقة ثم أخرى، أو تجرفهم الحماسة ليشكلوا حلقات رقص صغيرة خاصة بهم خارج حدود المساحة الخضراء، وهناك كانوا يتقافزون لأعلى وأسفل.

حينما يذهب أهل الكيكويو إلى النجوما، يلونون جلودهم بنوع خاص من الطباشير الأحمر الباهت، يزداد الطلب عليه ويشترى ويباع. إنه يمنحهم مظهرًا أشقر غريبًا. لا ينتمي اللون لعالم الحيوانات أو عالم الخضروات؛ وفيه يبدو صغار السن أنفسهم متحجرين، مثل التماثيل التي تنحت في الصخور. الفتيات في مظهرهن المحتشم، المطرز بالخرز، تغطيهن أردية جلدية مدبوغة، والأرض تبدو

وكأنها نسيج واحد معهم- تماثيل ذات أردية، حيث الطيات والأردية قد أبدعها بشكل أنيق فنان ماهر. يبدو الشباب من الرجال عراة من أجل النجوما، ولكن في تلك المناسبات يقومون بتصفيف شعورهم بشكل أكبر، يضعون بقوة الطباشير على أعناقهم ويصففون شعرهم في شكل ذيل حصان، ويرفعون رؤوسهم الحجرية لأعلى. خلال سنواتي الأخيرة في أفريقيا ، منعت الحكومة الناس من أن يضعوا الطباشير على رؤوسهم. يعد الرداء لدى كلا الجنسين أمرًا ذا تأثير عظيم: الماس والزينة الكثيرة لن تنقل لحامليها مظهرًا احتفاليًا أكثر وضوحًا. كلما ترى من بعد منظرًا، في المشهد الطبيعي، لمجموعة من أهالي الكيكويو وقد صبغوا جلودهم بلون أحمر وهم يسيرون، تشعر بأن المناخ من حولك كان يهتز بطقس احتفالي.

لم يكن للرقص في منطقة مفتوحة في تلك الأيام حدود مكانية. فالمسرح كبير جدًا بالنسبة للاحتفال- حتى أنك لا تميز أين يبدأ وأين ينتهي، الأشكال الصغيرة للراقصين المنفردين قد تكون كلها مصبوغة، بينما يرتدون على رؤوسهم أطواقًا مصنوعة من ريش النعام، تبدو وكأن الجزء الخلفي من النعامة يهتز خلف رؤوسهم، وكعوبهم مزينة بأشكال مصنوعة من ريش الديوك الصغيرة ذات ألوان بارقة ومن جلد قردة كولوبوس(٤)، لم يكن في وسعهم إلا أن يظهروا كنقاط زاهية متفرقة تحت الأشجار العالية. يجعل العرض-تلك الدوائر الأصغر والأكبر من الراقصين، المجموعات المتناثرة من المشاهدين، والأطفال الذين يركضون جيئة وذهابًا- عينيك تنغمسان في اللذة وتتنقلان بمرح من جانب لآخر في المشهد المتسع. المشهد كله مشابه تقريبًا لتلك الصور القديمة لمعركة يمكن أن تراقبها من على ربوة مرتفعة، حيث يمكنك أن ترى فيها سلاح الفرسان يتقدم من أحد الجوانب، بينما تتخذ المدفعية موقعًا على الجانب الآخر، وأفراد منعزلون من ضباط المعدات الحربية يركضون على متن خيولهم بسرعة بشكل منحرف عبر مجال الرؤية.

كانت حفلات النجوما النهارية مزعجة جدًا بشكل مشابه. الموسيقى الراقصة المنبعثة من النايات والطبول كانت دائمًا ما تختفي في الضجيج والصياح اللذين يصدران عن الجمهور. الفتيات الراقصات أنفسهن كن يطلقن صياحًا طويلاً وغريبًا حينما- في واحدة من الأشكـــال التي يـــؤديها الراقصون الذكور- يقفز الموراني، أو يؤرجح رمحه فوق رأسه، بأسلوب جميل على نحو استثنائي. بينما تظل عاصفة غير منقطعة من الحديث الودود متأججة بين كبار السن الجالسين على العشب. كان أمرًا يدعو للسرور هنا أن تراقب امرأتين من عجائز الكيكويو يحتسيان مشروبًا في وعاء مصنوع من قرعة مجوفة بينهما، وهما منهمكتان في حديث مرح، افتراضيًا حول الوقت الذي كانا فيه يظهران بمظهر جميل في حلبة الرقص، ووجهاهما يزدادان توهجًا بالسعادة، بينما، في وقت بعد الظهيرة، تغوص الشمس في السماء وينقص شراب التمبو في القرعة المجوفة. في أوقات ما، حينما ينضم للمجموعة زوجان كبيران، ستنتاب إحدى السيدات الحماسة بسبب ذكريات أيام شبابها لدرجة أنها تتعثر في مشيتها، ترفرف بذراعيها، وتتخذ خطوة راكضة أو اثنتين بطريقة نديتو الحقيقية. لقد تجاهلها الجمع ولكن، بشكل حماسي، صفق لها أترابها في دائرتها الصغيرة.

ولكن حفلات النجوما الليلية كانت تبدأ بشكل جاد.

كـــانت تقـــام فـــي الخريف فقط، بعد حصاد القمح، وتحت القمر المكتمل. لا أظن أنه كان لها أية أهمية دينية، ولكنهم ربما فعلوا ذلك مرة واحدة؛ كان سلوك المؤدين والمشاهدين يدل على لحظة غامضة ومقدسة. كانت تلك الرقصات تعود لألف عام مضت. إلا أن بعض تلك الرقصات التي تحظى باستحسان من قبل أمهات وجدات الراقصين- كان المستوطنون يعتبرونها غير أخلاقية؛ كانوا يشعرون بضرورة أن تمنع قانونًا. في إحدى المرات، حينما كنت عائدة بعد قضاء

عطلة قصيرة في أوروبا ، وجدت أن مديري كان قد أرسل خمسة وعشرين من المحاربين الشباب خاصتي، في ذروة موسم جني البن، إلى السجن، بسبب مشاركتهم في رقصة ممنوعة في حفل نجوما ليلي في المزرعة. أخبرني مديري أن زوجته لم تحتمل مشاهدة الرقصة. عنفت كبار مستأجري الأرض لأنهم أقاموا النجوما بجوار منزل مديري، ولكنهم شرحوا لي بجدية أنهم كانوا يرقصون عند مانياتا كاثيجو، التي تبعد عنه بأربعة أو خمسة أميال. ولهذا فقد اضطررت للذهاب لنيروبي لأتحدث في هذا الأمر مع السلطة المحلية التي جعلت كل الراقصين يعودون للمزرعة لجني البن.

كانت الرقصات الليلية بمثابة مشاهد جميلة. هنا لم يكن لينتابك الشك أنك في مسرح تشاهد عرضًا؛ كانت تؤدى بجوار النيران، وكانت تمتد بقدر انتشار الضوء، بالفعل كان الضوء هو المبدأ المركزي للنجوما. لم يكن في الحقيقة ضروريًا للرقص؛ لأن ضوء القمر في الأراضي الأفريقية المرتفعة واضح وأبيض بشكل ساحـــر؛ كانت النيران تجلب لتخلق تأثيرًا ما. كانت النار تجعل مكان الرقص مسرحًا من الطراز الأول، حيث تجتمع كل الألوان والحركات بداخلها في وحدة فريدة.

نادرًا ما يحمل المحليون متاعًا لمسافة بعيدة. لم يكن لديهم شعلات كبيرة للنار الموقدة في الهواء الطلق. كانت نساء مستأجري الأرض في المزرعة، اللاتي يعتبرن أنفسهن مضيفات لهذا العيد، يجلبن خشب الوقود إلى مكان الرقص في اليوم السابق على الرقص وكن يضعنه في أكوام هنا في منتصف حلقة الرقص. كانت النساء العجائز اللاتي يشرفن الحفل بوجودهن ليلاً، يتخذن مجلسهن حول الكومة المركزية، ومن هناك يوقد صف من النيران الصغيرة، مثل دائرة من النجوم خلال ساعات الليل. مرة أخرى كان الراقصون يرقصون ويركضون خارج

النار الموقدة وليل الغابة خلفية لهذا المشهد. ينبغي أن يكون المكان كبيرًا نوعًا ما، وإلا فإن السخونة والدخان ستصيب عيون المشاهدين العجائز، ولكنه برغم ذلك كان بمثابة مكان مغلق في العالم، وكأنه بيت واسع للاستخدام المشترك لكل من يقطنونه.

لم يكن لدى السكان المحليين أي ذائقة أو حاسة إزاء المتناقضات؛ يبدو أن الحبل السري للطبيعة بالنسبة لهم لم يقطع تمامًا. كانوا يعقدون حفلات النجوما فقط حينما يكون القمر مكتملاً. حينما يفعل القمر ما بوسعه فإنهم يؤدون بأقصى طاقتهم أيضًا. تغتسل الطبيعة وتستحم في الضوء الرقيق القوي القادم من السماء، لقد أضافوا لذلك النور العظيم المشع على أفريقيا وهجيهم الأحمر الساخن الضئيل.

كان الضيوف يصلون في مجموعات صغيرة، في بعض الأحيان ثلاثة دفعة واحدة، وفي بعض الأحيان اثني عشر أو خمسة عشر- صديقًا تواعدوا وجاءوا معًا، أو هؤلاء من التحقوا برفقة مجموعة آتية على الطريق. ربما سار الكثير من هؤلاء الراقصين خمسة عشر ميلاً لكي يصلوا إلى النجوما. حينما يرتحل الكثيرون معًا فإنهم يجلبون معهم آلات الناي أو الطبول، حتى أنه في ليلة الرقص الكبير، ستقرع كل الطرق والممرات للبلاد بأجراس الموسيقى، وتبدو مثل جلجلة تهتز عند وجه القمر. يتوقف المتجولون عند مدخل حلبة الرقص وينتظرون أن تفتح الحلقة لهم؛ في بعض الأحيان، حينما كانوا يأتون من أماكن بعيدة جدًا، أو عندما يكونون أبناء رؤساء المناطق المجاورة، كان يستقبلهم أحد واضعي اليد الكبار سنًا أو أحد الراقصين البارزين في المزرعة، أو مرشدي الرقص.

كان مرشدو النجوما من شباب المزرعة كالآخرين، ولكنهم كانوا هنا لكي يحافظوا على الطابع الطقسي للرقصة، حيث يستغلون منصبهم جيدًا. قبل أن يبدأ الرقص، يتبخترون يمينًا ويسارًا أمام الراقصين بملامح مقطبة ووجوه جادة؛ وبينما

يتعالى الرقص يركضون بنشاط من أحد جوانب الحلقة للجانب الآخر، لكي يتأكدوا من أن كل شيء يسير على ما يرام. كانوا مسلحين بشكل تام، يحملون مجموعة من العصي المربوطة معًا، كانوا يبقون أحد طرفيها مشتعلاً، حيث يدسونه من وقت لآخر في النار. كانوا يراقبون الراقصين بشكل صارم وحينما يلاحظون أمرًا غير طبيعي، فإنهم يتجهون إليه في الحال؛ بتعبير مرعب على وجوههم وبغضب شديد يلوحون بعصيهم، وبشكل خاص الأطراف المشتعلة منها، مباشرة عند جسد المعتدي. أما الضحية فهو يشاهد وهو محني على نحو مضاعف وقد تلقى الضربة، ولكنه لا يصدر أي صوت أبدًا. ربما لم يكن حرق كهذا يعتبر جرحًا مهينًا يحمله معه من النجوما.

في إحدى الرقصات قد تقف الفتيات بخجل على أقدام الشباب ويطوقونهم حول الخصر، بينما المحاربون الشباب، بأذرعهم الممتدة من كل جانب من رؤوس الفتيات، يمسكون رماحهم بكلتا يديهم، ومن وقت لآخر، يرفعونها ويضربون بها لأسفل على الأرض بكل قوتهم. كان هذا المشهد يشكل لوحة جميلة لشابات القبيلة، وقد اتخذن ملجأً في أحضان رجالهن ضد شعور ما بالخطـــر العظيم، وللرجال وهم يحمونهن، حتى ولو بالسماح لهن بالوقوف على أقدامهم، يحمونهن من الثعابين أو أي أخطار أخرى قادمة من الأرض. وبتوالي الرقص لساعات تتخذ وجـــوه الـــراقصين تعبير النشوة الملائكية، وكأنهم كلهم مستعدون للموت، كل لأجل الآخر.

كان لديهم رقصات أخرى حيث يركض الراقصون داخل وخارج النيران، حيث يصنع كبير الراقصين عددًا من الوثبات العالية والخطوات فائقة السرعة؛ إضـــافة إلـــى أرجحتهم للـــرماح، لقـــد كان ذلك، كما أعتقد مستقى من طريقة صيد الأسد.

كان هناك أيضًا مغنون في النجوما، بالإضافة إلى النايات والطبول. بعض هؤلاء المغنين لهم شهرة في أرجاء البلاد، وكانوا يلبون الدعوة ويأتون من أماكن بعيدة. كان غناؤهم بمثابة نشيد منغم. أكثر من كونه أغنية. كانوا يرتجلون الغناء ويؤلفون مواويلهم بشكل عفوي، مع جوقة الراقصين المشاركين معهم، الذين كانوا يتسمون بالسرعة واليقظة. كان أمرًا باعثًا للسرور أن تنصت في المساء لصوت رقيق مرتفع، وللنداءات المتكررة المنتظمة للأصوات الشابة. ولكن، وباستمرار الغناء طوال الليل، والطبول تقرع كمؤثر من وقت لآخر، يصبح سماعه الرتيب الممل بمثابة ألم مبرح، وكأنك لم تعد تحتمـــل، لا استمـــراره للحظـــة أخـــرى، ولا أن توقفه أبدًا.

أكثر المغنين شهرة في الوقت الذى كنت فيه هناك جاء من بلدة داجوريتي. كان لديه صوت قوي صاف، وكان إلى جانب ذلك، راقصًا ماهرًا. كان عندما يبدأ الغناء، يسير أو يركض داخل حلبة الرقص في خطوات طويلة منزلقة، يكاد يجثو في كل خطوة؛ ويبسط يده على جانب فمه؛ من المحتمل أنه كان يفعل ذلك لكي يصدر صوتًا مركزًا، ولكنه كان يوحي بأنه سيكشف عن سر كبير خطير على المحفل. كان يبدو مثل صدى الصوت الأفريقي ذاته، اعتاد أن يتحكم في مزاج جمهوره فينقلهم من حالة مرحة إلى مزاج مشابه لحالة الحرب، كما يشاء، أو إلى حالة من الإغراق في الضحك. في إحدى المرات غنى أغنية طويلة، أغنية عن الحرب، حيث تصور فيها المغني، كما أعتقد، أنه كان يركض من قرية لأخرى داعيًا الأمة إلى الحرب، حيث يصف لهم المذابح والسلب والنهب. لو حدث هذا الأمر قبل مائة عام كانت الأغنية ستجعل المهاجرين البيض يرتعدون رعبًا. ولكن بشكل عام لم يكن المطرب مرعبًا جدًا. في إحدى الليالي غنى ثلاث أغنيات، طلبت من كامانتي أن يترجمها لي. كانت الأغنية الأولى فانتازية: كانت تتخيل أن مجموعة الراقصين كلها قد أمسكت بدفة قارب مبحرين إلى فولايا. الأغنية الثانية،

كما شرح لي كامانتي، كانت مديحًا للنساء العجائز، أمهات وجدات المغني والراقصين. بدت لي هذه الأغنية حلوة: كانت طويلة، ولا بد أنها وصفت بالتفصيل حكمة وسخاء هؤلاء الزوجات العجائز من الكيكويو اللاتي فقدن أسنانهن وشعورهن، وقد جلسن ينصتن للأغاني عند كومة الوقود المشتعل في منتصف المكان، وكن يومئذ برؤوسهن. الأغنية الثالثة كانت قصيرة، ولكنها أثارت صيحات ضاحكة من الجميع؛ لقد اضطر المغني أن يرفع صوته الحاد لكي يسمعه الحاضرون، وكان هو نفسه يضحك وهو يغني. أخذت النساء العجائز وقد أصبحن في حالة مرحة بعد الإطراء عليهن يضربن على أفخاذهن، ويتثاءبن، مثل التماسيح. كان كامانتي مترددًا في ترجمة الأغنية لي، لقد قال لي إنها أغنية تافهة، وقال لي بضع كلمات فحسب عنها. كانت فكرتها بسيطة: بعد وباء طاعون، وضعت الحكومة سعرًا لكل فأر ميت يسلم للسلطة المحلية– لقد وصفت الأغنية، كيف أن الفئران، وقد أصبحت تطارد في كل مكان في العالم، كانت تتخذ ملجأً في سرائر النساء الشابات والعجائز في القبيلة، وما حدث لها هناك. لا بد أن تفاصيل الأغنية التي لم أفهمها كانت مسلية؛ فكامانتي نفسه، وهو يترجم معانيها لي رغمًا عنه، كان في بعض الأحيان يقمع ابتسامة مشاكسة.

في إحدى ليالي النجوما، وقعت حادثة درامية.

كانت النجوما احتفالاً توديعيًا، أقيم على شرفي، قبل أن أسافر لأوروبا في زيارة. كان قد مر عام جيد؛ ولهذا أقيمت بشكل فاخر، وحضرها ما يقرب من ألف وخمسمائة من الكيكويو. استمر الرقص لساعات قليلة؛ وكنت قد خرجت لإلقاء نظرة على حلبة الرقص قبل أن أخلد للنوم، وقد وضع كرسي لي بحيث كان ظهره مواجهًا لأحد أكواخ الصبية، وقام بعض مؤجري الأرض بتسليتي.

بشكل مفاجئ حدثت ضجة هائلة في حلبة الراقصين، حركة من الدهشة الشديدة أو الخوف، صوت غريب، وكأن الريح تعصف بسرعة صاخبة. لقد تباطأت الرقصة تدريجيًا ولكنها لم تتوقف بعد. سألت أحد الرجال المسنين عن الأمر. أجابني بسرعة، وبصوت خفيض: "ماساي نا- كودجا"- الماساي قادمون.

لا بد أن الأخبار قد حملها أحد الصبية الراكضين؛ لأن الجلبة استمرت لبعض الوقت قبل أن يحدث أي شيء آخر؛ من المحتمل أن الكيكويون قد أجابوا بأنه يمكن استضافة ضيوفهم. كان أمرًا مخالفًا للقانون أن يأتي ناس الماساي إلى نجوما الكيكويو، فقد حدثت مشاكل كثيرة من مثل هذا النوع بسبب التجمع الثنائي سابقًا. جاء صبية منزلي ووقفوا بجوار الكرسي خاصتي؛ كان الكل ينظر باتجاه مدخل حلبة الرقص. حينما جاء ناس الماساي، توقف الرقص تمامًا.

كان هناك اثنا عشر محاربًا من الماساي يسيرون باتجاه حلبة الرقص، وبعد أن خطوا خطوات قليلة توقفوا، وانتظروا، لم يتلفتوا يمنة ولا يسرى؛ نظروا خلسة إلى النار. كانوا عراة سوى من أسلحتهم وأغطية رؤوسهم الساحرة. كان أحدهم يعتمر غطاء للرأس مصنوعًا من لبدة الأسد الذي يرتديه الموران في الحرب. خط قرمزي عريض قد رسم بشكل رأسي من الركبة إلى القدم، وكأن الدم يسيل إلى أسفل القدم. وقفوا مشدودين، في وقفة صلدة، رؤوسهم ملقاة للخلف، صامتين، وجادين بدرجة قاتلة؛ كان سلوكهم في الوقت ذاته أشبه بسلوك الفاتح المنتصر والسجين. بدا الأمر وكأنهم أتوا إلى النجوما ضد إرادتهم. لقد سرت الدقات الغبية للطبول عبر النهر إلى المحمية، واستمرت واستمرت، وأزعجت قلوب المحاربين الشبان هناك؛ ولم يتمكن اثنا عشر منهم من مقاومة النداء.

كان التوتر الشديد يبدو على أهل كيكويو أيضًا، ولكنهم تصرفوا بشكل حسن مع ضيوفهم. لقد رحب بهم الراقص الرئيسي في حلقة الرقص، حيث اتخذوا

أماكنهم في صمت تام، وبدأ الرقص مرة أخرى. لقد كان، بالرغم من ذلك بشكل مختلف، كان الجو مشحونًا الآن. بدأت الطبول تدق بصوت أعلى، وبإيقاع أسرع. وباستمرار النجوما، كان ينبغي أن نشاهد بعض الأجواء الاحتفالية الصارخة، حيث كان ناس الكيكويو، والماساي قد تعهدا أن يظهر كلاهما للآخر مدى قوته ومهارته كراقصين. ولكن الأمر لم يصل لهذا الحد: هناك بعض الأشياء التي لا يمكن أن تحدث حتى مع النية الطيبة لكل طرف من الأطراف المعنية.

لا أعرف ما حدث. فجأة تداعت الحلقة، وانقسمت، وصرخ أحدهم عاليًا: وفي لحظات أصبح المكان كله أمام عيني عبارة عن حشد من الناس الذين أخذوا يركضون ويتزاحمون، وكانت هناك أصوات انفجارات وارتطام أجساد بالأرض، وأصبح الهواء فوق رؤوسنا مزدحمًا بالرماح. نهضنا جميعًا، حتى النساء العجائز الحكيمات اللاتي كن يجلسن في مركز الحلقة، زحفن إلى أكوام وقود النار لكي يشاهدن ما يحدث.

بعد أن هدأت المشاعر، وتفرقت الجموع المحتشدة مرة أخرى، وجدت نفسي في مركز الحشد، ومساحة ضيقة خالية من حولي. جاء نحوي اثنان من كبار المستأجرين، وبتردد شرحا لي ما حدث: ما ارتكبه الماساي من انتهاك للقانون والنظام، والحالة الراهنة للأشياء: أصيب أحد رجال الماساي وثلاثة من الكيكويو بجروح بالغة، "تمزقوا إربًا"، هكذا كان تعبيرهم. هل بإمكاني الآن، مضوا في الحديث بجدية، أن أوافق على أن أقوم بخياطة جروحهم وإلا فسيواجه الجميع بالكثير من المشاكل من قبل سيليكالي– الحكومة. سألت الرجل العجوز عن الجرح الذي أصاب المحاربين "لقد قطع رأسه" أجاب فخورًا، بغريزته المحلية وكأنه ينسج كارثة. في تلك اللحظة تقدم كامانتي عبر المكان، حاملاً إبرة طويلة للخياطة وقمع الخياطة خاصتي. كنت لا زلت مترددة، وفي تلك اللحظة جاء أواروا العجوز

قبالتي. كان قد تعلم الخياطة خلال السنوات السبع التي قضاها في السجن، ولا بد أنه كان يبحث عن فرصة للممارسة، واستعراض مهارته؛ لأنه تطوع بأن يتولى مسئولية هذه الحالة، وعلى الفور تركز الاهتمام عليه. لقد قام بالفعل بخياطة الجرح، مر الأمر بسهولة، وقد أنجز كثيرًا من الحالات فيما بعد، ولكن كامانتي أخبرني بثقة أن رأسه لم تكن مقطوعة تمامًا.

لأن وجود الماساي في حلبة الرقص لم يكن قانونيًا، اضطررنا، ولوقت طويل، أن نخفي الماساي المصابين المخصصين كخادمين للضيوف البيض. هنا تعافى المصاب، ولكنه طوال الوقت وحتى النهاية وحتى اختفائه لم ينطق بكلمة شكر لأواروا. كان الأمر شاقًا، أعتقد، لقلب أحد رجال الماساي أن يصاب- وأن يعالج- على يد أحد رجال الكيكويو.

حينما سرت في نهاية ليلة النجوما لكي أتفقد أخبار المصابين، وجدت في هواء الصباح الرمادي، أن النار لا زالت مشتعلة ببطء دون لهب. كان هناك عدد من شباب الكيكويو يتقافزون حولها ويحركون جمرات النار بعصي لإذكائها، تحت إشراف زوجة عجوز لأحد واضعي اليد، والدة واينانينا. كانوا يصنعون تعويذة ليمنعوا الماساي من النجاح بأي شكل بالفوز بقلب أي فتاة من فتيات الكيكويو.

زائر من آسيا

تؤدي حفلات النجوما بشكل تقليدي وظيفة اجتماعية. على مدار الزمن، كان الأشقاء والأخوات الأصغر، وفيما بعد أبناء وبنات الراقصين للراقصين الأوائل المعروفين لي، هم من يجيئون لحفلات الرقص.

ولكن كان لدينا زائرون يأتون من أقطار بعيدة أيضًا. كانت الرياح الموسمية غزيرة الأمطار تهب من بومباي: كان العجائز ذوو الخبرة يرتحلون في سفن، فيقطعون كل تلك المسافة من الهند قادمين إلى المزرعة.

عقدت العديد من الصفقات مع تاجر أخشاب هندي كبير في نيروبي يدعى كوليم حسين، حينما كنت في البداية أمهد أرض المزرعة، وكان محمديًا متحمسًا وصديقًا لفرح. ذات يوم، قدم إلى البيت واستأذن لكي يأتي لكي يدعو الكاهن الأعلى من الهند لزيارة. كان قادمًا في رحلته عبر البحار، كما أخبرني كوليم حسين، لكي يتفقد رعاياه في مومباسا ونيروبي. كان رعاياه متحمسين لكي يرحبوا به بشكل جيد، وكانوا يفكرون في هذا الأمر، ولم يتوصلوا لشيء أفضل من هذه الزيارة للمزرعة. هل أدعه يأتي؟ حينما قلت إنني أرحب بقدومه، بدأ كوليم حسين يشرح لي أن منزلة وقداسة الرجل العجوز كانا عظيمين لدرجة أنه يستطيع أن يمنـــع نفسه عن الطعام المطهو في أوعية استخدمها وثنيون من قبل. ولكن ينبغي ألا يصيبني ذلك بالضجر، وأضاف بسرعة، أن أتباع محمد في نيروبي سوف يجهزون الوجبة ويرسلونها في وقت مناسب؛ فهل يمكنني فقط أن أدعه يتناولها في منزلي؟ وافقت، واستأنف كوليم حسين نقاشه للأمر بعد برهة قليلة، بصعوبة. كان هناك أمر إضافي، أمر واحد فقط. أينما ذهب الكاهن الأعلى، كانت قواعد

التشريفات تقضي بأنه ينبغي أن يمنح هدية، وفي منزل مثل منزلي، لا ينبغي أن تقل قيمة الهدية عن مائة روبية. ولكن ينبغي ألا أدع هذا الأمر يثير قلقي، سارع موضحًا، لقد قام المحمديون في نيروبي بتدبير المال، ولكنهم يطلبون مني فقط أن أسلمه لرجل الدين. سألته، ولكن هل سيصدق الشيخ الأعلى، أن الهدية مقدمة مني؟ فـــي هذا الأمر لم أستطع أن أستخلص أى توضيح من كـــوليم حسين؛ في أوقات ما لا يستطيع الملونون أن يكونوا صرحاء لكي ينقذوا حياتهم. في البداية، تهربت من الدور الموكل لي، ولكنني حينما نظرت إلى وجهي كوليم حسين وفرح المحبطين، واللذين كانا منذ دقيقة يشعان بالأمل، تخليت عن كبريائي، وفكرت أنني سأدع الشيخ الأعلى يعتقد كيفما يشاء.

في يوم الزيارة كنت قد نسيت الأمر وذهبت إلى الحقل لكي أجرب جراري الجديد. لذا فقد أرسلوا تيتي، أخو كامانتي الصغير إلى هناك لاستدعائي. كان الجرار يصدر صوتًا مزعجًا جدًا لدرجة أنني لم أستطع سماع ما يود قوله لي، وكان من الصعب جدًا أن أبدأ ما لم أجرؤ على إيقافه؛ جرى تيتي بجوار الجرار خلال الحقل مثل كلب صغير مجنون، يلهث، ويطرقع على الأرض، ناثرًا خلفه هذا الذيل الطويل من التراب، حتى توقفنا عند نهاية الحقل. "لقد جاء رجال الدين"، قال بصوت مجلجل. "أي رجال دين؟" سألته. "كل رجال الدين"، أوضح لي بكبرياء؛ لقد وصلوا في أربع عربات. في كل واحدة ستة شيوخ. عدت معه إلى البيت، وأنا أقترب من هناك لمحت فوجًا من الرجال الملتحفين بأردية بيضاء منتشرين في تلك الرقعة الخضراء أمام المنزل، وكأن سربًا من الطيور البيضاء قد حط حول منزلي، أو أن مجموعة من الملائكة انقضت على المزرعة. لقد كانوا مجموعة من الشيوخ أرسلوا من الهند لإبقاء شعلة الأصولية في أفريقيا متقدة. على الرغم من ذلك، حينما سار متقدمًا نحوي، كانت شخصية الكاهن المبجلة مجسدة بشكل مثالي أمام عيني، مصحوبًا بتابعين، وعلى مسافة دالة على الاحترام، كان كوليم حسين يسير

إلى جواره. كان رجلاً قصيرًا وعجوزًا له وجه رقيق صاف، وكأنه قد نحت في قطعة قديمة من العاج. اقتربت الحاشية أكثر، حتى تقف كحارس للقائنا، ثم انسحبت؛ كنت قد توقعت أن أستضيف ضيفي وحده على العشاء.

لم نستطع أن نتبادل كلمة واحدة؛ لأنه لم يكن يفهم لا الإنجليزية ولا السواحيلية، وأنا لم أكن أعرف التحدث بلغته. كان علينا أن نعبر عن احترامنا العظيم المتبادل بالإشارة. لقد تجول بالفعل في المنزل، كما لاحظت. كل الأطباق الموجودة بالمنزل كانت على الطاولة، وقد نسقت الزهور وفقًا للذائقة الهندية والباكستانية. ذهبت وجلست معه على المقعد الحجري في الناحية الغربية. وهناك، وتحت الانتباه الذي لا يفتر للناظرين، سلمته المائة روبية التي كانت ملفوفة في منديل أخضر اللون كان يمتلكه كوليم حسين.

كنت بشكل ما أشعر بأنني متحاملة ضد الكاهن العجوز بسبب اعتنائه الشديد بالتفاصيل- ولكنني حينما رأيته كان عجوزًا جدًا وضئيل الحجم، في الوقت ذاته، اعتقدت، لدقيقة، أن هذا الموقف قد يكون مربكًا بالنسبة له. إلا أنني شعرت بمجرد أن جلسنا معًا في شمس ما بعد الظهيرة، غير متظاهرين بأي شكل بإبقاء الحوار بيننا قائمًا، ولكننا فقط كنا نريد أن يبقى كل منا بصحبة ودودة مع الآخر، أن لا شيء هناك يمكن أن يكون مربكًا بالنسبة له. لقد نقل لي انطباعًا غريبًا وكأنه في مأمن، وبأنه مطمئن تمامًا. كان يتصرف بشكل ساحر، وكان يبتسم ويومئ برأسه، وأنا أشير إلى التلال والأشجار الطويلة له، وكأنه مهتم بكل شيء، وعاجز عن التعبير عن الدهشة إزاء أي شيء. كنت أتعجب من أمر هذا الثبات وما إذا كان ناجمًا عن جهل تام بشرور العالم، أم بمعرفة عميقة وقبول لها. سواء اختفت الثعابين السامة من العالم، أو أنك قد وصلت، بواسطة حقن جرعات أقوى من السم في دمك، إلى مرحلة من المناعة المثالية، ففي النهاية ستصل للأمر ذاته. كان

المظهر الهادئ لوجه الرجل العجوز أشبه بمظهر طفل صغير جدًا، لم يتعلم الكلام بعد، مهتم بكل شيء، وبطبيعة الأشياء عاجز عن الدهشة. ربما كنت جالسة على المقعد الحجري، خلال ساعة ما بعد الظهيرة، في صحبة طفل صغير جدًا، طفل نبيل، الطفل يسوع في لوحة رسمها أحد الرسامين العظام، ومن وقت لآخر ألمس مهزة المهد بقدم روحانية. إن وجوه النساء العجائز في العالم، اللاتي رأين كل شيء، وواجهن كل شيء، سيكون لها المظهر ذاته. إنه ليس تعبيرًا ذكوريًا– إنه يتوافق مع أقمطة الطفل وعباءات النساء، ومتناغم مع الرداء الكشميري الأبيض الذي يرتديه ضيفي العجوز. لقد رأيت هذا المشهد فقط في السيرك في شخص في ملابس ذكورية وكان يؤديه مهرج ذكي.

كان الرجل العجوز مرهقًا، ولا يستطيع النهوض، بينما ذهب الشيوخ الآخرون إلى النهر برفقة كوليم حسين لكي يشاهدوا المصنع.

وكعصفور صغير، أبدى العجوز اهتمامه بالطيور، كان لدي في ذلك الوقت لقلق مروض بجوار المنزل، وكنت أحتفظ بسرب من الأوز، لم يذبح أبدًا، أبقيته لكي يمنح المكان مظهرًا مشابهًا للدينمارك. أظهر الكاهن العجوز اهتمامًا بها، فقد أخذ يشير إلى أركان العالم محاولاً أن يفكر من أين جاءت. كانت كلابي تقبع في تلك المساحة الخضراء أمام منزلي، لكي تضفى مظهرًا مثاليًا لعصر السخاء والسعادة. كنت أعتقد أن فرحًا وكوليم حسين سوف يغلقان عليها باب بيتها الصغير خارج المنزل؛ لأن كوليم حسين، بوصفه محمديًا مخلصًا، كان يرتعب منهم، أينما جاء إلى المزرعة ليقوم بعمل ما. ولكنها هنا كانت تجول، بين رجال الكهنوت الملتحفين بأردية بيضاء، بالفعل كالأسد بجوار الحمل. هؤلاء كانوا الكلاب التي كان إسماعيل يفترض أنها تعرف أتباع محمد بمجرد النظر.

قبل أن يرحل، منحني الشيخ الأعلى، كتذكار لزيارته، خاتمًا مرصعًا باللؤلؤ. شعرت وقتها، أنني أنا أيضًا، أريد أن أمنحه شيئًا، بالإضافة إلى تلك الهدية المزيفة من الروبيات، وأرسلت فرحًا إلى المخزن لكي يحضر لي فراء أسد كان قد أطلق عليه النار مؤخرًا في المزرعة. أمسك الرجل العجوز بأحد فكيه، وبعين مدققة صافية جرب حدته على خده.

بعد رحيله، تعجبت إن كان قد دون في رأسه الضئيلة السامية كل تفاصيل الحياة في أفق هذه المزرعة، أم أنه لم يدون شيئًا على الإطلاق مهما كانت أهميته. ولكن شيئًا ما علق بذهنه، فقد وصلتني رسالة من الهند بعد ثلاثة أشهر، كانت موجهة بشكل خاطئ، وتأخرت في صندوق البريد. في هذه الرسالة يطلب مني أحد أمراء الهند أن أبيعه أحد "كلابي الرمادية"، التي أشار إليها الشيخ الأعلى في حديثه معه، وطلب مني أن أحدد السعر الذي أرتأيه.

النساء الصوماليات

لا يمكنني كتابة الكثير عن مجموعة الزائرات اللاتي لعبن دورًا عظيمًا في المزرعة؛ لأنهن لم يكن ليفضلن ذلك. هؤلاء كن نساء فرح.

حينما تزوج فرح، وجاء بزوجته من الأراضي الصومالية إلى المزرعة، جاء معها سرب قليل العدد ورقيق من الحمام قاتم اللون: أمها، وأختها الصغرى، وابنة عم شابة نشأت في كنف الأسرة. أخبرني فرح أن تلك كانت عادات بلاده. الزيجات في الأراضي الصومالية ينظمها الكبار في العائلتين مع الوضع في الاعتبار سنة الميلاد والثروة، وسمعة الشاب أو الفتاة؛ في أفضل العائلات لا يرى العريس والعروسة بعضهما قبل يوم الزفاف. ولكن الصومال أمة ذات مروءة، ولا تترك فتياتها بغير حماية. من العادات الجيدة في الزوج حديث الزواج أن يتخذ مسكنه في قرية الزوجة لمدة ستة أشهر بعد الزواج؛ خلال هذا الوقت، يمكنها أن تتمسك بموقعها كمضيفة وشخصية لها النفوذ والمعرفة المحلية بشئون قريتها. في بعض الأحيان، لا يمكنه أن يفعل ذلك؛ وعندئذ فإن أقارب العروس من السيدات لا يترددن في البقاء بصحبتها قليلاً بعد زواجها، حتى وإن كان ذلك يعني لهم الرحيل والتنقل في أقطار بعيدة.

دائرة النسوة الصوماليات في منزلي استكملت فيما بعد بفتاة صغيرة كانت يتيمة الأم من القبيلة التي تولى أمرها فرح، ليس كما أعتقد، دون اعتبار لربح محتمل حينما يأتي أوان زواجها، طبقًا لنموذج موردخاي وإيستر. تلك الفتاة الصغيرة كانت ذكية بشكل لافت، ومرحة، وكان أمرًا يسترعي الفضول أن ترى

كيف كانت النسوة، وهي تكبر، يعتنين بها، وبرقة شديدة يصغنها في شكل عذراء صغيرة كما ينبغي[٥]. في البداية حينما جاءت للعيش معنا كانت في الحادية عشرة من عمرها، وكانت دومًا ما تنطلق بعيدًا عن مجال الأسرة لكي تتبعني في المكان. كانت تمتطي جوادي وتحمل مسدسي، أو كانت تركض مع التوتو الكيكويو إلى بركة الصيد، وهي ترفع تنورتها، وتقفز حافية القدمين حول الضفة التي تنمو حولها النباتات حاملة شبكة صيد. تحلق الفتيات الصوماليات الصغيرات شعورهن تمامًا، ولا يتركن سوى دائرة صغيرة من الشعر المموج الداكن حول الرأس وخصلة شعر طويلة أعلاها؛ هي موضة تروق للعين، وتعطي للطفلة إحساس راهب خبيث ومرح جدًا. ولكنها، مع مرور الوقت ونفوذ البنات الأكبر سنًا عليها، تغيرت وكانت هي ذاتها مفتونة وقد استحوذ عليها هذا التغير تمامًا، وكأن ثقلاً كبيرًا قد بات مربوطًا في ساقيها، فقد اعتادت السير بخطى وئيدة وئيدة؛ وجعلت عينيها تنظران لأسفل طبقا للنموذج الأمثل، وجعلت من انصرافها عند قدوم أحد الغرباء أمرًا مشرفًا. لم تعد تقص شعرها، وحينما جاء اليوم الذي أصبح فيه طويلاً بما يكفي، قامت الفتيات بتصفيفه وتضفيرة في عدد من ذيول الحصان الصغيرة. لقد أسلمت تلك المبتدئة نفسها تمامًا وبجدية وكبرياء إلى كل مشاق تلك الطقوس؛ وكنت أشعر أنها قد تفضل الموت على التقصير في واجباتها نحو تلك الطقوس.

كان للمرأة العجوز، حماة فرح، مكانة كبيرة في بلدها، كما قال لي، بسبب التعليم الممتاز الذي منحته لبناتها. لقد كن هناك مرآة للموضة والنموذج الذي ينبغي أن تكون عليه العذراوات. بالفعل كان هنا ثلاث نساء شابات لديهن شعور رائع بالاعتزاز بالنفس وطيب المعشر. لم أعرف أبدًا سيدات يتسمن بتلك الرقة الأنثوية. لقد أكد أسلوب ارتدائهن لملابسهن تواضعهن العذري. كن يرتدين تنورات واسعة وفخمة وكثيفة الطبقات تبعث على الاحترام؛ كان الأمر يتطلب عشر ياردات من القماش لصنع واحدة منها؛ كنت أعرف ذلك لأنني غالبًا ما أبتاع الحرير أو البفتة

لهن. داخل تلك الطبقات من القماش كانت ركبهن النحيفة تتحرك بإيقاع غامض يوحي بشيء غامض:

سيقانك النبيلة وهي تطارد ثوبك المتطاير

تثير وتستفز رغباتي الغامضة

مثل ساحرتين

تديران مصفاة سوداء داخل مزهرية عميقة(٦)

كانت الأم ذاتها شخصية مؤثرة، وحازمة جدًا، وتتسم مثل أنثى الفيل بالوداعة والقوة العطوفة، القنوعة بقوتها. لم أرها أبدًا غاضبة. للمعلمين وعلماء التربية أن يحسدوها على تلك الصفة العظيمة الملهمة التي كانت تتسم بها؛ فبين يديها لم يكن التعليم قسريًا أو مملاً، وإنما مؤامرة نبيلة ومنحة مميزة يشعر بها تلاميذها. لقد كان البيت الصغير الذي بنيته لهن في الغابة بمثابة مدرسة عليا صغيرة، مركزًا تنويريًا، وكانت الفتيات الصغيرات الثلاث يمشين برقة شديدة على ممرات الغابة من حوله، مثل ثلاث ساحرات صغيرات، وكن يدرسن فيه بكل طاقتهن؛ لأنه في نهاية فترة تدريبهن سيكتسبن قوة عظيمة. كن يتنافسن على الامتياز بروح ودودة؛ من المحتمل، حيث تكون في الواقع في السوق، ويدور نقاش في أمر السعر الخاص بك على الملأ، حيث يتخذ التنافس سمة الأمانة والصراحة. كان لزوجة فرح، التي لم تعد تثيرها مسألة سعرها المفترض، مكانة مميزة، مثل تلك التي لتلميذ مجتهد، حصل بالفعل على منحة في أعمال الشعوذة؛ قد تلاحظها في محادثات سرية مع الساحرة الأم العجوز، وهو شرف لم تحظ به العذراوات أبدًا.

لدى كل النساء الصغيرات شعور بقيمتهن. لا يمكن لعذراء من أتباع محمد أن تتزوج من رجل دون مستواها، فمثل هذا الأمر سوف يستدعي اللوم الأكبر من

جانب أسرتها. يمكن للرجل أن يتزوج من فتاة أقل منه- فذلك في صالحه تمامًا- وقد عرف الصوماليون باتخاذهن فتيات الماساي كزوجات لهم. ولكن بينما يمكن للفتاة الصومالية أن تتزوج من عربي، لا يمكن للفتاة العربية أن تتزوج من صومالي؛ لأن العرب هم الجنس الأعلى بسبب علاقتهم الأقرب بالرسول، وبين العرب أنفسهم، فإن الفتاة العذراء التي تنتسب لأسرة الرسول لا يمكنها أن تتزوج خارج هذا النسب. بفضل جنسهن، فإن الفتيات اللاتي ينتمين لهذا العرق لهن الحق في حياة اجتماعية أعلى مكانة. هن أنفسهن يقارن، ببراءة، هذا الأمر بمزرعة لتـــربيـــة ســـلالة عـــريقة من الخيول؛ لأن الصوماليين يضعون مرتبة عالية لإناث الخيول.

بعد أن أصبحنا على درجة جيدة من التعارف، سألتني الفتيات عن صحة ما قد نما لأسماعهن عن أن النساء في بعض البلاد في أوروبا قد تخلين عن عذريتهن لأزواجهن بدون مقابل. لقد علموا أيضًا، ولكنهن لم يستطعن أن يدركن الأمر جيدًا، أن هناك إحدى القبائل قد ضلت لدرجة أنها تدفع للعريس من أجل أن يتزوج العروس. يا للخزي والعار! كيف يمكن أن يقبل هؤلاء الآباء والفتيات بمثل هذا الأمر؟ أين احترامهن لأنفسهن؟ أين احترامهن للمرأة؟ أو للعذرية؟ لو كان من سوء حظهن أن ولدن في تلك القبيلة، كما أخبرنني، لكان من الأجدر أن يذهبن إلى قبورهن دون زواج.

في أيامنا هذه ليس لدينا في أوروبا أية فرصة لبحث أمر العذرية وادعاء الحشمة، ولقد فشلت في تتبع سحرها في الكتب القديمة. لقد فهمت الآن كيف أجبر جدي وجدتي على الزواج. كان النظام الصومالي بشكل متسق ضرورة طبيعية وفنًا جميلاً، كان بمثابة دين، أو إستراتيجية بالية، وكان يمارس بكل الاحترام وبإخلاص واجب وبمهارة. تكمن حلاوة الأمر في اللعبة الدائرة بين القوى

المتعارضة فيما بينها. فيما وراء المبدأ الخالد للتفنيد، كان هناك كرم وافر؛ فيما وراء التزمت المفرط كان هناك أمر مثير للضحك، وازدراء للموت. إن بنات هذا العرق المقاتل قد مررن بتجربة احتفالية لربيع عمرهن وكأنهن يندمجن في رقصة حرب رائعة تتسم بخفة الحركة؛ لن تذوب الزبدة في أفواههن، ولن يهدأن حتى يشربن من دماء قلب خصمهن؛ لقد بدون مثل ثلاث من إناث الذئب الشرسات يرتدين ما يشبه ثياب الحمل. إن الصوماليين قوم أشداء، تصلب عودهم في الصحراء والبحار. لقد حولت أثقال الحياة والضغط المجهد، والأمواج العالية، والأعمار الطويلة نساءهم إلى كهرمان قاسٍ ومضيء.

لقد جعلت النساء من منزل فرح ما يشابه البيت بأسلوب الرحّل، الذين بإمكانهم أن يزيلوا خيامهم في أى وقت، حيث فرشن فيه سجاجيد كثيرة وأغطية مطرزة معلقة على الحوائط. بالنسبة لهن، كان البخور مكونًا مهمًا من مكونات المنزل؛ للكثير من البخور الصومالي نكهة طيبة جدًا. في سنواتي التي قضيتها في المزرعة، رأيت القليل من النساء، واكتسبت عادة الجلوس في نهاية اليوم، لساعة هادئة، بصحبة السيدة العجوز والفتيات في منزل فرح.

كن يُبدين اهتمامًا بكل شيء، وكانت أقل الأشياء كفيلة بإسعادهن. تثير الكوارث الصغيرة في المزرعة، والنكات على شئوننا المحلية، ضحكاتهن مثل جلجلة مجموعة من الأجراس في المنزل. حينما أردت أن أعلمهن الحياكة بإبرة التـــريكـــو، كـــن يضحكن علـــى هذا الأمر وكأنهن يشاهدن عرضًا كوميديًا لمسرح العرائس.

لم تكن براءتهن مشوبة بالجهل. لقد ساعدن جميعهن في عمليات الولادة وفي غسل الموتى، وناقشن تفاصيل تلك الأمور ببرود مع الأم العجوز. في بعض الأحيان، وللترفيه عني، كن يقصصن عليَّ الحكايات الخيالية بأسلوب حكايات ألف

ليلة وليلة، غالبًا حكايات كوميدية، تعاملت مع الحب بقدر كبير من الصراحة. لقد كان هناك سمة عامة بين كل تلك الحكايات، وهي أن البطلة سواء أكانت طاهرة أم لا، سوف تحظى بأفضل الشخصيات الذكورية وتخرج من الحكاية منتصرة. جلست الأم وهي تنصت بينما ترتسم على وجهها ابتسامة صغيرة.

في هذا العالم النسائي المغلق، إن جاز القول، فيما وراء حوائطه وحصونه، كنت أشعر بوجود هدف عظيم، بدونه لن تستمر القوات الحامية في عملها بهذا الوهج؛ فكرة الألفية حيث ستحكم النساء ويتولين السلطة في هذا العالم. في مثل تلك الأزمان، سيتخذ نموذج الأم القديم شكلاً جديدًا، وستجلس متوجة كرمز داكن ضخم لتلك القدرة الألوهية الأنثوية التي وجدت في الأزمنة القديمة، قبل عصر الرسل. لم يغب نظرهم عنها قط، ولكنهم، قبل كل شيء، أناس عمليون حريصون على احتياجاتهم اللحظية مستعدون بشكل لا نهائي لتلبية تلك الاحتياجات.

كانت الشابات يسألن كثيرًا حول كل ما يتعلق بالعادات الأوروبية، وكن ينصتن باهتمام لوصف السلوكيات وتعليم وملابس السيدات ذوات البشرة البيضاء، وكأنهن بذلك يكملن تعليمهن الإستراتيجي بمعرفة كيف يمكن الاستيلاء على الذكور الغرباء وإخضاعهم.

لقد لعبت ملابسهن دورًا هائلاً في حياتهن، لا عجب في ذلك، حيث كانت بالنسبة لهن ثياب حرب، غنيمة حرب، ورموزًا للانتصار، مثل الأعلام التي يضعونها حينما يفتحون بلادًا جديدة. لقد دفعت الطبيعة أزواجهن الصوماليين إلى التقشف، فأصبحوا غير مكترثين بالطعام والشراب والراحة الشخصية، يتسمون بالجفاف والنحافة مثل البلاد التي جاءوا منها: النساء هن أقصى ما يتمنوه من رفاهية. بالنسبة لها، فإنه مشتهى بشكل نهم لا ترتوي منه، هي بالنسبة له الخير الأعلى في الحياة : الخيول، والجمال، والخراف قد تأتي وتكون مشتهاة أيضًا،

ولكنها لا يمكنها أبدًا أن تكون في ثقل أو أهمية الزوجات. النساء الصوماليات يشجعن رجالهن في كل ميولهم الطبيعية. إنهن ينبذن أي نعومة في رجل يتسم بقسوة شديدة؛ وبتضحيات شخصية ضخمة يرفعن من أثمانهن. هؤلاء النسوة لا يمكنهن أن يمتلكن خفًا بأي طريقة سوى من خلال رجل، ليس بإمكانهن أن يمتلكن أنفسهن، فلا بد أن تعود ملكيتهن لذكر ما، لأب، أو أخ، أو زوج، ولكنهن لا زلن الجائزة الأعلى التي تمنحها الحياة. إن مقدار ما تحصل عليه المرأة الصومالية من الحرير والذهب والعاج والمرجان من رجالهن أمر مدهش، ومدعاة للشرف للطرفين.

في نهاية رحلات السفاري التجارية الطويلة والشاقة، تتحول كل المشاق، والأخطار، والمكائد والتحمل، إلى ملابس النساء. كانت الفتيات الصغيرات، اللاتي ليس لديهن رجال ينتزعن أموالهم، يمكثن في بيوتهن التي تشابه الخيام، يصففن شعورهن بشكل أفضل، ويتطلعن إلى الوقت الذي سيتمكن فيه من غزو الغزاة، وانتزاع العطايا من مغتصب الأموال. كن جميعًا يجدن تمامًا إقراض بعضهن الآخر أفخر ثيابهن، وكن يسعدن بإلباس الأخت الصغرى، التي تكون أجمل من في الموجودين، حيث ترتدي أفضل ملابس أختها المتزوجة؛ وبشكل مضحك، قد ترتدي قماشًا ذهبيًا يستخدم كغطاء للرأس، لا يمكن قانونًا للعذراء أن ترتديه.

الصوماليون مولعون بالقضايا والنزاعات طويلة الأجل، ولم يمر الوقت أبدًا بدون قضية تطلبت وجود فرح في نيروبي، أو عقد اجتماعات للقبيلة في المزرعة. في مثل تلك الأوقات، كانت المرأة العجوز، حينما أجيء إلى المنزل، تضخ في أذني حديثًا طويلاً عن القضايا بأسلوب رقيق وذكي. ربما تكون قد سألت فرحًا، الذي يكون قد أخبرها بكل ما أرادت معرفته؛ لأنها تحظى منه باحترام كبير. ولكنها اتخذت مضمارًا آخر، كما أعتقد، من الدبلوماسية. بهذه الطريقة، بإمكانها

أن تظل محتفظة، لو كان الأمر يناسبها، بجهل المرأة بشئون الرجال، وعدم قدرة المرأة أن تفهم كلمة واحدة منهم. لو قدمت نصيحة، فإنها ينبغي أن تلفظها بأسلوب العرافة، الملهمة من الله، ولا ينبغي لأحد ما أبدًا أن يحاسبها على ما قالت.

في تلك الاجتماعات الكبرى للصوماليين في المزرعة أو في الاحتفالات الدينية الضخمة، يوكل الكثير من شئون تنظيم وإعداد الطعام للنساء. لا يتسنى لهن أنفسهن حضور مأدبة الطعام، ولا يستطعن دخول المسجد، ولكن كان لديهن طموح لإنجاح الحفل بشكل مبهر، ولم يعبرن حتى بين أنفسهن عما كانت تشعر به قلوبهن بشأن كل ذلك. في تلك المناسبات كن يذكرنني بشدة بسيدات الجيل السابق في بلادي، اللاتي أحتفظ بصورهن في ذاكرتي وهن يرتدين الفساتين المنفوشة ذات الأذيال الطويلة والضيقة. لم تقم النساء الإسكندنافيات في أيام أمي وجداتي- العبدات المتحضرات من نسل البرابرة ذوي الطباع الجيدة- بواجب الضيافة بشكل مختلف في مثل تلك المهرجانات الذكورية الضخمة المقدسة: اصطياد طائر الذيال، وإثارة الطرائد من مكامنها في موسم الخريف.

كان الصوماليون ملاكًا للعبيد لأجيال لا تحصى، واعتادت نساؤهم التعامل بشكل جيد مع المحليين ومعهم، بطريقة لا مبالية ومتساهلة. بالنسبة للمواطن المحلي، فإن خدمة الصومالي والعربي أقل صعوبة من الناس البيض؛ لأن إيقاع الحياة للأجناس الملونة متشابه في كل مكان. كان لزوجة فرح شعبية بين أهل الكيكويو في المزرعة، وأخبرني كامانتي مرات عديدة أنها ذكية جدًا.

كانت الشابات الصوماليات ودودات مع أصدقائي البيض الذين كانوا يجيئون بشكل متكرر للمكوث في المزرعة مثل بيركلي كول، ودينيس فينش هاتون؛ كن يتحدثن عنهم بشكل متكرر، ويعرفن عنهم الكثير من الأمور المدهشة. كن يتحدثن معهم، حينما يقابلونهم، بأسلوب أخوي، وأياديهن بين طيات تنوراتهن. ولكن

العلاقات كانت معقدة؛ لأن كلاً من بيركلي ودينيس كان لهما خادمان صوماليان، ولم تستطع الفتيات مقابلتهم أبدًا. بمجرد أن يظهر جاما أو بليا، وهما يرتديان غطاء الرأس، بعيونهم الداكنة، في المزرعة، فإنه سرعان ما تغرب وجوه فتياتي الصوماليات، ولا يعلم أحد أين اختفين. لو أردن خلال تلك الأوقات رؤيتي، كن يجئن متسللات عبر أركان المنزل، ويجذبن أطراف تنوراتهن إلى وجوههن. قال الرجلان البريطانيان إنهما سعيدان للثقة التي أبدتها الشابات إزائهما، ولكن في قلبيهما، كما أعتقد، تعصف رياح خفيفة باردة لوعيهما أن الفتيات يعتقدن أنهما غير مؤذيين أبدًا.

في بعض الأحيان كنت أصطحب الفتيات في نزهة أو زيارة؛ كنت حريصة عندئذ أن أستأذن الأم، لأنني لا أريد أن أسبب إزعاجًا لأصدقائي. في أحد جوانب المزرعة كانت تعيش امرأة إسترالية متزوجة كانت لسنوات قليلة جارة ساحرة لي؛ كانت تطلب صحبة الفتيات الصوماليات لتناول الشاي معها. كانت تلك مناسبات رائعة. كن وقتها يرتدين ملابسهن الجميلة، وكان لهن مظهر رائع مثل باقة الزهور، وبينما كنت أقود، كانت السيارة من خلفي تسقسق مثل بيت الطيور. لقد لفت المنزل انتباههن بشدة وبالملابس، وحتى، بزوج صديقتي، وهو يقود أو يحرث من على مسافة بعيدة. وبينما قدم الشاي، اتضح أن الأخت المتزوجة والأطفال هم الذين يمكنهم المشاركة، فبالنسبة للفتيات الصغيرات كان ممنوعًا أن يتناولنه لأنه مثير للانتباه جدًا. كان عليهن أن يرضين أنفسهن بتناول الكعك، وفعلا ذلك بتواضع وامتنان حقيقي. كان ثمة نقاش قصير حول الفتاة الصغيرة، التي كانت معنا- هل يمكنها تناول الشاي؟ أم أنها وصلت للسن الذي يثبت معه خطورته الشديدة عليها؟ قالت الأخت المتزوجة إنه بإمكانها احتساؤه، ولكن الطفلة رمقتنا بنظرة عميقة، قاتمة، ومتكبرة، ونبذت الفنجان.

كانت ابنة العم فتاة متأملة، لها عينان بنيتان مائلتان للحمرة، كانت تستطيع أن تقرأ العربية وتحفظ بعض الآيات القرآنية عن ظهر قلب. كانت لديها موهبة فطرية في دراسة الدين، وقد خضنا العديد من المناقشات حول أمور دينية وحول عجائب العالم. لقد تعلمت منها التعبير الصادق لقصة يوسف وزوجة بوتيفار. كانت تعتــرف أن المسيــح عيسى قـــد ولدته عذراء، ولكنها تنكر أنه ابن الله؛ لأن الله لا يمكن أن يكون له أبناء من لحم ودم. ماريامو، التي كانت أجمل العذراوات، كانت تتمشى في الحديقة، حينما أرسل الله لها ملاكًا رائعًا، بجناحين من الريش، ولامس كتفيها: وبهذه اللمسة ولدت طفلها. في مسار مناقاشاتنا أطلعتها ذات مرة على صورة في شكل بطاقة بريدية لتمثال المسيح الذي نحته ثورفالدسين(٧)، في كاتدرائية كوبنهاجن. حينما رأت البطاقة، وقعت في حب المخلّص، بطريقة رقيقة منتشية. لم تتمكن أبدًا من سماع ما يكفي عنه، تأوهت وتغير لونها وأنا أحكي عنه. كانت مهتمة أكثر بأمر يهوذا- إلى أي نوع من الرجال ينتمي؟ كيف يمكن أن يوجد أناس كهؤلاء؟ إنها ذاتها ستكون سعيدة جدًا لو أنها استطاعت فقط اقتلاع عينيه. كان ولعًا عظيمًا، يتواءم مع البخور الذي يقمن بإشعاله في بيوتهن، والمصنوع من الخشب الداكن المزروع على الجبال البعيدة، وكان حلوًا وغريبًا على حواسنا.

سألت الآباء الفرنسيين إن كان بإمكاني إحضار مجموعة النساء المحمديات إلى الإرسالية، وحينما وافقوا بأسلوبهم الودود اللطيف- سعداء بأن شيئًا ما سيحدث- توجهنا إليهم ذات يوم في فترة ما بعد الظهيرة، ودخلن واحدة تلو أخرى بشكل منفرد إلى أرجاء الكنيسة الرحبة. لم تذهب الشابات أبدًا إلى مثل تلك الأبنية الشاهقة الارتفاع. وهن ينظرن لأعلى كن يضعن أيديهن على رؤوسهن لكي يحمين أنفسهن في حالة سقوطها عليهن. كانت هناك بعض التماثيل في الكنيسة، وباستثناء صورة البطاقة البريدية، لم يسبق أن رأين مثلها أبدًا. في الإرسالية الفرنسية، كان هناك تمثال للعذراء بالحجم الطبيعي، باللونين الأبيض والأزرق السماوي، وهي

تمسك بزهرة الزنبق في يدها، وبجانبها تمثال آخر للقديس يوسف والطفل على ذراعه. لقد أصيبت الفتيات بالذهول وهن يقفن أمامهما. جمال العذراء جعلهن يتأوهن. كن يعرفن القديس يوسف بالفعل، وكن يقدرنه كثيرًا، لكونه زوجًا مخلصًا للغاية وحاميًا للعذراء؛ الآن، ألقين عليه بنظرة طويلة شاكرة لأنه حمل الطفل لزوجته أيضًا. ظلت زوجة فرح، التي كانت تنتظر وليدها، ملتصقة بالعائلة المقدسة طوال فترة بقائها في الكنيسة. كان الآباء يشعرون بالخيلاء إزاء نوافذ كنيستهم، التي قد تزينت بورق مشابه للزجاج الملون، وعليها رسوم تمثل آلام المسيح. ظلت ابنة العم الصغيرة تنظر إلى النوافذ بوله، سارت حول الكنيسة وعيناها مركزتان على النوافذ، وهي تعصر يديها، وركبتاها تتلويان وكأنها قد وقعت تحت ثقل الصليب. في طريق عودتهن للمنزل دار بيننا حديث موجز جدًا؛ كن خائفات، كما أعتقد، أن يفضحن جهلهن بأي أسئلة قد تخطر ببالهن. فقط بعد عدة أيام سألتني الفتيات إن كان يمكن للآباء أن يجعلن العذراء والقديس يوسف يهبطان لأسفل من القاعدة المربعة التي يرتكز عليها التمثالان.

كانت ابنة العم الشابة متزوجة من أحد العاملين بالمزرعة، في منزل جميل من طابق واحد، كان عندئذ خاليًا، وكنت قد أعرته للصوماليين من أجل هذه المناسبة. كان حفل الزواج طقسًا رائعًا واستمر لسبعة أيام. لقد حضرت الحفل الرئيسي، حينما قاد موكب من النساء منخرطات في الغناء، العروس إلى لقاء موكب آخر من الرجال المنشدين الذين جاءوا بالعريس لها. لم تكن قد رأته من قبل، وأتعجب إن كانت قد تخيلته في صورة مشابهة لمسيح ثورفالدسن، أو ربما كان لديها شكلان مثاليان، حب إلهي وحب أرضي، على نموذج رومانسية الفرسان.

على مدار الأسبوع، قدت سيارتي إلى هناك أكثر من مرة. في أي وقت أصل فيه كنت أجد المنزل يعج بالحياة الاحتفالية وتنبعث منه رائحة بخور الزواج. الرقص بالسيوف والرقصات الرائعة للنساء كانت تسير على ما يرام؛ كانت تعقد صفقات كبيرة في الماشية بين الرجال الكبار، وتنطلق طلقات الرصاص وتصل العربات التي تجرها بغال وترحل. في الليل، في ضوء المصابيح المضاءة في الشرفة، كانت أجمل الأصباغ العربية والصومالية تذهب وتجيء من العربات والمنزل: الكارمويسين، والبرقوق الأسود المجفف النقي، والبني السوداني، والوردي البنغالي، والزعفراني.

ولد أحمد بن فرح في المزرعة، كانوا يلقبونه بصوفي، والذي يعني، كما أعتقد، قولاً مأثورًا. لم يكن يحمل في قلبه أي خجل كالذي يتسم به أطفال الكيكويو. عندما كان رضيعًا، وكان ملفوفًا مثل جوزة البلوط، بلا شكل تقريبًا لرأسه المستديرة الداكنة، كان يجلس وهو منتصب، وكان ينظر إليك في وجهك: كان الأمر يبدو وكأنك تمسك بصقر صغير في يدك، أو بشبل يعتلي ركبتيك. لقد ورث مرح أمه، وحينما تمكن من الركض في المكان، كان بمثابة مغامر مرح كبير تمتع بالكثير من النفوذ في عالم المزرعة المحلي الصغير.

كنودسن العجوز

في بعض الأحيان كان الزوار ينجرفون من أوروبا إلى المزرعة مثل الخشب المحطم الغارق في المياه الساكنة، يتحولون ويستديرون، حتى يغسلوا تمامًا في النهاية، أو يتحللوا ويغوصوا.

جاء كنودسن العجوز الدنيماركي إلى المزرعة، مريضًا وفاقد البصر، ومكث هناك، حتى حان وقت موته، كحيوان وحيد. كان يسير عبر الطرق وظهره منحنٍ على مأساته الشخصية؛ لأوقات طويلة، كان لا ينطق بأي حديث، فقد خارت قواه بسبب مهمة حملها الشاقة، وحينما يتحدث، كان صوته يصدر مثل صوت الثعلب أو الضبع، في حد ذاته عويلاً.

ولكنه كان حينما يلتقط أنفاسه، ولوقت وجيز لا يعاني من الألم، تنطلق الشرارة من النار الخامدة مرة أخرى. عندئذ كان يأتيني ويفسر لي كيف أنه كان يواجه مزاجًا سوداويًّا معتمًا بداخله، ميلـه الغريب لرؤية الأشياء بشكل سوداوي. لا بد أن الأمر كان له ما يبرره؛ لأن الظروف الخارجية لم تكـن غيـر لائقـة، لم تكن، فليأخذه الشيطان، جديرة بالاحتقار. فقط التشاؤم، التشاؤم، كانت تلك هي الرذيلة السيئة التي أصابته!.

لقد كان كنودسن هو من نصحني بحرق الفحم وبيعه للهنود في نيروبي، حينما كنا في المزرعة، وكانت الحياة أكثر شقاءً مما اعتدنا عليه. لقد طمأنني أن هناك الآلاف من الروبيات ستأتي من وراء ذلك. ولا يمكن أن يفشل الأمر ما دام تحت رعاية كنودسن العجوز؛ لأنه كان قد وصل ذات مرة في أثناء سنوات عمله

الفوضوي، إلى أقصى شمال السويد، وهناك تعلم الحرفة بيديه. لقد تعهد أن يعلم المحليين هذا الفن. وبينما كنا نعمل معًا في الغابة، كنت كثيرًا ما أتحدث معه.

إحراق الفحم عمل لطيف. هناك بلا شك تأثيره السام، ومن المعروف أن حارقي الفحم يرون الأشياء في ضوء مختلف عن الآخرين؛ إنهم ينساقون للشعر والأكاذيب، ثم تأتي شياطين الخشب وتبقى برفقتهم. مراقبة تحول الفحم شيء لطيف، حينما يشتعل الفرن خاصتك ويفتح، ثم تنثر المكونات على الأرض. ناعمة كالحرير، تصفى المادة، تتحرر من الثقل وتترك ذلك الجزء الداكن من الخشب وكأنه مومياء خالدة.

إن إعداد المشهد الخاص بفن إحراق الفحم هو، في حد ذاته، أمر لطيف للغاية. ونحن نقطع الأشجار المتشابكة الصغيرة فقط- لأن الفحم لا يمكن أن يصنع من الخشب السميك- كنا لا زلنا نعمل تحت تيجان الأشجار العالية. في هذا السكون والظلال المحيطة بالغابة الأفريقية، كان الخشب المقطوع له رائحة الكشمش الشائك، وكانت تلك الرائحة الحادة، الطازجة الثاقبة منعشة مثل نسيم البحر. لقد كان للمكان كله جو مسرحي فريد، حيث اكتسب سحره الخالد تحت خط الاستواء، حيث لا مسارح هناك. تتصاعد طبقات الدخان الحلزونية الزرقاء الرفيعة تلك المنبعثة من الفرن على مسافات منتظمة، والأفران الداكنة ذاتها كانت تبدو مثل خيام على خشبة المسرح؛ كان المكان بمثابة معسكر للجنود أو مهربي البضائع في أوبرا رومانسية. كانت أجسام المواطنين المحليين الداكنة تتحرك خلال المشهد دون أن تصنع ضوضاء. حيث تتم إزالة الشجيرات النامية تحت الشجر الكبير في غابة أفريقية ستجد دومًا عددًا ضخمًا من الفراشات يبدو أنها تحب أن تتجمع على بقايا الأخشاب. كان الأمر برمته غامضًا وبسيطًا. وعلى مقربة من كل ذلك، كان المظهر الضئيل والمنحني لكنودسن العجوز مناسبًا للمنظر بشكل شديد الروعة،

يومض في المكان، بقمة رأسه الحمراء، يتحرك بحيوية، فقد أصبح لديه الآن العمل المفضل له، متهكمًا ومشجعًا، مثل جني لعوب قد صار أعمى وعجوزًا وشريرًا. اعتنى كنودسن بعمله وتعامل بصبر مدهش مع تلامذتـــه مـــن السكـــان المحليين. لم نكن على وفاق دومًا. في باريس، حينما كنت أذهب كطفلة إلى مدرسة لتعليم الرسم، عرفت أن أفضل أنواع الفحم كانت تصنع من خشب الزيتون، ولكن كنودسن شرح أن خشب الزيتون ليس به أية عقد، ويا للجحيم، الجميع يعلم أن قلب الأشياء هي في عقدتها.

أمر ما هنا في الغابة قد هدأ من روع كنودسن. كان للأشجار الأفريقية أوراق رقيقة، غالبًا ما يكون لها أوراق في شكل الأصابع المفرودة، حتى أنك حينما تزيل الكثافة عند الجذور، تبدو الغابة مجوفة، ويكون الضوء عندئذ مثل ضوء غابة خشب الزان في الدنيمارك في شهر مايو، حينما تتفتح الأوراق تمامًا، أو تكون على وشك التفتح. جذبت انتباه كنودسن لهذا التشابه، وراقت له الفكرة؛ لأنه طوال فترة حرق الفحم كان معتدل المزاج ومبتكرًا فانتازيا خاصة به: لقد كنا في نزهة في صباح يوم أحد رطب في الدنيمارك. لقد عمّد شجرة عجفاء مجوفة وأسماها لوتنبرج، متيمنًا باسم مكان للترفيه بالقرب من كوبنهاجن. حينما كان لدي عدد قليل من زجاجات البيرة الدنيماركية المخبأة في أعماق لوتنبرج، ودعوته لتناول الشراب هناك، تنازل واعتبرها مزحة لطيفة.

حينما أشعلنا كل الأفران خاصتنا، جلسنا وتحدثنا في شئون الحياة. عرفت الكثير عن حياة كنودسن السابقة، والمغامرات الغريبة التي وقع فيها أينما ارتحل. كان عليك، في مثل هذه المحادثات، أن تتحدث عن كنودسن العجوز نفسه، الرجل الصائب دومًا- وإلا ستغوص في ذلك التشاؤم الأسود الذي حذرك منه مسبقًا. لقد كان يعرف الكثير من الأشياء جيدًا: حطام السفن، ومنابع المياه، وثلاث شموس

ساطعة في السماء في الوقت ذاته، وأصدقاء خادعين، والشر الأسود، والنجاحات القصيرة، وأمطار الذهب التي سرعان ما جفت مرة أخرى. سرى شعور قوي واحد في ملحمته: مقت القانون، وكل لوائحه، وكل نظمه. لقد ولد متمردًا، كان يجد رفيقًا في كل مارق للقانون. أي فعل بطولي كان يعني بالنسبة له، في حد ذاته، فعلاً مناوئًا للقانون. كان يحب أن يتحدث عن الملوك والعائلات الملكية والمشعوذين، والأقزام، والمجاذيب، كان يعتبرهم خارجين عن القانون، كما كان يحب أيضًا الحديث عن أية جريمة وثورة وخدعة، أو مزحة تصطدم بوجه القانون.

ولكنه كان لديه ازدراء عميق للمواطن الخير، كما أن الالتزام بالقانون لدى أي رجل كان بالنسبة له علامة من علامات العقل المستعبد. إنه لم يكن حتى يحترم أو يؤمن بقانون الجاذبية، الأمر الذي عرفته ونحن نقطع الأشجار معًا: لم يكن يرى سببًا لعدم تغييرها إلى العكس تمامًا- بواسطة أشخاص غير متعصبين، ومغامرين.

كان كنودسن شغوفًا بأن يطبع في ذهني أسماءِ الناس الذين عرفهم، وبخاصة أولئك المحتالين والأوغاد. ولكنه لم يذكر في حكاياته أبدًا اسم امرأة. يبدو الأمر وكأن الزمن قد أطاح من ذهنه بصور فتيات إلزينور الجميلات والنساء القاسيات اللاتي يقطن موانئ العالم. وبشكل مشابه، حينما كنت أتحدث معه، كنت أشعر بأن هناك حضورًا دائمًا لامرأة مجهولة في حياته. لا أستطيع أن أقول من كانت تلك المرأة؟ زوجة؟ أم؟ معلمة في مدرسة؟ أو زوجة صاحب العمل الأول في حياته؟ ولهذا فقد احتفظت لها في ذهني باسم السيدة كنودسن. تخيلتها قصيرة لأنه كان قصيرًا جدًا. كانت تلك المرأة هي من أفسد سعادة الرجل، وفي هذا الشأن كان يعتقد أنه على صواب دومًا. كانت الزوجة مؤنبة لزوجها، وربة البيت المقاتلة في أيام التنظيف الكبرى، من أوقفت كل المشاريع، وغسلت وجوه الصبية، ونزعت كأس النبيذ المسكر الموضوع على الطاولة أمامه؛ كانت بمثابة تجسيد حي للنظام

والقانون. في ادعائها بالقوة المطلقة فإن هناك تشابهًا ما بينها وبين معبودة المرأة الصومالية، ولكن السيدة كنودسن لم تحلم بأن تكون عبدة للحب، فقد امتلكت زمام الأمور بالمنطق والحق. لا بد وأن كنودسن قد قابلها في سن مبكرة، حينما كان ذهنه لينًا بدرجة كافية لكي يستقبل انطباعًا دائمًا لا يمكن تغييره. لقد هرب منها إلى البحر؛ لأن البحر هو ما كانت تمقته مقتًا شديدًا، ولم تكن تذهب إلى هناك، ولكنه وهو على الشاطئ مرة أخرى فـــي أفــريقيا، لم يستطع الهرب منها، كانت لا تزال برفقته. في قلبه الوحشي، تحت شعره الأحمر المشوب ببياض، كان يخشاها أكثر من خشيته لأي رجل، وكان يرتاب في كل امرأة يقابلها، إذ قد تكون السيدة كنودسن متنكرة في ثياب امرأة أخرى.

لم يكلل عملنا في حرق الفحم بأي نجاح مادي. ومن وقت لآخر، كان يحدث أن تندلع النار في أحد أفراننا، وكان يذهب ربحنا إلى السماء متصاعدًا في شكل دخان. كان كنودسن نفسه قلقًا بشأن إخفاقنا، وكان يفكر في الأمر مليًا: في نهاية الأمر أعلن أن لا أحد على وجه الأرض يمكنه أن يحرق الفحم إلا إذا كان لديه إمداد كاف من الثلج.

لقد ساعدني كنودسن أيضًا في صنع بحيرة في المزرعة. في إحدى المناطق، يجري طريق المزرعة خلال دائرة متسعة من الأرض العشبية؛ كان ذلك خلال فصل الربيع، وقد فكرت مليًا في خطة بناء سد تحته وتحويل المكان إلى بحيــرة. دائمًا ما تتعرض لمشكلة نقص المياه في أفريقيا؛ لذا سيكون مكسبًا كبيرًا لو تمكن القطيع من الشرب في الحقل، وبذلك سيتجنب عناء السير لأسفل النهر. لقد شغلت فكرة السد تفكير كل من في المزرعة نهارًا وليلاً، وخضنا في نقاش طويل بشأنها؛ وفي النهاية، حينما انتهى الأمر، نظر إليه الجميع بوصفه إنجازًا رائعًا. امتد السد بطول مائتي قدم. كان كنودسن العجوز شغوفًا بأمره للغاية، وعلم بوران

سينج كيف يصنع مجرافة للسد. كان لدينا بعض المشاكل مع السد بعد أن اكتمل بناؤه؛ لأنه لم يكن يحتفظ بالماء، حينما كانت تبدأ الأمطار الكثيفة، بعد موسم جفاف طويل؛ كان يتداعى في عدد من الأماكن وكان على وشك الزوال أكثر من مرة.

كان كنودسن هو من اقترح خطة تقوية السد الترابي عن طريق قيادة ثيران المزرعة والقطعان الخاصة بمستأجري الأرض عبر السد كلما قدموا للشرب من البركة. كل ماعز وخروف كان عليها أن تسهم في العمل العظيم، وأن تترك آثارها على البناء. كانت له بعض المعارك العنيفة مع الرعاة الصغار؛ لأن كنودسن كان يصر على أن الماشية ينبغي أن تسير عبر الجسر ببطء، ولكن التوتو الصغار البدائيين كانوا يريدون أن تركض الماشية كما تهوى عبر الجسر، وأذيالها منطلقة في الهواء. في النهاية، حينما وقفت في صف كنودسن، وحينما نال من التوتو، سار الصف الطويل للماشية بهدوء عبر الضفة الضيقة، وهي تنظر للسماء مثل موكب حيوانات نوح المرتحلة عبر السفينة؛ وكنودسن العجوز نفسه، وهو يقوم بعدها، وعصاه تحت إبطه، كان يبدو مثل نوح مشيد القارب، وهو راض عن فكرة أن الجميع فيما عداه سيكون مصيرهم الغرق.

بمرور الوقت، حصلت على امتداد واسع من المياه هنا، ووصل إلى عمق سبعة أقدام في بعض المناطق؛ وتم تمهيد الطريق خلال البركة، كان جميلاً جدًا. فيما بعد، بنينا سدين آخرين أسفل، وبهذه الطريقة كان لدينا صف من البرك، مثل لآلئ ترصع خاتمًا. أصبحت البركة الآن قلب المزرعة. كانت دومًا على قدر كبير من الحيوية، حيث يتحلق حولها الماشية والأطفال من حولها، وفي الموسم الحار، حينما تجف آبار المياه في السهول والمرتفعات، كانت الطيور تجيء إلى المزرعة: مالك الحزين، وأبو منجل، والرفراف(٨)، والسمان، وعشرات الأنواع من الأوز والبط. في الليل حينما تومض النجوم الأولى في السماء، اعتدت أن أذهب وأجلس

عند ضفة البركة، وعندئذ كانت الطيور تعود لبيتها. إن الطيور السابحة تطير بهدف ما، على عكس الطيور الأخرى: إنها في رحلة، حيث ترتحل من مكان لآخر، ألا ينبغي أن يكون للسباحين البدائيين عابري الطرق منظور مختلف! كان البط يختتم طوفانه في السماء الصافية كالزجاج، لكي يحط بهدوء في المياه الداكنة مثل العديد من رؤوس السهام يطلقها للخلف رامي سهام إلهي. في إحدى المرات، أطلقت النار على تمساح في البركة؛ كان أمرًا غريبًا، حيث لا بد أنه تجول اثني عشر ميلاً من نهر آثي لكي يصل إلى هناك. كيف عرف أنه سيكون هناك ماء الآن، هنا حيث لم يكن ثمة مياه أبدًا؟.

حينما انتهى العمل في البركة الأولى، أخبرني كنودسن بخطة وضع السمك في المياه. كان لدينا في أفريقيا نوع من أسماك الفرخ[٩]، كان مذاقه جيدًا، وناقشنا بإسهاب فكرة الصيد الوافر للأسماك في المزرعة. لم يكن الأمر يسيرًا، على الرغم من ذلك، فقد وافقت إدارة المنتزه على إيداع السمك في البرك، ولكنها لم توافق على الصيد بعد. ولكن كنودسن أسرّ لي بمعرفته ببركة لا يعرف أحد في العالم عنها شيئًا، حيث كان يمكننا هناك اصطياد ما يحلو لنا من السمك. يمكننا أن نقود السيارة إلى هناك، كما شرح لي، ونلقي بشبكة في البحيرة الصغيرة، ونأخذ السمك ونحن عائدين في السيارة في صناديق وحاويات، حيث يمكنه البقاء على قيد الحياة في الطريق لو تذكرنا أن نضع أعشاب البحر مع الماء. لقد كان متحمسًا للغاية لخطته لدرجة أنه كان يرتعش وهو يروي تفاصيل الأمر؛ لقد صنع بيديه إحدى شباك الصيد التي لا يمكن تقليدها خصيصًا لهذه الخطة المحبوكة جيدًا. ولكن مع اقتراب وقت الرحلة الاستكشافية، أخذ الأمر مظهرًا أكثر غموضًا. ينبغي أن نقوم بالأمر، كما أصر كنودسن، في ليلة قمرية، حينما يكون الليل على وشك الانتصاف. في البداية، اعتزمنا اصطحاب ثلاثة صبية معنا، ثم خفض الرقم إلى اثنين، ثم واحد، وأخذ يتساءل ما إذا كان يبدو محلاً للثقة تمامًا. وفي النهاية أعلن

أنه من الأفضل أن نذهب معًا بمفردنا. فكرت أن هذه خطة سيئة؛ لأننا لن نستطيع حمل الحاويات إلى السيارة، ولكن كنودسن أصر أن الخطة ستنفذ في أكمل صورة، وأنني ينبغي ألا أطلع أحدًا عليها.

كان لدي أصدقاء في إدارة المنتزه، ولم أستطع كتمان الأمر، كان ينبغي أن أسأله: "كنودسن، إلى من تؤول ملكية السمك الذي تريدنا أن نصطاده في حقيقة الأمر؟" لم يرد كنودسن بكلمة واحدة. بصق على الأرض، بصقة معتادة من بحار قديم- ومد قدمه في حذائه المرقع، ومحا البصاق الذي على الأرض، أدار كعبيه وسار في بطء كالموتى. جعل رأسه بين كتفيه وهو يسير؛ لم يكن الآن يستطيع النظر على الإطلاق، ولكنه كان يطوحها أمامه مع عصاته؛ لقد أصبح مرة أخرى رجلاً منهزمًا، هاربًا بلا ملجأ في عالم وضيع وبارد. يبدو على ملامحه أنه يتلفظ بلعنة ما، كنت أقف هناك في النقطة التي تركني فيها، أشعر، وأنا أرتدي خفّي السيدة كنودسن، بانتصار حقيقي.

لم نتحدث مجددًا أنا وكنودسن في شأن الصيد. فقط بعد مضي وقت على موته، قمت بمساعدة إدارة المنتزه بوضع سمك الفرخ في البحيرة. لقد تمكنت من العيش والتوالد هناك، وأضافت حياتها الساكنة، اللطيفة، الهادئة المتململة لحياة الكائنات الأخرى في البحيرة. في منتصف النهار، يمكن للمرء، وهو يمر على البحيرة، أن يرى الأسماك وهي واقفة بجوار السطح، وكأنها مصنوعة من زجاج داكن اللون في المياه المشمسة الغائمة. كنت أرسل تومبو، التوتو خاصتي، إلى البحيرة بسنارة بدائية، وأصطاد سمكة من أسماك الفرخ تزن رطلين، كلما جاء إلى منزلنا ضيف غير متوقع.

حينما وجدت كنودسن ميتًا على طريق المزرعة، أرسلت أحد صبية المنزل إلى البوليس في نيروبي، وأعلمتهم بوفاته. لقد نويت أن أدفنه في المزرعة، ولكن

في وقت متأخر من الليل جاء شرطيان في سيارة وأخذا جثته، وأحضرا معهما كفنًا. وفي الوقت ذاته هبت عاصفة رعدية، وكانت هناك أمطار تعلو على الأرض بمقدار ثلاث بوصات؛ لأن موسم الأمطار الغزيرة كان قد بدأ للتو. قدنا السيارة حتى مسكنه خلال الأمطار الغزيرة، وطبقات المياه؛ ونحن ننقل كنودسن إلى السيارة، دوي الرعد فوق رؤوسنا مثل طلقات المدافع، وكانت ومضات البرق تأتي من كل جهة مثل سنابل في حقل القمح. لم يكن للسيارة فرامل وكانت تقف بصعوبة على الطريق، حتى أنها كانت تتأرجح من جانب لآخر. لو كان كنودسن العجوز حيًا لأعجبه الأمر؛ كان سيشعر بالرضا لخروجه من المزرعة.

فيما بعد، حدث خلاف بيني وبين إدارة نيروبي المحلية حول ترتيبات جنازته؛ وتطور الأمر إلى مجادلة ساخنة واضطررت للذهاب للمدينة لمتابعة هذا الأمر أكثر من مرة. كان إرثًا قد تركه لي كنودسن: مبارزة فروسية أخيرة، كوكيلة له، في مواجهة القانون. ولهذا فلم أعد بالنسبة له السيدة كنودسن، ولكنني كنت بمثابة أخ أصغر.

هارب يستريح في المزرعة

جاء إلى المزرعة مسافر، ونام هناك لليلة واحدة، ثم رحل دون أن يعود ثانية، كنت أفكر فيه من وقت لآخر. كان اسمه إيمانويلسون؛ كان سويديًا وحينما عرفته للمرة الأولى كان يعمل مديرًا لغرفة الطعام في أحد فنادق نيروبي. كان شابًا سمينًا له وجه تشوبه حمرة ينز منه العرق، وكان من عادته أن يقف بجوار مقعدي وأنا أتناول طعام الغداء في الفندق، لكي يسليني بصوته المتملق ويحكي لي حكايات عن بلده القديم وعن المعارف المشتركين هناك؛ كان يثرثر بإصرار شديد، لدرجة أنني بعد فترة من الوقت انتقلت إلى الفندق الآخر الوحيد الذي كان لدينا في ذلك الوقت في المدينة. ومنذ ذلك الوقت لم أكن أسمع أخبارًا عن إيمانويلسون؛ يبدو أن لديه موهبة إيقاع نفسه في مشاكل، وأيضًا موهبة أخرى تجعله يبدو مختلفًا، في ذوقه وأفكاره عن متع الحياة، عما اعتاد عليه الجميع. ولهذا لم يكن محبوبًا بين الإسكندنافيين في البلاد. وفي ظهيرة أحد الأيام، ظهر على نحو مفاجئ في المزرعة، وهو يبدو عليه الضيق والرعب الشديدان، وطلب مني أن أقرضه مالاً حتى يتمكن من الذهاب إلى تنجانيقا في الحال، وإلا فإنه، كما يعتقد، سيكون مصيره السجن. يبدو أن مساعدتي جاءت متأخرة، أو أنه قد أنفق المال على أشياء أخرى، لأنني بعد فترة وجيزة علمت أنه قد ألقي القبض عليه في نيروبي، لم يودع في السجن، ولكنه اختفى من أفقي لوقت ما.

في إحدى الأمسيات عدت للمنزل وأنا أقود حصاني في وقت متأخر جدًا لدرجة أن النجوم كانت ساطعة بالفعل، حينما لمحت رجلاً ينتظر خارج منزلي على الأحجار. كان إيمانويلسون، وأعلن عن نفسه بصوت ودي: "ها قد جاء

الشحاذ، أيتها البارونة". سألته: كيف تمكن من المجيء إلى منزلي؟ أخبرني أنه قد ضل طريقه ولذا فقد آل به الحال إلى منزلي. طريقه إلى أين؟ إلى تنجانيقا.

من الصعب تصديق هذا الأمر، فطريق تنجانيقا كان الطريق السريع الكبير ومن السهل العثور عليه، كما أن الطريق لمزرعتي يتفرع منه. كيف سيمكنه العثور على تنجانيقا؟ سألته. قال إنه يعتزم السير. أجبته بأن هذا أمر عسير بالنسبة لأي شخص: إن هذا يعني السير لثلاثة أيام خلال محمية الماساي بدون ماء، كما أن الأسود تشكل خطرًا هناك في هذا الوقت بالذات. في ذلك اليوم ذاته كان الماساي يشتكون من الأسود، وطلبوا مني أن أذهب لإطلاق النار على أحدها.

أجل، أجل، إيمانويلسون يعلم كل ذلك، ولكنه كان سيسير إلى تنجانيقا على أية حال. كان يتساءل، الآن بعد أن ضل طريقه، إن كنت سأقبل أن يتناول العشاء معي وأن ينام في المزرعة لكي يبدأ السير في الصباح الباكر. إن لم يكن ذلك مناسبًا لي فإنه سيرحل في الحال بينما النجوم تومض بشدة في السماء.

ظللت جالسة على حصاني بينما كنت أتحدث معه، لكي أؤكد له أنه ليس بضيف في المنزل؛ لأنني لم أكن أريده أن يتناول العشاء معي.

ولكنه بينما كان يتحدث، رأيت أنه لم يتوقع دعوتي أيضًا. لم يكن يثق في حسن ضيافتي ولا في قدرته على إقناعي، كان يبدو كشكل منعزل وحيد في الظلام خارج منزلي، رجلاً بلا صديق. كان يتظاهر بأسلوبه الودود، لا لكي يعفي نفسه من الخجل، ولكن لحفظ كرامتي أنا؛ فلو أنني الآن صرفته، فلَن يكون الأمر غير لائق، ولكنه أمر لا بأس به. لقد كان ذلك تحضرًا يناسب حيوانًا مطاردًا– ناديت رجل الإسطبل خاصتي لكي يأخذ المهر، وترجلت عنه– قلت له: "تفضل بالدخول يا إيمانويلسون يمكنك أن تتناول العشاء هنا وأن تبيت هذه الليلة".

في ضوء المصباح بدا إيمانويلسون كمشهد حزين. كان يرتدي معطفًا أسود طويلاً لا يرتديه أحد في أفريقيا، ولم يكن حليق الذقن، ولم يقص شعره أيضًا، وكان حذاؤه القديم مشقوقًا عند أطراف أصابعه. لم يكن يحمل معه أي متاع إلى تنجانيقا، وكانت يداه فارغتين. يبدو أنني سألعب دور القديس الأكبر الذي يقدم الماعز حية إلى الإله، ثم يرسله إلى البرية. فكرت أننا هنا نحتاج إلى الخمر. لقد أرسل لي بيركلي كول، وكان دومًا ما يوافيني بمخزون من الخمور، بصندوق من نبيذ البورجندي النادر، وطلبت الآن من جوما أن يفتح لي زجاجة منه. حينما جلسنا إلى مائدة العشاء، وملأ إيمانويلسون كأسه من النبيذ، شرب نصفه على الفور، ووضعه أمام المصباح، ونظر إليه لوقت طويل مثل شخص ينصت باهتمام للموسيقى. قال "فاميو[١٠]، فاميو؛ هذا نوع شامبيرتين ١٩٠٦". لقد كان كذلك بالفعل، وجعلني ذلك أكن احترامًا لإيمانويلسون.

فيما عدا ذلك، لم يقل الكثير مبدئيًا، ولم يكن لدي ما أقوله له. سألته كيف جرت الأمور بحيث إنه لا يستطيع أن يجد عملاً على الإطلاق؟.

وأجابني أنه لا يعرف شيئًا عما ينشغل الناس به هنا. لقد طرد من الفندق؛ بالإضافة إلى ذلك لم يكن في الحقيقة يمتهن وظيفة مدير غرفة الطعام.

"هل تعلم أي شيء عن حفظ الكتب؟" سألته.

"لا ، لا أعرف شيئًا على الإطلاق"، أجابني. "طالما وجدت من الصعب أن أرتب شيئين معًا".

"ألا تعرف شيئًا عن الماشية مطلقًا؟" سألته مرة أخرى. "الأبقار؟" سألني، "لا، لا، إنني أخاف من الأبقار".

"هل بإمكانك أن تقود جرارًا، إذن؟". وهنا ظهر شعاع باهت من الأمل على وجهه. قال، "لا، ولكنني أعتقد أنه بإمكاني تعلم ذلك".

قلت له: "ليس على جراري بالطبع، ولكن أخبرني يا إيمانويلسون، ما الذي كنت تمتهنه طوال السنوات الماضية؟ ماذا تفعل في هذه الحياة؟".

اعتدل إيمانويلسون في جلسته، "ماذا أكون؟" صاح متعجبًا. "أنا ممثل".

فكرت بأنه، شكرًا لله، لن يكون بإمكاني أن أمد يد العون لهذا الرجل التائه بأي وسيلة؛ لقد حان الوقت لحديث إنساني عام إذن.

قلت له "أنت ممثل؟". "إن هذا أمر لطيف حقًا. وما هي أفضل أدوارك حينما كنت تقف على خشبة المسرح؟".

"أوه، إنني ممثل درامي" قال إيمانويلسون. "أفضل أدواري هو دور أرماند في غادة الكاميليا ودور أوزوالد في الأشباح".

تحدثنا لبعض الوقت عن تلك المسرحيات، عن الممثلين المختلفين الذين أدوا تلك الأدوار وعن الطريقة التي كان ينبغي أن تؤدى بها كما نعتقد. أدار إيمانويلسون نظره في الغرفة. "أليس لديك هنا، على الإطلاق، أية مسرحيات لهنريك إبسن؟ يمكننا أن نـــؤدي المشهد الأخير من الأشباح معًا، إن لم تمانعي في أداء دور السيدة إلفنج".

لم يكن لدى مسرحيات إبسن.

قال إيمانويلسون وقد تحمس لخطته، "ولكن ربما ستتذكرينه". "أنا شخصيًا أعرف دور أوزوالد عن ظهر قلب من بدايته لنهايته. ذلك المشهد الأخير هو الأفضل. ليس له مثيل من ناحية التأثير الدرامي، كما تعلمين".

كانت النجوم ساطعة بالخارج وكانت ليلة دافئة جميلة، لم يكن ليمضي وقت طويل حتى تأتي الأمطار الغزيرة. سألت إيمانويلسون إن كان يعني حقيقة الذهاب لتنجانيقا سيرًا على قدميه.

"أجل" أجابني، "سأذهب الآن حتى أكون محرضًا لنفسي". قلت له "حسنًا أنت لست متزوجًا، هذا أمر جيد". "أجل" أجابني، "أجل"، وبعد برهة قليلة أضاف قائلاً بتواضع "إنني متزوج، على الرغم من ذلك".

طـــوال حـــديثنا، كـــان إيمانويلســـون يشكو من حقيقة أن الرجل الأبيض لا يستطيع في هذا المكان أن ينأى عن المنافسة من جانب المحليين، الذين كانوا يعملون بأجر أقل كثيرًا. "يمكنني أن أحصل الآن في باريس دومًا على عمل لوقت قصير كنادل في بعض الكافيهات،" قال لي.

"لم لا تريد البقاء في باريس يا إيمانويلسون؟" سألته.

رمقني بنظرة سريعة صافية. "باريس؟" قال، "لا، لا، لا يمكنني. لقد خرجت من باريس في اللحظة الأخيرة، قبل فوات الأوان".

كان لإيمانويلسون صديق واحد في العالم كان يعود إليه ليلاً في كثير من الأوقات. لو يستطيع فقط الاتصال به مرة أخرى، سيختلف كل شيء؛ لأنه كان ناجحًا وكريمًا جدًا. كان ذلك الرجل يعمل ساحرًا ويسافر حول العالم. كان في سان فرانسسكو، في المرة الأخيرة التي وصل فيها لإيمانويلسون أخبار عنه.

ومن وقت لآخر، كنا نتحدث في الأدب والمسرح، ثم نعاود التطرق إلى مستقبل إيمانويلسون. أخبرني كيف خذله أبناء بلاده واحدًا تلو الآخر هنا في أفريقيا.

"إنك في موقف عسير، يا إيمانويلسون" قلت له، "لا يمكنني أن أفكر في شخص أكثر ضنكًا منك".

قال "لا، أعتقد ذلك أنا أيضًا. ولكن هناك أمرًا فكرت فيه مؤخرًا ربما لم تفكري فيه: إن هناك شخصًا ما ينبغي أن يكون في وضع أسوأ من الناس جميعًا".

بعد أن أنهى زجاجته ودفع بكأسه بعيدًا قليلاً عنه. قال: "هذه الرحلة، نوع من المقامرة بالنسبة لي، *الأحمر والأسود*، لدي فرصة لكي أهرب من أشياء بعينها، قد أهرب من كل شيء أيضًا. ومن الناحية الأخرى، لو تمكنت من الوصول لتنجانيقا، فقد يمكنني الوصول إلى بعض الأشياء".

"أعتقد أنك ستصل إلى تنجانيقا" قلت له، "قد يتسنى لك الترحال مع أحد سائقي الشاحنات الهندية المسافرة على الطريق".

قال إيمانويلسون "أجل، ولكن هناك أسود، ورجال الماساي أيضًا".

"هل تؤمن بالرب يا إيمانويلسون؟" سألته.

"أجل، أجل، أجل"، قال إيمانويلسون. جلس صامتًا لبرهة. "ربما ستظنين أنني متشكك بشع لو قلت الآن ما كنت أنوي قوله. ولكن باستثناء الرب، لا أؤمن بأي شيء آخر أيًا كان".

قلت: "انظر يا إيمانويلسون، هل لديك أي أموال الآن؟".

أجابني: "أجل لدي. ثمانون سنتًا".

"هذا لا يكفي"، وأنا حقيقة لا أمتلك مالاً بالمنزل. ولكن، ربما يكون لدى فرح بعض المال". كان لدى فرح أربع روبيات.

في الصباح التالي، قبل شروق الشمس بقليل، أخبرت صبية منزلي بأن يذهبوا لإيقاظ إيمانويلسون وأن يعدوا لنا الطعام. فكرت، أثناء الليل أنه من الأفضل أن أصطحبه في سيارتي للأميال العشرة الأولى. لم يكن ذلك ليمثل أمرًا ذا قيمة لإيمانويلسون؛ لأن عليه على أية حال أن يقطع ثمانين ميلاً سيرًا على قدميه، ولكنني لم أود رؤيته وهو يبدأ سيره من أمام باب منزلي إلى قدره الغامض، إضافة إلـــى ذلك، رغبت أن أكـــون، أنـــا نفسي، في مكان ما في إطار قصته الكوميدية أو التراجيدية. صنعت له حزمة من الساندوتشات والبيض المسلوق ومعها زجاجة من الشامبيرتين ١٩٠٦، حيث إنها حازت على تقديره. فكرت أن هذا ربما يكون المشروب الأخير الذي سيشربه في حياته.

بدا إيمانويلسون في مطلع الفجر مثل إحدى تلك الجثث الخالدة التي تنمو لحاها بسرعة في التراب، ولكنه جاء متقدمًا من مقبرته عن طيب خاطر، وكان وديعًا مسالمًا ومتوازنًا جدًا ونحن ننطلق بالسيارة. حينما وصلنا للجانب الآخر من نهر ماباجاتي، جعلته ينزل من السيارة. كان هواء الصباح نقيًا ولم تكن هناك سحابة واحدة في السماء. كان متجهًا صوب الجنوب الغربي. وأنا أنظر إلى الأفق قبالتي، كانت الشمس قد بدأت تسطع للتو، حمراء قاتمة: مثل البيض المسلوق الذي أعددته له. فكرت. بعد ثلاث أو أربع ساعات ستكون شديدة السخونة وضارية على رأس المرتحل.

"وداعًا"، قال إيمانويلسون؛ وبدأ يسير، ثم عاد وقال وداعًا مرة أخرى. جلست في السيارة أراقبه، وأعتقد أنه كان يشعر بالسرور لشعوره أن هناك ثمة من يراقبه. أعتقد أن الغريزة الدرامية بداخله قوية للغاية لدرجة أنه كان في تلك اللحظة واعيًا بشكل شديد الوضوح، بأنه سيترك خشبة المسرح، بأنه سيختفي، وكأنه، يرى نفسه، بعيون جمهوره، وقد رحل تمامًا عن المشهد. خرج إيمانويل. ألا ينبغي على

التلال، الأشجار الشوكية، والطريق المترب أن تتسم بالشفقة، وأن تتخذ مظهر الورق المقوى لمدة ثانية على الأقل؟.

في نسيم الصباح، كان معطفه الأسود الطويل يخفق حول ساقيه، بينما يبرز عنق الزجاجة من إحدى جيبيه. شعرت بأن قلبي مليء بالحب والامتنان الذي يشعر به الناس الماكثون في بيوتهم إزاء عابري السبيل والمرتحلين عبر العالم، البحارة، والمكتشفين، والشحاذين. وهو يصعد لأعلى التل، استدار، ونزع قبعته، وأشار بها نحوي؛ شعره الطويل كان مبعثرًا على جبهته.

سألني فرح، الذي كان برفقتي في السيارة: "إلى أين يذهب البوانا؟" لقد أطلق فرح اسم بوانا على إيمانويلسون لتقديره بسبب مبيته في المنزل.

قلت: "إلى تنجانيقا".

سألني: "سيرًا على قدميه؟".

قلت: "أجل".

قال فرح "كان الله معه".

فكرت كثيرًا في إيمانويلسون طوال اليوم، وخرجت من المنزل لأنظر باتجاه طريق تنجانيقا. في حوالي الساعة العاشرة ليلاً سمعت زئير أسد من على بعد، من ناحية الجنوب الغربي؛ وبعد مضي نصف ساعة سمعت صوته مرة أخرى. تساءلت: هل تراه يقبع الآن على معطف أسود طويل؟ خلال الأسبوع التالي حاولت أن أحصل على أي أنباء عن إيمانويلسون، وأخبرت فرحًا أن يستعلم من معارفه الهنود من سائقي الشاحنات إن كانت أية شاحنة قد مرت به أو صادفته على الطريق. ولكن لم يعرف أحد عنه أي شيء.

بعد ستة أشهر، استلمت رسالة مسجلة من دودوما، ولم أكن أعرف ثمة أحد من تلك البلدة. كان أمرًا مثيرًا للدهشة. لقد كانت الرسالة من إيمانويلسون. احتوت الرسالة خمسين روبية كنت قد أقرضته إياها في البداية حينما كان يحاول الخروج من البلاد، وروبيات فرح الأربع. بخلاف هذا المبلغ- وهو آخر ما توقعت أن أستعيده في العالم كله- أرسل لي إيمانويلسون رسالة طويلة، مؤثرة وساحرة. لقد حصل على وظيفة كساقٍ في حانة في دودوما، بغض النظر عن نوع البارات التي لديهم هناك، وأن الأمور تسير على ما يرام. يبدو أن لديه موهبة الامتنان: لقد تذكر كل ما حدث في تلك الليلة التي قضاها في المزرعة، وكرر مرارًا قوله إنه قد شعر حقيقة أنه بين أصدقاء. في تلك الليلة أخبرني بشكل مفصل عن رحلته إلى تنجانيقا. كان لديه الكثير ليقوله عن الماساي. لقد وجدوه في الطريق، وأخذوه معهم، وتعاملوا معه بفيض من الطيبة والكرم وجعلوه يرتحل معهم لمعظم الطريق، بطرق متعددة. لقد حكى لهم كثيرًا، كما أخبرني، عن مغامراته في بلاد كثيرة، لدرجة أنهم لم يكونوا يريدون أن يتركوه ليرحل. لم يكن إيمانويلسون يعرف أية لغة من لغات الماساي، ولكي يزداد الأمر مأساوية، كان عليه أن يعود إلى التمثيل بالإشارات.

كان أمرًا مناسبًا، كما أعتقد، أن يجد إيمانويلسون ملاذًا مع الماساي، وأن يرحبوا باستضافته. الأرستقراطية الحقيقية والبروليتارية الحقيقية في العالم يتفهمان جيدًا التراجيديا. بالنسبة لهم، هي المبدأ الأساسي للرب، والسر- السر الأصغر- للوجود. إنهم يختلفون بهذه الطريقة عن بورجوازية كل الطبقات، الذين ينكرون الدراما، الذين لن يتسامحوا معها، والذين تعني كلمة تراجيديا بالنسبة لهم معنى واحدًا هو البؤس. هناك أوجه عديدة لسوء الفهم بين المستعمرين المهاجرين البيض الذين ينتمون للطبقة المتوسطة وبين السكان الأصليين وكلها تنبع من هذه الحقيقة. يمثل رجال الماساي ذوو الوجوه العابسة الأرستقراطية والبروليتارية معًا، لقد

لاحظوا على الفور في هذا المرتحل وفي ملابسه السوداء، شكلاً من أشكال التراجيديا؛ وهذا الممثل التراجيدي، تمكن في صحبتهم، من أن يلج إلى نفسه.

زيارات الأصدقاء

كانت زيارات أصدقائي في المزرعة مناسبات سعيدة في حياتي، وكان كل من في المزرعة على علم بذلك.

حينما أوشكت إحدى رحلات السفاري الطويلة التي كان يقوم بها دينيس فينش هاتون على الانتهاء، وجدت شابًا من الماساي ذات صباح واقفًا على ساق نحيفة طويلة واحدة أمام منزلي. صاح الشاب معلنًا: "بيدار في طريقه للعودة". "سيكون هنا خلال يومين أو ثلاثة".

في فترة ما بعد الظهيرة جاء أحد رعاة الأغنام من ضواحي المزرعة وجلس القرفصاء، وانتظر في المساحة الخضراء خارج منزلي، لكي يخبرني، حينما أخرج: "هناك سرب من الدجاج السوداني يحط هناك عند منعطف النهر. إن أردت اصطيادها من أجل بيدار حينما يأتي، سآتي معك عند الغروب حتى أدلك على مكانها".

احتفظت المزرعة بسحرها للمرتحلين العظام من أصدقائي، كما أعتقد، بفضل حقيقة أنها كانت لا تتغير وأنها تبقى كما هي كلما جاءوا إليها. لقد ارتحلوا إلى بلاد عديدة، وأقاموا وفكوا خيامهم في أماكن عديدة، الآن هم يشعرون بالسعادة حينما يدورون حول ممشى السيارات خاصتي الثابت مثل فلك نجمة. كانوا يحبون أن يلتقوا بوجوه مألوفة، وكان لديّ الخدم ذاتهم طوال مدة بقائي في أفريقيا. لقد مكثت سنوات في المزرعة. مشتاقة لأن أرحل بعيدًا، وكانوا هم يعودون إليها في اشتياق للكتب والملاءات اللينوه، والجو اللطيف في غرفة كبيرة مغلقة النوافذ؛

بجوار النار الملاصقة لمعسكرهم كانوا يجلسون للتأمل في مباهج حياة المزرعة، وحينما يصلون، كانوا يسألونني بشغف: "هل علمت الطاهي خاصتك كيف يصنع أومليت على طريقة القناص[١١]؟، هل وصلت إسطوانات الجرامافون من بيتروشكا في الطرد الأخير؟ كانوا يجيئون ويمكثون في البيت أيضًا حينما أكون غائبة، وقد اعتاد دينيس المجيء حينما أكون في زيارة لأوروبا. "إنها خلوتي مع الغابات" هكذا كان يسميها بيركلي كول.

عوضا عن بضائع المدنية، كان أصدقائى عابرو السبيل يجلبون لي من رحلات الصيد التي يقومون بها غنائم لا زلت أحتفظ بها كتذكار: جلود الفهد والنمر، التي يصنع منها الفراء في باريس، جلود الثعابين والسحالي، من أجل الأحذية وريش المربوط[١٢] من أجل إسعادهم، كنت أجرب، وهم غائبون في رحلات الصيد، الوصفات الغريبة من كتب الطهي القديمة، وأزرع الأزهار الأوروبية في حديقتي.

في إحدى المرات، حينما كنت في بلادي، منحتني سيدة عجوز في الدنيمارك اثنتي عشرة بصلة من أبصال زهرة عود الصليب الجميلة التي أحضرتها معي ببعض المشقة إلى البلاد، حيث إن نظم الاستيراد الخاصة بالنباتات كانت مشددة. عندما زرعتها، أنبتت، في الحال تقريبًا، عددًا كبيرًا من زهور الكرموازين الصغيرة المقوسة الداكنة، وبعد ذلك أينعت أوراقًا كثيرة رقيقة، وبراعم مستديرة. الزهرة الأولى التي تفتحت كانت تسمى دوتش دي نيمور[١٣]: كانت زهرة عود صليب كبيرة بيضاء، سامية وثرية، كان ينبعث منها بغزارة عطر حلو طازج. حينما قطعتها ووضعتها في الماء في غرفة الجلوس خاصتي، كان كل من يدخل الغرفة من أصدقائي البيض يتوقف ويبدي ملاحظته عليها. آه إنها زهرة عود الصليب! ولكن بعد ذلك، ذبلت كل براعم نباتاتي الأخرى وسقطت، ولم أحصل أبدًا سوى على تلك الزهرة.

· بعد ذلك بسنوات تحدثت مع البستاني البريطاني المسئول عن حديقة الليدي ماكميلان، في مقاطعة كيرومو، وسألته عن زهرة عود الصليب. قال لي "لم نفلح في زراعة زهور عود الصليب في أفريقيا، ولن نفعل ذلك ثانية حتى نفلح في الحصول على أبصال الزهرة هنا ونحصل على البذور من تلك الزهرة. بهذه الطريقة جلبنا زهور الديلفينيوم إلى المستعمرة". بهذه الطريقة قد أستطيع إدخال عود الصليب في البلاد وأجعل اسمي خالدًا مثل دوتشيس دي نيمور نفسها؛ لقد أفسدت مجد المستقبل بقطف زهرتي الفريدة ووضعها في الماء. كنت غالبًا ما أحلم بأنني أرى عود الصليب ينمو وقد انشرح صدري لأنني في نهاية الأمر لم أقطعها.

كان الأصدقاء يأتون من المزارع الأخرى في أعلى البلاد، ومن المدينة. جاءني هيو مارتن من لاند أوفيس، ليرفه عني، كان ضليعًا في الأدب العالمي النادر، وقد أمضى حياته بسلام في الخدمة المدنية في الشرق، وهناك، وبين أشياء أخرى، قد نمّى مقدرة طبيعية على أن يبدو مثل صنم صيني ضخم، سمين. كان يطلق عليّ اسم كانديد(١٤)، وكان هو نفسه الطبيب بانجلوس(١٥) الشغوف في المزرعة، حيث كان غارقًا بشدة وبهدوء في قناعته الخاصة باحتقار وازدراء الطبيعة البشرية والكون، وكان راضيًا بإيمانه، فلم لا ينبغي أن يكون الأمر كذلك؟ كان نادرًا ما يقوم من كرسيه الكبير الذي تصادف أن جلس فيه ذات مرة. كان يضع زجاجته وكأسه أمامه، ووجهه اللطيف المضيء يتألق بأفكار، مثل النمو الفسفوري السريع الفانتازي للمخ والأفكار، بينما كان يتأمل نظريات الحياة، رجل سمين في حالة من السلام مع العالم، ولكنه يستريح قليلاً مع الشيطان، يبدو نقي القلب بالمقارنة بأتباع المسيح الذين كان لهم خطايا من قبل. في إحدى الأمسيات، هبط فجأة على البيت جوستاف مور الشاب النرويجي، ذو الأنف الكبير قادمًا من المزرعة التي يديرها في الناحية الأخرى من نيروبي. كان مزارعًا صاعدًا، وقد

ساعدني في العمل في المزرعة قولاً وفعلاً، أكثر من أي رجل في البلاد- بسماحة ونشاط، وكأن المزارع أو الإسكندنافيين يمكنهم أن يستعبد بعضهم بعضًا.

لقد قذف بنفسه إلى المزرعة الآن بذهنه المتوقد، مثل حجر قذف به بركان. كان يستشيط غضبًا، وقد مل الحياة ، كما قال لي، في بلاد تتوقع من الإنسان أن يظل يقتات بأحاديث عن الأبقار والسيزال[١٦]؛ لم يعد يستطيع تحمل العيش هناك بعدما أصيبت روحه بالسأم. لقد بدأ حديثه في اللحظة التي دخل فيها الغرفة، وأخذ يثرثر إلى ما بعد منتصف الليل، ألقى خطابًا طويلاً ومملاً عن الحب، والشيوعية، والدعارة، وهامسون[١٧]، والكتاب المقدس، باعثًا في رئتيه طوال الوقت بسموم لنوع رديء من الدخان. لم يتناول سوى القليل من الطعـــام، ولـــم يكـــن ينصت، لو حاولت أن أفهم كلمة، كان يصرخ، ويتوهج وجهه كالجمر بالنار المشتعلة في صدره، وينطح رأسه الهائجة الخفيفة في الهواء. كان لديه الكثير لكي يخلص نفسه منه، وكان يولد المزيد من الكلام وهو يتحدث. على نحو مفاجئ، وفي الثانية بعد منتصف الليل، لم يكن لديه المزيد ليقوله. ولذا فقد جلس مسالمًا لوقت قصير، بنظرة متواضعة على وجهه، مثل مريض يمر بفترة نقاهة في حديقة المستشفى، نهض، وخرج بسرعة رهيبة، وقد استعد الآن للبقاء على قيد الحياة مرة أخرى، لفترة ما، متحدثًا عن الثيران والسيزال.

كانت إنجزيد لينستورم تأتي للمكوث في المزرعة حينما تتمكن من الإفلات ليوم أو اثنين من مزرعتها الخاصة، ديوكها الرومية وشراء مستلزمات الحديقة في نيجورو. كانت إنجريد ذات بشرة شقراء جميلة تماثل جمال عقلها، كانت ابنة وزوجة لضابطين سويديين. جاءت هي وزوجها وأطفالهما إلى أفريقيا في مغامرة ممتعة، نزهة، لكي يصنعا ثروة بسرعة، وقاما بشراء أرض مزروعة بنبات الكتان، ففي ذلك الوقت كان طن الكتان يقدر بخمسمائة جنيه إسترليني، وحينما

حدث بعد ذلك بفترة وجيزة أن انخفض سعر الطن إلى ٤٠ إسترلينيًا، وأصبحت الأرض المزروعة كتانًا والآلات الخاصة بغزل الكتان بلا قيمة، وضعت كل قوتها لإنقاذ المزرعة من أجل أسرتها، وخططت لإقامة مزرعة دواجن ومزرعة صغيرة في حديقتها لزراعة الخضروات والفاكهة التي يمكن أن تبيعها، وكانت تعمل كالعبيد. خلال هذا النضال وقعت بشدة في حب المزرعة، بأبقارها وخنازيرها، بسكانها المحليين وخضراواتها، بترابها الأفريقي، بمشاعر جارفة يائسة، حتى أنها كان يمكن أن تتخيل أن تبيع زوجها وأطفالها للإبقاء على المزرعة. كنا خلال سنوات الكساد ننتحب على كتفي بعضنا الآخر لمجرد تفكيرنا أننا نخسر الأرض خاصتنا. حينما كانت تأتي إنجريد للبقاء معي كنا نقضي وقتًا رائعًا؛ لأنها كانت تتمتع بكل البشاشة وكل العبقرية التي تتمتع بها الفلاحة السويدية القديمة. على وجهها الذي ترك الطقس الحار آثاره عليه، وعلى فمها ذي الأسنان البيضاء القوية، كانت ترتسم ضحكة الفتيات الأسطوريات اللاتي كن يخترن من ينبغي أن يلقى مصرعه من أبطال المعارك. لهذا السبب يحب العالم السويديين؛ لأنهم في خضم مخاوفهم يمكنهم أن يحولوا مأساتهم إلى أمر مفرح ويتحولوا إلى كائنات فرحة، ويمضوا في تألقهم لوقت طويل.

كان لإنجريد طاهٍ عجوز من الكيكويو وصبي يرعى شئون المنزل اسمه كيموسو، كان يقوم بالكثير من المهام معها، ويرعى كل ما تقوم به وكأنه أمر يخصه. كان يعمل كعبد لها في الحديقة وساحة الدواجن، وعمل أيضًا كمربية لبناتها الثلاث الصغيرات، مرتحلاً معهم من وإلى مدارسهن الداخلية. حينما ذهبت لزيارتها في مزرعتها في نجورو، أخبرتني بأن كيموسا كان قد فقد توازنه العقلي، وقدرته على التحكم في كل شيء آخر، وأنه كان منهمكًا في إعداد المنزل وتهيئته بأفضل شكل ممكن لاستقبالي، كان يجهز الديوك الرومية، حيث كان متأثرًا بشدة بما يبديه فرح من كرم عظيم. قالت إنجريد إنه يعتبر تعارفه مع فرح شرفًا عظيمًا له.

جاءت السيدة داريل تومبسون من نجورو، التي أكاد أعرفها، لزيارتي حينما أخبرها الأطباء بأنها كان لديها فقط بضعة أشهر قبل أن تفارق الحياة. قالت إنها قد ابتاعت منذ فترة قصيرة حصانًا في أيرلندا، من تلك الخيول التي تحصد الجوائز في الوثب، حيث إن الخيول كانت بالنسبة لها، في الموت والحياة، القمة والمجد في الوجود، وإنها الآن، بعدما تحدثت مع الأطباء، عمدت أولاً أن ترسل برقية لبلادها لكي تلغي مجيئه، ولكنها فيما بعد عزمت على أن تتركه لي حينما تموت. لم أفكر كثيرًا في الأمر، حتى ظهر الحصان المدعو بور- بوكس بعد وفاتها بستة أشهر في نجونج. حينما جاء بور- بوكس للعيش معنا، أثبت أنه أكثر الحيوانات ذكاءً في المزرعة، لم يكن من الخيول التي تحب النظر إليها، فقد كان ضئيل الحجم كما أنه تجاوز شبابه بسنوات طويلة. اعتاد دينيس فينش هاتون أن يمتطيه، ولكنني لم أهتم أبدًا بأن أفعل ذلك. ولكن بسياسة صرفة وبحذر، ولأنني أعرف تمامًا ماذا يريد أن يفعل، فاز بوربوكس من بين الخيول الأخرى الشابة المتوهجة الحماسية التي جلبها أثرياء المستعمرة لهذه المناسبة، بمسابقة الوثب في كابيتي، التي عقدت تكريمًا لأمير ويلز. بسحنته الهادئة المعتادة غير المفتعلة. جلب لنا بوكس ميدالية فضية كبيرة، وبعد أسبوع من القلق الشديد، أثار موجات متوهجة من النشوة والانتصار بين صبية منزلي وفي المزرعة كلها. بعد ستة أشهر مات بسبب مرض يصيب الخيول، ودفن خارج الإسطبل الخاص به تحت أشجار الليمون، حزنا عليه كثيرًا؛ ظل اسمه يتردد في المكان بعد وقت طويل من رحيله.

اعتاد السيد بالبيت العجوز، الذي أطلق النادي عليه لقب العم تشارلز، أن يجيء لتناول العشاء معي. كان صديقًا عظيمًا لي، وكان يبدو لي مثاليًا جدًا، رجل بريطاني كريم الأخلاق من العصر الفكتوري. لقد سبح في مياه هيلزبونت[١٨] وتسلق ماتيرهورن[١٩]! وكان في مطلع شبابه، في الثمانينات ربما، عاشقًا لأمتيرو الجميلة. سمعت أنها قد دمرته تمامًا ثم تركته يمضي. بدا الأمر لي وكأنني أجالس

آرماند دوفال أو الفارس دي جريو ذاتهما. كان لديه صور كثيرة جميلة لأوتيرو، وكان يحب الحديث عنها.

في إحدى الليالي، ونحن نتناول طعام العشاء في نجونج، قلت له: "أرى أن مذكرات أوتيرو الجميلة قد نشرت. هل هناك إشارة إليك؟".

قال: "أجل، هناك إشارة عني. تحت اسم آخر، ولكنني هناك على أية حال".

سألته: "ماذا كتبت عنك؟".

"كتبت أنني كنت شابًا أنفق مائة ألف من أجلها في ستة أشهر، إلا أنه كان لي قيمة كاملة بسبب أموالي".

قلت ضاحكة: "وهل تعتبر أن قيمتك بالفعل كانت كاملة؟".

فكر في سؤالي مليًا لحظة قصيرة جدًا. قال لي: "أجل، أجل لقد كنت كذلك".

ذهبنا أنا والسيد دينيس فينش هاتون مع السيد بولبيت في نزهة لقمة مرتفعات نجونج في عيد ميلاده السابع والسبعين. حينما جلسنا هناك في ذلك المكان المرتفع، بدأنا نقاشًا حول إمكانية أن يكون لنا أجنحة حقيقية، لا تتوقف أبدًا، هل كنا سنقبل هذا العرض أم نرفضه؟

جلس السيد بولبيت العجوز وأخذ ينظر إلى الأراضي الشاسعة من تحتنا، أرض نجونج الخضراء، والوادي الانكساري الخسيف، من ناحية الغرب، وكأنه يستعد للطيران في أي لحظة. قال: "كنت سأقبل، كنت سأقبل بالتأكيد. لم أكن لأرغب في شيء أفضل من ذلك". وبعد وقت قصير من التفكير أضاف: "ينبغي، على الرغم من ذلك، أن أفكر في الأمر مليًا، لو أنني كنت سيدة".

الرائد النبيل

بقدر ما يتعلق الأمر ببيركلي كول ودينيس فينش هاتون، كان بيتي بمثابة مدينة شيوعية. كان كل شيء فيه يخصهما، وكانا يفخران بذلك، ويجلبان للمنزل الأشياء التي تنقصه. لقد حافظا على بقاء البيت في مستوى عال فيما يتعلق بالخمور والتبغ، وكانا يجلبان الكتب وإسطوانات الجراموفون من أوروبا خصيصًا لي. وصل بيركلي وسيارته محملة ببيض الديوك الرومي والبرتقال من مزرعته الخاصة في ماونت كينيا. كان لديهما هما الاثنان طموحًا أن أكون مُحكمة في شأن الخمور، حيث إنهما أنفقا الكثير من الوقت في التفكير في هذا الأمر.

في وقت بقائه في المزرعة، كان بيركلي معتادًا أن يشرب زجاجة من الشامبانيا في الغابة كل يوم في الحادية عشرة صباحًا. في إحدى المرات، وبينما هو يستعد للرحيل، وكان يشكرني لاستضافتي له في المزرعة، أضاف أنه كان هناك أمر واحد يفسد الصورة، لقد كنت تمنحيننا أكوابًا خشنة ورديئة لاحتساء الخمر تحت الأشجار. قلت له: "أعلم ذلك، يا بيركلي، لكن، لم يتبق لي سوى القليل من الأكواب الجيدة، وسيكسرها الصبية وهم يسيرون بها لمثل تلك المسافة البعيدة". نظر إليّ بحدة، ويدي في يده، ثم قال لي: "ولكن يا عزيزتي، كان الأمر محزنًا جدًا". ولهذا، ففي وقت لاحق كان يحظى بأفضل أكوابي، وكانت تجلب إليه خصيصًا في الغابة.

كان هناك أمر غريب يتعلق ببيركلي ودينيس- حيث شعر أصدقاؤهما في إنجلترا بالأسف العميق حينما هاجرا، كما حظيا بمحبة وإعجاب كل من في

المستعمرة- إنهما بشكل مساو، كانا منبوذين. لم يكن المجتمع هو ما لفظهما بهذا الشكل، ولا أي مكان في العالم أيضًا، ولكن الزمن كان هو ما فعل بهما ذلك، لم يكونا ينتميان للقرن الذي عاشا فيه أبدًا. لم يكونا أبدًا نتاجًا لأمة أخرى سوى الأمة البريطانية، ولكنهما كانا مثالين للرجعية، وكانا ينتميان لصورة قديمة من بريطانيا، لعالم لم يعد موجودًا. في الوقت الحالي لم يكن لهما منزل، وكان عليهما الترحال من هنا إلى هناك، وبمرور الزمن كانا أيضًا يجيئان للمزرعة. لم يكونا واعيين بهذا الأمر. على العكس، كان لديهما شعور بالذنب حيال وجودهما في إنجلترا التي تركاها، وكأن الأمر، فقط لأنهما شعرا بالملل منها، لقد هربا من واجب كان أصدقاؤهما يتوقعان منهما إنجازه. حينما أراد دينيس أن يتحدث عن أيام شبابه- على الرغم من أنه كان لا يزال صغيرًا- وعن الاحتمالات التي تخبئها الأيام القادمة، والنصيحة التي أسداها له الأصدقاء في إنجلترا، اقتبس بيتًا شعريًا لجاك شيكسبير:

"إن حدث وسارت الأمور هكذا

أن يتحول رجل إلى شيء تافه

ويترك ثروته وراحته

سيرضى بذلك أي شخص عنيد......"

ولكنه كان مخطئًا في رؤيته لنفسه، وكذلك كان بيركلي، وربما أيضًا كان جاك. كانا يعتقدان أنهما هاربان، وينبغي عليهما في وقت ما أن يدفعا ثمن سلوكهما العنيد، ولكنهما في الحقيقة كانا منفيين، تحملا نفيهما بروح طيبة.

لو كان لبيركلي، أن يجعل من رأسه باروكة شعر مموج طويل، لكان من السهولة بمكان أن يدخل ويخرج مع حاشية الملك تشارلز الثاني. كان بإمكانه أن

يجلس، هذا الشاب البريطاني سريع البديهة، عند قدمي دارتجنان[٢٠] العجوز، وأن يجعل من دارتجنان بطلاً بعد عشرين عامًا[٢١] يسمع حكمته ويحتفظ بكلماته في قلبه. شعرت أن قانون الجاذبية لا ينطبق على بيركلي، ولكنه يمكن في أي لحظة، ونحن نتحدث ليلاً بجوار المدفأة، أن ينطلق مباشرة لأعلى من خلال المدخنة. كان يجيد الحكم على الرجال، ولم يكن لديه أوهام بشأنهم، ولم يكن قلبه يحمل لهم أي ضغينة. وبتفرده في أسلوب الحديث، كان يبدو ساحرًا لهؤلاء الناس الذين كانت له آراء بائسة فيهم. حينما أنهك نفسه بحثًا عن عمل كان مهرجًا فذًا. ولكن لكي يكون ساخرًا على طريقة كونجرييف وويتشيرلي[٢٢] في القرن العشرين برمته[٢٣] فإن الأمر كان يتطلب منه أن يتخذ صفات أكثر قليلاً من التي كان يتسم بها كونجريف وشيرلي نفسيهما: التوهج، والمبالغة، والأمل الوحشي. حينما كانت تصل الدعابة إلى حد بعيد من الجرأة والغطرسة، كان الأمر يدعو للشفقة في بعض الأحيان. حينما يثار بيركلي قليلاً، ويبدو وكأنه أقرب للشفافية من أثر احتساء الخمر، فإنه يهتاج وكأنه يمتطي صهوة جواد، وعلى الحائط من خلفه يبدو ظله كبيرًا ومتحركًا، متحولاً إلى متشرد متغطرس وفانتازي، وكأنه جاء من سلالة نبيلة وكان اسم والد الفرس روزيانتي.

ولكن بيركلي ذاته، المهرج الذي لا يقهر، الوحيد في حياته الأفريقية، نصف المريض - لأن قلبه كان دومًا يسبب له المتاعب - ومزرعته الحبيبة في ماونت كينيا تسقط شيئًا فشيئًا في قبضة البنوك، هو آخر من يدرك أو يخشى ذلك العرض المسرحي.

بجسده الضئيل، النحيل، وشعره الأحمر، ويديه وقدميه الصغيرتين، كان بيركلي منتصب القامة، يدير رأسه قليلاً يمينًا ويسارًا على طريقة آرتاجنان، تلك الحركة الرقيقة لمبارز لا يقهر. كان يسير بهدوء شديد كالقط، ويجعل، كالقط، كل

غرفة يجلس فيها مكانًا للراحة، وكأن بداخله مصدرًا للحرارة والمتعة. لو جاء بيركلي وجلس معك على حطام منزلك الذي ينبعث منه دخان، فسوف يجعلك، بوصفه مشابهًا للقطط، تشعر بأنك في ركن منتقى ومريح ودافئ. حينما يكون مطمئنًا فإنك تتوقع أن يخرخر سعيدًا كقط كبير، وحينما يكون مريضًا، حزينًا جدًا ويائسًا، فإن الأمر يبدو شاقًا جدًا مثل مرض القطط. لم يكن لديه أي مبدأ، وإنما حزمة مدهشة من النواقص، كما تتوقع من قط.

لو كان بيركلي فارسًا في زمن ستيوارت، فإن دينيس ينبغي أن يوضع في مشهد بريطاني أسبق، في أيام الملكة إليزابيث. يمكنه أن يسير إذن هناك متأبطًا ذراع السيد فيليب، أو فرانسيس دريك. وكان سيعتبره الناس في زمن إليزابيث شخصًا عزيزًا عليهم لأنه بالنسبة لهم كان سيمثل تلك الآثار القديمة، أثينا التي حلموا بها وكتبوا عنها. لا بد أن دينيس كان سيجد موضعًا في أي فترة من حضارتنا، وكأنك في بيتك تمامًا[٢٤]، حتى مطلع القرن التاسع عشر. كان سيبدو رائعًا في أي عصر، لأنه كان لاعبًا رياضيًا، موسيقيًا، عاشقًا للفن. لقد كان رجلاً رائعًا، ولكنه لم يكن مناسبًا تمامًا لأي مكان. كان أصدقاؤه في إنجلترا يرغبون دومًا في عودته، ولطالما رسموا خططًا ومكائد لكي يجدوا له عملاً هناك، ولكن أفريقيا كانت تستبقيه.

إن تعلق السكان المحليين بأفريقيا، هذا التعلق الخاص والفطري الذي شعروا به كلهم إزاء بيركلي ودينيس، وتجاه عدد قليل آخر من الناس مثلهما، جعلني أفكر أنه ربما كان البيض من أزمان ماضية، بالتأكيد هؤلاء الذين ينتمون لأي فترة سابقة، على درجة أفضل من التفهم والتعاطف مع الأجناس الملونة، أكثر منا نحن، أبناء العصر الصناعي. بعدما اخترعت الماكينة البخارية الأولى، تفرقت الطرق التي كانت تجمع يومًا ما بين أجناس العالم، ومن ذلك الحين، لم نجد بعضنا الآخر.

كان هناك ثمة ما يشوب صداقتي مع بيركلي بسبب أمور تتعلق بجاما، خادمه الصومالي الصغير، الذي كان ينتمي لقبيلة تشتعل الحرب بينها وبين قبيلة فرح. بالنسبة لمن يألفون تلك المشاعر القبلية للصوماليين، كانت تلك النظرات الصحراوية العميقة الداكنة التي كانا يتبادلانها على مائدة العشاء تمتلئ بحقد كبير، وهما بانتظار أن نفرغ أنا وبيركلي من تناول الطعام. لم نكن نستطيع أن نتحدث في وقت متأخر عما نود أن نفعله في الصباح حيث نجد فرحًا وجاما باردين، وكأن كليهما قد رشق خنجرًا في قلب الآخر. في تلك الأمور، لم يكن يعرف الأعداء الخوف أو الإحساس، لقد تراجعا عن إراقة الدماء والخراب فحسب بسبب تعلقهما بي وبيركلي.

قال بيركلي: "أنا لا أجرؤ أن أخبر جاما الليلة أنني قد غيرت رأيي، وأنني لن أذهب هذه المرة إلى إيلدوريت، حيث تعيش الشابة التي يحبها. لأن قلبه وقتها سيتحول إلى حجر، سيقسو عليَّ، لن يكون مهمًا بالنسبة له إن كانت ملابسي نظيفة أم لا، وسوف يخرج ليقتل فرحًا".

لم يتحول قلب جاما قط إلى حجر في تعامله مع بيركلي. لقد ظل بصحبته لوقت طويل، وكان بيركلي يتحدث كثيرًا عنه. لقد أخبرني كيف أنه ذات مرة، أثناء نقاش في أمر ما، كان جاما يعتقد أنه يجانبه الصواب فيه، فقد بيركلي صوابه وضرب الصومالي. قال بيركلي: "ولكن أتعرفين يا عزيزتي، ما حدث بعد ذلك؟ في اللحظة ذاتها، تلقيت ضربة مماثلة على وجهي".

سألته: "وكيف سار الأمر بعد ذلك؟".

قال بيركلي بتواضع "أوه، سارت الأمور على ما يرام". وبعد فترة وجيزة أضاف: "لم يكن الأمر سيئًا جدًا. إنه يصغرني بعشرين عامًا".

لم تترك تلك الحادثة أية آثار في سلوك أي منّ السيد أو الخادم. كان جاما يتصرف بشكل هادئ، وبأسلوب متغطرس قليلاً تجاه بيركلي، كحال معظم الخدم الصوماليين تجاه من يعملون لديهم. بعد وفاة بيركلي، لم يرغب جاما في البقاء في كينيا وعاد إلى الصومال.

كان بيركلي يعشق البحر بشكل استثنائي، حب لا يهدأ. كان حلمه المفضل أن نشتري معًا- حينما يكون لدينا مال وفير- دهوا[٢٥] ونذهب للتجارة إلى لامو، وومومباسا، وزنزبار. نفذنا كل خططنا وجهزنا الطاقم الذي سيبحر معنا، ولكننا لم ندخر مالاً أبدًا.

عندما يكون بيركلي متعبًا أو يشعر بوعكة، كان يذهب إلى البحر ويسكب كل أفكاره هناك. ثم يحزن بسبب غبائه وحسرته أنه قضى حياته في أماكن مختلفة بعيدًا عن الماء المالح، وكان يتحدث عن هذا الأمر بلغة قاسية. في إحدى المرات وأنا في طريقي إلى أوروبا وكان يعتريه هذا المزاج، لكي أخفف عنه، تخيلت خطة أن أحضر فانوسي سفينة، ميمنة السفينة، وميناء، لأعلقها على مدخل باب منزلي، وأخبرته عنها.

"أجـــل سيكـــون ذلك لطيفًا. بذلك الشكل سيكون المنزل أشبه بسفينة. ولكن لا بد لها أن تبحر".

ولهذا فقد ابتعت له فانوسي سفينة ثقيلين قديمين من إحدى المتاجر الخاصة بالبحارة الواقعة بجوار إحدى القنوات القديمة في كوبنهاجن، لسفينة كانت قد أبحرت لسنوات عديدة في بحر البلطيق. رفعناهما على جانبي الباب، كانت مطلة على ناحية الشرق، وكنا سعيدين بتركيب المصابيح فيها بشكل صحيح؛ حيث إن الأرض، في مسارها خلال الأثير، تلقي بنفسها للأمام، ولكن لن يكون هناك تصادم. لقد منح هذان الفانوسان بيركلي الكثير من الاطمئنان. كان معتادًا العودة

للمنزل في وقت متأخر، وعادة بسرعة كبيرة، ولكن حينما أضيئت المصابيح أصبح يقود سيارته ببطء، ببطء حتى يصل إلى الممشى، لكي يدّع النجوم الصغيرة الحمراء والخضراء في السماء الداكنة تغوص في ثنايا روحه ويستعيد الصور القديمة، بقايا حياة البحر والعمل على متن السفن، لكي يشعر أنه كان يقترب بالفعل من سفينة ساكنة في المياه الداكنة. لقد طورنا نظام إشارة فيما يتعلق بالمصابيح، حيث نغير مكانها أو أن نخفض ضوءها، حتى يعرف، وهو في الغابة بالفعل، في أي مزاج سيجد مضيفته وأي نوع من العشاء سيكون في انتظاره.

كان بيركلي، مثل أخيه جالبريث كول وزوج أخته اللورد ديلمار، منذ وقت مبكر محتلاً، مستوطنًا قديمًا، وكان على علاقة وطيدة مع الماساي، الذين كان لهم في تلك الفترة اليد العليا في البلاد. لقد عرفهم قبل أن تستأصلهم الحضارة الأوروبية من جذورهم- تلك الحضارة التي كانوا يمقتونها في أعماق قلوبهم أكثر من أي شيء في العالم- قبل أن يجبروا على الانتقال من بلادهم الشمالية الجميلة. بإمكانه أن يتحدث معهم إذن عن الأيام الماضية بلغتهم الخاصة. أينما كان بيركلي يمكث في المزرعة، كان الماساي يأتون عابرين النهر لرؤيته. جلس الرؤساء القدامى، وناقشوا مشاكلهم الحالية معه، وضحكوا من نكاته التي كان يلقيها عليهم، وكان الأمر يبدو وكأنه أفلح في إضحاك الحجر الصلب.

بسبب صداقة بيركلي ومعرفته بالماساي، كان هناك طقس مهيب يحدث في المزرعة.

عندما اندلعت الحرب الكبرى، وعلم بها الماساي، تلاشت دماء المعارك القبلية القديمة كلها. كان لديهم رؤى للمعارك والمذابح الرائعة، ورأوا أن مجد الماضي يعود ثانية. تصادف أنني كنت في الخارج، خلال الشهور الأولى للحرب، وحدي مع السكان المحليين والصوماليين، مع ثلاث عربات تجرها الثيران، نقوم

ببعض أعمال النقل للحكومة الإنجليزية، واضطررنا للسفر لوقت طويل وفي أرض وعرة خلال أراضي الماساي. كلما كان سكان منطقة جديدة يعرفون بقدومي، كانوا يجيئون حول معسكري، بعيون براقة، لكي يسألوني مئة سؤال عن الحرب والألمان- هل صحيح أنهم يجيئون من الهواء؟ كانوا يتخيلون أنهم يركضون مقطوعي النفس لمواجهة الخطر والموت. في المساء، كان المحاربون الصغار يحتشدون حول خيمتي، وقد لونوا أجسادهم تمامًا بألوان الحرب، يحملون الرماح والسيوف؛ في بعض الأحيان لكي يبينوا لي ما يحبونه، كانوا يزأرون زئيرًا قصيرًا، مقلدين الأسد. لم يكن لديهم شك وقتها في أنه سيسمح لهم بالقتال.

ولكن الحكومة الإنجليزية لم ترتئى أن من الحكمة استخدام الماساي لمحاربة الرجال البيض، حتى لو كانوا من الألمان، ومنعت الماساي من القتال، ووضعت نهاية لكل آمالهم. كان الكيكويو سيشتركون في الحرب كحاملي معدات، ولكن على الماساي أن يمتنعوا عن استخدام أسلحتهم.

ولكن في عام ١٩١٨، حينما طبق التجنيد الإلزامي على كل السكان المحليين في المستعمرة، فكرت الحكومة أنه كان من الضروري أن تستعين بالماساي أيضًا. أرسل ضابط من فرقة البنادق الأفريقية الملكية، هو وفرقته إلى ناروك لكي يجند ثلاثمائة من المورانى كجنود. في ذلك الوقت كان الماساي قد فقدوا تعاطفهم مع الحرب ورفضوا المجيء. اختفى المورانيون الذين كانوا يتواجدون في المنطقة في الغابات وبين الشجيرات. في محاولة لمطاردتهم، أطلقت قوات فرقة البنادق الآلية الأفريقية النار على مانياتا، ولقيت سيدتان عجوزتان حتفهما. بعد ذلك بيومين، ثار رجال الماساي، واكتسحت حشودهم البلاد وقتلت عددًا من التجار الهنود، وأحرقت أكثر من خمسين دكانًا. كان الوضع خطيرًا ولم تكن الحكومة تريد أن تفرض النظام بالقوة. أرسل اللورد ديلامير لكي يتفاوض مع الماساي، وفي النهاية توصلوا إلى تسوية. لقد سمح للماساي أن يختاروا الثلاثمائة

موراني بأنفسهم، وقد أطلق سراحهم بغرامة مشتركة عقابًا لهم على التدمير الذي أحدثوه في المنطقة. لم يظهر أي موراني، ولكن في ذلك الوقت وضعت الهدنة النهاية للأمر برمته.

خلال كل تلك الأحداث، وضع بعض رؤساء الماساي الكبار سنًا أنفسهم في خدمة الجيش الإنجليزى، وأرسلوا شبابهم لكي يستكشفوا ما كان يدور في معسكر الألمان في الأراضي وعلى الحدود. الآن وقد انتهت الحرب، أرادت الحكومة أن تعترف بخدماتهم. لقد أرسلت عددًا من الميداليات من بريطانيا لكي توزع بين رجال الماساي، وكان على بيركلي أن يوزع اثنتي عشرة ميدالية، لأنه كان عليمًا بأمور الماساي، وبإمكانه أن يتحدث بلغتهم.

كانت مزرعتي على الحدود مع أراضي الماساي وجاء بيركلي ليسألني إن كان بإمكانه أن يمكث في منزلي ليمنح الماساي الميداليات من هنا. كان منفعلاً قليلاً بشأن هذا المشروع، وأخبرني أنه لم تكن لديه فكرة واضحة عما هو متوقع منه. في يوم أحد، قدنا السيارة وقطعنا طريقًا طويلاً حتى وصلنا إلى أراضي الماساي، وتحدثنا مع الناس في المانياتا، حتى نجلب الرؤساء المعنيين إلى المزرعة في يوم محدد. كان بيركلي يعمل في شبابه ضابطًا في الفرقة التاسعة للفرسان، وكان في ذلك الحين، كما قيل لي، أكثر الضباط وسامة في فرقته العسكرية. مع اقتراب غروب الشمس، كنا نقود السيارة متجهين للمنزل ثانية، حينما بدأ يحدثني عن الاستدعاء العسكري والعقلية العسكرية، وكيف أنه طور أفكاره في هذا الشأن لتلائم سلوكه كمدني.

على الرغم من أن توزيع الميداليات لم يكن له أي نتائج خاصة، كان حدثًا له ثقله وأبعاده الضخمة. لقد أظهر الجانبان في هذا الحدث الكثير من الحكمة والحصافة والكياسة، وكأن المقصود به أن يعبر عن فعل في تاريخ العالم، أو كرمز:

"... ظلامه وبريقه

تبادلا تحية أدب جم".

وصل كبار الماساي، متبوعين بأبنائهم. لقد جلسوا وانتظروا في المساحة الخضراء أمام منزلي، ومن وقت لآخر كانوا يتناقشون بشأن أبقاري التي ترعى هناك: ربما كان لديهم أمل ضئيل أنه، جزاءً لخدماتهم، ستكون هديتهم بقرة. أبقاهم بيركلي منتظرين لوقت طويل، الأمر الذي كان يعني، كما أعتقد، بالنسبة لهم، جزءًا من النظام؛ في الوقت ذاته كان هناك كرسي بذراعين وضع له في الساحة الخضراء أمام المنزل، حتى يجلس عليه وهو يسلم الميداليات. حينما جاء في النهاية متقدمًا من المنزل، كان يبدو شديد البياض وهو مع تلك الصحبة الداكنة، متوهج بشعره الأحمر، وعينيه الرائقتين. الآن يمشي مشية رشيقة مرحة وعلى وجهه تعبير مشابه لضابط كفء شاب، حتى أنني علمت أن بيركلي، الذي يمكنه أن يجعل وجهه يعبر عن الكثير من الأشياء، يمكنه أيضًا، حينما يتطلب الأمر، أن يجعله خاليًا من أي تعبير. كان يسير ويتبعه جاما، وكان يرتدي عباءة عربية جميلة للغاية مطرزة بالذهب والفضة، سمح له بيركلي أن يشتريها لهذه المناسبة، وكان جاما يحمل الصندوق المملوء بميداليات.

وقف بيركلي أمام كرسيه لكي يتحدث. كان جسده الصغير نسبيًا يبدو نشطًا وجذابًا للغاية لدرجة أن كبار القوم نهضوا على أقدامهم واحدًا وراء الآخر، ووقفوا مواجهين له، يحدقون في عينيه برصانة. لا أستطيع أن أقول شيئًا عن محتوى الحديث، حيث إنه كان بلغة الماساي. يبدو أنه كان يبلغ الماساي بإيجاز أنه سينعم عليهم بشيء عظيم لا يمكن تصديقه، وأن سلوكهم غير المسبوق الذي يستحق كل التقدير هو ما جعلهم يفوزون بهذا الشيء. ولكن بما أن بيركلي كان هو المتحدث، وأنك لا تستطيع أن تعلم أي شيء من وجوه الماساي، فقد يكون هناك أمر مختلف

تمامًا، لم أفكر فيه أبدًا. حينما كان يتحدث، دون أن يتوقف للحظة، جعل جاما يحضر الصندوق، ثم أخرج الميداليات، وأخذ يقرأ بوقار أسماء رؤساء الماساي واحدًا بعد الآخر، وأعطاهم ميدالياتهم بذراع ممدودة بكرم. تناولها رجال الماساي منه في صمت شديد بأيديهم الممدودة. لقد مضى هذا الاحتفال بشكل جيد جدًا فقط بسبب الفريقين ذوي الدم النبيل والعادات الأسرية العظيمة؛ أرجو أن لا تؤاخذنا الديمقراطية.

إنه أمر غير لائق أن تمنح ميدالية لرجل عار؛ لأنه ليس لديه مكان ليضعها فيه، وهكذا بقي رؤساء الماساي واقفين ممسكين بميدالياتهم في أيديهم. بعد فترة جاء رجل عجوز جدًا ناحيتي، ورفع يده الممسكة بالميدالية، وطلب مني أن أخبره بما في حوزته. شرحت له الأمر بقدر استطاعتي. كان للعملة الفضية وجه بريطانيا من جانب، وعلى الجانب الآخر نقشت كلمات: "الحرب العظمى من أجل الحضارة".

فيما بعد أخبرت بعض أصدقائي البريطانيين بشأن واقعة الميداليات وسألوني: "لم لم توضع رأس الملك على الميدالية؟ لقد كان خطأ كبيرًا". أنا شخصيًا لا أعتقد ذلك: يبدو لي أن الميداليات لا ينبغي أن تصنع بشكل شديد الجاذبية، وأن الأمر برمته كان جيد التنظيم. على الرغم من ذلك قد يكون ذلك من الأمور التي ينبغي أن نمنحها ونحتسب ثوابها العظيم في الجنة.

حينما مرض بيركلي، كنت على وشك الذهاب إلى أوروبا في عطلة. كان في ذلك الوقت عضوًا في المجلس التشريعي للمستعمرة، وأرسلت له برقية: "ألن تأتي وتبقى في نجونج لأن حضور جلسات المجلس سيجلب لنا المزيد من زجاجات الخمر؟". أبرق لي: "وصلتني برقيتك وكأنها تصلني من السماء مباشرة محملة بالزجاجات". ولكنه حينما جاء إلى المزرعة، وسيارته مليئة بزجاجات الخمر، لم يهتم بشربها. كان وجهه يشوبه اصفرار شديد، وفي بعض الأحيان كان يلتزم

الصمت تمامًا. كان قلبه معتلاً، وكان لا يستطيع التصرف بدون جاما، الذي تعلم أن يعطيه حقنة من أجل مرض قلبه، وكان كثير القلق، الأمر الذي أثقل على قلبه؛ كان يعيش في رعب دائم خشية أن يفقد مزرعته. بالرغم من ذلك، كان حضوره كفيلاً بأن يحول منزلي إلى ركن مريح ومميز من العالم.

"لقد وصلت للمسرح يا تانيا" قال لي بوقار، "متى أتمكن من قيادة أفضل السيارات، أن أدخن أرقى أنواع السيجار، وأن أشرب أفخر أنواع النبيذ". وهو مقيم معي، أخبرني ذات ليلة أن الطبيب كان قد أمره بأن يلزم الفراش لمدة شهر في نجونج. قلت له إنه إن اتبع التعليمات، وبقي في الفراش لمدة شهر في نجونج، فسوف أتنازل عن رحلتي لكي أبقى هنا لرعايته، على أن أذهب لأوروبا في العام القادم. فكر في العرض الذي قدمته لفترة قصيرة. قال لي: "يا عزيزتي، لا يمكنني أن أفعل ذلك. لو فعلت ذلك فقط لإسعادك، فمن سأكون أنا بعد ذلك؟".

ودعته وقتها بقلب حزين. وبينما كنت أبحر متجهة لبلادي، عبرت لامو وتاكاوونجا، حيث كان ينبغي للمركب خاصتنا أن يبحر هناك. كنت وقتها منشغلة بالتفكير في بيركلي. ولكن في باريس سمعت أنه قد مات. لقد سقط ميتًا أمام منزله، وهو يخطو خارجًا من سيارته. دفن في مزرعته، في المكان الذي طالما رغب أن يدفن فيه.

بعد موت بيركلي، تغير الحال في البلاد. لقد شعر أصدقاؤه بهذا الأمر في الحال، بحزن شديد، وشعر الكثير من الناس بهذا الشعور فيما بعد. مع رحيله، شارف عهد زاهر في تاريخ المستعمرة على الانتهاء. على مدار السنوات كانت تحسب أمور كثيرة من نقطة التحول هذه، وكان الناس يقولون: "حينما كان بيركلي كول على قيد الحياة" أو "منذ أن مات بيركلي". حتى وفاته كانت البلاد تعتبر أراضي الصيد السعيدة، والآن تتغير ببطء وتتحول إلى مشروع تجاري. هناك

بعض المعايير التي انخفضت حينما رحل: معيار الظرف، وقد شعر به الجميع في الحال- ومثل هذا الأمر يثير الحزن في مستعمرة؛ معيار السلوكيات الطيبة- فبعد رحيله بدأ الناس في الحال يتحدثون عن مشاكلهم؛ معيار الإنسانية.

بعد رحيل بيركلي، حلت محله شخصية متجهمة وصعدت على خشبة المسرح من الجناح المقابل *عاشقة ضرورية للرجال وللآلهة*(٢٦) كان أمرًا غريبًا أن يستطيع رجل صغير نحيف أن يمنعها من الظهور، لوقت طويل طالما كان على قيد الحياة. لقد اختفت الخميرة من الخبز في البلاد. لقد غاب عنها منبع للمرح، للتسامح، والحرية، عامل من عوامل توليد الطاقة الكهربائية. لقد نهض القط وترك الغرفة.

الأجنحة

لم يكن لدينيس فينش هاتون منزل آخر في أفريقيا سوى المزرعة. لقد عاش في بيتي بين رحلات الصيد التي كان يقوم بها، وأبقى كتبه والجراموفون خاصته هناك. حينما كان يعود إلى المزرعة كان يطلق الأصوات التي بداخله؛ كان يتحدث- كما تتحدث نباتات البن، حينما تزهر مع القطرات الأولى للموسم الممطر، ينقط قطرات، وسحابة من الطباشير. حينما كنت أترقب عودة دينيس، وأسمع صوت سيارته قادمة عبر الممشى. سمعت، في الوقت ذاته، أشياء المزرعة تخبرني بحقيقتها. كان سعيدًا في المزرعة، كان يأتي إلى هناك حينما يرغب في ذلك فقط، وكانت أشياء المزرعة تعرف أن به، صفة، لم يكن العالم واعيًا بها، التواضع. لم يفعل سوى ما أراد فعله، لم يكن يبدو على سحنته المكر أبدًا.

كان لدينيس شخصية مميزة، كان لها قيمتها الثمينة بالنسبة لي، كان يحب أن يسمع قصة تروى له. لأنني دومًا ما كنت أفكر أنني شخصية ذات تأثير قوي في وقت الطاعون في فلورنسا. لقد تغيرت الأنماط، وتلاشى تمامًا فن الإصغاء لحكاية في أوروبا. لقد فهم السكان المحليون في أفريقيا، الذين لا يستطيعون القراءة، الأمر: إن بدأت بالقول لهم: "كان هناك رجل خرج ليسير في السهول، وهناك قابل رجلاً آخر"، فإنك ستكسبهم جميعًا في صفك، وعيونهم تتبع المسار المجهول للرجلين على السهل. ولكن البيض، حتى لو شعروا أنه ينبغي عليهم أن ينصتوا، فإنه ليس باستطاعتهم الاستماع لحفل موسيقي. إن لم يشعروا بالتوتر، ويتذكروا أشياء ينبغي فعلها على الفور فسرعان ما سيصيبهم النعاس. هؤلاء الناس أنفسهم سيطلبون منك كتابًا لقراءته، وقد يقضون المساء كله منشغلين بقراءة أي شيء

مطبوع. يحصلون عليه، حتى وإن كان مجرد خطاب. لقد اعتادوا على أن يأخذوا انطباعاتهم عن الأشياء بنظرة من عيونهم.

أما دينيس، الذي عاش طويلاً بناء على خبرة استقاها من أذنه، كان يفضل أن يستمع لحكاية أكثر مما يود قراءتها؛ حينما كان يعود للمزرعة كان يسألني: "ألديك حكاية؟" كنت أختلق الكثير عندما كان مرتحلاً. في المساء كان يشعر براحة، حيث يوزع الوسائد وكأنها أريكة في مقابل المدفأة، وأنا جالسة القرفصاء على الأرض، مثل شهرزاد ذاتها، وكان يصغي، وعيناه صافيتان، لحكاية طويلة، من بدايتها وحتى نهايتها. كان يهتم بتفاصيل الحكاية أكثر من اهتمامي أنا بها، وعند أي ظهور درامي لشخصية أو أخرى، قد يستوقفني ليقول لي: "ولكن هذا الرجل مات في بداية القصة، ولكن لا يهم".

علمني دينيس اللاتينية، وقراءة الكتاب المقدس، والشعراء اليونانيين. لقد كان يحفظ أجزاء كبيرة من العهد القديم، وكان يحمل الكتاب المقدس معه في كل أسفاره، مما أكسبه التقدير الكبير من جانب المحمديين.

أهداني أيضًا الجرامافون خاصتي. لقد أسعد ذلك قلبي، وجلب حياة جديدة للمزرعة، وأصبح بمثابة صوت المزرعة- "روح عندليب في مكان فسيح". في بعض الأحيان كان دينيس يأتي إلى البيت بشكل مفاجئ بينما أكون أنا في حقل البن أو الذرة، وكان يحضر إسطوانات جديدة معه، وكان يدير الجرامافون، وحينما كنت أعود ممتطية صهوة جوادي عند الغروب، كان اللحن يتدفق باتجاهي في هواء الليل الصافي البارد، وكأنه يعلن لي عن وجوده، وكأنه يسخر مني، كما كان يفعل عادة. أحب السكان المحليون الجرامافون، واعتادوا أن يقفوا حول المنزل لكي يستمعوا إليه؛ انتقى بعض صبية المنزل لحنًا مفضلاً، وكانوا يطلبونه مني، حينما أكون وحدي معهم في المنزل. كان أمرًا غريبًا أن يصر كامانتي على تفضيله

بإخلاص شديد لقطعة موسيقية بطيئة لكونشيرتو البيانو لبيتهوفن في مقام سي كبير؛ حينما طلب مني الاستماع إليها في المرة الأولى وجد بعض الصعوبة في وصفها، لكي يوضح لي أي مقطوعة يريد الاستماع إليها.

على الرغم من ذلك، لم تكن أذواقنا أنا ودينيس متفقة؛ لأنني دومًا كنت أريد سماع المؤلفين القدامى، ويحاول دينيس، بشكل مجامل التوافق مع ذلك العصر لعدم انسجامه معه، فقد كان حداثيًا بشكل كبير فيما يتعلق بالفنون كلها.

كلما كنا معًا أنا ودينيس، كان يحالفنا الحظ مع الأسود. في بعض الأحيان، حينما يكون عائدًا من رحلة للصيد استمرت لشهرين أو ثلاث، كنت أجده مغتاظًا؛ لأنه لم يستطع العثور على أسد جيد من أجل رفاقه في أوروبا. في الوقت ذاته كان الماساي يأتون لمنزلي يطلبون مني أن أخرج لأطلق النار على أسد أو لبؤة بسبب قتل قطعانهم، وكنا نخرج أنا وفرح، نعسكر في مخيماتهم، نخطط لإصابة أحدها، أو نسير في الصباح الباكر، فقط لكي نكتشف أو نتتبع أثر الأسد. ولكن حينما كنا نذهب أنا ودينيس في نزهة، كانت الأسود التي تقطن السهول تحوم حولنا، وكأنها تنتظر، كنا نقترب منها هنا أو هناك وهم يتناولون وجبة، أو نراهم وهم يعبرون مجرى النهر الجاف.

في صباح العام الجديد، وقبل شروق الشمس، وجدنا أنا ودينيس أنفسنا نعبر طريق ناروك الجديد، ونقود السيارة بأقصى سرعة على الطريق الوعر.

كان دينيس في اليوم السابق قد أعار بندقيته لصديق له، كان متجهًا جنوبًا مع فريق للصيد، وغاب عنه في وقت متأخر من الليل أن يشرح له أمر خاص بالبندقية، لا يمكنها أن تعمل بدونه. كان قلقًا بهذا الشأن ويخشى أن يصاب الصياد بأذى ما بسبب جهله. لم نستطع في ذلك الوقت أن نفكر في علاج أفضل من أننا كان ينبغي أن نبدأ بسرعة بقدر استطاعتنا، وأن نسير على الطريق الجديد، ونحاول

أن نلحق بفريق الصيد في ناروك. تطلب الأمر أن نقطع ستين ميلاً عبر الطرق الوعرة؛ كان الرحالة يتخذون الطريق القديم، وكانوا يمضون ببطء، حيث ترافقهم عربات نقل ثقيلة. مشكلتنا الوحيدة أننا لم نكن ندري ما إذا كان الطريق الجديد سيؤدي إلى ناروك.

لهواء الصباح المبكر في الأراضي الأفريقية المرتفعة برودة وطزاجة ملموسة؛ ولهذا، ففي وقت تلو الآخر، يراودك التخيل ذاته: إنك لست على الأرض، ولكنكِ في المياه العميقة الداكنة، متقدمًا تجاه قاع البحر. ليس من المؤكد، على الرغم من ذلك، أنك تتحرك على الإطلاق: إن تدفق الهواء المائل للبرودة على وجهك قد يكون تيارات مياه البحر العميق، وسيارتك مثل سمكة كهربائية كسولة، قد تقف بثبات على قاع البحر، تحدق بعينين متوهجتين من مصباحيها، بينما تسمح لغواصة الحياة أن تمر بجوارها. النجوم كبيرة جدًا؛ لأنها ليست نجومًا حقيقية، ولكنها انعكاسات تومض على سطح الماء. على طول الممر الخاص بك في قاع البحر، هناك أشياء حية، يميل لونها إلى السواد أكثر من بيئتها المحيطة بها، تظهر، تقفز لأعلى، ثم تندفع فيما بين الأعشاب الطويلة، مثل سرطان البحر، براغيث الشاطئ وهي تشق طريقها بين الرمال. يصير الضوء أكثر وضوحًا، وعند شروق الشمس، يرتفع قاع البحر باتجاه السطح، مشكلاً جزيرة جديدة. تنجرف ناحيتك بسرعة دوامات من روائح مختلطة، روائح طازجة حادة لأشجار الزيتون الصغيرة، العطر المشبع بملح البحر للعشب المحترق، رائحة عفن مفاجئة.

كان كانوثيا، صبي دينيس، يجلس في المقعد الخلفي في السيارة التي تشبه صندوقًا متحركًا، وكان يلمس كتفي برقة ويشير ناحية اليمين. على جانب الطريق، على مسافة اثنتي عشرة أو خمس عشرة ياردة، كانت هناك كتلة داكنة، خروف البحر يستريح على الرمال، وأعلاه كان هناك هيجان ما في المياه الداكنة. كانت،

كما رأيت فيما بعد، زرافة كبيرة ميتة، يبدو أن هناك من أطلق النار عليها منذ يومين أوَ ثلاثة. ليس من المسموح لك أن تطلق النار على زرافة، واضطرزرنا أنا ودينيس فيما بعد أن ندافع عن أنفسنا ضد تهمة قتلها، ولكننا استطعنا أن نثبت أنها قتلت قبل مصادفتنا لها، على الرغم من ذلك، لم يتمكن أحد أبدًا من معرفة من قتلها ولماذا. على الجيفة الضخمة للزرافة، كانت هناك لبؤة تتناول طعامها، والآن رفعت رأسها وكتفها لكي تراقب العربة العابرة.

أوقف دينيس العربة، ورفع كانوثيا البندقية التي حملها عن كتفه. سألني دينيس بصوت خفيض: "أينبغي أن أطلق النار عليها؟"-لأنه وبشكل مهذب كان ينظر إلى مرتفعات نجونج بوصفها منطقة الصيد خاصتي. كنا نسير عبر أرض الماساي الذين كانوا في منزلي لكي ينتحبوا على فقدان قطيعهم؛ لو كان هذا هو الحيوان الذي قتل أبقارهم وعجولهم واحدة تلو الأخرى، فإن الوقت قد حان لكي نضع نهاية لهذه المأساة، ولهذا أومأت موافقة.

قفز من السيارة ورجع للخلف بضع خطوات؛ وفي اللحظة ذاتها غطست اللبؤة خلف جسد الزرافة، جرى حول الزرافة لكي يتمكن من إصابتها، ثم أطلق النار. لم أرها وهي تسقط: حينما خرجت واقتربت منها كانت ترقد ميتة غارقة في بقعة سوداء كبيرة.

لم يكن هناك وقت لكي ننزع جلدها، ينبغي أن نواصل القيادة لو أردنا أن نلحق بفريق الصيد في ناروك. نظرنا حولنا بدقة ولاحظنا المكان؛ كانت رائحة الزرافة الميتة قوية جدًا لدرجة لم تمكننا من تجاهلها.

ولكننا بعد أن قدنا السيارة لمسافة ميلين لم يكن للطريق بقية. كانت أدوات عمال الطريق موضوعة هنا؛ ومن الناحية الأخرى تبدو الأرض الحجرية الواسعة، رمادية في ضوء الفجر، لم يمسها إنسان. نظرنا إلى الأدوات وإلى البرية، سيتحتم

علينا أن نترك صديق دينيس يجرب حظه مع البندقية. فيما بعد، حينما عاد، أخبرنا أنه لم يكن لديه فرصة أبدًا لاستخدامها. ولهذا فقد ارتددنا على عقبينا، يستشرف وجهانا السماء الشرقية، وهي تميل إلى الاحمرار فوق السهول والمرتفعات. قدنا باتجاهها وتحدثنا طوال الطريق عن اللبؤة.

تصادف أن رأينا الزرافة مرة أخرى، وفي هذه المرة استطعنا أن نراها بوضوح- حيث يسقط الضوء على جانبها- البقع المربعة الأكثر قتامة على جلدها. وعندما اقتربنا منها أكثر وجدنا أسدًا يقف عليها. ونحن نقترب، كنا منخفضين عن الجيفة بقدر ضئيل؛ كان الأسد يقف فوقها تمامًا، لونه أسود، وخلفه كانت السماء متوهجة تمامًا. مر أسد. أو نزعت الرياح جزءًا ضئيلاً من عرفه. اعتدلت في جلستي في السيارة، لقد ترك انطباعًا قويًا حتى أن دينيس قال: أطلقي أنت النار هذه المرة". لم أكن حريصة من قبل على استخدام بندقيته، حيث كانت طويلة وثقيلة جدًا بالنسبة لي، وكانت بمثابة صدمة سيئة؛ على الرغم من ذلك، في هذا المقام كانت الطلقة إعلانًا عن الحب، ألا ينبغي إذن أن تكون فوهة البندقية من المقاس الأكبر؟ وأنا أطلق النار، بدا لي أن الأسد يقفز مباشرة في الهواء، وهبط ورجلاه من تحته. وقفت، لاهثة، بين الأعشاب، متوهجة بالتفويض الذي تمنحه لك الطلقة؛ لأنك تصنع نفوذك من على بعد. سرت حول جيفة الزرافة. وهنا بدا الأمر مشابهًا للحركة الخامسة من تراجيديا كلاسيكية. لقد ماتوا جميعًا الآن. كانت الزرافة تبدو كبيرة بشكل فظيع، متحجرة، وسيقانها الأربعة متصلبة ورقبتها الطويلة متخشبة، بينما مزق الأسود بطنها. كانت تبدو على وجه اللبؤة التي ترقد الآن على ظهرها علامات العجرفة وهي مكشرة عن أنيابها. كانت المرأة الحتمية[٢٧] لهذه التراجيديا. وكان الأسد يرقد على مسافة غير بعيدة عنها، كيف لم يتسن له أن يتعلم شيئًا من مصيرها؟ كان رأسه بين يديه الأماميتين، بينما عرفه الرهيب يغطيه كعباءة ملكية،

كان يرقد هو أيضًا في بركة كبيرة، وفي هذا الوقت كان هواء الصباح رقيقًا جدًا لدرجة أنه بدا بلون قرمزي.

رفعِ دينيس وكانوثيا أكمامهما وبينما كانت الشمس تشرق قاما بسلخ جلد الأسدين. حينما حان وقت استراحتهما، تناولنا زجاجة نبيذ أحمر، والزبيب، واللوز، من السيارة؛ كنت قد جلبتها لكي نتناولها أثناء الطريق؛ لأننا كنا في صباح العام الجديد. جلسنا على العشب القصير وأكلنا وشربنا.

بدا الأسدان الميتان، المجاوران لنا، رائعين في عريهما: لم يكن هناك دهون زائدة في جسديهما، كل عضلة كانت قوية ومتماسكة، لم يكونا بحاجة لأي عباءة، لقد كان لهما جسدان مثاليان.

ونحن نجلس هناك، أطبق ظل على العشب فوق قدمي، حينما نظرت لأعلى، استطعت أن أميز، فوق هناك في السماء الزرقاء الباهتة، عددًا من النسور كانت تحوم في شكل دائرة. كان قلبي خفيفًا وكأنني أطيره، هناك فوق، ممسكة بخيط، كما تطير طائرة ورقية.. كتبت قصيدة:

يمتد ظل النسر عبر السهل،

باتجاه الجبال البعيدة، المجهولة، والضباب المشوب بالزرقة

ولكن ظلال الحمير الوحشية المستديرة

تجلس بحميمية طوال اليوم الحار بين حوافرها الرقيقة،

بلا حراك

تنتظر المساء، تنتظر أن تتمطى،

تبدو زرقاء،

فوق السهل، بينما لوّنها غروب الشمس بلون أحمر قان،

وأن تجول لتصل إلى منابع المياه.

كان لنا أنا ودينيس مغامرة درامية أخرى مع الأسود. لقد حدث ذلك في الواقع، قبل المغامرة الأولى، في بداية صداقتنا.

في صباح يوم ما، خلال أمطار الربيع، جاء مدير مزرعتي السيد نيكولز، وهو من أفريقيا الجنوبية، إلى منزلي وهو مهتاج للغاية، ليخبرني بأن هناك أسدين تسللا إلى المزرعة وقتلا ثورين. لقد اقتحما السور الخاص بحظيرة الثيران، وسحبا الثور الميت إلى مزرعة البن؛ والتهما أحدهما هناك، ولكن الآخر عثر عليه ملقى بين أشجار البن. هل سأكتب له الآن خطابًا لكي يذهب ويحضر مستحضر استركنين من نيروبي؟ كان ينوي أن يضعه على جيفة الثور في الحال؛ لأنه يظن أن الأسود ستعود بالتأكيد ليلاً.

فكرت في الأمر مليًا، لم أكن أرغب حقيقة في أن أضع الاستركنين للأسود، وقلت له إنني لا أستطيع أن أفعل ذلك. في هذه اللحظة تحولت إثارته إلى سخط. لو تركنا الأسدين بسلام، بعد جريمتهما هذه، كما قال لي، فإنهما سيعودان ثانية. الثوران المخصيان المقتولان كانا من أفضل الثيران العاملة لدينا، ولا يمكن أن نتحمل أن نفقد المزيد. لم يكن الإسطبل الخاص بالخيول، كما ذكرني نيكولز، بعيدًا عن الفناء المسيج الخاص بالثيران: هل فكرت في هذا الأمر؟ أوضحت له أنني لا أقصد أن أحتفظ بالأسدين في المزرعة، فكرت فقط أنه ينبغي إطلاق النار عليهما وليس دس السم لهما.

"ومن الذي سيطلق النار عليهما؟" سألني نيكولز. "لست جبانًا ولكنني رجل متزوج وليس لدي أي رغبة في أن أخاطر بحياتي بلا داع". لم يكن جبانًا بالفعل،

كان رجلاً جسورًا ضئيل الحجم. قال: "هذا أمر لا معنى له". قلت له، لا، لا أعني أن أجعلك تطلق النار على الأسدين. ولكن السيد فينش- هاتون وصل في الليلة السابقة وكان في المنزل، سنذهب أنا وهو. قال نيكولز: "أوه، يبدو ذلك أمرًا جيدًا".

في هذا الوقت ذهبت لأبحث عن دينيس. قلت له "تعال الآن، دعنا نذهب هناك لنخاطر بحياتنا بلا داعٍ، حيث يمكننا *تلمس حياة خالية*[٢٨]".

ذهبنا إلى هناك ووجدنا الثور الميت ملقى بين نباتات البن، كما قال لي نيكولز؛ لم يكن الأسدان قد لمساه بعد. كان الأثر الذي تركه الأسد غائرًا، وواضحًا على الأرض اللينة، لقد كان هناك أسدان كبيران في الليلة الماضية. كان من السهل تتبع خطاهما خلال المزروعات ولأعلى حتى الغابة حول منزل بيلكناب، ولكن مع وصولنا إلى هناك، كان المطر يتساقط بشدة لدرجة أنه كان من الصعب رؤية أي شيء، وبين الأعشاب والأشجار الصغيرة عند حافة هذه الغابة، فقدنا أثرهما.

سألته: "ماذا تعتقد يا دينيس، أتظن أنهما سيعودان الليلة؟".

كان لدينيس خبرة هائلة مع الأسود. قال إنهما سيعودان في وقت مبكر من الليل لكي ينهيا وجبتهما من لحم الثور، وإننا ينبغي أن نعطيهما وقتًا لكي يبدآ في تناول طعامهما، ثم نذهب إلى الحقل في التاسعة مساء. يمكننا أن نستخدم بطارية كهربائية خاصة برحلات صيده، لكي نتمكن من التصويب، وترك اختيار الأدوار لي، ولكنني كنت أفضل أن يطلق هو النار وأن أقوم أنا بحمل البطارية له.

لكي نجد طريقنا إلى الثور الميت في الظلام، قطعنا قصاصات من الورق وألصقناها على صفوف أشجار البن، التي كان ينبغي أن نسير بينها، على شاكلة هانزل وجريتل وأحجارهما البيضاء الصغيرة[٢٩]. كان ذلك سيقودنا مباشرة إلى مكان القتل، وفي نهاية الأمر، وعلى بعد عشرين ياردة من الجيفة، ربطنا قطعة

كبيرة من الورق إلى الشجرة؛ لأننا سنتوقف هنا، ثم نسلط عليه ضوء البطارية ونطلق النار. في وقت متأخر من المساء، حينما أخرجنا المصباح الكهربائي اليدوي، وجدنا أن البطاريات الموجودة فيه قد باتت ضعيفة وأن الضوء المنبعث منها كان واهنًا. لم يكن هناك متسع من الوقت للذهاب لنيروبي الآن، ولهذا فقد كان علينا أن نستخدمها بأفضل طريقة ممكنة.

حدث ذلك في اليوم السابق على يوم ميلاد دينيس، ونحن نتناول طعام العشاء، كان مكتئب المزاج، و يفكر في أنه لم ينل حظه من الحياة بعد. ولكنني واسيته قائلة، إن شيئًا ما قد يحدث له قبل صباح يوم ميلاده. أخبرت جوما أن يخرج زجاجة نبيذ كي تكون جاهزة حينما نعود. ظللت أفكر في الأسدين؛ ترى أين هما الآن، في هذه اللحظة؟ هل يعبران النهر، ببطء، في صمت، أحدهما متقدمًا الآخر؟ هل يدير التدفق البارد الرقيق للنهر، صدريهما وخاصرتيهما؟.

في التاسعة خرجنا من المنزل.

أمطرت السماء قليلاً، ولكن القمر كان هناك؛ ومن وقت لآخر، كان يظهر وجهه الأبيض المعتم في أعلى السماء، خلف طبقات كثيرة من السحب الرقيقة، وكان في ذلك الوقت ينعكس بخفوت في حقل البن الأبيض المزهر. عبرنا المدرسة بمسافة؛ وكانت مضاءة كلها.

عند رؤيتي لهذا المنظر سرى بداخلي شعور جارف بالانتصار وبالاعتزاز بالناس من حولي. فكرت في الملك سليمان، الذي يقول: "الإنسان البليد يقول، هناك أسد في الطريق؛ أسد في الشوارع". هنا أسدان عند باب المدرسة، ولكن أطفال مدرستي لم يكونوا كسالى، ولم يسمحوا للأسدين بأن يمنعوهم من الذهاب للمدرسة.

وجدنا صفي أشجار البن التي وضعنا عليهم علامات، توقفنا للحظة، وتقدمنا للأمام فيما بينها، أحدنا أمام الآخر. كنا نرتدي أحذية من جلد الغزال الناعم، وسرنا صامتين. بدأت أهتز وأرتعد من الإثارة، لم أجرؤ على الاقتراب كثيرًا من دينيس؛ لأنني كنت أخشى أن يشعر بخوفي ويأمرني بالعودة، ولكنني لم أجرؤ أيضًا على الابتعاد عنه كثيرًا؛ لأنه قد يحتاج لضوء المصباح اليدوي في أي لحظة.

وجدنا الأسدين قد جاءا لمكان اصطيادهما. حينما سمعا أصواتنا، أو تشمما رائحتنا، ابتعدا قليلاً في حقل البن لكي يسمحا لنا بالمرور. من المحتمل لأنهما شعرا أننا نعبر ببطء شديد، أصدر أحدهما زمجرة مبحوحة خفيضة لدرجة أننا لم نكن واثقين حتى من أننا قد سمعناها، توقف دينيس للحظة، وبدون أن يستدير سألني: "هل سمعت؟". أجبته "أجل".

سرنا قليلاً ثانية فتكررت الزمجرة العميقة، هذه المرة كانت من ناحية اليمين مباشرة. "أشعلي الضوء،" قال دينيس. لم يكن الأمر برمته مهمة سهلة؛ لأنه كان أطول مني بكثير، وكان علي أن أسلط الضوء من فوق كتفه ليصل إلى بندقيته ثم ينتشر لأبعد من ذلك. حينما أضأت المصباح اليدوي تغير العالم كله إلى مسرح رائع مضاء، حيث تلمع الأوراق الندية لأشجار البن، وتظهر كتل التراب على الأرض بوضوح تام.

اصطدمت أول دائرة ضوئية بابن آوي وقد فتح عينيه الضيقتين عن آخرهما، مثل ثعلب صغير؛ جعلته يتحرك في طريقه، ثم كان الأسد هناك. كان يقف في مواجهتنا مباشرة، وكان يبدو خفيفًا جدًا، والليل الأفريقي كله من خلفه. حينما سقطت الطلقة، بالقرب مني، لم أكن مستعدة لها، حتى بلا فهم لما تعنيه، وكأنها كانت برقًا، وكأنني أنا نفسي انتقلت إلى موقع الأسد. سقط مثل حجر. صرخ دينيس "تحركي، تحركي". أدرت المصباح اليدوي إلى مسافة أبعد، ولكن

يدي كانت تهتز بشدة حتى أن دائرة الضوء، التي كان يتجمع فيها العالم كله، وكنت أتحكم فيها، كانت تحوم راقصة. سمعت دينيس وهو يضحك بجواري في الظلام- "ما أنجزه المصباح من عمل على الأسد الثاني كان مهتزًا قليلاً" قال لي فيما بعد- ولكن في مركز الرقص كان هناك الأسد الثاني، يحاول الهرب والاختباء خلف شجرة البن. بينما كان يصله الضوء، أدار رأسه، وأطلق دينيس النار. سقط خارج الدائرة، ولكنه نهض ودخلها ثانية، تدحرج جسده باتجاهنا، وحينما أطلقت الرصاصة الثانية، أطلق زئيرًا واحدًا غاضبًا.

في لحظة، بدت أفريقيا كبيرة بلا نهاية، أنا ودينيس نقف فوقها، صغيرين للغاية. خارج نطاق ضوء المصباح هناك، لم يكن هناك شيء سوى الظلام، وكانت السماء ترسل إلينا مطرًا. ولكن حينما انخفض صوت الزئير العميق، لم يكن هناك حركة في أي مكان، ورقد الأسد ساكنًا، وقد تحول رأسه بعيدًا عن جانبه، وكأنها إيماءة تظهر اشمئزازه. لقد كان هناك حيوانان كبيران ميتان في حقل البن بينما كان يخيم صمت الليل على المكان كله.

مشينا بخطوات وئيدة حتى وصلنا لمكان الأسدين. من مكان وقوفنا، كان الأسد الأول يبعد مسافة ثلاثين ياردة، والآخر خمسًا وعشرين ياردة. كلاهما كان ناضجًا، صغير السن، وقويًا، وسمينًا. لقد خرج الصديقان المقربان إلى التلال أو السهول، عقدا العزم على خوض المغامرة الكبيرة ذاتها، ثم لقيا حتفهما معًا.

في هذا الوقت كان كل تلاميذ المدرسة في طريقهم للخروج، وكانوا يتدفقون على الطريق ويتوقفون لمشاهدتنا ويصرخون بصوت ناعم خفيض: "ماسابو. هل أنت هناك؟ هل أنت هناك؟ مسابو مسابو".

جلست على أسد وأجبتهم صائحة: "أجل أنا هنا".

ثم يواصلون، بصوت أعلى وشجاعة أكبر: "هل أطلق بيدار الرصاص على الأسدين؟ الأسدين معا؟" وحينما علموا أن الأمر كذلك، جاءوا جميعًا إلى المكان، مثل سرب من أرانب الربيع البرية تقفز لأعلى وأسفل ليلاً. ثم ألفوا أغنية بهذه المناسبة: كانوا يغنونها كما يلي: "ثلاث طلقات. أسدان. ثلاث طلقات. أسدان". كانوا يزخرفون الأغنية وينقحونها، بصوت واضح أحدهم وراء الآخر: "ثلاث طلقات صائبة، أسدان كبيران شريران من كالي". ثم يجتمعون معًا مرددين في نشوة في نغمة واحدة: "A, B, C, D" لأنهم كانوا قادمين مباشرة من المدرسة، ورؤوسهم محشوة بالحكمة.

في وقت قصير جاء عدد كبير من الناس إلى مكان الحدث: عمال المصنع، ومستأجرو الأرضي من المانياتا القريبة، وصبية منزلي، وهم يحملون مصابيح "هوراكين. وقفوا حول الأسود وتحدثوا عنهم، ثم عكف كانوثيا ورجل الإسطبل، وقد جلبا معهما السكاكين، على سلخ جلديهما. لقد منحت جلد أحد هذين الأسدين فيما بعد هدية للشيخ الهندي الأكبر. ظهر بوران سينج نفسه في مكان الحدث، مرتديًا عباءة، جعلته يبدو نحيفًا بشكل لا يصدق، بينما لمعت ابتسامته الهندية المعسولة بين ثنايا لحيته السوداء الكثيفة، كان يتلعثم بمرح حينما يتحدث. كان شغوفا أن يقتني لنفسه دهن الأسدين؛ لأن قومه يقدرون قيمته كدواء بشكل كبير- من الإشارة التي عبر بها عن نفسه لي، فهمت أن الدواء كان يستخدم ضد الروماتيزم والعجز الجنسي. بكل ذلك، أصبح حقل البن مكانًا حيويًا جدًا، توقف المطر، وأرسل القمر بضوئه للجميع.

عدنا إلى المنزل وأحضر لنا جوما الزجاجة وفتحها. كنا مبللين للغاية وقذرين أيضًا، متسخين بالطين والدماء، ولم يكن لائقًا أن نجلس لاحتسائها، ولكننا وقفنـــا أمـــام نار مشتعلة في حجرة الطعام، وشربنا خمرنا المنعش الفائر بسرعة.

لم ننطق كلمة واحدة. كنا كجسد واحد في تلك المطاردة ولم يكن هناك ما يقوله الواحد منا للآخر.

حظي أصدقاؤنا بقدر وافر من التسلية من مغامرتنا هذه. لم يكن السيد بولبيت العجوز ليتحدث إلينا الليلة كلها حينما ذهبنا في المرة التالية للرقص في الملهى.

إنني أدين بالكثير لدينيس فينش- هايتون، أدين بما أعتقد أنه السعادة الكبرى والأكثر إشعاعًا في حياتي في المزرعة: لقد طرت معه في أنحاء أفريقيا. هناك، حيث يوجد القليل من الطرق أو لا يكون لها وجود أصلاً، وحيث يمكن لطيارتك أن تهبط على السهول، فإن الطيران يصبح أمرًا ذا أهمية حقيقية وحيوية في حياتك، إنه يفتح أمامك عالمًا. لقد جلب دينيس معه طائرة مروحية تشبه الفراشة؛ يمكنها أن تهبط على السهل المجاور الذي يبعد بضع دقائق فقط من منزلي، وكنا نطير تقريبًا كل يوم.

يمكن أن تشاهد مناظر هائلة وأن تحلق لأعلى فوق المرتفعات الأفريقية، حيث التكوينات المدهشة والتغيرات الضوئية واللونية، قوس قزح يسطع على الأرض الخضراء المنيرة بضوء الشمس، وتتأرجح السحب الضخمة والعواصف الوحشية السوداء الكبيرة كلها حولك راقصة في سباق فريد. الانهمار الغزير للأمطار يضفي على الهواء بارتياب لونًا أبيض. لا يمكن للغة أن تجد كلمات لتعبر عن تجارب الطيران، وينبغي على المرء أن يخترع كلمات جديدة مع مرور الوقت. حينما تطير فوق الوادي الانكساري الخسيف وبراكين سوسوا ولونجونوت، تكون قد سافرت بعيدًا وعبرت أراضي على الجانب الآخر من القمر. في أوقات أخرى قد تطير على مستوى منخفض لكي ترى الحيوانات على السهول وتشعر حيالهم بمثل شعور الرب عندما خلقها للتو، وقبل أن يفوض آدم في منحها أسماء.

ولكن ليست الرؤى ولكن النشاط هو ما يجعلك تشعر بالسعادة. إن البهجة والمجد اللذين يشعر بهما الطائر ينبعان من الطيران ذاته. إنها مشقة، واستعباد يستـــدعى مشـــاعر الحـــزن، لهؤلاء الذين يقطنون المدن، لأنهم في كل تحركاتهم لا يعرفون سوى بعد واحد، إنهم يسيرون على الخط، وكأنهم قد أصبحوا يسيرون على الصراط المستقيم. إن الانتقال من الخط المستقيم إلى الطائرة ذات البعدين حينما تتجول عبر حقل أو خلال الأحراش، تحرر رائع للعبيد، كما حدث في الثورة الفرنسية. ولكنك حينما تكون في الهواء فإنك تكون مأخوذاً بالحرية الكاملة التي تسبغها عليك الأبعاد الثلاثة؛ بعد عصور طويلة من النفي والأحلام يرمي القلب المثقل بالحنين للوطن نفسه بين ذراعي الفضاء. قوانين الجاذبية والزمن:

"... في غابة الحياة الخضراء الصغيرة،

تلك الحيوانات المفترسة المروضة، لا يعرف أحد شيئًا

عن الرقة التي تبدو عليها!".

في كل مرة أركب فيها طائرة وأدع نفسي لأنظر لأسفل كنت أدرك أنني متحررة من أسر الأرض، كان لدي وعي باكتشاف عظيم جديد، "أجل" هكذا كنت أفكر، "هكذا هو الأمر إذن. والآن أفهم كل شيء".

في يوم من الأيام طرت أنا ودينيس إلى بحيرة ناترون، وكانت تبعد تسعين ميلاً جنوب شرق المزرعة، ومنخفضة بقدر أربعة آلاف قدم أو أكثر، وألفي قدم فوق سطح البحر. بحيرة ناترون مكان يستخرجون منه الصودا. قاع البحيرة والشواطئ عبارة عن نوع من مادة صلبة بيضاء، لها رائحة حادة.

كانت السماء زرقاء، ولكن بمجرد أن طرنا فوق السهول وسبحنا فوق الأراضي الصخرية العارية والمنخفضة، بدا اللون كله وكأنه يحترق. بدا المشهد

الطبيعي كله أسفلنا مثل صدفة ظهر السلحفاة وقد وضع أحدهم عليها علامات برقة. بشكل مفاجئ، في المنتصف، كانت البحيرة. كان القاع الأبيض يلمع خلال الماء، يمنحها، حينما تراها من الجو، لونًا لازورديًا مذهلاً مفاجئًا صافيًا للغاية لدرجة أنك تغمض عينيك حينما تصدم به؛ إن امتداد الماء يكمن في الأرض المكشوفة للرياح ذات اللون الأصفر المائل للسمرة، والتي تبدو مثل حجر نفيس لامع كبير الحجم. كنا نطير على ارتفاع كبير، والآن هبطنا لأسفل، وبينما نغطس، كان ظلنا الأزرق الداكن يطفو من تحتنا وفوق البحيرة ذات اللون السماوي الفاتح. هنا تعيش الآلاف من طيور الفلامنجو، على الرغم من أنني لا أعرف كيف توجد في المياه المالحة- فمن المؤكد أنه ليس هنا أي أسماك. عند اقترابنا تفرقت في دوائر كبيرة وفي شكل مروحة، مثل أشعة الشمس الثابتة، مثل رسمة صينية فنية على حرير أو بورسالين، تكون تصميمها الخاص، وتتغير مع زاوية نظرنا إليها.

هبطنا على الشاطئ الأبيض، كان مشعًا حرارة بيضاء مثل فرن، وتناولنا الغداء هناك، محتمين من الشمس تحت جناح الطائرة. لو مددت يدك من الظل، تكون الشمس ساخنة جدًا لدرجة أنها يمكن أن تؤذيك. حينما وصلت في البداية زجاجات البيرة معنا، مباشرة من الأثير، كانت باردة نوعًا ما، ولكن قبل أن نجهز عليها، في ربع ساعة، كانت قد أصبحت ساخنة كقدح من الشاي.

بينما كنا نتناول الغداء، ظهرت مجموعة من محاربي الماساي في الأفق، واقتربوا منا بسرعة. لا بد أنهم قد لمحوا الطائرة وهي تهبط من على مسافة، وقرروا أن ينظروا إليها عن قرب، وكان السير على أي بعد، حتى في أراض كهذه، لا يعني شيئًا للماساي. تقدموا، أحدهم أمام الآخر، عراة، بقاماتهم الطويلة والنحيفة، يتألقون بأسلحتهم؛ ببشرة داكنة مثل الفحم العضوي على الرمال الرمادية المائلة للصفرة. على قدمي كل منهم تقبع بركة صغيرة من الظل: لقد كانت تلك

بالإضافة إلى ظلينا، الظلال الوحيدة على الأرض وعلى مسافة بعيدة بقدر ما تستطيع العين النظر. حينما وصلوا إلينا وقفوا في طابور، كانوا خمسة. ألصقوا رؤوسهم معًا، وبدءوا يتحدثون الواحد للآخر عن الطائرة وعنا. لو كنا من أبناء الجيل الماضي لكان أمرًا مهلكًا لنا أن نقابل أحدًا منهم. بعد مرور بعض الوقت، تقدم أحدهم وتحدث معنا. لأنهم يستطيعون فقط التحدث بلغة الماساي ونحن نفهم القليل فقط منها، فسرعان ما تباطأت سرعة الحوار بيننا، خطا خطوة للخلف متجهًا لرفاقه، وبعد ذلك ببضع دقائق أداروا كلهم ظهورهم لنا، وساروا مبتعدين في صف واحد، والسهل الملحي الأبيض المحترق أمامهم.

"هل ترغبين في الطيران إلى نايفاشا؟" قال دينيس. واستطرد، "ولكن الأرض التي تقع بين المكانين شديدة الصلابة، وليس من المحتمل أبدًا أن نهبط في أي مكان في طريقنا. ولهذا فإن علينا أن نحلق لأعلى في السماء ونبقى لأعلى على ارتفاع اثني عشر ألف قدم".

كان الطيران من بحيرة ناترون إلى نايفاشا هو الشيء المرغوب ذاته(٣٠) وهكذا اتخذنا أقصر طريق، وحافظنا على ارتفاع الاثنتى عشرة قدمًا طوال الرحلة، وكان ارتفاعًا كبيرًا، لدرجة أنه ليس هناك ما يمكن النظر إليه. كنت قد خلعت غطاء رأسي المخطط، المصنوع من جلد الحملان عند بحيرة ناترون، الآن، لقد عصر الهواء جبهتي، حتى صارت باردة مثل الماء المثلج؛ طار كل شعري للخلف، وكأن رأسي قد نزعت من مكانها. هذا الممر، في الحقيقة، لم يتغير، في الاتجاه المعاكس، يتخذه طائر الرخ كل مساء، حينما يحمل فيلاً بين مخالبه من أجل صغارها، وهي تصنع حفيفًا، وهي تطير من أوغندا إلى الأراضي العربية. حيث تجلس أمام قائد طائرتك، ولا يحيط بكما سوى الفضاء، فإنك تشعر أنه يحملك على راحتي كفيه، كما حمل الجني الأمير على راحتيه في الهواء، وأن الأجنحة التي

تحملك للأمام هي أجنحته. هبطنا في مزرعة أحد أصدقائنا في نايفاشا؛ البيوت الحمقاء المضمحلة، والأشجار الصغيرة جدًا المحيطة بها، كانت كلها تلقي بنفسها منبسطة للخلف بينما تشاهدنا ونحن نهبط.

حينما لم يكن لدينا أنا ودينيس وقت للأسفار الطويلة، كنا نخرج لنزهة جوية قصيرة فوق مرتفعات نجونج، عادة في وقت الغروب. تلك التلال، من بين الأجمل في العالم، ربما تكون في تألقها الأجمل، وأنت تنظر إليها من الهواء، حينما ترتفع السلاسل الجبلية، عارية باتجاه القمم الأربع، وتجري بموازاة الطائرة، أو تغوص فجأة لأسفل، وتبدو في شكل أرض خضراء صغيرة منبسطة.

هنا في التلال كانت توجد الجواميس. في الأيام الأولى لمجيئي لأفريقيا- حينما كانت تستهويني فكرة قتل كائن حي من كل نوع من الحيوانات في الأحراش- الأفريقية- أطلقت النار ذات مرة على ثور. فيما بعد، حينما لم أكن حريصة جدًا على إطلاق النار بقدر شغفي بمشاهدة الحيوانات الوحشية، كنت أخرج لرؤيتها ثانية. لقد أقمت معسكرًا في التلال بجوار ينبوع ماء، في منتصف الطريق لأعلى، وجلبت خدمي، خيامي والمؤن معي. ظللنا أنا وفرح متيقظين في الظلام، وفي الصباح القارس البرودة، كي نزحف ونسير ببطء خلال الشجيرات والعشب الطويل، متأملين أن نلمح مشهدًا لقطيع؛ ولكنني رجعت مرتين دون أن يحالفني الحظ؛ لأن القطعان كانت تعيش هناك، كان جيراني من ناحية الغرب، لا زالوا يشكلون قيمة للحياة في المزرعة، ولكنهم كانوا جيرانًا جادين، ومكتفين ذاتيًا، النبلاء القدامى في المرتفعات، لقد قل عددهم بشكل ما الآن؛ ولم يحصلوا على الكثير.

ولكن في مساء يوم ما وأنا أتناول الشاي مع بعض الأصدقاء من الأراضي العليا، خارج المنزل، جاء دينيس على متن طائرته من نيروبي، وطار فوق

رؤوسنا متجهًا ناحية الغرب؛ بعد فترة وجيزة عاد ثانية وهبط في المزرعة. قدت سيارتي بصحبة الليدي ديلامير إلى السهل لكي نحضره، ولكنه لم يكن يريد أن يخرج من طائرته.

قال دينيس: "إن الجاموس هناك يرعى في التلال، تعالي لتشاهديها عن كثب".

"لا أستطيع المجيء،" قلت له، "لدي حفل شاي في المنزل".

قال دينيس: "ولكننا سنذهب لرؤيتها ونعود في ربع ساعة".

لقد بدا لي ذلك وكأنه عرض يقدمه شخص لك في ثنايا حلم. لم تكن الليدي ديلامير ترغب في الطيران، ولهذا فقد صعدت معه بمفردي. طرنا والشمس قابعة في السماء، ولكن كان جانب التل يرقد في ظل بني شفاف، دخلنا فيه للتو. لم يستغرق أمر التجسس على قطيع الجاموس من الجو وقتًا طويلاً. فوق إحدى السلاسل الجبلية الخضراء المستديرة التي تجري، مثل طبقات من القماش مجمعة معًا عند كل قمة، أسفل جانب جبل نجونج، هناك قطيع من سبع وعشرين جاموسة ترعى بين الأعشاب. أولاً، وجدناها على مسافة عميقة تحتنا، مثل فئران تتحرك بنعومة على الأرض، ولكننا هبطنا لأسفل، ندور بالطائرة حول تلك السلسلة الجبلية التي ترعى بجوارها، وعبرها، فوقهم بقدر مائة وخمسين قدمًا بمسافة تكفي للصيد؛ لقد قمنا بعدّهم بينما هم يتمازجون ويتفرقون في سلام. كان هناك ثور أسود كبير جدًا بين القطيع، وثور أو اثنان أصغر سنًا وعدد من العجول. كان المدى المفتوح للأرض المكسوة بالعشب التي يسيرون فوقها مسيجًا بالشجيرات؛ لو اقترب غريب من مكانها كانوا سيسمعونه أو يشمون رائحته على الفور، إلا أنهم لم يكونوا مستعدين لمن يقترب منهم عن طريق الجو. اضطررنا للتحرك فوقهم طوال الوقت. لقد سمعوا الضجيج الذي أحدثته ماكينتنا وتوقفوا عن تناول العشب، ولكن

لا يبدو أنهم قد اعتادوا النظر لأعلى. في النهاية أدركوا أن هناك شيئًا ما غريبًا جدًا على وشك الحدوث؛ سار الثور الكبير سنًا أولاً في مقدمة القطيع، رافعًا قرنيه الثقيلين، متحديًا العدو اللامرئي، وأقدامه الأربعة مغروسة في الأرض- وفجأة بدأ يهرول متجهًا لأسفل السلسلة الجبلية وبعد لحظة انطلق يركض باعتدال. تبعته الآن كل عشيرته، اندفعوا وقد استولى عليهم الذعر، بتهور لأسفل، وبينما هم يتحركون بسرعة وبشكل مفاجئ ويغوصون في الشجيرات، انبعث التراب والأحجار المخلخلة في أعقابهم. توقفوا في الحرش وبقوا على مقربة من بعضهم: بدا الأمر وكأن ممرًا ضيقًا يخترق الأحراش هناك في التل قد بات مرصوفًا بالأحجار الرمادية الداكنة. هنا، اعتقدوا أنهم بعيدين عن مرمى البصر، ولذا كانوا يتحركون على الأرض، ولكنهم لم يتمكنوا من الاختباء عن عيني طائر في الهواء. طرنا لأعلى ثم بعيدًا. كان الأمر وكأن قلب تلال نجونج قد تلقفنا بداخله من خلال طريق سري غير معروف.

حينما عدت ثانية لحفل الشاي في بيتي. كان إبريق الشاي لا يزال ساخنًا جدًا على الطاولة الحجرية لدرجة أنني لسعت أصابعي حينما لمسته. لقد مرّ الرسول بالتجربة ذاتها حينما قلب إبريقًا من الماء، وأخذه الملاك جبريل، وطار معه خلال السماوات السبع، وحينما عاد، لم يكن الماء قد نفد من الإبريق بعد.

في تلال نجونج، كان يعيش هناك أيضًا زوج من النسور. اعتاد دينيس في فترة بعد الظهيرة أن يقول: "لنذهب لزيارة النسور". لقد رأيت مرة أحدهما يجلس على حجر بجوار قمة الجبل، وينهض من جلسته، ولكن بخلاف ذلك كانا يقضيان حياتهما في الجو. لقد طاردنا عدة مرات أحد هذه النسور، نميل ونلقي نفسنا إلى أحد جناحيه ثم نميل ناحية الآخر، وأعتقد أن هذا الطائر حاد البصر كان يلعب معنا. في إحدى المرات حينما كنا نجري بجوار بعضنا، أوقف دينيس محرك طائرته فجأة، وهو يفعل ذلك، سمعت النسر وهو يصرخ صراخًا فزعًا حادًا.

أحب السكان المحليون الطائرة، ولوقت كانت هناك موضة في المزرعة لرسمها، ولذا فقد كنت أجد أوراقًا في المطبخ، أو كنت أجد حائط المطبخ ذاته مغطى برسومات لها، ومعها حروف "أ ب أ ك" مكتوبة بعناية. ولكنهم لم يهتموا بها حقيقة ولا برحلاتنا الجوية.

كان السكان المحليون يكرهون السرعة، كما نكره نحن الضوضاء؛ السرعة بالنسبة لهم، في أفضل الأحوال، أمر من الصعب تحمله. إنهم أيضًا يألفون الوقت، والتفكير في كيفية قتل أو تزجية الوقت لا يعبر رؤوسهم. في الحقيقة، كلما منحتهم وقتًا أكثر، أصبحوا أكثر سعادة، ولو عهدت لأحد أفراد الكيكويو بأن يمسك لجام حصانك بينما تقوم بزيارة، فإنك تعرف من ملامح وجهه أنه يأمل أن تغيب وقتًا طويلاً جدًا. لا يحاول عندئذ أن يمضي الوقت، ولكنه يتخذ مجلسه ويقضي وقته.

ليس لدى السكان المحليين أيضًا أي تعاطف مع أي نوع من الآلات أو العمال الميكانيكيين. لقد تأثرت مجموعة من الجيل الجديد بحماس الأوروبيين للسيارة الآلية، ولكن أحد كبار السن من الكيكويو قال لي إنهم سيموتون مبكرًا، ومن المحتمل أنه كان محقًا، لأن المارقين يأتون من نسل أمة ضعيفة. من بين مخترعات الحضارة التي يعجب بها المحليون ويقدرونها الكبريت، الدراجة، والبندقية؛ وبالرغم من ذلك فإنهم سيستغنون على الفور عنها في لحظة لينصتوا لحديث عن بقرة.

ذات مرة أخذ فرانك جريسولد ويليامز، من وادي كيدونج، أحد رجال الماساي معه إلى إنجلترا كخادم يعتني بالخيول، وأخبرني أنه ركب خيوله في الهايد بارك بعد أسبوع من وصوله وكأنه قد ولد في لندن. سألت هذا الرجل حينما عاد إلى أفريقيا عما أعجبه كثيرًا في إنجلترا. فكر في سؤالي وقد ارتسمت على وجهه علامات الجدية وقال بعد وقت طويل وبشكل مهذب إن الناس البيض لديهم جسور جميلة جدًا.

لم أر أبدًا رجلاً عجوزًا من السكان المحليين لم يعبر سوى بالاستياء وبشعور ما بالخزي إزاء الأشياء التي تتحرك من تلقاء نفسها بلا تدخل واضح من الإنسان أو بقوى الطبيعة. إن العقل الإنساني يشيح بوجهه عن أعمال السحر بقدر انصرافه عن الأشياء غير اللائقة. وقد يجبر على الاهتمام بتأثيره، ولكن ذلك لا علاقة له بالعمل الداخلي، ولم يحاول أحد أبدًا أن يستخرج من ساحرة الوصفة الدقيقة لمكيدتها.

في إحدى المرات حينما كنا نطير أنا ودينيس، ثم هبطنا على الوادي في المزرعة، جاء رجل عجوز جدًا من رجال الكيكويو وتحدث معنا:

قال: "لقد طرتما لارتفاع عال اليوم، حتى أننا لم نتمكن من رؤيتكما، ولكننا فقط سمعنا الطائرة تطن كنحلة".

وافقته الرأي أننا طرنا على ارتفاع عال.

سألنا: "هل رأيتم الله؟".

أجبته: "لا يا ندويتي، لم نر الله".

قال: "آها، إذن لم تطيروا على ارتفاع كاف، ولكن الآن أخبريني: هل تعتقدين أنه بإمكانكما أن تطيرا على ارتفاع كاف لرؤيته؟".

"لا أعرف يا ندويتي،".

"وأنت، يا بيدار"، قال موجهًا حديثه إلى دينيس، "ماذا تعتقد؟ هل يمكنك أن تطير بطائرتك على ارتفاع كاف لرؤية الله؟".

"لا أعرف في حقيقة الأمر".

"إذن"، قال ندويتي، "لا أعرف على الإطلاق لم تستمرا أنتما الاثنان في التحليق لأعلى".

هوامش الفصل الثالث

(١) وردت العبارة باللاتينية.

(٢) Manyatta: تعني مجتمع الماساي الموجود في شرق أفريقيا: مجتمع مكـــون مـــن أكواخ عديدة يبلغ طولها ستة أمتار محاطة بسور.

(٣) إقليم في وسط إيطاليا المعاصرة.

(٤) نوع قديم من القرود الأفريقية ذات لونين أبيض وأسود كانت تعيش في أفريقيا.

(٥) وردت كما ينبغي باللغة الفرنسية: comme il fault

(٦) وردت هذه القصيدة القصيرة بالفرنسية.

(٧) نحات دنيماركي له شهرة عالمية عاش في الفترة من ١٧٧٠- ١٨٤٤م.

(٨) طائر من فصيلة القرليات، صائد أسماك المياه العذبة.

(٩) سمك يعيش في المياه العذبة.

(١٠) Fameux وردت بالفرنسية وتعني من الدرجة الأولى.

(١١) وردت بالفرنسية Omlette a la chàsseur

(١٢) المربوط: هو طائر كبير الحجم باللونين الأبيض والأسود يعيش في أفريقيا ويتخـــذ الجيف طعامًا له، ويستخدم ريشه الناعم في زخرفة الملابس.

(١٣) ورد الاسم بالفرنسية وسميت الزهرة على اسم شخصية نسائية فرنسية شهيرة.

(١٤) Candide, L'optimisime: اسم رواية قصيرة كتبها فولتير فيلـــسوف عـــصر التنوير في عام ١٧٥٩.

(١٥) اسم شخصية أخرى لفولتير.

(١٦) السيزال: نبات تصنع الحبال من أليافه.

(١٧) Knut Hamson كاتب نرويجي شهير حصل على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٢٠.

(١٨) Hellsepont: ميناء قديم في آسيا الصغرى.

(١٩) Matterhorn: الاسم الألماني لجبل يقع ما بين سويسرا وإيطاليا ويبلغ ارتفاعه أكثر من أربعة عشر ألف قدم.

(٢٠) D'Artagnan: اسم شخصية خيالية لشاب عنيد كتبها ألكسندر دوما.

(٢١) وردت بالفرنسية Apres Vingt Ans وهو اسم رواية لألكسندر دوما نشرت مسلسلة عام ١٨٤٥.

(٢٢) إشارة إلى الكاتبين المسرحيين البريطانيين ويليام كونجريف ١٦٧٧٠-١٧٢٩ وويليام ويتشيرلي ١٦٤٠-١٧١٦ .

(٢٣) وردت العبارة بالفرنسية.

(٢٤) وردت العبارة بالفرنسية

(٢٥) مركب شراعي عربي.

(٢٦) وردت العبارة بالفرنسية.

(٢٧) وردت العبارة بالفرنسية.

(٢٨) وردت العبارة بالألمانية.

(٢٩) هانزل وجريتل عامٍ ١٨٩٣م: قصة شهيرة للأطفال تحكي قصة أخ وأخت صغيرين اكتشفا بيتاً من الحلوى والكعك تسكنه ساحرة شريرة. تحولت القصة ذات الأصل الألماني التى سجلها الأخوة جريم، إلى أعمال فنية أبرزها أوبرا.

(٣٠) وردت العبارة بالألمانية.

الفصل الرابع

من مذكرات مهاجرة

ذباب النار[1]

هنا في الأراضي المرتفعة، حينما تنتهي الأمطار الغزيرة، وتبدأ البرودة تتسرب في ليالي الأسبوع الأول من يونيو، يحوم ذباب النار في الغابات.

في المساء قد تجد ذبابتين أو ثلاث، نجوم مغامرة وحيدة تطفو في الهواء الصافي، ترتفع وتنخفض، وكأنها تركب أمواجًا، أو كأنها تنحني احترامًا. لإيقاع طيرانهم هذا تضيء وتطفئ مصابيحها الضئيلة. يمكنك أن تمسك بالحشرة وتجعلها تلمع على راحة يدك، مشعة ضوءًا غريبًا، رسالة غامضة؛ إنها تحول الجلد إلى لون أخضر باهت في دائرة صغيرة حوله. في الليلة التالية يكون هناك المئات والمئات منها في الغابات.

لسبب ما تحافظ تلك الحشرات على التحليق على ارتفاع معين، أربع أو خمس أقدام، فوق الأرض. من المستحيل إذن ألا نتخيل مجموعة من الأطفال في السادسة أو السابعة من عمرهم يركضون خلال الأحراش المظلمة حاملين الشموع، وعصيًّا صغيرة يغمسونها في نار سحرية، بفرح يقفزون لأعلى ويمرحون ويركضون ويؤرجحون مصابيحهم اليدوية بابتهاج. الغابات عامرة بالحياة الممتعة، وكلها تجري بإيقاع صامت مثالي.

طرق الحياة

حينما كنت طفلة شاهدت لوحة – لوحة مؤثرة نوعًا ما، وكأنها قد خلقت أمام عينيك بينما كان يروي الفنان قصتها. لقد أخبروني القصة في كل مرة بالكلمات ذاتها.

في بيت مستدير بنافذة مستديرة وحديقة صغيرة مثلثة الشكل، أمامه، كان ثمة رجل يعيش هناك.

على مقربة من المنزل كانت هناك بركة بداخلها أسماك كثيرة.

ذات ليلة، استيقظ الرجل على ضوضاء مزعجة، وراح يبحث في الظلام عن سببها. سار في الطريق إلى البركة.

هنا بدأ الراوي يرسم، وكأنه يرسم خريطة لتحركات جيش، خطة للطرق التي اتخذها الرجل.

بدأ أولاً الركض ناحية الجنوب. هنا تعثر في حجر كبير في منتصف الطريق وعلى مسافة قريبة سقط في أخدود، نهض، ثم سقط ثانية في أخدود، نهض، سقط في أخدود ثالث، ثم خرج منه.

ثم أدرك أنه كان مخطئًا، فركض عائدًا إلى ناحية الشمال. ولكن هنا بدا له مرة أخرى أن الضوضاء كانت تأتيه من الجنوب؛ ولذا ركض إلى هناك مرة أخرى. تعثر في البداية في حجر كبير في منتصف الطريق، ثم بعد قليل سقط في أخدود، نهض، ثم تعثر في أخدود آخر، نهض فسقط في أخدود ثالث، وخرج منه.

الآن كان يمكنه أن يسمع بوضوح أن الضوضاء تأتي من نهاية البركة. أسرع إلى المكان، ورأى أن هناك تسربًا كبيرًا حدث في السد، وأن المياه كانت توشك على النفاذ بكل ما بِها من أسماك. جلس لإصلاح السد، وأوقف الدعامة، بعد أن انتهى من كل ذلك، عاد للفراش. ثانية.

في الصباح التالي، نظر الرجل من نافذته المستديرة الصغيرة - وهكذا انتهت الحكاية، بشكل درامي كما ينبغي - ماذا رأى؟ - لقلقًا.

أشعر بالسعادة أن أخبرني أحدهم بهذه القصة وسوف أتذكرها وقت الحاجة. لقد خدع الرجل في القصة بشكل قاس، وكانت هناك معوقات في طريقه. لا بد أنه قد فكر: "يا للحياة التي لا تثبت على وتيرة واحدة! يا لها من سلسلة من سوء الحظ!" لا بد أنه قد تعجب للفكرة من وراء كل تلك المحاولات: لم يكن ليتخيل أن طائر لقلق هو سبب كل هذه الضجة. ولكن خلال كل تلك المحاولات أبقى هدفه واضحًا؛ لم يضطره أى شيء لأن يدير ظهره ويعود للمنزل؛ لقد أنهى مهمته، وحافظ على عقيدته. لقد حصل ذلك الرجل على جائزته. رأى اللقلق في الصباح. إذن، لا بد أنه ضحك بصوت عال.

المكان الضيق، الحفرة المظلمة التي أرقد فيها الآن، هذه المخالب لأي طائر يا ترى؟ حينما ينتهي مشروع حياتي، هل سيتسنى لي، أو يتسنى للناس الآخرين أن يروا طائر لقلق؟.

وراء كل الكلمات يا ملكة، هل يستحق الأمر تجديد الألم[٢]*!* تروى[٣] تشتعل، سبع سنوات في المنفى، ثلاث عشرة سفينة مفقودة. ما فائدة ذلك؟ "تأنق لا جدود له، فخامة سحرية، ورقة عذبة".

تشعر بالحيرة حينما تقرأ المذهب الثاني من الأحكام الخاصة بالكنيسة المسيحية: أنه قد صلب، مات، ودفن، وأنه ذهب لأسفل في الجحيم، وأيضًا أنه قام ثانية في اليوم الثالث، أنه صعد للجنة، ومن ثم سوف يأتي ثانية.

يا لها من تقلبات، مرعبة كتلك التي واجهها الرجل في الحكاية. ما الذي سينتج عن كل ذلك في نهاية الأمر؟ - المذهب الثاني في أحكام عقيدة نصف سكان العالم.

الوحشي أتـى لنجدة الوحشي

كان مديري يبيع الثيران المخصية خلال الحرب للجيش، وقد أخبرني أنه كان قد اشترى في ذلك الوقت، في منطقة الماساي، عددًا من الثيران الصغيرة من نتاج ماشية وجواميس الماساي. إن إمكانية تهجين الماشية المحلية مع الحيوانات البرية أمر جدلي؛ لقد حاول الكثير من الناس أن يخلقوا نوعًا من الحصان الصغير يناسب طبيعة البلاد، من خلال توليده من الحمار الوحشي والخيول، على الرغم من أنني أنا نفسي لم أر مثل تلك الحيوانات المهجنة. ولكن مديري أكد لي أن تلك الثيران كانت في الحقيقة نصف جواميس. كانت، كما أخبرني الماساي، تنمو في وقت أطول كثيرًا من الماشية العادية، ولهذا فقد انتابت الماساي، الذين كانوا يشعرون بالفخر حيالها، حالة من الفرح في ذلك الوقت؛ لأنهم سيتخلصون منها، فقد كانت وحشية جدًا.

لقد اتضح أن تدريب تلك الثيران من أجل جر المحراث أو العربة كان من قبيـــل الأعمـــال الشاقة. لقد تسبب أحد تلك الحيوانات الصغيرة القوية في متاعب لا نهاية لها لمديري ولمواطنيه من سائقي الثيران. لقد اندفع بقوة في اتجاه الرجلين، وكسر حامل الدلوين خاصتهما، أرغى، خار؛ وحينما ربطوه جرف الأرض.

وأثار سحابات غبار أسود كثيف، حول عينيه الحمراء المحتقنة إلى لون أبيض، وكانت الدماء، كما قال الرجل، تسيل من أنفه. لقد أصبح الرجل، الذي بدا كوحش، مثل جثة هامدة خائبة مع نهاية الصراع المحتدم بينهما، حيث كان العرق الغزير يتدفق من جسده المتألم كله.

روى لي مديري: لكي "أكسر قلب الثور، ألقيته في حقل صغير للثيران المخصية، وأرجله الأربعة مربوطة جيدا معًا، وأحكمت لجامًا حول خطمه وفكيه، وحتى في ذلك الحين، وهو يرقد كحيوان أخرس، كان أنفه ينفث نافورات من البخار الحارق، وكان ينخر بشكل مزعج. كنت أتطلع أن أراه تحت النير لسنين طويلة قادمة. ذهبت للفراش في خيمتي وظللت أحلم بذلك الثور الأسود. أيقظتني جلبة كبيرة، كانت الكلاب تنبح، والسكان المحليون يصرخون وينادون عند حقل الثيران. جاء اثنان من الصبية الرعاة إلى خيمتي يرتعدان وأخبراني أنهما يعتقدان أن أسدًا قد دخل بين الثيران. ركضنا باتجاه المكان، وأخذنا المصابيح معنا، وأنا في نفسي جلبت بندقيتي معي. ونحن على مقربة من الحقل خفتت الضوضاء قليلاً. في ضوء المصابيح، رأيت شيئًا مرقطًا يفر هاربًا. كان هناك فهد على مقربة من الثور المــربوط، وقد التهم ساقه الخلفية اليمنى. لن نتمكن الآن أبدًا من رؤيته مربوطًا في النير.

"حينذاك" قال مديري، "أمسكت ببندقيتي وأطلقت النار على الثور".

حكاية عيسى

أثناء الحرب كان لديَّ طاه يدعى عيسى، كان رجلاً مسنًا يتميز بوعي كبير، وسجية رقيقة. في أحد الأيام وأنا في محل بقالة ماكينون في نيروبي، لشراء الشاي والبهارات، جاءت نحوي سيدة صغيرة ذات وجه حاد، وقالت إنها تعرف أن عيسى كان يعمل في خدمتي، فقلت إنه كان كذلك. "ولكنه كان يعمل في خدمتي سابقًا" قالت السيدة، وأضافت أنها كانت تريد استرداده. قلت إنني كنت أشعر بالأسف لذلك؛ لأنها لن تحصل عليه. "أوه، لا أفهم هذه الأمور" قالت السيدة. "إن زوجي موظف بالحكومة. من فضلك، هل يمكنك أن تخبري عيسى حينما تعودين للمنزل أنني أريده أن يعود، وأنه إن لم يعد فسوف يجند في كاريير كوربس[٤]" وأضافت، "أنا أعرف أن لديك ما يكفيك من خدم بخلاف عيسى".

لم أخبر عيسى بما حدث مباشرة؛ لقد تذكرت الأمر كله في المساء التالي، وأخبرته أنني قابلت سيدته السابقة، وبما قالته لي. ولدهشتي وجدت عيسى يرتعد خوفًا ويأسًا. قال: "أوه، لم لم تخبريني بذلك على الفور، ميمصاحب؟". "ستفعل السيدة ما قالته لك، يجب أن أتركك الليلة". "هذا هراء، لا أعتقد أن بإمكانهم أن يأخذوكِ هكذا". "يا رب ساعدني،" قال عيسى، "أخشى أن يكون الوقت قد فات بالفعل". "ولكن ماذا سأفعل بدون طاه يا عيسى؟" سألته. "حسنًا، إنك لن تحتفظي بي كطاه أيضًا حينما سيجندونني في الكاريير كوربس، أو لو سقطت ميتًا، كما سيكون حالي بالتأكيد قريبًا".

كان الناس في تلك الأيام يخافون من الكاريير كوربس إلى حد كبير لدرجة أن عيسى لم يكن لينصت لأى شيء أقوله. طلب مني اقتراض مصباح الهراكين، ورحل ليلاً إلى نيروبي، بكل ما يملكه في هذا العالم مربوطًا في قماشة.

بقي عيسى بعيدًا عن المزرعة لما يقرب من عام. خلال ذلك الوقت رأيته مرتين في نيروبي، وذات مرة عبرت أمامه في الطريق إلى نيروبي. على مدار هذا العام، كان يزداد عجزًا ونحافة، وأصبح وجهه متغضنًا، وصار شعر مقدمة رأسه الداكن رماديًا. في المدينة، لم يكن ليتوقف للتحدث معي، ولكننا حينما التقينا على الطريق الممهد وأوقفت سيارتي، وضع الدجاج المحلي الذي كان يحمله على رأسه، وجلس للتحدث.

كان لديه أسلوب رقيق، كعادته، ولكنه تغير تمامًا، وأصبح الآن من الصعب التعامل معه؛ لقد ظل مشغول البال طوال حديثنا، وكأنه يقف على مسافة بعيدة. لقد قسا القدر عليه، وبات مرتعبًا للغاية، وقد اضطر أن يمر بأحداث مجهولة بالنسبة لي، وخلال تلك التجارب أصبح طاهرًا ونقيا. كان الأمر وكأنك تتحدث مع أحد معارفك القدامى الذي دخل دار الرهبان في دير.

سألني عن أشياء في المزرعة، كما يفعل الخدم المحليون عادة، مفترضًا أن زملاءه من الخدم في غيابه سيتصرفون بشكل سيئ مع سيدهم الأبيض. "متى ستنتهي الحرب؟" سألني. قلت إنهم قد أخبروني أن الأمر لن يطول كثيرًا. قال: "لو أن الأمر سيستغرق عشر سنوات أخرى، فلا بد أن تعرفي أنني سأكون قد نسيت الوصفات التي علمتني إياها".

كان عقل هذا الرجل العجوز الصغير من الكيكويو، على الطريق وعبر السهول، يجري على الخط ذاته، خط بريلات – سافارين[٥]، الذي قال إنه لو

استمرت الثورة لخمس سنوات قادمة، فإن فن صنع دجاجة مطهية على البخار سيختفي.

كان من الواضح أن ما يشعر به عيسى من أسف بشكل رئيسي بسبب تعاطفه معي، ولكي أضع نهاية لهذا الأمر سألته عن حاله. فكر في سؤالي لدقيقة؛ فقد كانت هناك أفكار ينبغي جمعها من نقطة بعيدة قبل أن يستطيع أن يجيبني. قال في النهاية: "هل تتذكرين، ميمصاحب أنه كان من الصعب وضع اللجام على الثيران الخاصة بالمقاولين الهنود المتاجرين في أخشاب الغابات كل يوم، ولا يتاح لها أن ترتاح اليوم كله أبدًا، كما يتاح لثور المزرعة؟ الآن، أنا مع تلك السيدة أشعر وكأنني ثور خاص بمقاول أخشاب الغابات الهندي". كان عيسى ينظر بعيدًا وهو يتحدث، آسفًا. يكن السكان المحليون مشاعر محدودة جدًا تجاه الحيوانات؛ من المحتمل أن يكون ما قلته عن الثيران الخاصة بالهنود قد صدمه إلى حد بعيد.

أن يتذكر الآن هذا الأمر، ويستعيده بنفسه، فذلك يعني أنه أمر محير بالنسبة له.

خلال فترة الحرب، كان من أسباب ضيقي الكبير، أن كل الرسائل التي كنت أكتبها أو أستقبلها كانت تفتح بواسطة رقيب سويدي خمول في نيروبي. لم يكن ليجد ما يثير الشك فيها ولو بقدر قليل، ولكنه جاء، كما أعتقد، في سياق حياة روتينية؛ لأن يهتم بمن تصلهم تلك الخطابات، وأن يقرأ خطاباتي وكأنه يقرأ مسلسلاً في مجلة. اعتدت أن أضيف في خطاباتي بعض التهديد ضد رقيبنا لكي يقرأها، وحتى تؤخذ بعين الاعتبار بعد الحرب. حينما انتهت الحرب، قد يتذكر تلك التهديدات، أو قد ينهض من تلقاء نفسه ويندم على هذا الأمر؛ على كل الأحوال، لقد أرسل أحد السعاة راكضًا إلى المزرعة لكي يبلغنا بخبر الهدنة. كنت وحدي في المزرعة حينما وصل؛ فخرجت في نزهة إلى الغابة. كان المكان صامتًا للغاية، وكان من الغريب أن أعتقد أن الهدوء سيعم جبهة الحرب في فرنسا وفلاندرز–فقد

أصيبت كل البنادق بالخرس أيضًا. في مثل هذا السكون، بدت أوروبا وأفريقيا قريبتين من بعضهما البعض، وكأن بإمكانك أن تسير من ممر الغابة مواصلاً طريقك إلى جسر فيمي. حينما عدت ثانية للمنزل رأيت شخصًا واقفًا في الخارج. كان عيسى حاملاً حقيبته القماشية. أخبرني في الحال أنه قد عاد وأنه أحضر لي هدية.

كانت هدية عيسى عبارة عن صورة موضوعة تحت لوح زجاجي داخل إطار خشبي. كانت صورة شجرة، مرسومة بعناية فائقة بقلم حبر، وقد لونت كل ورقة من أوراقها المئة بلون أخضر واضح، وبحروف عربية منمقة، كتبت كلمات بحبر أحمر. ظننت أن الكلمات من القرآن، ولكن عيسى عجز عن شرح معناها؛ ظل ينظف الزجاج بكمه، مؤكدًا لي أنها هدية ممتازة. أخبرني أنه كان قد أوصى شيخ نيروبي العجوز برسم الصورة، خلال سنة محنته. لا بد أن يكون الأمر قد استغرق ساعات وساعات لكي يتمكن الشيخ العجوز من طباعة تلك الرسمة.

بقي عيسى معي حتى وفاته.

الإيجوانا[٦]

في بعض الأحيان كنت أصادف الإيجوانا في أراضي المحمية، تلك السحالي الكبيرة، وهي تعرض أجسامها لأشعة الشمس، وهي مستلقية على صخرة مستوية على مجرى النهر. لا تبدو جميلة الشكل، ولكنك لا يمكن أن تتخيل ألوانًا أجمل من ألوانها. إنها تلمع مثل كومة من الأحجار النفيسة أو مثل لوح زجاجي مقطوع من نافذة كنيسة قديمة. حينما، عند اقترابك منها، تلوح من بعيد مصدرة صوتًا كالصفير، ووميضًا بلون لازوردي، أخضر، بنفسجي فوق الصخور؛ تبدو الألوان وكأنها واقفة خلفها في الهواء مثل ذيل مذنب مضيء.

في إحدى المرات أطلقت النار على إيجوانا. لقد ظننت أنه بإمكاني أن أصنع أشياء جميلة من جلده. حدث شيء غريب في ذلك الوقت، لم أنسه أبدًا فيما بعد. حينما تحركت ناحيته، حيث كان يرقد ميتًا فوق جحره، وفي الحقيقة بينما كنت أخطو خطوات قليلة، بدا لونه باهتًا؛ لقد خبت كل ألوانه في زفرة واحدة طويلة، وحينما لمسته كان قد تحول إلى سحلية بليدة بلون رمادي مثل كتلة أسمنتية غير منتظمة الشكل. لقد كان الدم الحي داخل شرايينه بمثابة قوة دافعة تنبض بداخل الحيوان، أشعت كل هذا الوهج وتلك الروعة.

والآن وقد خبت الشعلة، وطارت الروح، بدت الإيجوانا ميتة مثل كيس من الرمل.

أتذكر في أحيان كثيرة حادثة هذه الإيجوانا كلما رغبت في إطلاق النار على أخرى. هناك في ميرو رأيت مواطنة شابة ترتدي سوارًا على هيئة شريط جلدي

عرضه بوصتان، مطرز بالكامل بحبات صغيرة جدًا بلون سماوي كانت مختلفة قليلاً في درجة اللون وتميل إلى الأخضر، الأزرق الفاتح، والأزرق اللازوردي. كانت شيئًا حيًا واستثنائيًا، يبدو أنها كانت تتنفس على ذراعها، لدرجة أنني أردت أن أحصل عليها لنفسي، وجعلت فرحًا يشتريها منها. بمجرد أن أصبحت على ذراعي تخلت عن سرها الخفي. لقد أصبحت مجرد شيء صغير ورخيص، ضمن ملابسي الفاخرة. كان الأمر برمته بمثابة لعبة لونية، ثنائي بين الأزرق السماوي و"النيجرو" – ذلك اللون الأسود البني العذب المتهيج، مثل الفحم العضوي والخزف الأسود، كبشرة مواطنة – تلك التي جعلت السوار ينبض بالحياة.

رأيت في متحف الحيوان في بيترماريتزبرج، في إحدى أحواض السمك العميقة، تركيبة الألوان ذاتها، وقد قاومت الموت هناك؛ لقد جعلتني أتعجب عما سنكون عليه حال الحياة، في قاع البحر أن تبعث لأعلى بشيء حيوي لدرجة بالغة. وقفت في ميرو ونظرت إلى يدي الذابلة والإسورة الميتة. بدا الأمر وكأن ظلمًا ما قد وقع على شيء نبيل، وكأن الحقيقة قد طمست. لقد بدا الأمر حزينًا جدًا لدرجة أنني تذكرت مقولة البطل في كتاب قرأته وأنا طفلة: "لقد قهرتهم جميعًا، ولكنني أقف بين القبور".

في بلد أجنبي، ومع كائنات الحياة الغريبة ينبغي أن يتدبر المرء الأمر لكي يكتشف إن كانت الأشياء ستحتفظ بقيمتها حينما تموت. بالنسبة لمستعمري أفريقيا الشرقية أسديكم نصيحة: "إكرامًا لعينيك وقلبك، لا تطلق النار على الإيجوانا".

فرح وتاجر فينيسيا

ذات يوم كتب لي صديق من بلادي واصفًا عرضًا مسرحيًا جديدًا *لتاجر البندقية*(٧)، في المساء وأنا أقرأ الخطاب ثانية، بدت المسرحية لي على قدر كبير من الحيوية، وكأنها تملأ البيت، وكنت كثيرًا ما أنادي فرحًا لأتحدث معه عنها، وأشرح له حبكتها الكوميدية.

فرح، ككل من تجري في عروقهم دماء أفريقية، كان يحب أن تحكى له الحكاية، ولكنه فقط حينما أيقن أننا كنا وحدنا في المنزل وافق على أن ينصت لي وأنا أقرأ له. ولهذا فحينما يعود الصبية إلى أكواخهم، أو يمر أي عابر في المزرعة، وينظر من خلال النوافذ، فسيعتقد أننا نناقش أمور المنزل؛ لأنني كنت أقص وهو ينصت، واقفًا بلا حراك عند نهاية الطاولة، بينما تحدق عيناه الجادتان في وجهي.

وجّه فرح كل انتباهه لكل ما يخص أنطونيو، وباسانيو، وشايلوك. هنا كانت صفقة تجارية كبيرة ومعقدة، بشكل ما على حافة القانون، وهو بمثابة أمر حقيقي بالنسبة لقلب رجل صومالي. سألني سؤالاً أو اثنين عن فقرة رطل اللحم: بدا له اتفاقًا غريبًا ولكنه ليس مستحيلاً؛ فينبغي أن يهتم الناس بمثل هذا الأمر.

وهنا بدأت رائحة الدماء تنبعث من القصة، وزاد اهتمامه بها. حينما ظهرت بورشيا على مسرح الأحداث، أرهف أذنيه؛ تخيلت أنه رآها كامرأة من قبيلته، فاطمة وقد استعدت للهجوم، لماحة وماكرة، تقف هناك لكي تحبط مناورات الرجل. إن الملونين لا ينحازون لجانب ما في الحكاية، بالنسبة لهم ينصب الاهتمام في

براعة الحبكة ذاتها؛ والصومالي، من لديه في الحياة الواقعية حس قوي بالقيم، وموهبة حيال السخط الأخلاقي، يمنح هؤلاء راحة في خيالهم القصصي. وبرغم ذلك، فقد تعاطف فرح مع شايلوك الذي أهين بسبب المال؛ لقد كره انهزامه.

"ماذا؟" قال لي، "هل تخلى اليهودي عن مطلبه؟ لم يكن ينبغي له أن يفعل ذلك. لقد كان اللحم من حقه، لقد كان شيئًا ضئيلاً مقابل كل ذلك المال".

سألته: "ولكن ماذا كان بإمكانه أن يفعل خلاف ذلك، بينما يجب عليه ألا يريق قطرة دم واحدة؟".

"ميمصاحب"، قال فرح، "كان بإمكانه أن يستخدم سيخًا حديديًا متوهجًا، فهو لا ينجم عنه أية إراقة للدماء".

قلت: "ولكن، لم يكن مسموحًا له على كل حال أن يأخذ أكثر أو أقل من رطل لحم واحد".

"ومن سيرتعب من جراء ذلك، خاصة إن كان يهوديًا تمامًا؟" وأضاف، "كان عليه أن يأخذ قطعًا صغيرة منها في كل مرة، ويضع ميزانًا صغيرًا على يده لكي يزنها، حتى يحصل فقط على رطل واحد. ألم يكن لليهودي أي أصدقاء يسدون إليه نصيحة كهذه؟".

تحمل كل وجوه الصوماليين شيئًا ما دراميًا بشكل مفرط. فرح، مع تغيير طفيف لسحنته ومشيته، يتخذ الآن مظهرًا خطرًا، وكأنه حقيقة في محكمة البندقية، لكي يساند صديقه أو رفيقه شايلوك، في وجه جمهرة أصدقاء أنطونيو ورئيس قضاة البندقية نفسه. ترمق عيناه لأعلى وأسفل على شكل التاجر أمامه، والصدر عار أمام السكين.

"انظري، ميمصاحب، "قال فرح، "قد يكون قد حصل بالفعل على أجزاء صغيرة، صغيرة جدًا. كان بإمكانه إيذاء ذلك الرجل بشكل كبير، حتى قبل أن يحصل على ذلك الرطل من اللحم بوقت طويل".

قلت: "ولكن القصة تقول إن اليهودي قد تخلى عن هذا الأمر".

قال فرح: "أجل هذا أمر مؤسف للغاية".

نخبة بورنيموث

كان لي جار من المستوطنين يعمل طبيبًا في بلاده. ذات مرة، حينما مرضت زوجة أحد صبية منزلي مرضًا شديدًا وأوشكت أن تموت وهي تلد طفلاً، ولم أستطع الوصول لنيروبي؛ لأن الأمطار الكثيفة كانت قد أفسدت الطرق، كتبت لجاري هذا وطلبت منه أن يسدي لي خدمة عظيمة بأن يأتي لمساعدتها. جاء بلطف شديد، أثناء عاصفة رعدية مرعبة وسيول أمطار استوائية، وفي اللحظة الأخيرة، وبفضل مهارته استطاع أن ينقذ حياة المرأة والطفل.

فيما بعد كتب لي رسالة ليقول لي إنه على الرغم من اضطراره لمرة واحدة أن يعالج مواطنة، بناء على طلبي، يجب على أن أفهم أنه لن يسمح بحدوث مثل هذا الأمر ثانية. لقد أدركت أنا نفسي ذلك حينما أخبرني أنه كان قد مارس مهنته كطبيب قبل الآن مع صفوة بورنيموث.

عن الكبرياء

لقد منحت جيرة أراضي المحمية، ووجود المنتزه الكبير، خارج حدود أرض المزرعة، شخصية خاصة للمزرعة، وكأننا جيران لملك عظيم، حيث تجاورنا أشياء تشعر بالكبرياء العظيم، وجعلت قربها منا أمرًا محسوسًا.

يعشق البربري إحساسه بالكبرياء، ويكره، أو لا يثق في كبرياء الآخرين. سأكون كائنًا متحضرًا، سوف أعشق كبرياء خصومي، وكبرياء خدمي، وعشيقي؛ وسيكون منزلي، بكل تواضع، في أرجاء البرية، مكانًا متحضرًا.

الزهو بالنفس هو الإيمان بالفكرة التي كان يفكر بها الله، حينما خلقنا. الرجل الذي يتسم بالكبرياء واع بالفكرة، ويتطلع لأن يدركها. إنه لا يكافح باتجاه السعادة، أو الراحة، اللتين قد تختلفان عن فكرة الله عنه. إن نجاحه هو ما يعادل فكرة الله، يعيش حياته بنجاح، ويتقبل قدره بحب. كما يجد المواطن الصالح سعادته في إسداء واجبه لمجتمعه، فإن الرجل الفخور بذاته يجد سعادته في تحقيق قدره والوفاء به.

هؤلاء الناس الذين لا يتمتعون بالكبرياء ليس لديهم وعي بأي فكرة كانت لدى الله وهو يخلقهم، وفي بعض الأحيان يجعلونك تشك بوجود فكرة حقيقية، أو أنها ضاعت، ومن سيجدها ثانية يا ترى؟ إن عليهم أن يقبلوا مفهوم النجاح فقط بوصفه ما يؤكد الناس على أنه أمر ناجح، وعليهم أيضًا أن يشعروا بسعادتهم وحتى بذواتهم، مع إشعار اليوم الجديد.

إنهم يرتعدون، بعقلانية، حينما يفكرون في مصائرهم..

أحِب اعتداد الله بكل الأشياء، واعتداد جارك وكأنه اعتدادك بنفسك. اعتداد الأسود: لا تحبسهم في حدائق الحيوانات. اعتداد كلابك: لا تجعلهم يزدادون سمنة. أحب اعتداد رفاقك من المتعصبين، ولا تسمح بأن يتسلل إليهم شعورك بالشفقة إزاءهم.

أحِب زهو الأممِ الواقعة تحت نير الاحتلال بنفسها، واتركهم يوقرون آباءهم وأمهاتهم.

الثيران

كان مساء السبت وقتًا مباركًا في المزرعة. قبل كل شيء، لن يكون هناك الآن أي رسائل بريدية حتى مساء الاثنين، ولذا فلم تكن لتصلنا أية رسائل مكدرة خاصة بالعمل حتى ذلك الوقت، وهذه الحقيقة، في حد ذاتها، كان يبدو أنها تشكل سياجًا حول المكان كله، وكأن المزرعة امرأة حبلى. ثانيًا، كان الجميع يتطلعون إلى يوم الأحد، حيث بإمكانهم أن يستريحوا أو يلعبوا طوال اليوم ويمكن لواضعي اليد أن يعملوا في أراضيهم الخاصة. إن التفكير في أمر الثيران يوم السبت كان مبعث سرور أكثر من كل الأشياء الأخرى. اعتدت أن أسير حتى أصل لحظيرتهم في السادسة، حينما يعودون بعد عمل اليوم وبعد أن ترعى لبضع ساعات. غدًا، كما أظن، لن تفعل تلك الماشية شيئًا سوى أن ترعى طوال اليوم.

كان لدينا مائة واثنان وثلاثون ثورًا في المزرعة، وهو ما يعني ثماني فرق عاملة والقليل من الثيران الإضافية الآن تعود وهي تطأ التراب الذي لونه غروب الشمس بلون ذهبي. عادت في صف طويل للمنزل متجولة عبر السهل، بشكل وقور، وهي تقوم بعملها كله؛ في تلك الأثناء أجلس بوقار على سور الحظيرة، أدخن سيجارة بسلام، وأراقبها. وهنا جاء نيوس، ونجوفو، وفارو، مع موسونجو – وهو ما يعني رجلاً أبيض. يمنح السائقون أيضًا لمجموعاتهم أسماء معينة لرجال بيض، على سبيل المثال ديلامير وهو اسم شائع بين الثيران. وهنا جاء ماليندا العجوز، الثور الكبير الأصفر الذي أحبه بين مجموعة الثيران؛ كان جلده، وبشكل غريب، يحمل علامات لأشكال مظللة، مثل السمكة النجمية، ومن تلك الأشكال، ربما، حصل على اسمه؛ لأن ماليندا تعني تنورة.

وكما يحدث في الدول المتحضرة حيث يشعر الناس كلهم بحس سيئ تجاه الأزقة القذرة في المدن الكبيرة ويشعرون بعدم ارتياح حينما يفكرون فيها، كذلك في أفريقيا تجد الوعي السيئ ذاته، وتشعر بألم مفاجئ، حينما تفكر في الثيران. ولكن إزاء ثيران المزرعة، أعتقد، أنني شعرت كما قد يشعر الملك إزاء تلك الأحياء القذرة في مملكته: "أنت أنا، وأنا أنت".

لقد حملت الثيران في أفريقيا الحمل الثقيل لتقدم الحضارة الأوروبية. حيثما شُقت أراضٍ جديدة، كانت تشقها، وتلهث من التعب، وتغرز أقدامها عميقًا في التربة قبل المحاريث، والأسواط الطويلة تعلو في الهواء من فوقها. وحيث يمهد طريق فلابد أن تعلم أنها من قام بتمهيده؛ وتمشي بتثاقل لمسافة طويلة فوق الحديد والأدوات خلال الطرق، متبعة صياح وصراخ السائقين، عابرة المسارات في التراب والأعشاب الطويلة للسهول، قبل أن يوجد أي طرق من قبل. كانت الثيران تنتشر قبل بزوغ النهار، وتجهد صاعدة وهابطة التلال المرتفعة، وعبر المراكب الخشبية الطويلة ومجاري الأنهار، خلال ساعات النهار الحارقة. كانت الأسواط تترك علامات على جنوبها، وسترى غالبًا ثيران لها عين، أو اثنين معًا، قد نزعت بسبب ضربات السوط القوية. كانت العربات التي تجرها الثيران الخاصة بالمقاولين الهنود والبيض تعمل كل يوم، بكل ما فيها من طاقة، ولا تعلم شيئًا عن عطلة يوم الأحد.

ما فعلناه بالثيران أمر يدعو للدهشة. الثور في حالة دائمة من الغضب، يدير عينيه يجرف الأرض لأعلى، يتضايق من أي شيء يأتي في نطاق بصره - وبالرغم من ذلك له أسلوب خاص لحياته، تندلع النار من منخاريه، وتنبعث حياة جديدة من عانته؛ يومه مليء بشهواته وبما يرضيه. لقد نزعنا من الثيران كل ذلك، وكمكافأة لها طالبنا بوجودها من أجلنا. تسير الثيران وفقًا لروتين حياتنا اليومية

وتعمل بجهد طوال الوقت، مخلوقات بلا حياة، إنها أشياء صنعت لكي نستخدمها. إن لديها عيونًا ندية، شفافة وبنفسجية، وخطمًا لينًا، وأذنين ناعمتين، إنها تتميز بالصبر والبلادة؛ في بعض الأحيان تبدو وكأنها تفكر في أشياء ما.

في الوقت الذي كنت أعيش فيه في أفريقيا كان هناك قانون يمنع استخدام أي سيارة أو عربة بدون مكابح، وكان لزامًا على سائقي السيارات أن يجعلوا المكابح لأسفل على طول التلال المرتفعة في كينيا. ولكن القانون لم يكن ينفذ؛ فقد كانت نصف السيارات والعربات تسير بلا مكابح، وفي النصف الآخر كانت هناك مكابح ولكنهم لم يستخدموها. لقد جعل ذلك من العمل أسفل التل أمرًا شاقًا جدًا بالنسبة للثيران. كان عليهم أن يوقفوا العربات المحملة لأعلى بأجسامهم، كانوا يلقون برؤوسهم للخلف تحت وطأة العمل حتى لمست قرني الثور حدبته، وكانت جنوبهم تهتز مثل منفاخين. في مرات كثيرة كنت أرى عربات تجار أخشاب الوقود الذين يأتون عبر طريق نجونج، في طريقها إلى نيروبي واحدة تلو الأخرى مثل جرارة ذات جنازير، مكتسبة سرعة وهي هابطة على التل في أراضي الغابة، والثيران تهبط أمامها في خط متعرج. رأيت أيضًا الثيران وهي تتعثر وتسقط تحت ثقل العربات، عند نهاية التل.

هكذا كانت الثيران تفكر: "تلك هي الحياة، وأحوال العالم. إنها قاسية، قاسية. ينبغي أن تحتملها كلها - ليس هناك ما يمكنك أن تفعله حيالها. إنه أمر بالغ الصعوبة أن تجعل العربة تهبط من فوق التل، إنها مسألة حياة أو موت. لا يمكن أن تفعل شيئًا حيال هذا الأمر".

لو أن الهنود البدناء في نيروبي، الذين يمتلكون العربات، قد أقنعوا أنفسهم بدفع روبيتين وشراء مكابح ووضعها لتعمل، أو أن السائق المحلي المتسم بالبطء الجالس على قمة العربة المحملة كان واعيًا بأن عليه أن يترجل ويشغل المكبح إن

كان هناك، إذن فإن الأمر سيكون يسيرًا، وسيكون بإمكان الثيران أن تسير على مهل وهي تهبط التل. ولكن الثيران لم تكن تعرف، واستمرت في السير، يومًا بعد يوم، في صراعها البطولي واليائس مع شروط الحياة.

عن العرقين

إن العلاقة بين العرقين الأبيض والأسود في أفريقيا تماثل بأشكال عديدة العلاقة بين الجنسين.

إن قيل لأبناء أحد الجنسين إنهم لم يلعبوا أي دور كبير في حياة الجنس الآخر أكثر مما لعبه الجنس الآخر في دعم وجودهم الخاص، فإنهم سيصدمون ويتألمون. لو أن العاشق أو الزوج قيل له إنه لم يلعب أي دور كبير في حياة زوجته أو عشيقته أكثر مما لعبته هي في دعم وجوده في الحياة، فسوف يشعر بالحيرة والسخط. لو أن زوجة أو عشيقة قيل لها إنها لم تلعب دورًا عظيمًا في حياة زوجها أو عشيقها أكثر مما لعبه هو في حياتها، فإنها سوف تشعر بالحنق.

يبدو أن قصة الرجال قديمة الأزل التي لم يقصدوا أبدًا أن تصل إلى آذان النساء، تثبت صحة هذه النظرية؛ وحديث النساء، حينما يجلسن فيما بينهن، وهن يعلمن أنه ليس هناك رجل يمكنه أن ينصت لما يقلن، يبدو أنها تثبت صحتها أيضًا.

إن الحكايات التي يرويها البيض عن خدمهم الوطنيين تنسج بهذه الروح ذاتها. لو أن أحدًا أخبرهم أنهم لم يلعبوا أي دور مهم في حياة المواطنين أكثر مما لعبه المواطنون في حياتهم، فسوف يشعرون بسهولة بالسخط.

لو أنك أخبرت المواطنين أنهم لم يقوموا بدور كبير في حياة البيض أكثر مما لعبه البيض في حياتهم، فإنهم لن يصدقوك أبدًا، بل ربما ضحكوا سخرية منك. من المحتمل أن الحكايات في الدوائر المحلية تسرد وتكرر، مما يثبت الاهتمام المستغرق بالمجتمع الأبيض لدى قبيلة الكيكويو أو كافيروندو، واعتمادهم الكلي عليها.

سفاري في زمن الحرب

حينما اندلعت الحرب، تطوع زوجي واثنان من المساعدين السويديين في المزرعة وذهبوا ناحية الحاجز الألماني، حيث كانت تجهز خدمة إمداد استخبارية بواسطة اللورد ديلامير. كنت في ذلك الوقت وحيدة في المزرعة. ولكن بعد ذلك بوقت قصير بدأ الحديث عن معسكر لنساء المجتمع الأبيض في كينيا؛ حيث كان البعض يظنون أنهم معرضون للخطر من قبل المواطنين. لقد انتابني الرعب تمامًا في ذلك الحين وفكرت: لو أنني دخلت معسكر اعتقال للسيدات في هذا البلد لشهور - ومن يعلم متى تنتهي الحرب؟ - فإنني سأموت. بعد أيام قليلة جاءتني فرصة للذهاب، مع مزارعة سويدية شابة، جارة لنا، إلى كيجابي، محطة عند نهاية خط السكة الحديد، لنكون مسئولين عن معسكر يأتي إليه الرسل من الحدود بالأخبار التي ترسل بعدئذ إلى المقر الرئيسي في نيروبي.

في كيجابي كانت خيمتي مجاورة للمحطة، بين أكوام من الحطب من أجل محركات السكة الحديد. بينما يأتي الرسل في كل ساعات النهار أو الليل، كنت آت للعمل مع جون رئيس محطة القطار. كان رجلاً ضئيل الحجم، دمثًا، وكان متعطشًا بشدة للمعرفة، غير متأثر بالحرب من حوله. سألني أسئلة كثيرة عن بلدي، وجعلني أعلمه بعض الكلمات الدنيماركية، التي ظن أنها في وقت ما ستكون ذات نفع كبير له. كان له صبي صغير في العاشرة اسمه فيكتور؛ في أحد الأيام وأنا أسير إلى المحطة خلال أعمال بناء التعريشة للشرفة، سمعته يلقن فيكتور درسًا في النحو: "فيكتور ما هو الاسم؟ لقد أخبرتك من قبل خمسمائة مرة!".

كان الناس الذين يقطنون عند الحدود يطالبون دائمًا أن ترسل إليهم إمدادات ومؤن؛ كتب لي زوجي وأرشدني بأن أملأ أربع عربات تجرها ثيران بالمؤن، وأن أرسلها إلى هناك بأقصى سرعة. ولكنني، كما كتب لي، يجب ألا أدع العربات تسير دون مرافقة رجل أبيض، لأن لا أحد يعرف مكان الألمان، وكان رجال الماساي في حالة من الإثارة العالية لفكرة الحرب، وكانوا يتحركون في كل الأراضي المحيطة. في تلك الأيام، كان بإمكانك أن تتوقع وجود الألمان في كل مكان، وأبقينا الحراس بجوار المعبر الكبير لسكة حديد كيجابي لكي نمنعهم من تفجيرها.

أوكلت مهمة مرافقة العربات إلى عامل شاب من جنوب أفريقيا اسمه كلابروت، ولكن حينما حملت كلها بالمؤن، في الليلة السابقة على بدء قيام البعثة، ألقى القبض عليه باعتباره ألمانيًا. لم يكن ألمانيًا، كان بإمكانه إثبات ذلك، ولذلك أطلق سراحه بعد وقت قصير وغير اسمه. ولكن في تلك الساعة، رأيت في القبض عليه إشارة من الله، الآن ليس هناك سواي لكي أصطحب العربات عبر أراضي البلاد. وفي الصباح الباكر، بينما كانت مجموعة النجوم الثابتة لا تزال ظاهرة في السماء، انطلقنا متجهين أسفل تل كيجابي الطويل اللانهائي، والسهول الشاسعة لأراضي الماساي - التي بدت بلون رمادي كلون الحديد في ضوء الفجر الخافت- المنتشر عند أقدامنا، والمصابيح تتأرجح وهي مربوطة أسفل العربات، بينما يتعالى الكثير من الصياح وقرقعة الأسواط. كان لدي أربع عربات، بفريق مكون من ستة عشر ثورًا لكل منها، وخمسة ثيران احتياطيين، ومعي واحد وعشرون من الكيكويو وثلاثة صوماليين: فرح، وإسماعيل، وحامل البندقية، وطباخ قديم اسمه إسماعيل أيضًا، رجل عجوز دمث الأخلاق. بينما كان كلبي داسك يسير بجانبي.

كان أمرًا مثيرًا للشفقة أن الشرطة، حينما ألقت القبض على كلابورت، قد ألقت القبض أيضًا على بغله. لم أستطع أن أجد بديلاً له في كيجابي كلها ولهذا ففي الأيام القليلة الأولى كان عليّ أن أسير في التراب بجانب العربات. ولكنني فيما بعد اشتريت بغلاً وسرجًا من رجل قابلته في الأراضي المجاورة، ومرة أخرى بعد فترة اشتريت بغلاً لفرح.

استغرق الأمر ثلاثة أشهر. حينما وصلنا لوجهتنا، أرسلونا مرة أخرى لكي نجمع الذخيرة الخاصة برحلة صيد أمريكية كبيرة كانت تعسكر بجوار الحدود، ورحلت على عجل بسبب أنباء الحرب. من هناك كان يتحتم على العربات أن تذهب إلى أماكن جديدة. تعلمت أن أعرف مخاضات النهر والأجزاء المنخفضة من سطح الأرض التي تتجمع فيها مياه الأمطار في أراضي الماساي، وأن أتحدث القليل من لغة الماساي. كانت الطرق في كل مكان سيئة بشكل لا يصدق، غائرة ومليئة بالتراب، وتصادفك حواجز من كتل من الأحجار أطول من العربات ذاتها؛ فيما بعد ارتحلنا غالبًا عبر السهول. كان الهواء في المرتفعات الأفريقية يضرب رأسي مثل الخمر: كنت طوال الوقت مخمورة قليلاً به، وكانت متعة تلك الشهور لا توصف. لقد خرجت في رحلات سفاري من قبل، ولكنني لم أسافر قبل الآن وحدي مع أفارقة.

عشنا أنا والصومالي، نحن من كنا نشعر بالمسئولية إزاء ممتلكات الحكومة، في خوف دائم من فقدان الثيران بسبب الأسود. كانت الأسود منتشرة على الطريق، مقتفية أثر انتقال مجموعات كبيرة من إمدادات الخراف، والتي ترتحل بشكل مستمر الآن على الطريق متجهة إلى الحدود. في الصباح الباكر، ونحن نقود المسيرة، كان بإمكاننا أن نرى، لمسافة بعيدة، الآثار الحديثة التي يخلفها الأسود على التراب، فوق أثر العربات على الطريق. في الليل، حينما كانت الثيران تنتشر

على مسافات قريبة، كانت هناك دومًا مخاطرة من الأسود الذين يحومون حول المعسكر ويثيرون فيهم الرعب والذعر ويفرون في أنحاء البلاد، حيث لا يمكننا أبدًا أن نجدهم ثانية، ولذا فقد بنينا أسوارًا مستديرة عالية من الأشجار الشوكية حول المنطقة المحيطة بنا وأماكن المعسكر، ووقفنا ونحن نحمل البنادق بجوار نار المعسكر المشتعلة.

هنا كان كلّ من فرح وإسماعيل وإسماعيل العجوز نفسه يشعرون بأنهم كانوا على مسافة آمنة من الحضارة حتى أن ألسنتهم قد أصبحت طليقة، وبإمكانهم الآن أن يقصوا أحداثًا غريبة مما يحدث في الأراضي الصومالية، أو حكايات وردت من القرآن و*ألف ليلة وليلة*. اعتاد فرح وإسماعيل الذهاب للبحر، حيث إن الصوماليين شعب يرتاد البحر، وكانوا، كما أعتقد، في الأزمنة الماضية، قراصنة عظامًا في البحر الأحمر. لقد شرحوا لي كيف أن كل مخلوق حي على الأرض له نسخة طبق الأصل في قاع البحر: الخيول، والأسود، والنساء، والزرافات، وكلها تحيا هناك، ومن وقت لآخر يمكن للبحارة ملاحظتها. لقد حكوا لي أيضًا حكايات عن خيول تعيش في عمق أنهار الأراضي الصومالية، وفي الليالي القمرية تظهر عند الأرض المكسوة بالعشب لكي تضاجع فرسة صومالية تلكأ هناك، وتنتج سلالة لمهور سريعة الركض ذات جمال رائع. كانت القبة الزرقاء الليلية تتأرجح فوق رؤوسنا ونحن نجلس، بينما تأتي تجمعات جديدة للنجوم من الشرق. حمل الدخان المنبعث من النار المشتعلة في الهواء البارد شعلات طويلة معه، حيث الحطب الحديث كانت تنبعث منه رائحة حاذقة. من وقت لآخر كانت الثيران وبشكل مفاجئ تهيج، تضرب الأرض بأقدامها، وتحاول أن تشق طريقها معًا عبر الطريق الضيق، ينخرون لأعلى في الهواء، وهكذا كان إسماعيل العجوز يقفز على قمة العربة المحملة بالمؤن، ويؤرجح مصباحه، لكي يلاحظ أو ليخيف أي شيء قد يكون في الخارج وراء السياج.

كان لنا الكثير من المغامرات مع الأسود: "احترسي من سياوا،" قال القائد المحلي للشحنة المنقولة إلى الشمال. "لا تقيموا معسكركم هنا. هناك مائتا أسد في سياوا". وهكذا حاولنا أن نعبر سياوا قبل هبوط الليل، وأسرعنا، ولأن التسرع أكثر من أي شيء آخر يؤدي إلى خسائر في رحلة السفاري، فقد حدث قبل الغروب أن غرزت إحدى عجلات العربة الأخيرة في حجر كبير، ولم تتمكن من السير لأبعد من ذلك. بينما كنت أنا الآن أمسك بالمصباح لمن يحاولون أن يعملوا على رفع العجلة، هجم أسد على أحد الثيران الإضافية على مسافة لا تبعد عني أكثر من ثلاث ياردات. تمكنا بواسطة الصياح والقرقعة بالسياط، فقد كانت بنادقي مع السفاري، من إخافة الأسد، والثور الذي فر هاربًا مع الأسد، إلا أنه عاد إلينا بعد ذلك، ولكن الأسد كان قد نهشه بشكل سيئ، ومات بعد ذلك بيومين.

حدث لنا الكثير من الأمور الأخرى الغريبة. في إحدى المرات شرب ثور كل مخزوننا من زيت الكيروسين، ومات في اللحظة ذاتها، وتركنا بلا ضوء من أي نوع حتى وصلنا إلى دكان هندي في الأراضي المجاورة، وقد رحل عنه مالكه، وبشكل ملغز كان فيه بعض البضاعة التي لم تمس.

أقمنا معسكرًا لمدة تقرب من أسبوع بجوار معسكر كبير لموراني الماساي، والمحاربين الشباب، وأجسامهم مطلية بألوان الحرب، وهم يحملون الرماح والتروس الواقية، ويعتمرون أغطية على رؤوسهم من جلد الأسد يحومون حول خيمتي ليلاً ونهارًا، لكي يحصلوا على أخبار عن الحرب وعن الألمان. لقد أحب رفاقي في السفاري هذا المعسكر؛ لأنه كان بإمكانهم هنا أن يبتاعوا اللبن من قطيع ماشية الموراني، التي تسافر معهم في تلك الأراضي الوعرة وكان صبية الماساي يتولون مهمة الرعي، هؤلاء الصبية الذين يطلقون عليهم اللايوناي، وهم صغار السن جدًا لدرجة لا تمكنهم من أن يكونوا محاربين. أما فتيات الماساي المحاربات،

اللاتي يتسمن بالحيوية الشديدة والجمال، فقد جئن إلى الخيمة لكي يزرنني. كن دائمًا ما يطلبن اقتراض مرآتي الصغيرة، وحينما كانت تنتقل من يد لأخرى، كن يكشفن عن صفي أسنانهن اللامعة في المرآة، مثل كارنيفورا[٨] صغيرة غاضبة.

كل أخبار تحرك العدو كانت تمر بالضرورة خلال معسكر اللورد ديلامير، ولكنه كان يتحرك في كل اتجاه في الأراضي المجاورة بخطوات سريعة غير معقولة، لدرجة أن لا أحد كان يعرف مكان معسكره. لم يكن لي أي علاقة بأعمال المخابرات، ولكنني كنت أتعجب كيف يعمل النظام بالنسبة لمن هم موظفون فيه. ذات مرة أخذني الطريق إلى بعض الأميال داخل معسكر اللورد ديلامير، وتنزهت مع فرح وشربت الشاي معه. على الرغم من أن المعسكر كان سينتهي في اليوم التالي، كان المكان يبدو أشبه بمدينة تعج بالماساي. لأنه كان دومًا ودودًا معهم، وفي معسكره كانوا دومًا ما يحظون بضيافة كريمة لدرجة أنه أصبح مثل عرين أسد في قصة خرافية: ينتهي الحال بخطوات الأقدام كلها للداخل دون أن تخرج. حينما يبعث رسولاً من الماساي برسالة لمعسكر اللورد ديلامير فإنه لن يخرج مرة أخرى أبدًا حاملاً إجابة. بدا اللورد ديلامير، في مركز الهياج، ضئيل الحجم ومهذبًا بشكل كبير ومجاملاً كعادته، وشعره الأبيض ينسدل على كتفيه؛ إنه يتصرف بيسر هنا. أخبرني اللورد ديلامير كل شيء عن الحرب، وقدم لي الشاي مع اللبن المدخن، متبعًا طريقة الماساي.

أظهر رفاقي تسامحًا كبيرًا إزاء جهلي بالثيران ولجام الحصان، وطرق السفاري؛ لقد كانوا بالفعل حريصين مثلي على حجب هذا الأمر. لقد عملوا جيدًا من أجلي خلال فترة السفاري كلها، ولم يتذمروا أبدًا، على الرغم أنه بسبب قلة خبرتي طلبت المزيد من كل واحد فيهم، كل من الرجال والثيران، أكثر مما يمكن التوقع منهم في حقيقة الأمر. لقد حملوا ماء الاستحمام على رؤوسهم من أجلي

لمسافة طويلة عبر السهل، وحينما انتشرنا في وقت الظهيرة، أقاموا مكانًا معرشًا صنعوه من الأغطية والرماح لأحتمى فيه من الشمس وأستريح تحته. كانوا مرتعبين قليلاً من الماساي الوحشيين، ومنزعجين كثيرًا من فكرة قدوم الألمان، التي انتشرت بشأنهم إشاعات غريبة. في ظل تلك الظروف، كنت بالنسبة للبعثة الاستكشافية هذه بمثابة ملاك حارس أو جالبة للحظ.

قبل اندلاع الحرب بستة أشهر، كنت قد جئت لأول مرة لأفريقيا، في القارب ذاته الذي حمل على متنه الجنرال فون ليتو فوربك، الذي أصبح الآن القائد الأعلى للقوات الألمانية في أفريقيا الشرقية. لم أكن أعرف وقتها أنه سيكون بطلاً، وكانت قد نشأت بيننا صداقة أثناء الرحلة. حينما تناولنا طعام الغداء معًا في مومباسا، قبل أن يرتحل لمسافة أبعد قاصدًا تنجانيقا، واتجهت أنا إلى الأراضي العليا، أعطاني صورة له بالزي العسكري وممتطيًا ظهر جواد، وكتب عليها:

"الجنة على الأرض

على ظهرها تركض الخيول

في صحة الجسد

في حضن امرأة"

فرح الذي جاء لمقابلتي في عدن، ورأى الجنرال، وكان مدركًا أنه صديقي، أخذ الصورة معه في السفاري، واحتفظ بها مع المال ومفاتيح البعثة لكي نظهرها للجنود الألمان لو ألقوا القبض علينا، وكان يعتبرها ذات قيمة كبيرة.

كم كانت جميلة تلك الليالي في أراضي الماساي حينما كنا نصل إلى النهر أو الأرض المنخفضة، حيث تتجمع مياه الأمطار بعد غروب الشمس، حيث كان من المفترض أن نقضي الليل في مساحة محددة، مرتحلين في صف طويل. تلك

السهول التي تنتشر فوقها أشجار شوكية كانت بالفعل مظلمة تمامًا، ولكن الهواء كان صافيًا تمامًا – وفوق رؤوسنا، من ناحية الغرب، نجمة وحيدة كانت تكبر وتزداد ضياءً خلال الليل، كانت الآن مرئية تمامًا، مثل نقطة فضية في سماء بلورية صفراء شاحبة أشبه بالزبرجد. كان الهواء باردًا، والعشب الطويل يقطر ندى، والأعشاب تنبعث منها رائحة البهارات. في وقت قصير، ومن كل الجهات بدأت الزيزان تغني. كنت أنا العشب، وكنت أنا الهواء، وتلك الجبال البعيدة غير المرئية. تنفست الهواء الليلي الخفيف وأنا أقف بين الأشجار الشوكية.

بعد ثلاثة أشهر صدر قرار مفاجئ بعودتي للمنزل. حيث بدأت الأمور تنجز بشكل منظم وجاءت القوات النظامية من أوروبا، لم تبد لهم بعثتي الاكتشافية، كما أعتقد، متوائمة مع النظام. وهكذا عدنا، ومررنا على الأماكن التي أقمنا فيها خيامنا من قبل بقلب حزين.

لقد عاشت رحلة السفاري هذه لوقت طويل في ذاكرة المزرعة. فيما بعد ارتحلت في رحلات سفاري أخرى كثيرة، ولكن لسبب ما – إما لأننا في ذلك الوقت كنا في خدمة الحكومة، وكأننا نحن أنفسنا مسئولون، أو ربما بسبب الجو المشابه لأجواء الحرب–كانت تلك البعثة بشكل خاص عزيزة على قلب كل من شاركوا فيها. بدأ هؤلاء الذين كانوا معي ينظرون لأنفسهم بوصفهم قد مارسوا أرستقراطية السفاري.

بعد ذلك بسنوات عديدة كانوا يأتون للمنزل ويتحدثون عن السفاري، فقط لكي ينعشوا ذاكرتهم بأحداثها، ولكي يخوضوا في واحدة أو أكثر من مغامراتنا حينئذ.

نظام العدد السواحيلي

حينما كنت مستجدة في أفريقيا، تولى مهمة تعليمي الأرقام بالسواحيلية شاب سويدي خجول كان يعمل في بيع الألبان. ولأن الكلمة السواحيلية للرقم تسعة كان لها جرس مريب بالنسبة للأذن السويدية، فلم يكن يحب أن يخبرني به، وحينما كان يعد: "سبعة، ثمانية،" كان يتوقف وينظر بعيدًا، ثم يقول: "ليس لديهم رقم تسعة في السواحيلية".

"أتعني أنهم يستطيعون فقط العد حتى ثمانية؟".

"أوه، لا" قال بسرعة. "إن لديهم عشرة، أحد عشر، اثني عشر، وهكذا. ولكن ليس لديهم تسعة".

"هل يمكن أن يحدث ذلك؟" سألت، متعجبة. "ماذا تراهم يفعلون حينما يصلون لرقم تسعة عشر؟"

"ليس لديهم تسعة عشر أيضًا،" قال، وقد شاب وجهه احمرار خفيف، ولكنه كان حازمًا جدًا، "ولا تسعين، ولا تسعمائة" -لأن هذه الكلمات بالسواحيلية مبنية على الرقم تسعة - "ولكن بخلاف ذلك لديهم كل أرقامنا".

منحتني فكرة هذا النظام لوقت طويل أشياء أفكر فيها، ولسبب ما منحتني سعادة بالغة. هنا، فكرت، قوم يفكرون بشكل فريد، ولديهم شجاعة أن يخرقوا التزمت المفرط للسلسلة الرقمية.

واحد، اثنان، ثلاثة هي الأرقام الأولى المتتالية فحسب، هكذا فكرت، ولهذا فإن رقمي ثمانية وعشرة هما الرقمان الزوجيان الوحيدان المتتاليان. قد يحاول الناس أن يثبتوا وجود الرقم تسعة بمجادلتهم بأنه من الممكن مضاعفة الرقم ثلاثة مع نفسه. ولكن لماذا ينبغي أن يكون الحال كذلك؟ إذا كان الرقم اثنان ليس لديه جذر تربيعي. لو حاولت أن تحسب مجموع الأعداد لرقم حتى تصل في النهاية لرقم واحد، فإنه لا يحدث أي اختلاف في النتيجة لو أنك حصلت على الرقم تسعة، أو أي مضاعفة للرقم تسعة، في هذا الرقم من البداية، وهكذا فإن الرقم تسعة هنا يمكن حقًا أن نعتبره غير موجود، وذلك، كما فكرت، يبرر النظام السواحيلي.

حدث أن كان لدي في ذلك الوقت خادم اسمه زكريا، كان قد فقد الإصبع الرابع من يده اليسرى. فكرت أنه ربما هذا أمر شائع بين المواطنين، وقد فعلوه ليسهلوا على أنفسهم الحساب، حينما يعدون على أصابعهم.

حينما بدأت أطور أفكاري بالنسبة لأناس آخرين، توقفت، وتنبهت. برغم ذلك، كان لا زال لدي شعور بأن هناك نظامًا محليًا للأشكال الرقمية دون أن يكون الرقم تسعة من بينها، يمكن أن يعمل بشكل جيد، ويكتشف المحليون بواسطته أشياء عديدة.

في هذا المقام، تذكرت قسًا دينماركيًا عجوزًا أعلن لي أنه لا يعتقد أن الله قد خلق القرن الثامن عشر.

لن أدعك تذهب قبل أن تباركني

في أفريقيا، عندما تبدأ الأمطار الغزيرة في الهطول بعد أربعة شهور من الطقس الحار والجاف، كان ثراء النمو والطزاجة والعطر الفواح في كل مكان يغمرني بالنشوة.

ولكن المزارع لا يترك قلبه منتشيًا، ولا يجرؤ على منح الثقة للطبيعة الكريمة: إنه ينصت، وجلاً من أن يسمع نقصًا في هدير المطر المنهمر. إن الماء الذي تشربه الأرض الآن ينبغي أن يكفي المزرعة، بكل الخضروات والحيوانات، والحياة الإنسانية عليها، لمدة الأربعة الأشهر الجافة التالية.

إنه لمشهد جميل حينما تتحول طرق المزرعة كلها إلى جداول من الماء الجاري، والمزارع يخوض خلال الطين بقلب فرح، مواصلاً طريقه إلى حقول البن المزهرة المبتلة. ولكن يحدث في منتصف الموسم الممطر أن تظهر النجوم نفسها خلال السحب الرقيقة؛ في ذلك الوقت يقف خارج منزله ويحدق لأعلى، وكأنه يعلق نفسه في السماء لكي يحلب المزيد من المطر. إنه يصيح للسماء: "أعطني ما يكفي وأكثر مما يكفي. قلبي مكشوف لك الآن، ولن أتركك تمضي قبل أن تنعـم عليّ. أغرقني إن أحببت، ولكن لا تقتلني بتلك النزوات المفاجئة. ينبغي ألا يتوقف الجماع(٩). يا للسماء، يا للسماء".

في بعض الأحيان، يأتي يوم بارد، شاحب في الشهور التي تلي الموسم الممطر، تعيد إلينا ذكرى وقت الماركا مبايا، تلك السنة السيئة، وقت القحط. في

تلك الأيام، اعتاد أهل الكيكويو أن يرعوا أبقارهم حول منزلي، وكان هناك صبي من بينهم يحمل نايًا يعزف لحنًا قصيرًا عليه. حينما سمعت هذا اللحن ثانية، استدعى في ثانية واحدة كل إحباط وقلق الماضي. إن له الطعم المالح للدموع. ولكن، في الوقت ذاته، وجدت في اللحن، بشكل مدهش وغير متوقع، حلاوة قوية وغريبة، وجدت أغنية. هل كانت تحمل تلك الأوقات العصيبة بالفعل كل ذلك؟ كنا ننعم بالشباب في ذلك الوقت، بأمل وحشي. خلال تلك الأيام الطويلة كنا كلنا مندمجين معًا في كيان متوحد، ولهذا ففي كوكب آخر سندرك بعضنا الآخر، والأشياء تنادي بعضها البعض، ساعة الحائط التي يخرج منها الديك وكتبي يناديان على تلك الأبقار طرية اللحم التي ترعى في تلك المساحة الخضراء أمام المنزل وأهل الكيكويو العجائز المحزونين: "أنت أيضًا كنت هناك. لقد كنت جزءًا من مزرعة نجونج" ذلك الزمن السيئ قد أنعم علينا ومضى".

جاء أصدقاء المزرعة إلى المنزل، ورحلوا ثانية. لم يكونوا من نوع الناس الذين يمكثون لوقت طويل في المكان ذاته. ولم يكونوا من نوع الناس الذين تظهر عليهم علامات الشيخوخة؛ لقد ماتوا ولن يعودوا أبدًا. ولكنهم كانوا يجلسون بجوار المدفأة وهم يشعرون بالرضا، وحينما يقول البيت المنغلق من حولهم: "لن أدعكم تذهبون دون أن تنعموا عليّ" كانوا يضحكون ويباركونه، وكان يدعهم يرحلون.

جلست سيدة عجوز بين مجموعة من الأصدقاء وتحدثت عن حياتها. أعلنت أنها كانت تحب أن تعيش حياتها كلها مرة أخرى، وأكدت هذه الحقيقة لكي تثبت أنها عاشت حياتها بحكمة. فكرت: أجل، كانت حياتها من نوع الحياة التي يمكن أن

تعاش مرتين بالفعل. آريا قصيرة[١٠] يمكنك أن تأخذ منها دا كابو[١١]، ولكن ليس مقطوعة الموسيقى بكاملها – ليست سيمفونية ولا تراجيديا ذات خمس حركات أيضًا. لو أن بإمكاننا أن نعيش الحياة مرة أخرى فلأنها سارت كما كان ينبغي لها أن تسير.

•

حياتي، لن أتركك تمضين إلا لو أنعمت علي، في ذلك الوقت فقط سأدعك تمضين.

خسوف القمر

في إحدى السنوات كان هناك خسوف للقمر. قبل أن يحدث ذلك بوقت قصير، وصلتني الرسائل التالية من المدير الشاب لمحطة قطار كيكويو:

"سيدتي الموقرة – لقد تم إبلاغي – أن ضوء الشمس سينقطع لمدة سبعة أيام تالية. بغض النظر عن قطارات محطة القطار، أتوسل إليك أن تتعطفي وتعلميني؛ لأنني أعتقد أنه لا أحد سواك يمكن أن يخبرني، هل بإمكاني خلال تلك الفترة أن أترك أبقاري لترعى في المنطقة المحيطة، أم يتوجب علي أن أجمعها في الإسطبل؟ لدي الشرف سيدتي أن أكون خادمك المطيع".

باتل

المواطنون والشعر

لا يعـــرف المـــواطنون، الذين لديهم حس قوي بالإيقاع، شيئًا عن الشعر، أو على الأقل، لم يعرفوا أي شيء قبل وقت المدرسة، حيث كانوا يتعلمون الأناشيد الدينية. في إحدى الأمسيات وأنا أقف في حقل الذرة، حيث كنا نحصد الذرة، نقطع قوالح الذرة ونلقيها على العربات التي تجرها ثيران، لكي أسلي نفسي، كنت أتحدث بلغة نثرية سواحيلية مع عمال الحقل، وكانوا من صغار السن غالبًا. لم يكن هناك أي معنى للشعر، لقد كتبت فقط من أجل الإيقاع – "نجومبي نا – بيندا تشومبي، ملايا مبايا. واكامبا نا – كولا مامبا". الثيران يحبون الملح – الداعرات سيئات – الواكامبا يأكلون الثعابين. لقد حازت على انتباه الصبية، حتى أنهم شكلوا حلقة حولي. لقد فهموا بسرعة أن المعنى في الشعر لا يكون بالضرورة متتابعًا، ولم يسألوني عن فكرة الشعر، ولكنهم انتظروا بشغف ليستمعوا إلى الإيقاع، وضحكوا حينما سمعوه. حاولت أن أجعلهم يكتشفون الإيقاع ويكملون القصيدة حينما بدأتها، ولكنهم لم يستطيعوا، أو لم يرغبْوا في ذلك، وأداروا رؤوسهم بعيدًا. وحينما بدءوا يعتادون على فكرة. الشعر، توسلوا إلـــي: "تحـــدثي ثـــانية، تحدثي مثل المطر". لا أعرف لم شعروا أن الشعر كالمطر. لا بد أنه كان، برغم ذلك، أسلوبًا للإطراء، حيث إن المطر في أفريقيا شيء يتطلع إليه الناس ويشتاقون إليه.

عن الألفية

في الوقت الذي أصبحت فيه العودة الوشيكة للمسيح حقيقة مؤكدة، شكلت لجنة لتقرر ترتيبات استقباله. بعد مناقشة قصيرة وزعت منشورات تحرم التلويح وإلقاء أفرع النخيل في المكان، وكذلك كل صيحات "التسبيح والتمجيد للرب".

بعد أن بدأت الألفية بوقت قليل، وكانت الفرحة تعم العالم، قال المسيح في إحدى الليالي لبيتر إنه كان يريد، حينما تهدأ الأمور كلها، أن يخرج في نزهة قصيرة معه وحده.

"أين تريد أن تذهب يا مولاي؟" سأل بيتر.

"أرغب فقط أن أسير من برايتوريم[١٢] عبر ذلك الطريق الطويل إلى تل كالفاري".

قصة كيتوش

لقد كتبت الصحف عن قصة كيتوش. لقد أثارت الصحف قضية، وتولاها بعض المحكمين من بدايتها وحتى النهاية، باحثين عن نقطة تنويرية؛ إلا أن بعض الحقائق التنويرية لا تزال في الوثائق القديمة.

كان كيتوش مواطنًا شابًا يعمل في خدمة مستوطن أبيض شاب من مولو. في يوم أربعاء من شهر يونيو، أعار المستوطن فرسته البنية لصديق ليركبها إلى المحطة. ثم أرسل كيتوش ليجلب الفرسة من هناك، وأخبره أن يقودها وألا يركبها. ولكـــن كيتـــوش قفـــز على ظهرها، وقادها عائدًا، وفي يوم السبت أخبر رجل ما - كان قد رأى كيتوش - المستوطن السيد بتلك الجريرة. قام المستوطن بجلد كيتوش في عصر يوم الأحد عقابًا له، وبعد ذلك ربطه في مخزنه، وهنا مات كيتوش في وقت متأخر من ليلة الأحد.

لذا أقيمت محكمة في ناكورو، في مؤسسة السكة الحديدية، في الأول من أغسطس. كان المواطنون الذين اجتمعوا وجلسوا حول معهد السكة الحديدية يتساءلون عما حدث. بالنسبة لطريقة تفكيرهم، كانوا يعتقدون أن الحادثة واضحة؛ لأن كيتوش مما لا شك فيه قد مات، ووفقًا لأفكار المواطنين، لا بد من دفع تعويض عن موته لأهله.

ولكن فكرة العدالة في أوروبا تختلف عن تلك السائدة في أفريقيا، وبالنسبة لهيئة المحلفين ذوي البشرة البيضاء، فإن مشكلة الذنب والبراءة قد أبرزت نفسها في الحال. إن الحكم في القضية قد يكون بشأن قتل، أو قتل خطأ، أو تسبب في

جروح بالغة. لقد ذكّر القاضي هيئة المحلفين أن درجة الإساءة تعتمد على مقاصد الأشخاص المعنيين، وليس على النتائج.

ماذا إذن كانت المقاصد والسلوك العقلي للأشخاص المعنيين في قضية كيتوش؟.

استنطقت المحكمة المستوطن لعدة ساعات في اليوم لكي تصدر حكمًا بشأن مقصده وسلوكه العقلي. كانوا يحاولون رسم صورة لما حدث، وجلبوا كل التفاصيل التي يمكن أن يضعوا أيديهم عليها. وبهذه الطريقة، كتب في محضر القضية أنه حينما استدعى المستوطن كيتوش، جاء، ووقف على بعد ثلاث ياردات منه. تلك التفاصيل القليلة الأهمية في التقرير كان لها تأثير عظيم. هنا كانوا يستهلون الدراما، الرجل الأبيض، والرجل الأسود، على بعد ثلاث ياردات من بعضهما البعض.

ولكن من الآن فصاعدًا، كما تستمر الحكاية، كسر توازن الصورة، وتضاءل شكل المستوطن وبات مشوشًا. لا يمكن النجاة من هذا الأمر. لقد أصبح مجرد شكلاً ثانويًا في منظر طبيعي هائل، وجه شاحب هزيل، يفقد وزنه ويبدو مثل شكل مقطوع من ورقة، وكأن ريحًا عاتية قد عصفت بها، أو حرية مجهولة دفعته لأن يفعل ما رغب في فعله.

أقر المستوطن بأنه بدأ بسؤال كيتوش عمن أعطاه الإذن لكي يمتطي الفرسة البنية، وأنه قد كرر على سمعه هذا السؤال من أربعين إلى خمسين مرة؛ إلا أنه اعترف في الوقت ذاته أن لا أحد بإمكانه أن يمنح كيتوش مثل هذا الإذن. وهنا بدأ الجحيم. في إنجلترا، لم يكن ليسمح له أن يسأل السؤال ذاته أربعين أو خمسين مرة، كان لا بد أن يوقفه أحد، بشكل أو آخر، قبل أن يصل للمرة الأربعين بوقت طويل. هنا في أفريقيا أناس يمكنه أن يصرخ فيهم مكررًا السؤال خمسين مرة. في

النهاية أجاب كيتوش بأنه ليس لصًا، وأقر المستوطن أنه جلد كيتوش بالسوط بسبب وقاحة رده.

عند هذه النقطة اكتسب التقرير أمرًا ثانيًا ليس له علاقة بالموضوع ولكنه مؤثر. ورد في التقرير أنه خلال الجلد، جاء أوروبيان يعتبران صديقين للمستوطن لزيارته. شاهدا منظر الجلد لمدة عشر دقائق أو ربع ساعة ثم مضيا.

بعدما جلده بالسوط، لم يستطع المستوطن أن يدع كيتوش يذهب لحاله.

في وقت متأخر من الليل، ربط كيتوش باللجام، وحبسه في مخزنه. حينما سألته هيئة المحلفين لم فعل ذلك، أجاب بأنه لم يكن يدري ما يفعل، قال إنه كان يريد أن يمنع هذا الصبي من الركض في أنحاء المزرعة. بعد العشاء، عاد ثانية إلى المخزن، ووجد كيتوش راقدًا وقد فقد الوعي، على مسافة أبعد قليلاً من المكان الذي ربطه فيه، واللجام مفكوك. استدعى طباخه الباجاندي[١٣] وساعده في إحكام ربطه أكثر من ذي قبل ويداه مربوطتان إلى عامود خلف ظهره، وساقه اليمنى مربوطة إلى عامود أمامه. ترك المخزن، وأحكم إغلاق الباب، ولكنه عاد بعد ذلك بنصف ساعة إلى هناك، أمسك بطباخه والتوتو صبي المطبخ وجعلهما يدخلان المخزن. ثم ذهب للفراش، والأمر الذي تذكره بعد ذلك، كما قال، أن ذلك الرجل من قبيلة التوتو جاء من المخزن، وأخبره أن كيتوش مات.

انشغلت هيئة المحلفين بفكرة أن درجة الاعتداء ترتكز على القصد، وظلت تبحث عن القصد. استمروا في إلقاء أسئلة مفصلة عن جلد كيتوش بالسياط، وعما حدث بعد ذلك، وإن أتيح لك قراءة الصحف فسيبدوا لك وهم يهزون رؤوسهم.

ولكن الآن ماذا كان مقصد كيتوش وما دلالات سلوكه؟ حينما، خاض المحلفون في هذا الأمر، وجدوا أمرًا مختلفًا. كان لدى كيتوش قصدًا، وفي النهاية

كان له ثقله في حيثيات القضية. يمكن القول إنه من خلال قصده، وسلوكه العقلي، أنقذ الأفريقي، وهو راقد في قبره، الأوروبي.

لم يكن لدى كيتوش فرصة كبيرة للتعبير عن قصده. لقد حبس في المخزن، ولهذا فإن رسالته جاءت بسيطة جدًا، وبإيماءة واحدة. إن الخفير الليلي أقر بأنه كان يصرخ طوال الليل. ولكن الأمر لم يكن كذلك، لأنه في الواحدة صباحًا تحدث مع التوتو صبي المطبخ، الذي كان معه في المخزن. لقد أشار إلى الطفل أنه يجب أن يصرخ لأن الجلد جعله أصم. ولكن في الواحدة صباحًا طلب من التوتو أن يفك قدميه، وشرح له أنه في كل الأحوال لن يتمكن من الهرب. حينما فعل التوتو ما طلبه منه، قال كيتوش له إنه يريد أن يموت. وفي الرابعة، قال الطفل، إن كيتوش قال مرة أخرى إنه كان يريد أن يموت. بعد ذلك بوقت قصير، هز جسده بعنف، وصرخ: "أنا ميت!" ومات.

أدلى ثلاثة أطباء بأدلة في القضية.

أعلن جراح الحي، الذي أجرى فحصًا طبيًا للجثة أن الوفاة كانت بسبب الإصابات والجروح التي وجدت على جسد الصبي. لم يكن يعتقد أن أي علاج فوري بإمكانه أن ينقذ حياة كيتوش.

على الرغم من ذلك فإن الطبيبين اللذين تم استدعاؤهما من نيروبى للدفاع كان لهما طريقة أخرى في التفكير.

إن الجلد في حد ذاته، كما تمسكا برأيهما، لا يكفي لكي يسبب الوفاة. أضيف عامل مهم في القضية، لا يمكن تجاهله: الرغبة في الموت. من هذا المنطلق، أعلن الطبيب الأول، كان له الأهلية لأن يتحدث، لأنه كان قد مكث في البلاد لما يقرب من خمسة وعشرين عامًا، وكان يعرف طريقة تفكير المواطنين. هناك الكثير من

الأطباء يمكنهم أن يدعموا ما قاله بأن الرغبة في الموت، بالنسبة لمواطن، قد تسببت في الواقع في الوفاة. في القضية الجارية كان الأمر واضحًا بشكل خاص، لأن كيتوش ذاته قال إنه كان يريد أن يموت. لقد عضد الطبيب الثاني وجهة نظره.

من المحتمل جدًا، استطرد الطبيب الآن، أن كيتوش لو لم يتخذ مثل هذا السلوك، فإنه لم يكن ليموت. على سبيل المثال، لو أنه تناول طعامًا، لم يكن ليفقد شجاعته، لأن من المعروف أن الجوع الشديد يقلل من شجاعة المرء. أضاف أن الجرح على الشفاة قد لا يكون بسبب ركلة، وإنما قد يكون لأن الصبي ذاته قد عض شفتيه بسبب الألم المفرط. الأكثر من ذلك، أن الطبيب لم يصدق أن كيتوش قد عزم أمره على أن يموت إلا بعد التاسعة مساءً حينما قبض عليه في محاولته للهرب، ثم ربط مرة أخرى. إن حقيقة كونه سجينًا، كما قال الطبيب، ربما كانت همًا ثقيلاً عليه.

لخص طبيبا نيروبي وجهة نظرهما في القضية. إن وفاة كيتوش، كما ظنا، تعود إلى الجلد بالسوط، وإلى الجوع الشديد، وإلى الرغبة في الموت، وكان السبب الأخير محل تأكيد خاص. لقد اعتبرا أن الرغبة في الموت قد تكون أثرًا من آثار الجلد بالسوط.

بعد الدليل الذي قدمه الأطباء، انقلبت القضية إلى ما أطلق عليه في المحكمة "نظرية الرغبة في الموت". رفض جراح المنطقة، الوحيد الذي رأى جثة كيتوش، تلك النظرية، وأعطى أمثلة على مرضى السرطان الذين يشرف على علاجهم، كانوا يرغبون في الموت بالطريقة ذاتها، ولكنهم لم يموتوا. على الرغم من ذلك، كان هؤلاء الناس الذين تحدث عنهم من الأوروبيين.

في النهاية، حكمت هيئة المحلفين على المستوطن بأنه مذنب لتسببه في ألم مبرح. طبق الحكم ذاته على المواطنين المتهمين، ولكن وضع في الاعتبار أنه بما

أنهم تصرفوا بموجب الأوامر التي أصدرها سيدهم الأوروبي، فإنه ليس من العدالة إيداعهم السجن. حكم القاضي بسنتين على المستوطن، وبيوم واحد على كل مواطن.

يبدو لك وأنت تقرأ حيثيات القضية، أن هناك حقيقة غريبة ومهينة وهي تقضي أن الأوروبيين في أفريقيا لا ينبغي أن تكون لهم السلطة لأن يلقوا بالأفريقي خارج الوجود ذاته، فالبلاد هي موطنه، ومهما تفعل له، حينما يأتي الوقت الذي يرحل فيه سيرحل بإرادته الحرة، ولأنه لا يريد أن يبقى. من يتولى مسئولية ما يحدث في منزل ما؟ الرجل الذي يملكه، الذي ورثه.

بهذا الحس القوي بداخله بما هو صحيح ولائق، تبرز شخصية كيتوش، ورغبته القوية في أن يموت، على الرغم من أنها الآن قد بعدت عنا بسنوات عديدة، فهي تظهر للعيان بوصفها جمالاً في حد ذاتها. فيها يتجسد غموض الأشياء الوحشية التي تكون، في وقت الحاجة، واعية بوجود ملجأ في مكان ما في الوجود؛ تذهب حينما تحب؛ أشياء لا يمكننا أبدًا الإمساك بها.

بعض الطيور الأفريقية

عند بداية موسم الأمطار الغزيرة، في الأسبوع الأخير من مارس، أو الأسبوع الأول من أبريل، كنت أسمع تغريد العندليب في غابات أفريقيا. ليست الأغنية كاملة، نغمات قليلة فقط– افتتاحية الكونشيرتو، بروفة، تتوقف فجأة ثم تبدأ مجددًا. بدا الأمر، في خلوة الغابات التي يتصبب منها الماء وكأن هناك من يعتّلي شجرة ويعزف على آلة تشيللو صغيرة. لقد كان، على الرغم من ذلك، اللحن ذاته، والوفرة والعذوبة ذاتها، على وشك أن تملأ غابات أوروبا، من سيسيلي إلى إلسينور.

في أفريقيا، كان لدينا لقالق بيضاء وسوداء، تلك الطيور التي تبني أعشاشها على أسقف القرية المصنوعة من سيقان القش في شمال أوروبا. إنها تبدو أقل مهابة في أفريقيا عما تبدو عليه هناك، لأنّها هنا لديهم تلك الطيور الطويلة ذات الخطوات المتثاقلة مثل مربوط(١٤) أو مثل الطائر السكرتير(١٥) . لهذه اللقالق عادات أخرى غير تلك التي تتسم بها في أوروبا، حيث تعيش كأزواج وتشكل رمزًا للسعادة الزوجية. هنا يمكن أن يراها المرء معًا في سرب كبير، وكأنهم في منتدى. يطلق عليهم في أفريقيا طيور الجراد، وتتبع مسار الجراد حينما يأتي على الأرض، وتعتمد عليها بشكل كبير. إنها تطير فوق السهول أيضًا حينما تكون هناك نار مشتعلة، تشكل حلقة تمامًا حول الخط المتقدم للشعلات الصغيرة الواثبة، لأعلى في ذرات الهواء الملون بألوان قوس قزح، والدخان الرمادي، مراقبة الفئران والثعابين التي تهرب من النار. تقضي اللقالق وقتًا مرحًا في أفريقيا. ولكن حياتها الحقيقية ليست هنا، وحينما تجلب رياح الربيع أجواء التزاوج وبناء العش، فإن قلوبها تتجه ناحية الشمال، فتتذكر الأزمنة والأماكن القديمة وتطير بعيدًا، أزواجًا،

وبعد ذلك بوقت قصير تخوض في المستنقعات الباردة في أماكن ولادتها. وتطير بعيدًا، اثنين اثنين، وبعد ذلك بوقت وجيز تخوض في المستنقعات الباردة في مسقط رأسها.

خارج السهول، في بداية الأمطار، حيث تبدأ براعم خضراء طازجة في الظهور في الامتداد الواسع للعشب المحترق هناك تحوم المئات من طيور الزقزاق[١٦]. للسهول دومًا رائحة هواء البحر، وتلك الآفاق المفتوحة تستدعي مشهد البحر ورمال البحر اللانهائية، الريح الهائمة أيضًا، للعشب المتفحم رائحة حادة، وحينما يكون العشب طويلاً فإنه يجري في موجات في كل أنحاء الأرض. حينما يزهر القرنفل على السهول فإنك تتذكر الموجات المتكسرة المرقطة باللون الأبيض في كل مكان حولك وأنت تبحر باتجاه الصند[١٧]. هناك على السهول وبشكل مشابه تتخذ طيور الزقزاق مظهر طيور البحر، وتسلك سلوك طيور البحر، على الشاطئ، منتصبة بسيقانها فيه، على الحشائش القريبة، بأقصى ما تتمكن من سرعة لفترة قصيرة، ثم تظهر أمام حصانك وهي تصدر صرخات عالية حادة، حتى تصبح السماء ذات اللون الأزرق الباهت ممتلئة حياة بأصوات الطيور وأجنحتها. طيور اللقلق ذات العرف التي تأتي إلى حقول الذرة المزروعة حديثًا والمستوية السطح، لكي تسرق الذرة من على الأرض، تعوض عن هذا الاختلاس بكونها طيور الفأل الحسن، معلنة قدوم الأمطار؛ وأيضًا كونها ترقص لنا. حينما تكون تلك الطيور ذات السيقان الطويلة معًا في أعداد كبيرة، يتاح لك أن تشاهد منظرًا جميلاً وهي تفرد أجنحتها وترقص. لرقصها أسلوب خاص ويتسم بالقليل من التصنع، فلماذا إذن، وهي تستطيع الطيران، تقفز لأعلى ولأسفل وكأن جاذبية ما تجعلها تتمسك بالأرض؟ لرقصة الباليه كلها نظرة مقدسة، مثل رقص طقسي؛ ربما تقوم اللقالق بمحاولة وصل السماء بالأرض مثل ملائكة ذات أجنحة تسير لأعلى وأسفل سلم يعقوب. بلونها الرمادي الرقيق الباهت، وتلك الطاقية الصغيرة المخملية السوداء

والتاج المرسوم على شكل مروحة؛ إنها تتخذ هيئة الصورة الخافتة المرسومة على الجبس قبل جفافه. حينما تترك المكان، بعد انتهاء الرقص وتطير بعيدًا، لكي تحافظ على الحالة المقدسة للعرض فإنها تطلق نغمة بواسطة أجنحتها أو صوتها لها جرس واضح، وكأن مجموعة من أجراس الكنائس قد لبست أجنحة وفي طريقها للإبحار بعيدًا. يمكنك أن تستمع إليها من بعيد، حتى بعدما تصبح الطيور ذاتها غير مرئية في السماء: رنين جرس آت من السحاب.

شكلت طيور الهورنبيل[١٨] نوعًا آخر من زوار المزرعة، وجاءت إلى هناك لكي تأكل فاكهة أشجار القسطل الأفريقية. إنها طيور شديدة الغرابة. إن لقاءها بمثابة مغامرة أو تجربة، ولكنها ليست مفرحة تمامًا؛ لأنها تبدو بشكل مفرط على درجة من المعرفة. ذات صباح وقبل شروق الشمس صحوت على صوت ثرثرة عالية خارج المنزل، وحينما سرت حتى وصلت للشرفة رأيت واحدًا وأربعين طائرًا من طيور الهورنبيل جالسة على الأشجار في تلك الساحة الخضراء أمام منزلي. لم تكن تبدو لي هناك كطيور بقدر كونها أشكالاً رائعة ترتدي ثيابًا فاخرة تجلس هنا وهناك على الأشجار بجوار طفل. طيور سوداء كلها، مفعمة بذلك الأسود الأفريقي العذب، ظلام عميق يمتصه زمان ما، مثل عادم دخان أسود، يجعلك تشعر بأنه إذا ما أشير للأناقة، والقوة، والحيوية، فإنه لا لون ينافس الأسود. كانت كل الطيور الضخمة تتحدث معًا بمزاج مرح، ولكن بتصرف سديد، مثل مجموعة من الورثة بعد انتهاء الجنازة. كان هواء الصباح شفافًا كالكريستال، كانت تلك المجموعة القاتمة تستحم في الطزاجة والنقاء، وخلف الأشجار والطيور، بزغت الشمس، ككرة حمراء ساذجة. إنك لتتعجب: أي حال سيكون عليه يومك بعد مثل ذلك الصباح المبكر؟.

طيور الفلامنجو هي أكثر الطيور الأفريقية الملونة رقة، تبدو بلون وردي وأحمر مثل غصين طائر لشجيرة الدفلي. لها سيقان طويلة بدرجة غير معقولة وتموجات شاذة ونادرة على رقابها وأجسادها، وكأنها من فرط تكلفها للحشمة وبطريقة تقليدية رائعة، تسلك سلوكًا وتؤدي حركات صعبة بقدر الإمكان في الحياة.

لقد سافرت في مرة من المرات من بورسعيد إلى مارسيليا على متن قارب فرنسي كان على متنه مجموعة من مائة وخمسين طائر فلامنجو كانت متوجهة إلى *جاردان دي أكليماتسيون* في مارسيليا. كانوا يحفظونها في أقفاص قذرة كبيرة ذات جوانب مصنوعة من الخيش، في كل واحدة عشرة طيور، تقف متجاورة. قال لي الحارس، الذي كان يقوم بنقلها، إنه كان يحسب أنه سيفقد عشرين بالمائة منها في تلك الرحلة. إنها لم تخلق لحياة مثل تلك؛ في مثل هذا الطقس الجاف فقدت توازنها، وانكسرت سيقانها، ودهستها الطيور الأخرى في الأقفاص. حينما كانت الرياح شديدة ليلاً في البحر المتوسط، والسفينة كانت ترتطم تحت وطأة الأمواج، عند كل موجة، كنت أسمع، في الظلام، طيور الفلامنجو وهي تصرخ. كل صباح، كنت أرى الحارس يخرج طائرًا ميتًا أو اثنين، ويلقيها من السفينة إلى البحر. تلك الكائنات النبيلة التي تخوض النيل، قرائن اللوتس، التي تطفو على مدى المشهد الطبيعي مثل سحابة ضالة عند شروق الشمس، قد أصبحت عناقيد مهملة من الريش الوردي والأحمر مربوطة في زوجين من العصي الطويلة الرفيعة. كانت الطيور الميتة تطفو على سطح الماء لوقت قصير، وترتطم لأعلى ولأسفل في أعقاب السفينة قبل أن تغرق بين ثنايا الماء.

بانيا

اكتسبت كلاب الصيد، من مصاحبتها للإنسان على مدى أجيال لا حصر لها، حسًا إنسانيًا بالمرح، حتى أنه يمكنها أن تضحك. إن فكرتها عن المزحة مشابهة لما يعتقده السكان المحليون، الذين يتسلون بأشياء تحدث بشكل خاطئ. ربما يمكنك أن تتجاوز هذه الطبقة من المرح حتى يكون لك أنت نفسك فن، وطقس

في يوم ما سرت مع بانيا، ابن داسك، بالقرب من البركة، حيث كان هناك صف من أشجار الصمغ الأزرق[١٩] الطويلة النحيفة، حينما ركض بعيدًا عني إلى واحدة من تلك الأشجار، ثم جاء ثانية حتى نصف المسافة بيننا، ليجعلني أذهب معه. ذهبت حتى وصلت للشجرة، ورأيت قطة برية أفريقية مرقطة أعلى الشجرة. كانت تلك القطط البرية تنقض على الدجاج، ولذلك فقد صحت في أحد رجال التوتو الذي كان يسير بجوارنا، وأرسلته لمنزلي ليحضر لي البندقية، وحينما أصبحت في حوزتي، أطلقت النار على القطة البرية. سقطت من مكانها المرتفع بضغطة من إصبعي، وانقض عليها بانيا في لحظة، يهزها ويجذبها في المكان من حوله وهو سعيد للغاية بهذا الأداء.

مر بعض الوقت قبل أن آتي ثانية إلى الطريق ذاته، وراء البركة، كنت قد خرجت لأصطاد طيور الحجل، ولكنني لم أصادف أيًا منها، وكلانا، أنا وبانيا كنا منكسري الخاطر. فجأة طار بانيا إلى أبعد شجرة في الصف المجاور، وأخذ ينبح في حالة من الإثارة العالية، ثم ركض مسرعًا ناحيتي، ثم ركض ثانية عائدًا إلى

الشجرة. كنت سعيدة أن البندقية بحوزتي، ولاحتمال وجود قط بري آخر، لأن لها جلد جميل مرقط. ركضت حتى الشجرة. ولكنني حينما نظرت لأعلى، كانت هناك قطة منزلية سوداء جالسة، في حالة من الغضب الشديد، في أعلى مكان ممكن في القمة المتأرجحة للشجرة. أخفضت بندقيتي. "بانيا"، حادثته، "أيها الغبي! إنها قطة".

وأنا أستدير لبانيا، كان يقف على مسافة بعيدة قليلاً، وهو ينظر إلى وظل يضحك ملء شدقيه. حينما نظرت في عينيه ركض ناحيتي مسرعًا، رقص، هز ذيله، أصدر أنينًا، وضع قدميه على كتفي، وأنفه على وجهي، ثم قفز مرة أخرى ليمنح نفسه مسارًا حرًا لضحكاته.

أومأ بانيا: "أعرف، أعرف. أنها كانت قطة مروضة. كنت أعرف طوال الوقت. بالطبع، لا بد أن تلتمسي لي العذر. ولكن، لو ترين فقط شكلك وأنت تركضين من أجل قطة منزلية وأنت تحملين بندقية!".

طوال اليوم، من وقت لآخر، كانت تنتابه الإثارة ذاتها، ويكرر سلوكه ذاته، معبرًا عن مشاعره الفائقة الودودة تجاهي، ثم ينسحب قليلاً لكي يضحك ضحكته التي لا يستطيع كبحها.

ملاحظة عابرة على علاقتنا الودية. "تعلمين،" قال لي، "إنني في هذا المنزل لا أسخر أبدًا سوى منك أنت وفرح".

حتى في ساعات الليل حينما يكون نائمًا، أمام المدفأة، أسمعه في نومه يتأوه وينشج قليلاً ضاحكًا. أعتقد أنه تذكر الحادثة لمدة طويلة بعد ذلك، حينما كنا نمر على البركة والأشجار.

وفاة عيسى

عاد عيسى، الذي انتزع مني خلال الحرب، بعد الهدنة وعاش في المزرعة بسلام. كان لديه زوجة نحيفة، سوداء، ومجتهدة في العمل تدعى مارياموو، كانت تحمل أخشاب المدفأة إلى المنزل. كان عيسى أرق الخدم الذين استخدمتهم، ولم يكن محبًا للشجار.

ولكن شيئًا ما حدث لعيسى في منفاه، وعاد وقد تغير شيء ما بداخله. في بعض الأحيان كنت أخشى أن يموت أمامي، مثل نبات قصت جذوره.

كان عيسى يعمل طباخًا لديّ، ولكنه لم يكن يحب الطهي، كان يريد أن يكون بستانيًا. كانت النباتات هي الأشياء الوحيدة التي يحمل لها اهتمامًا حقيقيًا. ولكن بينما كان لدي بستاني آخر، لم يكن لدي طاهٍ سواه، ولهذا فقد أعدت عيسى ثانية إلى المطبخ. لقد وعدته أن يعود إلى العمل في الحديقة، ولكنني منعته من العمل هناك شهرًا بعد آخر. بشكل سري، أقام عيسى سدًا على قطعة من الأرض بجوار النهر وزرعها كمفاجأة لي. ولكنه حيث فعل ذلك بمفرده، ولم يكن رجلاً قويًا، فلم يكن السد صلبًا بدرجة كافية، وفي الأيام غزيرة المطر انهار كل شيء.

أول إزعاج للاوجوده الهادئ حل بعيسى حينما مات أخوه في أراضي الكيكويو، وترك له بقرة سوداء. في ذلك الوقت، بدا واضحًا كم اعتصرت الحياة عيسى، ولم يعد بإمكانه أن يتصدى لأي إشارة أخرى تفصح عنها. أعتقد، بشكل خاص، أنه لم يكن يحتمل السعادة تمامًا. طلب مني إجازة لمدة ثلاثة أيام لكي يذهب لإحضار البقرة، وحين عودته، رأيت أنه قد حدث ما قد أغضبه وضايقه،

وبدا مثل أيدي وأقدام الناس حينما تتخدر من شدة البرد، عندما يدخلون حجرة دافئة.

كل السكان المحليين مقامرون، وتحت الوهم الذي صنعته البقرة السوداء، بأن الحظ من الآن فصاعدًا سيبتسم له، بدأ عيسى يولي ثقة رهيبة لأشياء بعينها؛ كان لديه أحلام عظيمة. كان يشعر أن الحياة لا زالت أمامه؛ وقرر أن يتزوج زوجة جديدة. حينما أخبرني بخطته، كان بالفعل يتفاوض مع حماه المستقبلي، الذي كان يقطن على طريق نيروبي، وكان لديه زوجة سواحيلية. حاولت أن أثنيه عن عزمه. "إن لديك زوجة رائعة"، قلت له "وقد شاب رأسك بالفعل. لا يمكن أن تكون بحاجة لأخرى. ابق معنا الآن وعش في سلام". لم يتضايق عيسى مما قلته، هذا الرجل الرقيق من كيكويو هب واقفًا أمامي، وبطريقته المألوفة أصر على قراره وبعد ذلك بوقت قصير، جلب زوجته الجديدة فطومة إلى المزرعة.

بدا أن عيسى كان يفقد صوابه في الحكم على الأمور، فقد كان يأمل بأي خير يأتي من زواجه الجديد، إلا أن الريح لا تأتي بما تشتهيه السفن. كانت العروس صغيرة السن جدًا، وصلبة، وواجمة، وترتدي ملابس سواحيلية شهوانية مثل أهل أمها، ولكن بلا رقة أو مرح.

ولكن وجه عيسى كان مضيئًا بالانتصار، ويشف عن زعمه لخطط عظيمة قادمة؛ كان يتصرف ببراءته، كان يبدو مثل رجل على حافة الإصابة بشلل عام، بينما بقت ماريامو، تلك العبدة الصبورة، في خلفية الأحداث وكأن ما يدور حولها لا يعنيها.

من المحتمل أن عيسى قد قضى الآن وقتًا عظيمًا ومبهجًا، برغم كونه وجيزًا، فلم يستمر الأمر طويلاً وتلاشى وجوده الآمن في المزرعة بسبب زوجته الجديدة. بعد شهر من الزفاف، هربت منه، لكي تعيش مع الجنود المحليين في

ثكنات نيروبي. لوقت طويل اعتاد عيسى أن يطلب إجازة لمدة يوم لكي ليذهب إلى المدينة ويجلبها معه ثانية، وكان يعود ليلاً في الظلام، كفتاة مترددة. في المرة الأولى ذهب بثقة كبيرة، وقد حزم أمره؛ أنه سيأتي بها - مهما يكن الأمر، أليست زوجته الشرعية؟ وفيما بعد، كان يسير مبتعدًا لمسافة طويلة محتارًا، حزينًا، باحثًا عن أحلامه، وابتسامة الحظ.

"لم تريد أن تعيدها ثانية يا عيسى؟" قلت له، "دعها ترحل. إنها لا تريد أن تعود ثانية لك، ولا فائدة ترجى من وراء كل هذا".

ولكن عيسى لم يكن ينتوي أن يجعلها ترحل. مع نهاية الأمر، كانت توقعاته من الحياة قد خبت، وأصبحت القيمة المالية لزوجته هي بكل بساطة ما يسعى لاستعادته. كان الصبية الآخرون يسخرون منه وهو يمشي متثاقلاً، وقال لي إن الجنود كانوا يسخرون منه أيضًا.

ولكن عيسى لم يكن يكترث كثيرًا بما يظن الآخرون به، وعلى أية حال، تجاوز هذا الأمر الآن. لقد مضى بإصرار وإخلاص لكي يستعيد ممتلكاته الضائعة، كما سيذهب رجل بحثًا عن بقرته الهاربة.

في صباح ما، أخبرت فطومة صبية المنزل أن عيسى كان مريضًا، وقالت إنه لن يستطيع أن يطهو في ذلك اليوم. ولكن في وقت متأخر من العصر جاءني الصبية، وقالوا لي إن فطومة قد اختفت، وإن عيسى قد تسمم وإنه يموت. حينما خرجت، كانوا يحملونه على سريره، في الخارج، في المربع ما بين أكواخ الصبية. كان من الواضح أن ليس لديه مزيد من الوقت ليعيشه. لقد دست في طعامه نوعًا ما من السم المحلي، مشابهًا للاستركنين، ولا بد أنه قد عانى بشكل بشع وهو يرقد في كوخه، تحت عيني الزوجة القاتلة، حتى شعرت أنها قضت عليه تمامًا، وباتت في مأمن، وهربت. كان لا زال يعاني من بعض التقلصات التي أصابت جسده،

ولكنه كان صلبًا وباردًا، مثل رجل ميت. كان وجهه قد تغير، كان يزبد، ويختلط بالدماء التي تجري من أركان فمه الأزرق الباهت. كان فرح قد ذهب بالسيارة إلى نيروبي، ولهذا لم أستطع أن أذهب بعيسى إلى المستشفى، ولكنني لا أعتقد أنه كان ينبغي أن أفعل ذلك على أية حال؛ لم يكن هناك فائدة من مساعدته.

قبل أن يموت عيسى نظر إليَّ لوقت طويل، ولكنني لا أعرف إن كان قد أدرك وجودي أم لا. بما تبقى من وعي في عينيه الداكنتين المشابهتين لعيني الحيوانات تلاشى تذكري لبلاد كنت أتمنى دومًا معرفتها، حينما كانت مثل سفينة نوح، حيث الأراضي الخضراء الواسعة تحيط بالصبي الإفريقي الصغير وهو يرعى أغنام والده على السهول. أمسكت يده، تلك اليد الإنسانية، أداة قوية بارعة، أمسكت بالأسلحة، زرعت الخضروات والورود، اعتنت بكل شيء؛ تلك اليد التي علمتها أن تصنع الأومليت. هل يعتبر عيسى ذاته حياته قصة للنجاح أم الفشل؟ من الصعب التنبؤ بذلك. لقد مضى في مساراته الضئيلة، البطيئة، المتضافرة ومر بأشياء كثيرة، وكان دومًا رجلاً مسالمًا.

حينما عاد فرح للمنزل عانى كثيرًا لكي يدفن عيسى في مقبرة الأرثوذكس؛ لأنه كان محمديًا ورعًا. لم يستطع الشيخ الذي استدعيناه من نيروبي المجيء إلا في الليلة التالية، ولذا فإن جنازة عيسى تمت ليلاً، وطريق المجرة في السماء، والمصابيح في الموكب الجنائزي. كانت مقبرته مسيجة بحوائط على الطريقة المحمدية، تحت شجرة كبيرة في الغابة. الآن جاءت مريامو لتتخذ مكانها بين المنتحبين، وكانت تنتحب بصوت عال في الهواء الليلي.

أقمنا أنا وفرح مجلسًا لنبحث ما يمكن فعله إزاء فطومة، وقررنا ألا نفعل شيئًا. من الواضح أن اتخاذ أي خطوة لمعاقبة امرأة قانونًا سيضر بفرح. فهمت منه أن الشريعة المحمدية لا تحاسب المرأة. إن زوجها مسئول عما تفعله، ويجب أن

يدفع غرامة لما قد تتسبب فيه من خسائر، كما ينبغي له أن يدفع تعويضًا ماليًا عن الأضرار التي قد يتسبب فيها حصانه. ولكن ماذا لو ألقى الحصان بصاحبه وقتله؟ حسنًا، نعم، يتفق فرح معي في الرأي، أن هذه بمثابة حادثة حزينة. بعد كل شيء، كان لدى فطومة ذاتها سبب لتشتكي من قدرها، الآن، عليها أن تواجه مصيرها كما اختارته في ثكنات نيروبي.

عن المواطنين والتاريخ

إن من يتوقعون أن يتقافز السكان المحليون مرحًا من العصر الحجري إلى عصر السيارات، يتناسون المشقة والعمل التي واجهها آباؤنا لكي يجتازوا بنا عصور التاريخ إلى ما وصلنا إليه الآن.

يمكننا أن نصنع السيارات والطائرات، وأن نلقن السكان المحليين كيف يستعملونها.

ولكن الحب الحقيقي للسيارات لا يمكن صنعه في قلوب الناس، بحركة يد. يستغرق الأمر قرونًا عدة لخلق هذا الحب، ومن المحتمل أن سقراط والحملات الصليبية، والثورة الفرنسية كانت مكونات أساسية لا سبيل لصنعه بدونها. نحن، في هذا الزمن الحاضر، من نحب سياراتنا، لا يمكننا مطلقًا أن نتخيل كيف كان الناس في الماضي يعيشون بدونها. ولكننا لم نستطع أن نصنع العهد المقدس أو تقنية القداس، أو تراجيديا ذات خمسة فصول، وربما ليس حتى سوناتا. ولو أننا لم نجد تلك الأشياء هناك، رهن استخدامنا، لكنا قد استغنينا عنها.

وبرغم ذلك، فيجب أن نتخيل، حيث إنها صنعت تقريبًا، أنه كان ثمة زمن حينما صرخ قلب الإنسانية مطالبًا بتلك الأشياء، وبزمن آخر، حينما أحس هذا القلب بالراحة حينما اخترعت ووجدت في الحياة.

في يوم من الأيام جاء الأب برنارد على عجلته النارية، ووجهه الذي تعتليه لحيته يضيء وهجًا بالنعمة والانتصار، لكي يتناول الغداء معي، ولكي يجلب لي أنباء سارة. في اليوم السابق، كما أخبرني، جاءه تسعة شباب من الكيكويو من

كنيسة الإرسالية الإسكتلندية، وطلبوا منه أن يلتحقوا بالكنيسة الرومانية الكاثوليكية، لأنه، بعد فترة من التأمل والمناقشة، اقتنعوا بمذهب التحول[٢٠] لتلك الكنيسة.

كل من أخبرتهم بتلك الحادثة سخروا من الأب برنارد، وأوضحوا له أن شباب الكيكويو قد رأوا في ذلك الأمر فرصة لزيادة أجورهم، في مقابل عمل أقل وطأة، أو للحصول على دراجة يركبونها، في الإرسالية الفرنسية، ولذلك فقد اخترعوا أمر تحولهم الديني بسبب ذلك المذهب. لأننا نحن أنفسنا، كما قالوا، لن نستطيع أن نفهمه، ولا نحب حتى أن نفكر في هذا الأمر، ولهذا فإنه بالنسبة للكيكويو أنفسهم غير مقبول التفكير فيه كليًا. لكن الأمر ليس مؤكدًا تمامًا أن يكون بهذه الصورة؛ فالأب بيرنارد يعرف أهل الكيكويو جيدًا. إن عقول شباب الكيكويو قد تسير الآن على الممرات المظللة لأجدادنا، الذين ينبغي ألا نتبرأ منهم علنًا، والذين يحتفظون بأفكارهم حول مذهب التحول في مكانة عزيزة في قلوبهم. هؤلاء الناس الذين كانوا يعيشون من خمسمائة عام، كانوا يحصلون في تلك الأيام على أجور عالية، وترقيات، وشروط أسهل في الحياة، في بعض الأحيان، حتى في حياتهم الخاصة، وفي كل شيء كانوا يفضلون قناعتهم بمذهب التحول. لم يقدم لهم دراجة، ولكن الأب برنارد نفسه، الذي كان لديه دراجة نارية، كان يعتبرها ذات قيمة أقل مقارنة بتحول شباب الكيكويو التسعة.

يؤمن الحداثيون من ذوي البشرة البيضاء في أفريقيا بنظرية التطور وليس بأي فعل إبداعي مفاجئ. إنهم إذن قد يلقنون السكان المحليين درسًا عمليًا قصيرًا في التاريخ لكي يتضح لهم ما وصل إليه حالنا الآن. لقد خالطنا هذه الأمة ليس أكثر من أربعين عامًا؛ لو أننا قارنا تلك اللحظة باللحظة التي ولد فيها المسيح، وسمحنا لهم أن يلحقوا بنا، ثلاثة أعوام لكل مائة عام، فسوف يحين الأوان الآن لكي نرسلهم خارج سانت فرانسيس إلى آسيسي، وفي سنوات قليلة إلى رابيلية.

إنهم سيحبون ويقدرون المكانين أكثر من تقديرنا نحن لقرننا. لقد أحبوا أرسطو حينما حاولت منذ بضع سنين أن أترجم لهم الحوار بين المزارع وابنه من كتاب "السحاب". في عشرين عامًا قد يكونون قد استعدوا لأن يشاركوا في كتابة موسوعة، ثم قد يجيئون، في عشر سنوات أخرى، إلى كيبلنج. ينبغي أن ندع لهم الفرصة لأن يكون لديهم أشخاص حالمون وفلاسفة، وشعراء، لكي يجهزوا الأرضية للسيد فورد.

أين يمكن أن يجدونا إذن؟ هل يمكننا في الوقت ذاته أن نمسكهم من ذيلهم ونتمسك به، في سعينا لبعض الظل، بعض الظلام، ونحن ندق على تومتوم(٢١)؟ هل بإمكانهم أن يحصلوا على سياراتنا بسعر التكلفة إذن، مثلما يمكنهم الآن أن يتفهموا مذهب التحول؟.

الزلزال

في إحدى السنوات، قبل حلول الكريسماس بقليل، هز زلزال البلاد؛ كان من القوة لدرجة أنه دمر عددًا من الأكواخ الخاصة بالمواطنين، من المحتمل أنه كان بقوة فيل غاضب. لقد جاء في ثلاث هزات، كل منها دامت لثوان قليلة، تخللها وقفتان للحظات قليلة. هذان الفاصلان منحا الناس وقتًا ليكونوا أفكارهم عما يحدث.

أخبرني دينيس فينش هاتون حينما عاد، وكان ساعة الزلزال نائمًا في شاحنة خاصة في معسكر في أراضي الماساي، أنه قد استيقظ على صوت تلك الهزة، وكان يعتقد "أن هناك خرتيتًا قد مر تحت شاحنته". أنا نفسي كنت في حجرة نومي ذاهبة إلى الفراش حينما حدث الزلزال. في الهزة الأولى ظننت أن "فهدًا قد قفز على سطح المنزل". حينما حدثت الهزة الثانية، فكرت بأنني، "سأموت، هذا ما يشعر به المرء قبل أن يموت". ولكن في السكون القصير بين الهزتين الثانية والثالثة، أدركت ما الأمر، لقد كان زلزالاً، ولم أظن أبدًا أنني سأعيش لأرى ما رأيت. للحظة اعتقدت أن الزلزال قد انتهى. ولكن حينما جاءت الهزة الثالثة والأخيرة، جلبت معها شعورًا غامرًا بالمرح. لا أتذكر أنني شعرت أبدًا طيلة حياتي بأنني أطير فرحًا بذلك القدر من التدفق المفاجئ.

تلك الأجسام السماوية، في مدارها، لديها القدرة على نقل العقول البشرية إلى قمم مجهولة من النشوة. نحن بشكل عام لا ندركها؛ حينما نسترجع تلك الأفكار، وتبدو لنا واقعية، فإنها تفتح لنا منظورًا هائلاً، يكتب كيبلر[٢٢] بما شعره حينما اكتشف أخيرًا، بعد سنوات طويلة من العمل، قوانين حركة الكواكب:

"سلمت نفسي إلى نشوتي. كأنما يقذف الموت بك إلى مكان بعيد. لم أشعر من قبل بشيء مشابه. أرتعد ويتقافز دمي. لقد انتظر الله ستة آلاف عام من أجل أن ينظر من فوق على صنيعته. إن حكمته لا نهائية، تلك التي نجهلها نحن ويحتويها كيانه، بالإضافة إلى القليل الذي نعرفه".

بالفعل كانت تلك الفرحة الغامرة ذاتها ما أسرتني وهزت جسدي كله في أثناء الزلزال.

الشعور باللذة المفاجئة يكمن بشكل رئيسي في الوعي بأن تفاجأ بأن الشيء الذي تحسب أنه لا يتحرك له القدرة على أن يتحرك من تلقاء نفسه. تلك ربما من أقوى مشاعر الفرح والأمل في العالم. الكون الممل، الكتلة الميتة، الأرض ذاتها، تعلو وتتمدد من تحتي. لقد أرسلت لي الأرض رسالة، اللمسة الأخف، ولكنها ذات مغزى لا حدود له. لقد ضحكت حتى انهارت أكواخ المواطنين وصرخت:

وبعد ذلك يتحرك(٢٣).

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، أحضر جوما لي الشاي وقال: "لقد مات ملك إنجلترا".

سألته كيف عرف.

"ألم تشعري، ميمصاحب، بأن الأرض كانت تتأرجح وتهتز في الليلة الماضية؟ إن ذلك يعني أن ملك إنجلترا قد مات".

ولكن، لحسن الحظ، عاش ملك إنجلترا لسنوات عديدة بعد حدث الزلزال.

جورج

على متن سفينة شحن لأفريقيا قابلت ذات مرة صبيًّا صغيرًا اسمه جورج كان مرتحلاً مع أمه وخالته الشابة. في يوم ما، على متن السفينة، ابتعد عن نسائه، وجاء ليتحدث معي، متبوعًا بنظراتهما المراقبة. أعلن أن عيد ميلاده في اليوم التالي، وأنه سيكون في السادسة من عمره، وسوف تدعو أمه الركاب الإنجليز لتناول الشاي، هل ستأتين؟ قال الصبي.

أخبرته "ولكنني لست إنجليزية يا جورج".

"ماذا تكونين؟" سألني بدهشة كبيرة.

قلت: "أنا هوتنتوت(٢٤)".

وقف معتدلاً، ونظر لي بجدية شديدة.

"لا مشكلة"، قال: "أتمنى أن تتمكني من الحضور".

سار عائدًا إلى أمه وخالته وأعلن أمامهما بطريقة غير مبالية، ولكن بكثير من الحزم مختصرًا الطريق أمام أية معارضة" "إنها من الهوتنتوت. ولكنني أريدها".

كيجيكو

كنت أمتلك في وقت ما بغلة سمينة للركوب أسميتها موللي. ولكن خادم الإسطبل كان يطلق عليها اسمًا آخر، لقد أسماها كيجيكو، وهو ما يعني"الملعقة"، وحينما سألته لم أسميتها ملعقة، أجاب: "لأنها تبدو مثل الملعقة" سرت في المكان كله حولها لكي أكتشف ما الذي يقصده، ولكنها لم تبد لي من أية جهة مشابهة بأي شكل للملعقة.

بعد فترة، تصادف أن قدت كيجيكو، مع ثلاث بغال أخرى، في عربة. حينما صعدت في مقعد السائق المرتفع، ألقيت نظرة خاطفة على البغال. عندئذ رأيت أن خادم الإسطبل كان محقًا في رأيه. كان لكيجيكو بشكل غير عادي كتفان صغيرتان وعجيزتان سمينتان كبيرتان، حتى أنها بدت لي وقتها مثل الملعقة تمامًا حينما يكون طرفها المستدير لأعلى.

لو كنا أنا وكاماو خادم الإسطبل نرسم صورة جانبية لكيجيكو، لكانت الصور مختلفة للغاية. ولكن الله والملائكة سيرونها كما رآها كاماو، هو الذي يأتي من فوق وهو فوق الجميع، وما رآه يشهد عليه.

الزرافات ترتحل إلى هامبورج

كنت أقيم في مومباسا في بيت الشيخ علي بن سالم، والي الساحل. كان رجلاً عربيًا مضيافًا، نبيلاً، كريم المحتد.

كان لمومباسا الصورة الكلية للجنة، وقد رسمها طفل صغير. تشكل البحيرة العميقة التي تحيط الجزيرة ميناءً مثاليًا؛ لقد صنعت الأرض من الصخور المرجانية البيضاء التي نمت مع أشجار المانجو الكبيرة الخضراء وأشجار الباوباب. بحر مومباسا أزرق بلون زهرة الكورنفلاور، وخارج شرم الميناء، ترسم الموجات العالية للمحيط الهندي خطًا أبيض رفيعًا منحنيًا وينبعث منه رعد حتى في أكثر الأجواء هدوءًا. لقد بدت مدينة مومباسا ذات الشوارع الضيقة من الأحجار المرجانية، مظللة بظلال ذات لون وردي، مصقولة، وفوق المدينة يرتفع الحصن الهائل، بحوائطه وفتحاته المصنوعة في الجدار للمدافع، حيث نشبت الحرب بين البرتغاليين والعرب منذ ثلاثة قرون؛ إنها تبدو بألوان أقوى من تلك التي للمدينة، وكأنها قد شهدت بشغف، على مدار العصور، من موقعها المرتفع، أكثر من غروب واحد.

زهور الأكاسيا الحمراء المنمقة الزاهية في حدائق مومباسا، ذات كثافة لونية وأوراقها رقيقة بدرجة لا يمكن أن تتخيلها. الشمس تلتهب وتحرق مومباسا؛ الهواء ملحي هنا، يجلب النسيم كل يوم مددًا طازجًا من مياه البحر القادمة من الشرق، والتربة ذاتها مالحة أيضًا ولهذا فإن العشب ينمو بشكل ضئيل. والأرض تبدو جرداء مثل حلبة الرقص. ولكن أشجار المانجو الضاربة في القدم لها أوراق

خضراء داكنة تمنح ظلاً رؤوفًا؛ إنها تخلق حوضًا مستديرًا من البرودة المعتمة من تحتها. أكثر من أي شجرة عرفتها، توحي تلك الشجرة بمكان للقاء عندها، بمركز للعلاقات الاجتماعية الإنسانية؛ إنها اجتماعية مثل الآبار الموجودة في القرى. تقام الأسواق الكبيرة تحت مظلة أشجار المانجو، والأرض المحيطة بجذوعها مغطاة بأقفاص الدجاج ، وأكوام من ثمار البطيخ.

كان لعلي بن سالم منزل أبيض اللون جميل في الجزء الرئيسي من مومباسا، عند منعطف البحيرة، وله صف طويل من العتبات الحجرية التي تصل حتى البحر. كانت هناك بيوت ضيافة على طول البحيرة، وفي الغرفة الكبيرة في المنزل الرئيسي، خلف الشرفة كانت هناك مجموعة منتقاة من الأشياء العربية والإنجليزية: العاج، والنحاس العتيق، والخزف من لامو، ومقاعد ذات أذرع من القطيفة، وصور فوتوغرافية، وجرامافون كبير. من بين تلك الأشياء، بداخل صندوق صغير لحفظ النفائس مصنوع من الساتان المخطط، كانت بقايا من طقم شاي كامل من الخزف الإنجليزي أنيق يعود إلى الأربعينيات، كان هدية الزواج لملكة إنجلترا الشابة وزوجها، حينما تزوج ابن سلطان زنزبار من ابنة شاه إيران. لقد تمنى كل من الملكة والأمير أن يكون للمتزوجين مثل تلك السعادة بالقدر الذي كانا يستمتعان به معًا.

"وهل كانا على ذلك القدر من السعادة؟" سألت الشيخ عليًّا حينما أخرج الفناجين الصغيرة واحدًا بعد الآخر، ووضعها على الطاولة لكي يطلعني عليها.

قال: "وا حسرتاه، لا. لم تكف العروس عن ركوب الخيل. كانت قد جلبت خيولها معها، على القارب الذي حمل جهاز العروس. ولكن أهل زنزبار لم يوافقوا على ركوب السيدات للخيول. لقد سبب ذلك الكثير من المتاعب، ولأن الأميرة

يمكنها أن تتخلى بسهولة عن زوجها لا عن خيولها، فقد انتهى الزواج في النهاية وعادت ابنة الشاه ثانية إلى إيران.

في ميناء مومباسا توجد سفينة شحن بخارية ألمانية صدئة مربوطة باتجاه الوطن. مررت بها وأنا أركب قارب التجديف الخاص بعلي بن سالم، مع المجدفين السواحيليين خاصته في طريق ذهابي وعودتي من الجزيرة. على متن السفينة كان هناك صندوق خشبي طويل، وعلى حافة الصندوق يبرز رأسا زرافتين. أخبرني فرح، وكان على متن القارب معي، أنهما قادمتان من شرق أفريقيا البرتغالية ومرتحلتان إلى هامبورج، حيث ستنضمان إلى مجموعة حيوانات متوحشة في سيرك متجول.

حولت الزرافتان رأسيهما الرقيقين من جانب لآخر، وكأنهما مندهشتان، وهو ما قد يكون عليه الأمر بالفعل. لم يريا البحر من قبل. إنهما بالكاد يستطيعان أن يجدا مكانًا ليقفا فيه في ذلك الصندوق الضيق. لقد تضاءل العالم على نحو مفاجئ، تغير وانغلق حولهما.

لم يعرفا أو يتخيلا التهور الذي سيلحق بهما. لأنهما كانتا مخلوقتين بريئتين تشعران بالزهو، تسيران برقة وتدلفان برفق في السهول الفسيحة؛ ليس لهما أدنى معرفة بالأسر والبرودة والرائحة الخبيثة والدخان، والجرب الذي يصيب الحيوانات، ولا عن الملل الرهيب في عالم لا يحدث فيه شيء مطلقًا.

ستجيء الجماعات المحتشدة، في ملابسها الداكنة التي تنبعث منها رائحة خبيثة، من كل حدب وصوب ليحدقوا في تلك الزرافات، ولكيَ يدركوا تفوق الإنسان على عالم الخرس. إنهم سيشيرون ويسخرون من تلك الرقاب النحيفة حينما يرتفع رأسا الزرافتين، هذان الرأسان الكريمان، الصبوران، اللذان يحملان أعينا يشوبها الضباب، حينما يرتفعان على سور السيرك؛ إنهما يبدوان طويلان للغاية

هناك. سيشعر الأطفال بالرعب عند مشاهدة ذلك المنظر وسيصرخون، أو سيقعون في حب الزرافتين، ويناولونهما الخبز بأيديهما الصغيرة. ثم سيعتقد الآباء والأمهات أن الزرافات حيوانات وحشية لطيفة، وسيعتقدون أنهم يمنحونها وقتًا طيبًا.

في السنوات الطويلة الممتدة أمامهما، هل ستحلم الزرافتان أحيانًا بوطنهما المفقود؟ أين هما الآن، وإلى أين ذهبتا، الأعشاب والأشجار الشوكية، والأنهار، وتلك الأماكن المنخفضة التي يتجمع فيها الماء، والجبال الزرقاء؟ الهواء العذب المرتفع فوق السهول قد انقشع وانسحب. إلى أين ذهبت الزرافات الأخرى، اللاتي كن واقفات بجوارهما حينما كانا يتأهبان للرحيل، وجرت على مهل فوق الأرض المتموجة؟ لقد تركنهن، لقد رحلن جميعًا، ويبدو أنهن لن يعدن مرة أخرى.

ليلاً، أين القمر الكامل؟.

تصنع الزرافتان جلبة وتستيقظان في قافلة السيرك، في صندوقهما الضيق الذي تنبعث منه رائحة القش العفن والبيرة.

مع السلامة، مع السلامة، أتمنى لكما أن تموتا في رحلتكما، أنتما الاثنتان، حتى لا تترك واحدة من تلك الرؤوس الصغيرة النبيلة، المرتفعة الآن، المندهشة، فوق حافة الصندوق في مواجهة سماء مومباسا الزرقاء، لتلتفت من جانب لآخر، وحيدة تمامًا، في هامبورج، حيث لا أحد يعلم شيئًا عن أفريقيا.

بالنسبة لنا، سيكون علينا أن نجد من يعتدي علينا بوقاحة، قبل أن نسأل الزرافات بكثير من اللطف أن تسامحنا على اعتدائنا عليها.

في حديقة الحيوان المتجولة

قبل حوالى مائة عام، صادف رحالة دنيماركي يدعى الكونت شيميلمان كان مسافرًا إلى هامبورج، حديقة حيوانات صغيرة متجولة، وقد أعجب بها تمامًا. بينما كان في هامبورج، كان يتوجه يوميًا صوب المكان، على الرغم من أنه قد يجد صعوبة في تفسير سبب انجذابه لتلك القوافل المتسخة الخربة. الحقيقة أن ذلك السيرك المتجول قد تجاوب مع شيء ما في ذهنه. كان الشتاء قد حل والجو بالخارج قاسي البرودة. في السقيفة كان الحارس يشعل الفرن القديم حتى يصبح لونه ورديًا صافيًا في الظلام البني للممر، بجوار أقفاص الحيوانات، ولكن التيار الهوائي والهواء الطازج كانا من الشدة بحيث يثقبان عظام الناس.

كان الكونت شيميلمان غارقًا في تأمل الضبع، حينما جاء صاحب السيرك المتجول وخاطبه. كان صاحب السيرك رجلاً ضئيلاً شاحبًا وله أنف متهدل، كان في أيامه طالب لاهوت، ولكنه اضطر لترك الكلية بعدما تسبب في فضيحة، ومنذ ذلك الحين بدأ خطوة بعد أخرى يطأ العالم ثانية.

"تحسن سيادتك صنعًا بتأمل الضبع،" قال مالك حديقة الحيوان المتجولة. "إنه لأمر عظيم أن نحصل على ضبع في هامبورج، حيث لا يوجد واحد منها حتى الآن. كل الضباع، كما ستعرف، خنثى، وفي أفريقيا، من حيث أتت، في ليلة يكتمل فيها القمر، قد يلتقون ويتحلقون في دائرة ويتسامرون، حيث كل ضبع يتخذ الدور المزدوج للذكر والأنثى، هل كنت تعلم ذلك؟".

"لا" قال الكونت شيميلمان بحركة تنبئ عن القليل من الاشمئزاز.

"هل تعتبر الآن، يا سيدي،" قال منظم عروض الحديقة، "أنه ينبغي، طبقًا لتلك الحقيقة، أن يكون من الصعب على الضبع أكثر من أي حيوان آخر أن يحبس وحيدًا في قفص؟ هل سيشعر بحاجة مضاعفة، أم أنه، لأنه يوحد في نفسه الصفات التكميلية للخلق، راض بذاته، وفي اتساق مع نفسه؟ بكلمات أخرى، حيث إننا كلنا سجناء في هذه الحياة، هل نكون أكثر سعادة، أم أكثر بؤسًا، كلما امتلكنا ملكات أكثر؟".

"إنه أمر غريب حقًا" قال اللورد شيميلمان، الذي كان يتابع أفكاره الخاصة ولم يعر رجل الحديقة اهتمامًا، "أن تدرك أن هناك العديد من المئات، بالقطع الآلاف الضباع قد عاشت وماتت، حتى ينبغي، في نهاية الأمر، أن نحصل على هذا النوع هنا، حتى يعرف الناس في هامبورج ما هو شكل الضبع، ويتمكن علماء الطبيعة التعلم منها".

تحركا لكي يلقيا نظرة على الزرافات في القفص المجاور.

"الحيوانات الوحشية" أردف الكونت، "التي تركض في مكان طبيعي بدائي، لا توجد في الحقيقة. هذا الحيوان، يوجد، الآن، ولدينا اسم نطلقه عليه، ونعرف ما شكله. الحيوانات الأخرى قد لا تكون كذلك، ولكنها بالرغم من ذلك تعد الأغلبية الكبيرة. الطبيعة مسرفة".

دفع رجل الاستعراض بقبعته المصنوعة من الفراء للخلف؛ تحتها بدا أصلع الرأس، وقال "إنهم يرون بعضهم الآخر".

"حتى هذا أمر يمكن الجدال بشأنه،" قال الكونت شيميلمان بعد وقفة قصيرة. "الزرافات لها على سبيل المثال علامات مربعة على جلدها. الزرافات، وهي تنظر لبعضها الآخر لن تعرف شكل المربع، وبالتالي لن ترى مربعًا. هل يمكن القول بأنها ترى بعضها الآخر على الإطلاق؟".

نظر رجل الاستعراض إلى الزرافة لبعض الوقت ثم قال: "إن الله يراها".

ابتسم الكونت شيميلمان، ثم تساءل، "الزرافات؟".

"أوه، أجل، سعادتك،" قال منظم العروض، "إن الله يرى الزرافات. بينما تركض في المكان وتلعب في أفريقيا، فإن الله يراقبها ويشعر بالسعادة بسبب تصرفاتها. لقد صنعها فقط لتجلب له السرور. لقد وردت، جلالتك، في الكتاب المقدس،". "لقد أحب الله الزرافات جدًا لدرجة أنه خلقها. لقد اخترع الله ذاته المربع والدائرة أيضًا، بالتأكيد لا تستطيع سيادتك أن تنكر أنه قد رأى المربعات على جلودها، وكل شيء آخر عنها. إن الحيوانات الوحشية يا سعادة الكونت، ربما تكون دليلاً على وجود الله. ولكن حينما تذهب إلى هامبورج،" قال منهيًا الحديث، وهو يضع القبعة على رأسه، "فإن هذه الحجة تكون إشكالية".

أكمل الكونت شيميلمان الذي قد اعتاد أن يدير حياته وفقًا لأفكار الناس الآخرين سيره في صمت لكي يلقي نظرة على الثعابين، القريبة من الموقد. لكي يسليه، فتح رجل العروض الصندوق الذي احتفظ فيه بها، وحاول أن يوقظ الثعابين التي بداخله؛ في النهاية، لف الثعبان نفسه ببطء وهو لا يزال نائمًا حول ذراعه. نظر الكونت شيميلمان على المجموعة.

"بالطبع يا كانيجيتير الطيب" قال بضحكة صغيرة واثقة، "لو كنت في خدمتي، أو لو كنت ملكًا، وأنت وزيري، لكنت قد فصلت من منصبك الآن".

نظر رجل العروض لأعلى إليه بعصبية. "بالطبع، يا سيدي" قال، ثم أفلت الثعبان وأعاده إلى الصندوق، "ولكن لماذا يا سيدي؟ إن كنت تسمح لي بالسؤال؟" أردف بعد دقيقة.

"آه، يا كانيجيتير، إنك لست بسيطًا كما يبدو عليك،" قال الكونت. "لماذا، لأن النفور من الثعابين، يا صديقي، غريزة إنسانية مهمة، إن من يتميزون بها يظلون أحياءً. إن الثعبان أكثر أعداء الإنسان دموية، ولكن ماذا هناك، فيما عدا غريزتنا للخير والشر، ما ينبؤنا بذلك؟ فكا الأسد، حجم أنياب الفيل، قرنا الجاموس، كلها تبرز بوضوح أمام عينيك. ولكن الثعابين زواحف جميلة. الثعابين مستديرة وملساء، مثل تلك الأشياء التي نبحث عنها في الحياة، لها ألوان سخية وناعمة، ورقيقة في كل حركاتها. فقط بالنسبة للرجل التقى فإن هذا الجمال وتلك الرقة هي، في حد ذاتها، أمر مقزز، تنبعث منها رائحة الجحيم، وتذكره بسقوط الإنسان. شيء ما بداخله يجعله يهرب من الثعبان، كما يهرب من الشيطان؛ وذلك ما يطلق عليه صوت الضمير. إن الرجل الذي يستطيع أن يعتني بثعبان، يمكنه أن يفعل أي شيء". ضحك الكونت شيميلمان قليلاً على تسلسل أفكاره، وأقفل أزرار معطفه الثري المصنوع من الفراء، واستدار ليغادر السقيفة.

وقف رجل العروض لبرهة وهو مستغرق في أفكاره. "يا سعادة الكونت،" قال في النهاية،" أنت بحاجة لأن تحب الثعابين. ليس هناك مهرب من ذلك. من خبرتي الشخصية في هذه الحياة، يمكنني أن أخبرك بذلك، وبالفعل هذه أفضل نصيحة يمكنني أن أمنحها لك: ينبغي أن تحب الثعابين. تذكر، يا سعادة الكونت، تذكر يا سعادة الكونت، إننا تقريبًا في كل مرة نطلب من الرب سمكة، سيمنحنا أفعى".

رفاق السفر

على المائدة في السفينة المتجهة لأفريقيا جلست بين بلجيكي قاصدًا الكونغو، وإنجليزي زار المكسيك إحدى عشرة مرة لصيد نوع معين من الخراف الجبلية الوحشية، وهو متجه الآن لكي يصطاد ظبيًا أفريقيًا. كنت أحادث الرجلين، فاختلط عليَّ الأمر لغويًا، وحينما قصدت سؤال البلجيكي إن كان قد سافر كثيرًا في حياته، سألته: هل عملت كثيرًا في حياتك[٢٥]؟ لم يشعر بالضيق، ولكنه سحب المسواك من فمه، وأجاب بجدية: بشكل هائل، يا سيدتي[٢٦] . منذ ذلك الحين، أصبح هدفه هو أن يخبرني بكل الأعمال التي قام بها في حياته. في كل أمر ناقشه، كان هناك تعبير ما يتكرر: مهمتنا، مهمتنا الكبيرة في الكونغو.

في إحدى الأمسيات، وكنا قد تأهبنا للعب الورق، أخبرنا المسافر الإنجليزي عن المكسيك، وكيف أن سيدة أسبانية عجوزًا جدًا، كانت تعيش في مزرعة منعزلة في الجبال، حينما سمعت عن قدوم غريب، قد أرسلت في طلبه وأمرته أن يخبرها بأخبار العالم. "حسنًا، الرجال يطيرون الآن، يا سيدتي،" قال لها.

"أجل، لقد سمعت بهذا الأمر" قالت، "ولقد خضت في مناقشات جدلية كثيرة مع كاهني حول هذا الأمر. الآن هل يمكنك أن توضح لنا الأمر، يا سيدي. هل يطير الرجال وسيقانهم موضوعة تحتهم، مثل العصافير؟ أم ممدودة للخارج خلفهم مثل اللقالق؟".

ألقى أيضًا، على مدار حديثنا، بملاحظة حول جهل المواطنين في المكسيك، وما يحدث في المدارس هناك. توقف البلجيكي، الذي كان يوزع أوراق اللعب،

حاملاً الورقة الأخيرة في يده، نظر مليًا إلى الرجل الإنجليزي، وقال: *ينبغي أن نعلم الزنوج العمل بأمانة*[٢٧]. واضعًا الورق بطريقة تحدث صوتًا على الطاولة، كرر بإصرار عظيم: *ليس أكثر من ذلك، أبدًا، أبدًا، أبدًا*[٢٨].

عالم الطبيعة والقرود

جاء إلى المزرعة أستاذ سويدي في التاريخ الطبيعي لكي يطلب مني التدخل لصالحه في شأن يتعلق بإدارة المحمية. كان قد جاء إلى أفريقيا، كما أخبرني، لكي يكتشف في أية مرحلة في مراحل تطور الجنين تتكون أقدام القرود، التي لها أصبع إبهام، وتختلف عن القدم البشرية. لهذا الغرض عمد أن يصطاد قرود كولوبوس في ماونت إيلجون.

"لن تكتشف هذا الأمر أبدًا من قردة كولبوس" قلت له. "إنها تعيش على قمة أشجار الأرز، وهي خجولة ومن الصعب اصطيادها. سيكون حظك كبيرًا لو استطعت أن تحصل على الجنين الذي تريده".

كان البروفيسور متفائلاً، وقد عزم على البقاء حتى ينال ما يريد، حتى لو تطلب منه ذلك أن يبقى هنا لسنوات، كما قال. قدم طلبًا إلى إدارة المنتزه الطبيعي ليحصل على إذن بصيد القرود التي كان يريدها. في ضوء الهدف العلمي الرفيع الذي ينشده من وراء بعثته، كان حصوله على الموافقة مؤكدًا، ولكنه حتى الآن لم يتلق أي رد.

سألته: "كم عدد القرود التي طلبت أن يسمح لك باصطيادها؟".

أخبرني أنه كبداية، طلب أن يصطاد ألفًا وخمسمائة قرد.

كنت أعرف العاملين في إدارة المنتزه في ذلك الحين، وساعدته في أن يرسل خطابًا ثانيًا، طالبًا ردًا على طلبه، حيث إن البروفيسور يريد أن يشرع في عمله. جاء الرد مكتوبًا من إدارة المنتزه: إن الإدارة يسعدها أن تخبر البروفيسور

لاندجرين أنه، نظرًا إلى الهدف العلمي لبعثته الاستكشافية، فقد ارتأت الإدارة أن تستثني هذا الطلب من القوانين المفروضة، وأن تزيد عدد القرود المرخص له اصطيادها من أربعة إلى ستة قرود.

اضطررت أن أقرأ الرسالة على البروفيسور مرتين. حينما أصبح مضمون الرسالة واضحًا بالنسبة له، بدا مكسور الخاطر، مصدومًا ومتألمًا لدرجة بالغة، لدرجة أنه لم يتفوه بكلمة واحدة. لم يبد أي رد فعل على مواساتي له، ولكنه خرج من المنزل، ركب سيارته وقادها وهو حزين.

حينما لا تسير الأمور ضده بشكل كبير، يكون البروفيسور شخصية متحدثة مسلية، ومرحة أيضًا. في سياق مناقشاتنا حول القردة أنار بصيرتي حول حقائق متنوعة وطور كثيرًا من أفكاره أثناء حديثنا. ذات يوم قال لي: "سوف أخبرك بتجربة مشوقة للغاية. هناك في أعلى ماونت إيلجون، وجدت أنه من الممكن للحظة أن أؤمن بوجود الله. ما رأيك في ذلك؟".

قلت إنه أمر مشوق، ولكني فكرت: هناك سؤال آخر مشوق، وهو - هل كان بإمكان الله في ماونت إيلجون، أن يؤمن ولو للحظة بوجود البروفيسور لاندجرين؟.

كارومينيا

كان هناك صبي صغير في المزرعة في التاسعة من عمره يدعى كارومينيا وكان أصم وأبكم. بإمكانه أن يصدر صوتًا، نوعًا من الزئير القصير الخام، ولكنه كان مخلخلاً جدًا، ولم يكن هو ذاته يحبه، ودومًا ما يوقفه في الحال، لاهثًا لمرات قليلة. كان الأطفال الآخرون يخشونه ويشكون من أنه يضربهم. تعرفت لأول مرة على كارومينيا حينما ضربه رفاقه في اللعب على رأسه بفرع شجرة، حتى أصبح خده الأيمن سميكًا، متقيحًا، حاملاً شظايا كان ينبغي أن تنبش بإبرة. لم يكن ذلك بمثابة استشهاد لكارومينيا كما قد يظن المرء؛ لو أنه قد سبب له الألم، فإنه أيضًا وضعه في اتصال مع الناس.

كان لكارومينيا بشرة سوداء قاتمة جدًا، وعينان سوداوان جميلتان نديتان ورموش ثقيلة؛ كان له تعبير جاد رزين، وكانت لا ترتسم الابتسامة إلا بصعوبة على وجهه، ومجملاً كان له مظهر الثور المحلي الأسود الصغير. كان مخلوقًا نشطًا وإيجابيًا، ولأنه قد اقتلع من مجال الاتصال مع العالم عن طريق الحديث، فقد أصبح الشجار بالنسبة له بمثابة إعلان عن وجوده. كان أيضًا ماهرًا جدًا في إلقاء الأحجار ويمكنه أن يصوبها حيث يريد بدقة بالغة. في إحدى المرات، كان لكارومينيا قوس ورمح، ولكنه لم يكن يعمل جيدًا، وكأن الأذن اللازمة لسماع صوت خيط القوس بالضرورة جزء من صنعة رامي السهام. كان لكارومينيا جسم ممشوق وقوي جدًا بالنسبة لسنه. من المحتمل أنه لم يكن ليقايض تلك الميزات مع الأولاد الآخرين بسبب مقدرتهم على الحديث والسمع، تلك التي، كما شعرت، لم تحظ بإعجابه.

بالرغم من روحه المقاتلة، لم يكن كارومينيا صبيًا عدوانيًا. لو أنه أدرك أنك تخاطبه، فإن وجهه سيضيء في الحال، ليس بابتسامة ولكن بشعور حازم متحفز بالهمة. كان كارومينيا لصًا، وكان يأخذ السكر والسجائر كلما سنحت له الفرصة، ولكنه في الحال كان يمنح البضائع المسروقة للأطفال الآخرين. ذات مرة اقتربت منه وهو يوزع السكر على دائرة من الصبية، وكان يقف في مركز الدائرة، لم يرني، وذلك هو الوقت الوحيد الذي رأيته يقترب فيه من الضحك.

حاولت، لوقت ما، أن أمنح كارومينيا عملاً في المطبخ أو في البيت، ولكنه كان يفشل في الاحتفاظ بوظيفة، وكان يشعر بالملل بعد فترة من العمل. كان يهوى تحريك الأشياء الثقيلة في المكان من حوله، وأن يسحبها من مكان لآخر. كان لدي صف من الأحجار البيضاء المغسولة على طول ممشى السيارات، وبمساعدته، حركت إحداها في يوم ما ودحرجته على طول الطريق حتى المنزل، لكي يبدو الممشى متسقًا. في اليوم التالي، بينما أنا في الخارج، رفع كارومينيا كل الأحجار ودحرجها إلى المنزل في كومة كبيرة، ولم أستطع أن أتخيل أبدًا أن شخصا ما في حجمه يمكن أن يكون له القدرة على هذا الفعل. لا بد أن ذلك الأمر قد كلفه جهدًا بشعًا. يبدو الأمر وكأن كارومينيا عرف مكانه في العالم والتصق به. كان أصم وأبكم، ولكنه كان قوي البنيان.

من بين كل الأشياء في العالم، كان كارومينيا يريد سكينًا، ولكنني لم أجرؤ أن أمنحه واحدة، لأنني ظننت أنه من السهل، بسبب بذله قصارى جهده للتواصل مع الناس، أن تسول له نفسه قتل طفل أو أكثر من أطفال المزرعة بتلك السكين. سوف يحصل على سكين، على الرغم من ذلك، فيما بعد في الحياة؛ كانت رغبته شديدة، ويعلم الله فيما كان يود أن يستخدمها.

انفعل كارومينيا بشكل كبير حينما منحته صفارة. كنت قد استخدمتها أنا نفسي لبعض الوقت لكي أنادي على الكلاب. حينما أريته إياها أبدى القليل من الاهتمام بها؛ ثم، كما أرشدته وضعها على فمه ونفخ فيها، فجاء الكلاب من كلا الجانبين مسرعين ناحيته، أصابه هذا الأمر بصدمة كبيرة، حتى أن وجهه أظلم من فرط المفاجأة. جربها مرة أخرى، ووجد التأثير مشابهًا، ونظر إلي، رمقني بنظرة حادة مضيئة. حينما اعتاد أكثر على الصفارة، أراد أن يعلم كيف يصدر منها الصوت. من أجل ذلك الغرض، لم ينظر إلى الصفارة ذاتها، ولكنه حينما صفر للكلاب وجاءوا، فحصهم بعناية وهو يحك حاجبيه وكأنه يريد أن يكتشف مكان إصابتهم. بعد هذه المرة، أصبح كارومينيا محبًا للكلاب، وغالبًا، يمكن القول، كان يستعيرها، يأخذها لتخرج معه في نزهة قصيرة. اعتدت، عندما يقودهم، أن أشير إلى مكان في السماء الغربية حيث ينبغي أن تكون الشمس في الوقت الذي ينبغي أن يعود فيه، وكان يشير إلى المكان ذاته وكان دومًا يعود في الوقت المحدد تمامًا.

في أحد الأيام وقد كنت خرجت للتنزه على صهوة جوادي، رأيت كارومينيا والكلاب في مكان بعيد عن منزلي، في أرض الماساي. لم يرني، ولكنه ظن أنه كان بمفرده تمامًا ولا يلاحظ وجوده أحد. وهنا، سمح للكلاب بالركض، ثم نفخ في الصفارة كي يعودوا، وكرر ذلك ثلاث أو أربع مرات، وأنا أراقبه مِن علي صهوة جوادي. هناك على السهل، حيث كان يظن أن لا أحد يعرف عنه شيئًا، أسلم نفسه لفكرة جديدة ولجانب جديد من الحياة.

حمل صفارته في خيط حول رقبته، ولكن في يوم ما لم تكن معه. سألته بالإشارة عما حدث لها، وأجاب بالإشارة أنها قد ضاعت - فقدت. لم يطلب مني أبدًا صفارة أخرى. إما لأنه اعتقد أنه لم يكن ليحصل على صفارة ثانية، أو ربما قد قصد، الآن، أن يبتعد تمامًا عن شيء ما في الحياة لم يكن في الحقيقة شأنًا حقيقيًا

بالنسبة له. إنني حتى لست على يقين من أنه لم يتخلص من الصفارة بنفسه لعدم قدرته على أن يوفق بينها وبين أفكاره الأخرى عن الوجود.

على مدى الخمس أو الست السنوات القادمة، سيلاقي كارومينيا المزيد من العناء أو سيرفع فجأة إلى السماء.

بوران سينج

كان محل الحدادة الصغير الخاص ببوران سينج هنا عند الطاحونة بمثابة جهنم متناهية الصغر في المزرعة، بكل الصفات الأصيلة لهذا المكان. كان مبنيًا من الحديد المعقوف، وحينما تسطع الشمس على سقفه، ويشتعل لهيب الفرن نارًا بداخله، فإن الهواء ذاته، بداخل وخارج الكوخ يكون في أوج سخونته. على مدار اليوم، يعم المكان تلك الضوضاء المسببة للصمم والصادرة عن كور الحداد-الحديد يطرق الحديد، يطرق الحديد مرة أخرى. والكوخ كان مليئًا بالمطارق، والعجلات المكسورة، جعلته يبدو كأنه صورة قديمة مخيفة لمكان إعدام.

برغم ذلك، فإن محل الحدادة له قوة جذب كبيرة، وحينما ذهبت لمشاهدة بووران سينج في محل العمل كنت دومًا أجد أناسًا بالداخل يحومون حوله. كان بوران سينج يعمل بسرعة فوق إنسانية، وكأن حياته تعتمد على الانتهاء من الأعمال الموكلة إليه خلال الدقائق الخمس التالية، إنه يقفز لأعلى في الهواء فوق الكور، ويصرخ بأوامره لمساعديه الصغار من الكيكويو، يصيح بصوت طائر مرتفع ويتصرف تمامًا مثل رجل قد أحرق نفسه بنيران الحطب، أو مثل شيطان أثير غضبه أثناء عمله. ولكن بوران سينج لم يكن شيطانًا، كان شخصًا له طبيعة متواضعة للغاية؛ بعيدًا عن ساعات العمل كان لديه سلوك محبب عذري بشكل ما. لقد كان بمثابة الجوكر في المزرعة، وهو ما يعني أنه كان يقوم بكل الأعمال: نجار، وسروجي، وصانع الكبائن، وأيضًا حداد؛ لقد شيد وبنى أكثر من عربة خشبية من أجل المزرعة، بمفرده تمامًا. ولكنه كان يحب عمل الكور أكثر من أي

شيء آخر، وكان أمرًا جميلاً جدًا ومشهدًا مشرفًا، أن تشاهده وهو يضع إطارًا مطاطيًا لعجلة.

من ناحية المظهر، كان بوران سينج أشبه بمحتال. حينما يرتدي ملابسه كاملة، معطفه وعمامته البيضاء الكبيرة المطوية، فإنه يفلح، بذقنه السوداء الكبيرة، أن يبدو بشكل رجل بدين، يسير بخطوات متثاقلة. ولكن بجوار الكور، وهو عار حتى وسطه، كان يبدو نحيفًا ورشيق الحركة بشكل لا يصدق، وكان جذعه مثل ساعة رملية هندية.

لقد أحببت الكور الخاص بسينج، ولقد كان أيضًا محبوبًا بين أهل الكيكويو لسببين:

أولاً: بسبب الحديد ذاته، الذي يعتبر أكثر المواد الخام سحرًا، ويجعل مخيلة الناس تسافر إلى مسارات طويلة. المحراث والسيف والمدفع والعجلة - حضارة الإنسان - بإيجاز انتصار الإنسان على الطبيعة- أمر بسيط بشكل كاف يمكن للبدائيين فهمه أو تخمينه - وكان بوران سينج يطرق الحديد.

وثانيًا: لأن العالم المحلي انجذب للكور بسبب أغنيته. إن الإيقاع المضاعف المفعم بالحيوية، والرتيب، والمفاجئ لعمل الحداد له قوة أسطورية. إنه يرمز للفحولة لدرجة أنه يثير الرعب في قلوب النساء ويذيبها، إنه مباشر وغير متكلف ويخبرك بالحقيقة ولا شيء سوى الحقيقة. في بعض الأحيان يكون صريحًا. إنه مفرط القوة ومرح بقدر قوته، إنه خدوم ويفعل أشياءً عظيمة لك برحابة صدر، وكأنه في مسرحية. يتجمع السكان المحليون الذين يعشقون الإيقاع في كوخ بوران سينج ويشعرون بالراحة. طبقًا لقانون قديم في البلدان الإسكندنافية لا يكون الرجل مسؤولاً عما يقوله في محل الحدادة. إن الناس في أفريقيا يقولون ما يحلو لهم كما

الحال في محل الحدادة، ويتدفق الكلام بحرية؛ فالحكايات الخيالية الوقحة تسرد سردًا وافيًا مع الإيقاع الملهم لأغنية المطرقة.

لقد عمل بوران سينج معي لسنوات عديدة وكان من موظفي المزرعة الذين يحصلون على أجر مرتفع. لم يكن هناك تناسب بين أجره واحتياجاته؛ لأنه كان زاهدًا من الدرجة الأولى. لم يكن يأكل اللحم، ولا يحتسي الخمر، ولا يدخن، ولا يقامر، وكان يرتدي ملابسه القديمة حتى تتمزق خيوطها. كان يرسل نقوده إلى الهند من أجل تعليم أطفاله. ذات مرة جاء أحد أبنائه من بومباي لزيارته، وكان صغيرًا صموتًا ويدعى ديليب سينغ. كان قد فقد اتصاله بالحديد، المادة الوحيدة التي رأيتها معه كانت قلم حبر من الأبنوس يضعه في جيبه. يبدو أن الصفات الأسطورية لم تنتقل إلى الجيل الثاني.

ولكن بوران سينج ذاته، وهو يهتز فوق الكور، احتفظ بهالته طالما بقي في المزرعة، وآمل أن يكون قد ظل هكذا طيلة حياته. كان خادم الآلهة، متوهجًا، متأججًا، وله روح بسيطة. في محل الحدادة الخاص ببوران سينج تغني المطرقة لك ما كنت تريد أن تسمعه، وكأنها تمنح صوتًا لقلبك. بالنسبة لي كانت المطرقة تغني شعرًا إغريقيًا قديمًا، ترجمه صديق لي:

يسدد إيروس الضربات، مثل حداد بمطرقته،

حتى بدا تمردي كالشرر المتطاير.

لقد برّد قلبي بدموع ونحيب

مثل الحديد الأحمر في نهر متدفق

حادث غريب

وأنا متجهة ذات مرة جنوبًا لأراضي الماساي، حيث كنت أقوم بأعمال النقل للحكومة، رأيت شيئًا غريبًا، لم يره أبدًا أحد من رفاقي. حدث ذلك في منتصف النهار، بينما كنا نسافر سفرنا الطويل مجتازين تلك البلاد المكسوة بالعشب.

للهواء في أفريقيا مغزى خاص في الأراضي الطبيعية أكثر من أوروبا، حيث إنه مليء بالسراب، وهو بشكل ما المسرح الحقيقي للنشاط. في سخونة منتصف اليوم يتأرجح الهواء ويتبخر مثل وتر الكمان، رافعًا لأعلى طبقات ممتدة من الأرض العشبية والأشجار الشوكية والتلال فوقها تخلق امتدادات فضية واسعة من الماء في العشب الجاف.

كنا نسير في ذلك الهواء الحارق الملتهب، وقد كنت، بخلاف عادتي، أسبق العربات بمسافة طويلة، وأنا بصحبة فرح، وكلبي داسك، والتوتو الذي كان يعتني بداسك. كنا صامتين، حيث كان الطقس حارًا جدًا لدرجة لا تسمح للمرء بالكلام. فجأة بدأت الأرض المنبسطة تتحرك في الأفق وتعدو، كاشفة عن قطيع كبير يتجه لأسفل ناحيتنا من ناحية اليمين، بشكل منحرف عبر المشهد.

قلت لفرح: "انظر إلى كل تلك الكائنات الوحشية". ولكن بعد وقت قصير، لم أكن متأكدة من أنها كانت كائنات وحشية؛ ارتديت نظارة الحقل ونظرت إليها، ولكن ذلك كان أمرًا عسيرًا في منتصف النهار. سألته "أهي حيوانات وحشية، يا فرح، ماذا تظن؟".

أرى الآن أن داسك يوجه كل انتباهه للحيوانات، أذناه مرفوعتان لأعلى في الهواء، وعيناه الثاقبتان تتابعان تقدم القطيع. اعتدت غالبًا أن أدعه يركض خلف الغزلان والظبيان فوق السهول، ولكني اليوم فكرت أن الجو قد يكون ساخنًا جدًا، وأمرت التوتو أن يربط سلسلة الكلب في طوقه. في اللحظة ذاتها، أصدر داسك نباحًا قصيرًا وحشيًا ثم قفز للأمام لدرجة أن التوتو انقلب على وجهه، انتزعت السلسلة بنفسي، واضطررت لأن أمسكه بكل قوتي. نظرت إلى المكان الفسيح. "ما تلك الأشياء؟" سألت فرح.

من الصعوبة بمكان أن تقدر المسافات حينما تكون سائرًا فوق السهول. الهواء المرتعش للمشهد الرتيب يجعله كذلك، وأيضًا الأشجار الشوكية المتناثرة، التي تفرض سمتها الخاصة على المكان، والتي لديها الشكل ذاته، شكل أشجار الغابات القوية القديمة، ولكنها في الحقيقة لا يزيد ارتفاعها عن اثنتي عشرة قدمًا، وهكذا فإن الزرافات ترفع رؤوسها ورقابها فوقها. إنك تنخدع بشكل مستمر بحجم المنتزه الكبير الذي تراه من على مسافة بعيدة وربما، مع منتصف النهار، تخطئ الظن بابن آوي وتعتقد أنه ظبي أفريقي، وقد يختلط الأمر عليك فترى النعامة جاموسة. بعد دقيقة قال فرح: "ميمصاحب، إنها كلاب وحشية".

بشكل عام يمكنك أن ترى ثلاثة أو أربعة كلاب وحشية في المرة الواحدة، ولكن قد يحدث أن ترى اثني عشر كلبا معًا. يخاف السكان المحليون منها، وسيخبرونك بأنهم قتلة. في إحدى المرات بينما كنت أمتطي صهوة جوادي في الأراضي المفتوحة بالقرب من المزرعة صادفت أربعة كلاب وحشية تعقبتني على مسافة خمس عشرة ياردة. احتفظت بالكلبين الصغيرين اللذين كانا معي عندئذ بالقرب مني بقدر الإمكان، في الواقع احتفظت بهما تحت بطن الفرس، حتى قابلنا النهر وواصلنا السير إلى المزرعة. الكلاب الوحشية ليست كبيرة بحجم الضبع.

إنها كبيرة بحجم كلب الأزاسي[٢٩] ولها لون أسود، وخصلات شعر بيضاء عند طرف الذيل وعلى الأذنين المنقطتين. الجلد لا فائدة منه، يكسوه شعر جاف غير مستو وله رائحة كريهة.

هنا لا بد أنها كانت خمسمائة كلب وحشي. جاءت تركض باعتدال وبطء، بطريقة غريبة للغاية، لا تنظر لا لليمين ولا لليسار، وكأنها مرتعبة من شيء ما، أو كأنها مسافرون متعجلون ينتظرهم أمر ما في مسار سفرهم. فجأة انحرفت عن مسارها قليلاً وهي تقترب منا؛ بالرغم من ذلك، يبدو أنها كانت ترانا بصعوبة، وواصلت الطريق بالسرعة ذاتها. حينما اقتربت منا للغاية، كانت على بعد خمسين ياردة. كانت تسير في صف طويل، اثنان، أو ثلاثة، أو أربعة جنبًا إلى جنب، استغرق الأمر وقتًا قبل أن يعبر أمامنا الموكب كله. في منتصف الأمر، قال فرح: "هذه الكلاب منهكة للغاية، لقد ركضت لمسافة كبيرة".

حينما تجاوزنا الموكب كله، وأخذت في الاختفاء مرة أخرى، بحثنا عن السفاري. كانت لا تزال بعدنا بمسافة بعيدة، ولأننا أنهكنا بسبب توقد ذهننا فقد جلسنا على العشب حيثما كنا نقف، حتى لحق بنا السفاري. كان داسك غاضبًا بشدة، يهز سلسلته ويريد أن يركض وراء الكلاب الوحشية. عانقته من رقبته. فكرت بأنني لو لم أكن قد ربطته في الوقت المناسب، لكانوا قد التهموه الآن.

لقد انفصل سائقو العربات عن السفاري، وجاءوا راكضين نحونا، لكي يسألوا عما حدث. لم أستطع أن أشرح لهم ولا لنفسي ما جعل الكلاب تأتي ناحيتنا في مثل هذا العدد الضخم وبتلك الطريقة. لقد اعتبر السكان المحليون هذا الأمر بمثابة أمر مشئوم – شؤمًا يتعلق بحرب؛ لأن الكلاب الوحشية هي آكلة الجيف. فيما بعد لم يناقشوا هذا الحادث بينهم، مثلما اعتادوا أن يناقشوا كل أحداث السفاري الأخرى.

لقد أخبرت أناسًا كثيرين بهذه الحكاية ولم يصدقها أحد منهم. بالرغم من ذلك، هي حكاية حقيقية، ويمكن أن يعتبرني الصبية الذين يعملون لدي شاهدة عليها.

الببغاء

جلس مالك سفن دنيماركي عجوز يفكر في أيام شبابه، وكيف أنه، حينما كان في السادسة عشرة من عمره أمضى ليلة في بيت للدعارة في سنغافورة. لقد ذهب إلى هناك بصحبة بحارة سفينة والده، وجلس وتحدث مع سيدة صينية عجوز. حينما سمعت أنه مواطن من بلاد بعيدة جلبت له ببغاء عجوزًا، كانت تمتلكه. منذ وقت طويل، طويل مضى، كما أخبرته، أهداها حبيب بريطاني هذا الببغاء حينما كانت شابة. ظن الصبي وقتها أن الببغاء لا بد أن يكون قد تجاوز المائة عام. بإمكان الببغاء أن يقول جملاً متنوعة بكل لغات العالم، فقد تربى في هذا الجو الكوزمبوليتاني للبيت. ولكن حبيب السيدة الصينية العجوز كان قد علمه جملة واحدة قبل أن يرسله إليها، ولكنها لم تفهمها، ولم يستطع أبدًا أي زائر أن يخبرها عن معناها. ولهذا، الآن، وبعد سنوات عديدة يئست من السؤال. ولكنها فكرت أن الصبي ربما يمكنه أن يفهم ما يقوله الببغاء ويترجم العبارة لها، حيث إنه قد جاء من مثل ذلك المكان البعيد.

لقد تأثر الصبي بشكل غريب وعميق بذلك الاقتراح. حينما نظر إلى الببغاء، وحينما فكر أنه من الممكن أن يسمع لغة دنيماركية من ذلك المنقار الشنيع، كاد أن يهرب من البيت. ولكنه بقي فقط لكي يسدي خدمة للسيدة الصينية العجوز. ولكنها حينما جعلت الببغاء يردد جملته، اتضح أنه يتحدث بلغة يونانية كلاسيكية. لقد تحدث الطائر بجملته ببطء شديد، وكان الصبي يعرف ما يكفي من اليونانية لكي يدرك معنى الحديث؛ لقد كان بيت شعر لسافو(٣٠):

لقد غطس القمر والثريا[٣١]،

ورحل منتصف الليل

والساعات تمر، تمر

وأنا أرقد وحيدًا.

حينما ترجم لها الأبيات، مطقت السيدة العجوز شفتيها وأدارت عينيها الصغيرتين المائلتين. طلبت منه أن يرددها ثانية، وأطرقت برأسها.

هوامش الفصل الرابع

(١) الحشرة المسماة بالدودة المضيئة أو ذبابة النار ينبعث من بطنها ضوء أشبه ما يكون بمصباح خافت، وعملية التوهج الحيوي فى الدودة المضيئة عبارة عن تحول بطيء في الطاقة الكيمائية بوساطة الأكسدة إلى طاقة ضوئية.

(٢) وردت العبارة باللاتينية.

(٣) تروى: مدينة حقيقية وأسطورية تقع في شمال غرب أنطوليا، تركيا حاليًا، عرفت بالمعارك الملحمية.

(٤) Carrier Corps: مؤسسة عسكرية أقامتها الإدارة البريطانية لتجنيد الأفارقة في كينيا خلال الحرب العالمية لكي تمد الجيش البريطاني بالعمال في حربه ضد القوات العسكرية الألمانية في شرق أفريقيا.

(٥) محام وسياسي فرنسي ١٧٥٥-١٨٢٦ وكان مشهورًا بدراسة العلاقة بين الثقافة والطعام.

(٦) حيوان زاحف كبير من فصيلة السحالي بأمريكا الجنوبية.

(٧) مسرحية لويليام شكسبير كتبت عام ١٥٩٦ من أبرز شخصياتها شيلوك اليهودي الذي كان يقرض الناس أموالاً.

(٨) الكارنيفورا: حيوانات آكلة للحم ومشابهة لفصيلة الأسد.

(٩) وردت العبارة باللاتينية.

(١٠) أغنية صولو داخل الأوبرا.

(١١) لحن متكرر.

(١٢) برايتوريم طبقًا للعهد الجديد هو اسم المكان الذي حوكم وصلب فيه المسيح عليه السلام.

(١٣) باجاندا: مملكة في أوغندا تقطنها مجموعة عرقية مكونة من اثنتين وخمسين قبيلة تدعى الجاندا.

(١٤) marabout: وردت بالإنجليزية وتعني مربوط بالعربية، وهو لفظ منتشر في أفريقيا الغربية، ويعني الشخص المرابط والعالم بشئون القرآن والدين الإسلامي.

(١٥) Secretary bird : نوع من الطيور الكبيرة الكاسرة التي تقطن أفريقيا ويوجد غالبًا في مناطق الحشائش الواسعة أو السافانا.

(١٦) تسمى أيضًا طيور التمساح، وهي طيور مائية.

(١٧) مقاطعة في فنلندا.

(١٨) من طيور أفريقيا الاستوائية، ويتميز بمنقار يشابه القرن.

(١٩) من أشجار اليوكالبتوش الضخمة ذات العطر.

(٢٠) في العديد من الكنائس المسيحية هناك عقيدة تفيد بأن الخبز و النبيذ قد تحولا من القربان المقدس إلى جسد ودم اليسوع على الرغم من أن مظهرهما ظل واحدًا.

(٢١) تومتوم: طبلة إسطوانية.

(٢٢) يوهانس كبلر: عالم رياضيات ألماني، برع في علم الفلك والتنجيم وكان شخصية علمية بارزة في القرن السابع عشر، واشتهر بدراسة حركة الكواكب.

(٢٣) وردت العبارة بالإيطالية.

(٢٤) هونتوت: كلمة قديمة ترجع إلى عام ١٦٧٠، وتشير إلى الأفارقة.

(٢٥) ورد السؤال بالفرنسية، والمفارقة هي تشابه فعلي يسافر بالإنجليزية ويعمل بالفرنسية Travel, Travailler المترجمة.

(٢٦) وردت العبارة بالفرنسية أيضًا.

(٢٧) وردت العبارة بالفرنسية.

(٢٨) وردت بالفرنسية.

(٢٩) نسبة إلى بلاد الألزاس، وهو كلب يشبه الذئب.

(٣٠) Sappho سافو: شاعرة إغريقية قديمة ٦٢٠-٥٦٥ قبل الميلاد.

(٣١) سبعة نجوم في برج الثور.

الفصل الخامس

وداعًا مزرعتي

"الآلهة والناس، كلنا برغم ذلك مخدوعون!"

أوقات عصيبة

كانت مزرعتي مرتفعة بدرجة كبيرة بحيث لا تناسب زراعة البن. في الأشهر الباردة كان يحدث أن نرى بعض الصقيع على الأرض الواطئة، وفي الصباح كانت تبدو براعم أشجار البن، وثمار البن العنبية الصغيرة فوقها، تكون كلها بنية ومتيبسة. تهب الرياح من ناحية السهول، وحتى في السنوات الخصبة لا نحصل أبدًا على المحصول ذاته من البن في الفدان، كما يحصل الناس في الأماكن الأكثر انخفاضًا، بما يقدر بأربعة آلاف قدم، في أراضي ثيكا وكيامبو.

كان لدينا دومًا نقص في الأمطار، وأيضًا في أراضي نجونج، ومررنا ثلاث مرات بسنوات من الجفاف الحقيقي، الأمر الذي أضر بنا أشد الضرر. كنا نحصل في أحد الأعوام على خمسين بوصة من المطر، كما كنا نحصد ثمانين طنًا من البن، وفي عام آخر حينما نحصل على خمس وخمسين بوصة من المطر، كنا نجني تقريبًا تسعين طنًا؛ ولكن كان هناك عامان سيئان حصلنا فيهما فقط على عشرين وخمس وعشرين بوصة من المطر، وحصدنا ستة عشر وخمسة عشر طنًا من البن، وكان هذان العامان بمثابة كارثة حلت على المزرعة.

وفي الوقت ذاته انخفض سعر البن: حيث كنا نحصل على مائة جنيه للطن، أصبحنا الآن نحصل على ستين أو سبعين جنيهًا. كان الوقت يمر بمشقة كبيرة في المزرعة. لم نستطع أن نسدد ديوننا، ولم يكن لدينا أي أموال لإدارة زراعة النباتات بشكل أفضل. كان أهلي في بلادي، من كان لهم أسهم في المزرعة، يكتبون لي ويخبرونني بأن عليّ أن أبيع المزرعة.

فكرت في أمور كثيرة لإنقاذ المزرعة. في أحد الأعوام حاولت أن أزرع الكتان في الأرض الاحتياطية الخاصة بنا. زراعة الكتان عمل محبب للنفس، ولكنه يحتاج إلى الكثير من المهارة والخبرة. كان لدي لاجئ بلجيكي يقدم لي بعض النصائح حول هذا الأمر، وحينما سألني عن مساحة الأرض التي انتويت أن أزرعها، قلت له: ثلاثمائة فدان. صاح في الحال، يا سيدتي هذا مستحيل. يمكنني أن أزرع خمسة فدادين أو عشرة بنجاح، ولكن ليس أكثر من ذلك. ولكن عشرة فدادين لن تقودنا لشيء، واعتزمت زراعة مائة وخمسين فدانًا. حقل الكتان المزهر بلون الأزرق السماوي مشهد ساحر جميل - مثل قطعة من الجنة على الأرض، ولا يمكن أن يكون هناك نوع آخر أكثر إرضاءً من المزروعات القابلة للتصنيع أكثر من ألياف الكتان، الصلبة والمصقولة، ومدهنة بدرجة ما حينما تلمسها. إنك تتبعها في أفكارك وهي تبتعد عنك، وتتخيل أنها قد تحولت لملاءات وأردية نوم. ولكن أهل الكيكويو، بدون إشراف دائم، لم يستطيعوا أن يتعلموا أن يكونوا على قدر من الدقة الكافية في جذب، أو ترطيب، أو فصل الأجزاء القيمة من الألياف عن الخشب؛ ولهذا فإن زراعتي للكتان لم تحظ بأي نجاح.

كان معظم المزارعين في البلاد، في تلك السنوات، يجربون حظهم في مثل تلك المشاريع، وفي النهاية جاء الإلهام لعدد قليل منهم. انتهى الأمر بشكل جيد بالنسبة لإنجريد ليندستورم من نجورو: في الوقت الذي غادرتُ فيه البلاد، بعد أن كدحت كالعبيد لاثني عشر عامًا في حديقتها التي زرعت فيها الخضراوات والفواكه لبيعها، ورعايتها للخنازير، والديوك الرومي، وشجيرات زيت الخروع، وفول الصويا، رأتها كلها تنهار، وكانت تنتحب بشدة. لقد أنقذت إنجريد المزرعة لأسرتها ولنفسها بزراعتها نبات حشيشة الحمى، الذي يرسل إلى لندن، ويصنعون منه هناك مبيدات الحشرات. ولكنني أنا نفسي لم يحالفني أي قدر من الحظ في تجاربي، وحينما عصف بنا الطقس الجاف والرياح من سهول آثي، وتهدلت أشجار البن

وتحولت أوراقها إلى اللون الأصفر؛ كانت هناك أمراض سيئة أصابت أشجار البن مثل الثربس والأنتستي في بعض أجزاء من المزرعة.

ولكي نعجل بحصاد البن حاولنا تسميد الحقول. كنت دومًا، كما تربيت على تلك الأفكار الأوروبية عن الزراعة، أعارض حصاد المحاصيل من الأرض بدون تسميد. حينما سمع مستأجرو الأراضي في المزرعة عن المشروع جاءوا لمساعدتي، وجلبوا معهم قطعان ماشيتهم وسمادًا يكفي لعشر سنوات. كانت مواد رقيقة من الفحم العضوي سهلة الاستخدام. حرثنا أخدودًا بين صفوف أشجار البن، بتلك المحاريث الجديدة الصغيرة، بمساعدة ثور واحد كنا قد ابتعناه من نيروبي، وحيث لم يكن باستطاعتنا أن نجلب عربة إلى الحقول، كانت نساء الحقل يحملن السماد في أكياس على ظهورهن، وينثرنه في الأخدود، كيسًا لكل شجرة، وهكذا استطعنا أن نقود الثيران والمحاريث في طريق عودتنا لكي تغطي التربة السماد. كانت مراقبة العمل أمرًا يبعث على السرور، وتوقعت أشياءً عظيمة منه، ولكن بالرغم من حدوثه فلم ير أحد أبدًا تأثير التسميد على الحقول.

كانت مشكلتنا الحقيقية هي نقص رأس المال، كان قد نفد كله في السنوات الماضية قبل أن أتولى مسئولية إدارة المزرعة. لم نستطع أن ننجز أية تطورات جذرية، واضطررنا للحياة بشكل متقشف - وأصبح ذلك، في السنوات الأخيرة، نمط حياتنا في المزرعة.

لو كان لديّ أموال، كما اعتقدت، لتنازلت عن زراعة البن، ولقطعت أشجاره، وزرعت أشجار الغابات. الأشجار تنمو بسرعة كبيرة في أفريقيا، في مدة عشر سنوات يمكنك أن تسير بارتياح تحت أشجار الصمغ الزرقاء العالية، وأشجار السنط، التي حملتها أنت بنفسك، تحت الأمطار المنهمرة، في صناديق من المشاتل، اثنتي عشرة شجرة في صندوق. كان سيكون لديّ وقتها، كما تأملت الأمر، سوقًا

جيدة للمطاط وخشب الوقود معًا في نيروبي. إنها مهمة نبيلة أن تزرع الأشجار، فسوف تفكر في الأمر بعدها بسنوات عديدة وأنت تشعر بالرضا. كانت هناك امتدادات واسعة للغابة المحلية في المزرعة في السنوات الماضية، ولكنها بيعت للهنود ليقطعوها قبل أن أتولى مسئولية المزرعة؛ وكان ذلك أمرًا محزنًا. في السنوات الشاقة، اضطررت أنا بنفسي أن أقطع الأشجار المزروعة حول المصنع من أجل آلات البخار، ولطالما طاردتني في نومي تلك الغابة، بسيقانها الطويلة وظلالها الخضراء الحية. لم أشعر بالأسف حيال أي شيء صنعته في حياتي أكثر من قطع تلك الأشجار. من وقت لآخر، حينما كنت أستطيع احتمال الأمر كنت أزرع القليل من أشجار اليوكاليبتوس، ولكن الأمر لم يأت بالكثير. بهذه الطريقة، كان الأمر سيستغرق مني خمسين عامًا قبل أن تزرع مئات الفدادين، وتتحول المزرعة إلى غابة تغرد فيها الطيور، تدار بشكل علمي، ومصنع لنشر الأخشاب بجوار النهر. على الرغم من ذلك، فإن مستأجري أراضي المزرعة، الذين اختلفت فكرتهم عن الزمن بالمقارنة بفكرة البيض عنه، ظلوا يتطلعون في أمل إلى الوقت الذي سيحصل فيه كل واحد منهم على وفرة من خشب الوقود – مثلما كان الناس يحصلون عليه في الأزمنة الماضية – من الأرض التي كنت أعتزم زراعتها الآن.

كان لديّ أيضًا خطط لتربية الماشية وتشغيل معمل ألبان في المزرعة. كانت المزرعة تقع في منطقة غير نظيفة، وهذا يعني أن أرضك ستصاب بحمى الساحل الشرقي، وأنك لو احتفظت بماشية من صنف جيد فإن عليك أن تغطس الأغنام في محلول معقم. وذلك يجعل الأمر أكثر صعوبة لكي تنافس الماشية التي يربيها المزارعون في الأجزاء العليا من البلاد في المناطق النظيفة، ولكن في الوقت ذاته، كانت نيروبي قريبة وبإمكاني أن أرسل الحليب إلى هناك بالسيارة في الصباح. في إحدى السنوات كان لدينا قطيع من الأبقار ذات الصنف الجيد، ثم بنينا مكانًا لتغطيس القطيع على السهل. ولكننا اضطررنا أن نتخلص منها، وفيما بعد كان

مغطس القطيع يبدو، وقد نمت عليه الأعشاب، مثل حوض كبير وبقايا قصر مقلوب رأسًا على عقب في الهواء. بعد ذلك، في الأمسيات وقت حلب الأبقار، حينما كنت أمر على قطعان موج أو كانينو، وأشمّ تلك الرائحة العذبة للأبقار، كنت أشعر مرة أخرى بغصة الاشتياق لإسطبلات الأبقار والحاجة لامتلاك معمل ألبان. حينما كنت أتجول على السهول على صهوة جوادي، تخيلته في ذهني مرقطًا، مفروشًا بالورود، وبالأبقار المخططة.

ولكن كل تلك الخطط كانت تبدو بعيدة جدًا عن التحقق على مدار السنوات، وفي النهاية كان من الصعب تنفيذها. لم أمانع أيضًا أن أحافظ على استمرار المزرعة لو أنني فقط استطعت أن أربح أموالاً من زراعة البن.

لا شك أن تولي مسئولية مزرعة عبء ثقيل. تركني أصدقائي المحليون، وحتى أصدقائي من البيض، لكي أرتعب وأقلق بالنيابة عنهم، وفي بعض الأحيان كان يبدو لي أن ثيران المزرعة وأشجار البن ذاتها كانت تفعل الشيء ذاته. يبدو أنه أمر متفق عليه، إذن، من الكائنات الناطقة والخرساء، أن تأخر الأمطار وبرودة الليالي الشديدة كانت خطأ من جانبي. وفي المساء لم يكن يبدو أمرًا صائبًا أن أجلس في هدوء لكي أقرأ؛ كنت أجد نفسي مدفوعة للخروج من منزلي بسبب خوفي من فقده. كان فرح يعرف كل شيء عن أحزاني، ولم يكن يوافق على سيري أثناء الليل. كان يحادثني عن الفهود التي شوهدت بالقرب من المنزل حينما تغرب الشمس، واعتاد أن يقف في الشرفة، كشكل في هيئة رداء أبيض منظور في الظلام، حتى أعود للمنزل ثانية. ولكنني كنت حزينة للغاية لدرجة أنني لم ألتفت لأمر الفهود. كنت أعرف أنني لا أحسن الصنع بسيري ليلاً في طرقات المزرعة، ولكنني كنت أخرج بالرغم من ذلك، مثل شبح مقدر له أن يسير، دون أن يعرف لماذا ولا إلى أين.

قبل أن أرحل من أفريقيا بعامين كنت في زيارة لأوروبا. وعدت ثانية في موسم حصاد البن، حتى لا تأتيني أخبار عن الحصاد طوال الوقت الذي أمضيته في الباخرة قبل أن أصل إلى مومباسا كنت أوازن المشكلة في ذهني: حينما أكون بصحة جيدة والحياة تبدو ودودة لي كنت أحسب أننا سنحصل على خمسة وسبعين طنًا، ولكن عندما أكون مريضة أو منفعلة كنت أفكر: يبدو أننا سنحصل على ستين طنًا على أية حال.

جاء فرح لمقابلتي في مومباسا، ولم أجرؤ أن أسأله مباشرة عن محصول البن؛ تحدثنا لبعض الوقت عن أخبار المزرعة الأخرى. ولكن في المساء وأنا ذاهبة للفراش لم أستطع أن أؤجل الأمر أكثر من ذلك وسألته: كم طنًا من البن قد جنينا من المزرعة كلها؟ إن الإعلان عن المصائب أمر يبعث على السرور بشكل عام لدى الصوماليين.

ولكن فرح لم يكن سعيدًا، كانت تبدو عليه علامات القلق الشديد، وهو يقف بجوار الباب، وقد أغمض عينيه نصف إغماضة ورأسه إلى الخلف، مبتلعًا حزنه، حينما قال: "أربعين طنًا، ميمصاحب". حينها عرفت أننا لا يمكن أن نستمر. خبت كل ألوان العالم والحياة ذاتها من حولي؛ اتخذت حجرة الفندق القفراء الخانقة في مومباسا، بأرضها الأسمنتية، السرير بهيكله الحديدي وشبكة الناموس الممزقة، أهمية هائلة كرمز للعالم، بدون أية علامة على الزخرفة أو التنميق للحياة الإنسانية. لم أقل أي شيء آخر لفرح، ولم يتحدث مرة أخرى، ولكنه ذهب بعيدًا، كآخر شخص ودود في العالم.

لا زال لدى العقل الإنساني قوى عظيمة لتجديد الذات، وفي منتصف الليل فكرت، مع كنودسن العجوز، أنه لا بأس بأربعين طنًا، ولكن يا للتشاؤم – يا له من رذيلة قاتلة. على أية حال، كنت سأذهب للبيت الآن، يمكنني أن أدير الدفة لصالحي

مرة أخرى. كان رفاقي هناك، وجاء أصدقائي لزيارتي. كنت أشاهد، على مدى عشر ساعات، من نافذة القطار، وأنا متجهة صوب الجنوب الغربي، تلك الصورة الظلية الزرقاء في مواجهة سماء مرتفعات نجونج.

في العام ذاته جاء الجراد إلى الأرض. قيل إنه قد جاء من أثيوبيا؛ بعد عامين من الجفاف هناك، رحل جنوبًا والتهم كل النباتات الخضراء في طريقه. قبل أن يتسنى لنا رؤيته، كانت هناك حكايات غريبة تشيع في البلاد عن الدمار الذي خلفه في الشمال، مزارع الذرة والقمح والفواكه باتت كلها صحراء شاسعة واحدة حيث مرت جحافل الجراد. أرسل المستوطنون رسلاً لجيرانهم في الجنوب لكي يعلنوا عن مجيء الجراد. على الرغم من ذلك، لا يسعك أن تفعل الكثير حيالها حتى لو حذرك شخص ما. في كل المزارع كان لدى الناس أكوام عالية من خشب الوقود وأغصان الذرة جاهزة لكي يشعلوا النار فيها حينما يأتي الجراد. أرسل ملاك المزارع كل العمال بصفائح وعلب فارغة، وتلقوا إرشادات بأن يصيحوا ويولولوا، وأن يدقوا على الصفائح لكي يخيفوا الجراد ويمنعوه من الهبوط. ولكنها كانت مهلة قصيرة؛ لأنه مهما حاول المزارعون إفزاعهم، فلن يتمكن الجراد من البقاء في الهواء للأبد؛ الأمر الوحيد الذي كان يأمله كل مزارع هو أن يطرده جنوبًا ناحية المزرعة التالية، الأمر الذي كان يجعل الجراد أكثر جوعًا ويأسًا حينما يستقر في مكان ما. أنا نفسي كان لدي أراض عظيمة من أراضي الماساي، ولهذا فقد كنت آمل أن يبقى الجراد طائرًا بأجنحته وأن يتجه عبر النهر إلى الماساي.

جاءني ثلاثة أو أربعة رسل بالفعل يعلنون مجيء الجراد من المستوطنتين المجاورتين في المنطقة، ولكن لم يحدث أمر آخر، وبدأت أعتقد أن الأمر كله كان تحذيرًا كاذبًا. في عصر أحد الأيام، قدت سيارتي إلى الدكان الخاص بنا، محل المزرعة الذي يبيع كل البضائع، ويحتفظ بها لعمال المزرعة والمستأجرين، ويديره

عبد اللاي الأخ الصغير لفرح. كان يقع في الطريق الرئيسي، وكان هناك هندي في عربة يجرها ثور خارج الدكان. نهض الهندي في عربته وأومأ إليّ بالمجيء حينما عبرت، حيث إنه لا يستطيع أن يقود عربته ناحيتي وهي تسير على السهل.

"الجراد قادم، يا سيدتي، أرجوك، اذهبي إلى أرضك،" قال لي حينما قدت سيارتي إليه.

قلت: "لقد أخبروني بذلك مرات عديدة، ولكنني لم أر أيًا منه. ربما ليس بذلك السوء الذي يتحدث الناس عنه".

"رجاءً انظري خلفك يا سيدتي" قال الهندي.

استدرت ورأيت، على امتداد الأفق الشمالي، ظلاً في السماء، مثل امتداد طويل من الدخان، مدينة تحترق، "مدينة يسكنها مليون شخص يتقيأون الدخان في الهواء،". فكرت أن ذلك كان أشبه بظهور سحابة رفيعة.

"ما هذا؟" سألت.

"إنه الجراد يا سيدتي" قال الهندي.

رأيت القليل من الجراد، ربما عشرين جرادة، على الممر عبر السهل في طريق عودتي. مررت بمنزل مدير المزرعة، وأمرته أن يجهز كل شيء لاستقبال الجراد. ونحن ننظر معًا ناحية الشمال كان الدخان الأسود في السماء قد أصبح أكثر ارتفاعًا بقليل. من وقت لآخر ونحن نراقب الأمر، كان هناك ثمة جراد يلوح محدثًا صوتًا أمامنا في الهواء، أو يسقط على الأرض ويواصل طريقه زحفًا.

في الصباح التالي وأنا أفتح بابي وأنظر للخارج، كان المشهد الطبيعي في الخارج يكتسي بلون برتقالي ذابل باهت يميل للبني. الأشجار، تلك المساحة الخضراء أمام المنزل، الممشى، كل ما استطعت رؤيته، كان مكسوًا بصبغة، وكأن

طبقة كثيفة من الثلج بلون برتقالي مائل للبني سقطت ليلاً على الأرض. كان الجراد قد استقر هناك. وأنا واقفة أنظر إلى المشهد كله، بدأ المنظر يهتز وينكسر، لقد تحرك الجراد وبدأ يرحل، بعد دقائق قليلة بدا الجو هائجًا بالأجنحة، كان يرحل.

في تلك المرة لم يسبب خسائر كبيرة في المزرعة، لقد أمضى معنا الليلة فحسب. لقد رأينا كيف كان شكله، طول الجرادة حوالي بوصة ونصف طولاً، وذات لون رمادي مائل للبني، ووردي وتميل للالتصاق بك إن لامستها. لقد كسر الجراد شجرتين كبيرتين في الممشى الخاص بي، ببساطة بسبب وقوفه عليها، وحينما تنظر إلى الأشجار وتتذكر أن الجرادة الواحدة يمكن أن تزن فقط عشر أونس، فإنك تبدأ استنتاج كم كان عدده.

عاد الجراد مرة أخرى؛ لمدة شهرين أو ثلاثة تعرضنا لهجوم متواصل منه على المزرعة. بعد وقت قليل يأسنا من تخويفه وإبعاده عن المزرعة، لقد كان أمرًا تراجيديًا – كوميديًا. في بعض الأوقات كان يأتي حشد صغير منه، كتيبة حرة قد فصلت نفسها من الجيش الرئيسي، وقد تمر بسرعة. ولكن في أوقات أخرى، كان الجراد يأتي بدفعات كبيرة، الأمر الذي يستغرق أيامًا لكي تعبر المزرعة، اثنتي عشرة ساعة من التقدم الصاخب المتواصل في الهواء. حينما يكون السرب الطائر على أقصى ارتفاع له، فإن الأمر يكون بمثابة عاصفة ثلجية عنيفة في المنزل، حيث يصدر صفيرًا وصراخًا عاليًا مثل رياح قوية، أجنحة صغيرة قاسية ووحشية حولك من كل جانب وفوق رأسك، تبرق في ضوء الشمس مثل نصل حاد من المعدن. يبقى الجراد في حزام من الأرض وحتى قمة الأشجار، وفيما وراء ذلك، يكون الهواء صافيًا. إنه يطن أمام وجهك، يتسرب لياقتك وأكمامك وحذائك. هذه الجلبة من حولك تصيبك بالدوار وتملؤك بنوع من الغضب المقرف واليأس، الرعب من تلك الحشود. الجرادة الواحدة منها لا يمكن أن تعيرها اهتمامًا، يمكنك

أن تقتلها ولا يسبب ذلك أي فرق لأى شخص. بعدما يعبر الجراد ويرحل إلى الأفق مثل شريط طويل من الدخان الرفيع، يظل لديك ولوقت طويل الشعور بالتقزز من وجهك ويديك، وقد زحف الجراد عليها.

يتبع سرب ضخم من الطيور تقدم الجراد، يحلق فوقه في دائرة ثم يحط ويسير في الحقول حيثما استقر الجراد، ويعيش بشكل كبير على أسراب الجراد: اللقالق والغرنوق - إنها طيور منتفعة متغطرسة.

أحيانًا كان الجراد يستقر في المزرعة. لم يحدث خسائر كبيرة لزراعة البن؛ فأوراق أشجار البن، المشابهة لأوراق أشجار الغار، من الصعب للغاية عليه مضغها. إن بإمكانه فقط كسر شجرة هنا أو هناك في الحقل.

ولكن حقول الذرة كانت مشهدًا حزينًا عندما حط عليها الجراد ورحل، لم يكن هناك شيء الآن سوى بعض بقايا من الأوراق الجافة العالقة من الأغصان المتكسرة. حديقتي المجاورة للنهر، التي حافظت على ريها وإبقائها خضراء، باتت الآن مثل كومة تراب - الأزهار، الخضروات، والأعشاب الطبية هلكت كلها. أما مزارع المستأجرين فقد كانت أشبه بمدى من الأرض المحروقة، تحفها الحشرات الزاحفة، وجراد ميت هنا وهناك وكأنها الفاكهة الوحيدة للتربة. وقف المستأجرون ونظروا إليها، بينما أصيبت النساء العجائز اللاتي حفرن وزرعن المزارع بالذهول، وارتجفت أيديهن وهن ينظرن إلى آخر ظل أسود باهت وهو يختفي في السماء.

لقد ترك الجيش الكثير من الجراد الميت في كلّ مكان. في الطريق الرئيسي، حيث مكث، وحيث كانت تمر العربات والسيارات، وكانت تدوس عليها، الآن، وبعد أن رحلت حشود الجراد، تركت مسارات العجلات آثارها على

الطريق، مثل قضبان السكة الحديدية، على مدى البصر، مختلطة بأجسام صغيرة من بقايا الجراد الميت.

لقد وضع الجراد بيضه في التربة. في السنة التالية، بعد الأمطار الغزيرة، ظهر الجراد الصغير ذو اللون الأسود المائل للبني - جراد في مرحلة الحياة الأولى، لا يستطيع الطيران، ولكنه يزحف على الأرض ويلتهم كل شيء في طريقه.

عندما لم أعد أمتلك المزيد من المال، وفشلت المزرعة كمشروع يدر دخلاً، اضطررت لبيعها. قامت شركة كبيرة في نيروبي بشرائها. كانوا يعتقدون أن المكان مرتفع للغاية بالنسبة للبن، ولم تكن لديهم نية الاستمرار في الزراعة. واعتزموا اقتلاع كل أشجار البن، لكي يقسموا الأرض ويمهدوا الطرق، وفي الوقت الذي كانت نيروبي تتجه للتطلع إلى أوروبا، قرروا أن يبيعوا الأرض من أجل بناء مساكن عليها. حدث ذلك مع نهاية العام.

حتى لو كان الأمر كذلك، لا أعتقد أنني كان ينبغي أن أجد في نفسي رغبة في الاستسلام والتخلي عن المزرعة. كان محصول البن الذي لم يكن ناضجًا على الأشجار يخص الملاك القدامى للمزرعة أو للبنك الذي كان لديه الحق الأول في الرهن العقاري لها. ذلك البن لم يكن ليحصد، ويعالج في المصنع ثم يرسل، قبل شهر مايو أو فيما بعد. كنت سأمكث في المزرعة طوال تلك الفترة، مسئولة عنها، وكانت الأمور ستمضي في مسارها، بلا تغير منظور. وخلال هذا الوقت، فكرت بأن شيئًا ما قد يحدث لكي يغير كل الأمور ويعيد سيرتها الأولى، حيث إن العالم، في نهاية الأمر، لم يكن مكانًا متماثلاً أو يمكن إحصاؤه.

بهذه الطريقة بدأ عصر غريب بالنسبة لوجودي في المزرعة. الحقيقة التي كانت تؤكد كل شيء وتحدد مساره، هي أن المزرعة لم تعد لي، ولكن برغم تلك

الحقيقة، كان هناك من لم يستطيعوا إدراك هذا الأمر ومن ثم تجاهلوه، ويومًا بعد يوم لم تسبب تلك الحقيقة أي اختلاف في مسار حياتي اليومية. كان الأمر يتحول، ساعة بعد ساعة، إلى درس في فن حياة اللحظة، أو، يمكن القول، الحياة في الخلود، حيث الأحداث الحقيقية للحظة لا تصنع سوى اختلاف ضئيل.

كان أمرًا غريبًا أننى أنا نفسى، خلال ذلك الوقت، لم أصدق أبدًا أنه سيتحتم عليّ أن أرحل عن أفريقيا. كان الناس من حولي يقولون لي إنني ينبغي أن أفعل ذلك، وكانوا كلهم رجالا متعقلين؛ كانت تصلني خطابات من بلادي كلها تثبت الشيء ذاته، وكل حقائق حياتي اليومية كانت تشير إلى ذلك. وبالرغم من ذلك، لم يكن هناك شيء أكثر بعدًا عن أفكاري من تلك الفكرة، وظللت أعتقد أنني ينبغي أن أدفن عظامي في أفريقيا. لأجل هذا الإيمان الصارم، لم يكن لدي أي سبب أساسي تــرتكــز عليــه مخيلتي، ولا سبب آخر، سوى عدم قدرتي التامة على تصور بديل آخر.

خلال تلك الشهور، كونت في ذهني الخاص برنامجًا أو نظامًا لإستراتيجية، في مواجهة القدر والناس المحيطين بي والمتحالفين معه. ينبغي أن أقر بالهزيمة، فكرت، من ذلك الوقت فصاعدًا، في كل الأمور الهامشية، لكــي أدخــر إزعــاجًا لا داعي له. سأجعل خصومي يتصرفون بطريقتهم في تلك الأمور من وقت لآخر، حديثًا وكتابة. لأنه في النهاية ينبغي أن أخرج من هذا الأمر منتصرة وينبغي أن أحافظ على المزرعة وناسها. خسارة كل ذلك! لم أكن لأحتمل هذا الأمر، كما فكرت، إنه أمر لا يمكن تخيله، كيف يمكن إذن أن يحدث ذلك؟.

وهكذا، كنت آخر شخص يمكنه أن يدرك أنني سأرحل. حينما أستعيد الشهور الأخيرة التي قضيتها في أفريقيا، يبدو لي أن الأشياء الجامدة كانت تدرك أمر رحيلي قبل أن أعرف أنا بوقت طويل. التلال والغابات والسهول والأنهار

والرياح، كلها كانت تعلم أننا سنفترق. حينما بدأت أتصالح مع القدر، وبدأت أباشر المفاوضات حول بيع المزرعة، تغير سلوك الطبيعة معي. حتى ذلك الوقت كنت جزءًا منها، وكان الجفاف الشديد بالنسبة لي بمثابة حمى، وأزهار السهول مثل عباءة لي. الآن فصلت البلاد نفسها عني، وخطت خطوات قليلة للخلف، حتى أراها بوضوح كلوحة كاملة.

يمكن للتلال أن تفعل الشيء ذاته في الأسبوع السابق على هطول الأمطار. في أحد الأمسيات، حينما تنظر إليها، فإنها تصنع فجأة حركة هائلة وتتكشف، وتصبح مثل شيء واضح، صريح، مميز وحيوي شكلاً ولونًا، وكأنها تريد أن تجعلك تستسلم لسطوتها، بكل ما تحتويه، وكأن بإمكانك أن تسير من المكان الذي تجلس فيه، وحتى المنزلق الأخضر. إنك تفكر: لو سار الآن ظبي أفريقي في هذا الأفق المفتوح، فبإمكاني أن أرى عينيه وهو يدير رأسه، وأذناه تتحركان؛ لو أن عصفورًا صغيرًا حط على غصين شجيرة، فإنني ينبغي أن أسمعه وهو يغني. في الربى، في شهر مارس، تعني علامة الاستسلام هذه أن الأمطار قريبة، ولكن هنا، بالنسبة لي، تعني الفراق.

لقد رأيت من قبل بلادًا أخرى، بالأسلوب ذاته، تمنح نفسها لك حينما توشك على مغادرتها، ولكنني نسيت معنى ذلك. لقد فكرت فقط أنني لم أر البلاد بمثل هذا الجمال الوافر، وكأن تأملها فقط يمكنه، في حد ذاته، أن يبقيك سعيدًا طوال حياتك. الضوء والظل تبادلا المنظر الطبيعي بينهما؛ بينما تقف أقواس قزح في السماء.

حينما كنت مع رفاق بيض آخرين، محامين ورجال أعمال من نيروبي، أو مع أصدقائى الذين أسدوا إلي النصيحة عن رحلتي، كان انعزالي عنهم يبدو غريبًا جدًا، وفي بعض الأحيان كان يبدو كشيء جسماني - نوعًا من الاختناق. كنت أنظر لنفسي بوصفي الشخص العاقل الوحيد بينهم كلهم؛ ولكن حدث لي مرة

أو مرتين أن فكرت مليًا لو أنني كنت مجنونة بين أناس عاقلين، فإنني كنت سأشعر بالشيء ذاته.

كان المواطنون المحليون، بسبب الواقعية الشديدة التي تمتاز بها أرواحهم، واعين بالوضع، وبحالتي الذهنية بشكل كامل، وكأنني كنت أحاضرهم بما يجول بخاطري، أو أدونه لهم في كتاب.

وفي الوقت ذاته، كانوا يتطلعون إليّ من أجل مساعدتهم ومساندتهم، ولم يحاولوا، بدون استثناء، أن ينظروا لمستقبلهم بمعزل عني. لقد بذلوا أقصى جهدهم لكي يقنعوني بالبقاء، ومن أجل ذلك اخترعوا العديد من الخطط التي أسروا لي بها. في وقت سريان بيع المزرعة، جاءوا وجلسوا حول منزلي من الصباح الباكر وحتى الليل، ليس لكي يتحدثوا معي ولكن لكي يتتبعوا كل تحركاتي. هناك لحظة متناقضة في العلاقة بين الزعيم وأتباعه: إنهم ينبغي أن يروا كل الضعف والفشل فيه بوضوح شديد، وأن يكونوا قادرين على الحكم عليه بمثل تلك الدقة غير المنحازة، وبالرغم من ذلك فلا زال ينبغي عليهم أن يلجأوا إليه، وكأنه حجر عثرة لا بد لهم من أن يرتطموا به في طريقهم اليومي. قد يشعر قطيع من الخراف بالشعور ذاته تجاه الصبي راعي الغنم، سيكون لديهم بشكل لا حد له معرفة أفضل عن الأراضي والطقس بالمقارنة به، وبالرغم من ذلك سيسيرون وراءه، لو تطلب الأمر، مباشرة إلى جهنم. لقد تعامل أهل الكيكويو مع الوضع بشكل أفضل من تعاملي معه، بفضل معرفتهم الداخلية المتفوقة عن الله والشيطان، ولكنهم جلسوا حول منزلي وانتظروا أن يتلقوا الأوامر؛ من المحتمل أن تجدهم فيما بينهم يستـــرسلون في الكلام طوال الوقت بحرية متندرين بجهلي وعدم قدرتي على إدارة الأمور.

قد تظن أن وجودهم الدائم بجوار منزلي، حينما علمت أنني لا يمكنني أن أساعدهم، وحينما أثقل التفكير في مصيرهم ذهني بقوة، أمر يصعب احتماله. ولكن الأمر لم يكن كذلك. لقد كنا نشعر، كما أعتقد، حتى النهاية، براحة غريبة وارتياح برفقة بعضنا البعض. يكمن التفاهم بيننا في نقطة أعمق من كل منطق. فكرت في تلك الشهور كثيرًا بنابوليون عند انسحابه من موسكو. بشكل عام كان يعتقد أنه تعرض للألم المبرح لرؤيته جيشه العظيم يعاني ويموت من حوله، ولكن من الممكن أيضًا أنه كان سيسقط صريع الموت في اللحظة ذاتها لو لم يكونوا معه. في الليل، كنت أعد الساعات التي ستمر حتى يحين وقت ظهور أهل الكيكويو ثانية بجوار المنزل.

وفاة كينانجوي

في العام ذاته توفي الرئيس كينانجوي. جاء أحد أبنائه إلى منزلي في وقت متأخر من الليل وطلب مني أن أعود معه لقرية والده، لأنه كان يموت:

نا – تاكا كوفا – إنه يريد أن يموت – هكذا يقول المحليون.

كان كينانجوي في ذلك الحين رجلاً عجوزًا. حدث مؤخرًا ما يعد بالنسبة له أمرًا مهمًا: لقد توقف نظام الحجر الصحي في أراضي الماساي، وبمجرد أن علم رئيس الكيكويو العجوز، تقدم بنفسه، مع قليل من الخدم، باتجاه عمق الجنوب في أراضي الماساي لكي ينهي حساباته المتنوعة مع الماساي، ولكي يعيد الأبقار التي يملكها، مع العجول التي ولدتها في منفاها. وبينما هو هناك سقط مريضًا؛ لقد ارتطم فخذه، حسبما فهمت، ببقرة، مما يبدو سببًا للوفاة لرئيس الكيكويو، وأصيب الجرح بالغنغرينا. مكث كينانجوي وقتًا طويلاً مع الماساي، أو ربما كان مريضًا جدًا لدرجة أنه لم يكن يستطيع العودة من تلك الرحلة الطويلة، حينما اتجه أخيرًا نحو موطنه. من المحتمل أنه قد عقد أملاً على العودة مصطحبًا كل ماشيته معه، ولذلك فلم يفكر في الرحيل حتى تم جمعها كلها، ومن الممكن أيضًا أنه قد سمح لواحدة من بناته المتزوجات هناك أن تقوم على رعايته، حتى ساورته الظنون بشكل ضئيل حول نيتها الصادقة لإنقاذه من مرضه. في النهاية، يبدو أن خدمه قد فعلوا كل ما بوسعهم من أجله وعانوا الأمرين لكي يرسلوه لبيته، حاملين الرجل العجوز المريض لمسافات طويلة على نقالة. الآن، يرقد وهو يصارع الموت في كوخه، وقد أرسل في طلبي.

جاء ابن كينانجوي إلى منزلي بعد تناولي العشاء، وكان الوقت مظلمًا حينما قدنا السيارة أنا وهو وفرح متجهين صوب قريته، ولكن القمر كان بازغًا في السماء وفي ربعه الأول. في الطريق بدأ فرح حديثًا عمن سيخلف كينانجوي كرئيس للكيكويو. كان للرئيس العجوز العديد من الأبناء؛ يبدو أن هناك عوامل مؤثرة مختلفة في عالم الكيكويو. أخبرني فرح أن اثنين من أبنائه كانوا مسيحيين، ولكن أحدهما كان تابعًا للكنيسة الكاثوليكية، والآخر تحول إلى كنيسة إسكتلندا، ومن المؤكد أن كلتا الإرساليتين ستتحملان المشقة لكي تؤيد المطالبة بالزعامة. إن أهل الكيكويو أنفسهم، كما يبدو، كانوا يريدون ابنًا ثالثًا همجيًا أصغر سنًا.

كان الطريق للميل الأخير عبارة عن مسار للماشية فوق الأرض المعشبة. للعشب لون رمادي وتعتليه قطرات الندى. قبل أن نوشك على الوصول للقرية كان علينا أن نعبر مجرى مائيًا بجوار النهر، كان هناك تيار عاصف فضي اللون في منتصفه؛ وهنا قدنا السيارة خلال ضباب أبيض. حينما وصلنا إلى مجمع الأكواخ الكبير الخاص به، أكواخ صغيرة ذات قمة مخروطية أشبه بالعنابر وماشية منطقة البوماس. ونحن نتوجه إليها، لمحت في ضوء مصابيحنا، من تحت سقف مصنوع من سيقان القش، السيارة التي اشتراها كينانجوي من القنصل الأمريكي في الوقت الذي جاء فيه إلى المزرعة لكي يدلي برأيه في قضية وانيانجيري. بدت السيارة مهجورة تمامًا، صدئة كلها وخربة، ومن المؤكد الآن أن كينانجوي لن يعيرها اهتمامًا، ولكنه سيعود ثانية إلى عادات آبائه ويأمل رؤية الأبقار والنساء من حوله.

لم تخلد القرية، التي بدت شديدة الإظلام، للنوم. كان الناس مستيقظين وأحاطوا بنا حينما سمعوا صوت السيارة. ولكن الأمر كان مختلفًا عن الحالة المعتادة. كان مجمع أكواخ كينانجوي دومًا مكانًا مفعما بالحركة والضوضاء، مثل بئر ينبثق من الأرض ويجري ماؤه في كل الجهات؛ حيث تختلط الخطط

والمشاريع ببعضها البعض في كل الاتجاهات، وكلها تجري تحت عين الهيكل المركزي لكينانجوي المتغطرس، العطوف. الآن يرفرف جناح الموت على الأكواخ، ومثل مغناطيس قوي، يغير الأشكال من تحته، مكونًا تجمعات ومجموعات جديدة. لقد باتت رفاهية كل فرد من الأسرة والقبيلة في خطر، ومثل تلك المشاهد والمكائد التي دائمًا ما تحدث حول فراش الموت الملكي، تشعر أنها تجري بشكل حقيقي هنا، في هذا الجو المشبع بالرائحة القوية للأبقار، وفي الضوء الخافت للقمر. ونحن نترجل من السيارة، جاء صبي حاملاً مصباحًا، واصطحبنا إلى كوخ كينانجوي، وذهبت جمهرة من الناس معنا ووقفت خارجه.

لم أدخل من قبل أبدا منزل كينانجوي. منزله الملكي الفخم أكبر من كوخ الكيكويو العادي بكثير، ولكن حينما دخلته وجدت أنه ليس مفروشًا بشكل فاخر. كان هناك هيكل لسرير مصنوع من العصي والسيور، وبعض الكراسي الخشبية الصغيرة للجلوس عليها. كانت هناك مدفأتان - أو ثلاث - مشتعلتان على الأرض الطينية المستوية، كانت الحرارة في الكوخ خانقة، والدخان كثيفًا للغاية لدرجة أنني لم أستطع في البداية أن أرى من كان هناك بالداخل، على الرغم من أنهم قد وضعوا مصباح الهراكين على الأرض. حينما اعتدت الجو أكثر قليلاً رأيت أنه كـــان هنـــاك ثلاثة رجال مسنين ذوي رؤوس صلعاء معي بالغرفة، ربما أعمام أو مستشارين لكينانجوي، وامرأة عجوز جدًا تتكئ على عصا وظلت على مقربة من السرير، فتاة صغيرة جميلة، وصبي في الثالثة عشرة - ما هذا التجمع الجديد الذي شكله المغناطيس في غرفة الموت الرئاسية؟.

كان كينانجوي ممددًا على فراشه. كان يموت، كان بالفعل في طريقه للموت والاختفاء، وكانت الرائحة المنبعثة منه كريهة للغاية لدرجة أنني في البداية لم أجرؤ أن أفتح فمي لخوفي من أن ينتقل المرض لي. وجدت الرجل العجوز عاريًا

تمامًا، مستلقيًا على سجادة مصنوعة من قماش صوفي مزخرف بمربعات ملونة منحته له ذات مرة، ومن المحتمل أنه لم يحتمل أي ثقل على الإطلاق على ساقه المسممة. كان منظر ساقه بشعًا، كانت متورمة للغاية لدرجة أنك لا تستطيع أن تميز مكان الركبة، وفي ضوء المصباح تمكنت من رؤية أنها كانت مخططة بغير انتظام كلها من الفخذ حتى القدم بخطوط سوداء وصفراء. تحت الساق، كانت السجادة سوداء ومبللة، وكأن الماء ينبثق منها طوال الوقت.

أحضر لي ابن كينانجوي الذي أتى لإحضاري، كرسيًا أوروبيًا قديمًا لأجلس عليه؛ كانت له قائمة أقصر من القوائم الأخرى، ووضعه في مكان قريب جدًا من السرير.

كان رأس كينانجوي وجذعه قد أصابهما الهزال بدرجة كبيرة حتى أن هيكله العظمي صار بارزًا. بدا وكأنه شكل خشبي ضخم مقصوص بسكين بشكل غير مستو. كانت أسنانه ولسانه بارزة من بين شفتيه وعيناه نصف مغلقتين، بلون الحليب في وجهه الداكن السواد. ولكنه كان لا يزال بإمكانه أن يرى، وحينما اقتربت من السرير، حول عينيه إليّ وظل محدقًا في وجهي طوال الوقت الذي قضيته في الكوخ.

ببطء شديد سحب يده اليمنى عبر جسده لكي يلمس يدي. كان يعاني ألمًا فظيعًا، ولكنه كان لا زال يحتفظ بسمته ولا زال يحمل ثقلاً عظيمًا، عاريًا على سريره. من منظره، اعتقدت أنه عاد من رحلته منتصرًا، وحصل على كل ماشيته وجلبها معه على الرغم من أصهاره الماساي. تذكرت، بينما جلست ونظرت إليه، أنه كان لديه نقطة ضعف واحدة: كان يخاف الرعد، وحينما اجتاحت البلاد عاصفة رعدية بينما كان في منزلي، اتخذ سلوك حيوان قارض وكان ينظر حوله بحثًا عن جحر يختبئ فيه. ولكنه هنا لم يعد يخشى ذلك البرق، ولا الصاعقة التي تصاحبه

وتثير الرعب في الجميع: لقد أنجز ببساطة، كما ظننت، واجبه الدنيوي، عاد لبيته، وأخذ أجره عن كل شيء. لو أن له ذهنًا صافيًا يكفي لأن يعيد النظر في حياته، فإنه سيجد القليل من الأحداث التي لم ينتصر فيها. كان لديه حيوية عظيمة ودافعًا قويًا للاستمتاع، يبدو أن ثمة نشاطًا متشعبًا هنا قد بلغ نهايته، حيث يرقد كينانجوي ساكنًا. كنت أقول لنفسي: "لقد صنعت إنجازًا كاملاً، يا كينانجوي".

وقف الرجال المسنون في الكوخ بجوارنا، وكأنهم قد فقدوا القدرة على الكلام. جاء الصبي، الذي كان موجودًا حينما أتيت، والذي اعتبرته أحدث أبناء كينانجوي، على مقربة من الفراش وتحدث إليَّ، وفقًا لما جرى، ولهذا ظننت، أن الأمر كان متفقًا عليه قبل وصولي.

أوضح لي أن طبيبًا من الإرسالية قد سمع بمرض كينانجوي وأتى لزيارته وقال لأهل الكيكويو إنه سيعود ثانية لكي يأخذ الرئيس المشرف على الموت إلى مستشفى الإرسالية، وكانوا يتوقعون مجيء سيارة الإرسالية لنقله إلى هناك في الليلة ذاتها. ولكن كينانجوي لم يكن راغبًا في الذهاب للمستشفى. ولهذا السبب أرسل لطلبي. كان يريد أن أصطحبه إلى منزلي في سيارتي، وأن أصطحبه الآن، قبل أن يعود رجال الإرسالية. وبينما تحدث الصبي كان كينانجوي ينظر نحوي.

جلست واستمعت بقلب مثقل بالحزن.

لو أن كينانجوي رقد على فراش المرض في أي وقت في الماضي، منذ عام أو حتى منذ ثلاثة أشهر، كنت سأصطحبه معي إلى منزلي فور طلبه.

ولكن الحال اليوم مختلفة. فقد ساءت الأحوال معي مؤخرًا وأخشى أنها ستسوء أكثر. لقد قضيت أيامًا في مكاتب نيروبي، أستمع إلى رجال الأعمال والمحامين، وأمضيت ساعات طويلة في اجتماعات مع الدائنين للمزرعة. المنزل، الذي طلب كينانجوي الانتقال إليه، لم يعد منزلي.

كان كينانجوي يحتضر، كما ظننت، وأنا جالسة أنظر إليه، ولم يكن من المحتمل إنقاذه. قد يموت في سيارتي ونحن في طريقنا للمنزل، أو عند الوصول إليه. وقد يأتي مسئولو البعثة ويلومونني لوفاته؛ كل من علم بالأمر سيتفق معهم.

كل هذه الأمور، وأنا جالسة على المقعد المكسور في الكوخ، كانت تبدو لي مثل شيء ثقيل جدًا يصعب حمله. لم أعد أجد نفسي قادرة على مواجهة كل قوى العالم. ولم يعد لديَّ الشجاعة الآن لأتحداها كلها، يبدو هذا فوق قدرتي على الاحتمال.

حاولت مرتين أو ثلاث أن أتخذ قرارًا باصطحاب كينانجوي، ولكن شجاعتي كانت تخذلني في كل مرة. فكرت وقتها أنني ينبغي أن أتركه وأرحل.

وقف فرح بجوار الباب وكان يستمع لكلام الصبي. حينما رآني جالسة في صمت، جاء ناحيتي وبصوت خفيض متلهف بدأ يشرح لي كيف يمكننا أن ننقل كينانجوي إلى السيارة بأفضل طريقة. قمت وذهبت معه إلى الفناء الخلفي للكوخ، بعيدًا بشكل ما عن عيني الرجل العجوز في فراشه ورائحته الكريهة. قلت لفرح عندئذ إنني لن أصطحب كينانجوي معي إلى المنزل. لم يكن فرح مستعدًا تمامًا لتحول مجرى الأمور بهذا الشكل؛ فقد أظلمت عيناه وعكس وجهه كله اندهاشه لما أقول.

كنت أرغب في البقاء قليلاً مع كينانجوي، ولكنني لم أستطع الانتظار لرؤية رجال الإرسالية وهم يأتون لاصطحابه معهم.

اتجهت نحو فراش كينانجوي وأخبرته أنني لا أستطيع اصطحابه إلى منزلي. لم يكن هناك ضرورة لإبداء أسباب، وهكذا تركنا الأمر عند هذا الحد. حينما أدرك الرجال المسنون رفضي لاصطحابه تجمعوا حولي وتحركوا بقلق،

خطا الصبي للخلف قليلاً ووقف بلا حراك، لم يكن لديه الكثير ليفعله. كينانجوي ذاته لم يتحرك أو تتغير ملامحه بأي شكل، أبقى عينيه ناحيتي كما كان يفعل طوال الوقت. لقد بدا وكأن شيئًا مماثلاً قد حدث له من قبل، وهو أمر محتمل حدوثه بالفعل.

قلت: "كواهيري كينانجوي، وداعًا".

تحولت أصابعه المشتعلة قليلاً في مواجهة كف يدي. وبالفعل قبل أن أصل إلى باب الكوخ، حينما استدرت ونظرت للخلف، كان دخان الغرفة وضوؤها الخافت قد ابتلع الشكل الكبير الممتد لرئيسي، زعيم الكيكويو. حينما خرجت ثانية من الكوخ كان الجو باردًا جدًا. كان القمر الآن منخفضًا عند الأفق، لا بد أن الساعة كانت قد تجاوزت الثانية عشرة. عندها فقط في مجمع الأكواخ صاح أحد ديوك كينانجوي مرتين.

مات كينانجوي في تلك الليلة ذاتها، في مشفى الإرسالية. جاء اثنان من أبنائه إلى منزلي في المساء التالي لكي يخبراني بالأمر. وفي الوقت ذاته طلبا مني المجيء إلى الجنازة التي كانت ستتم في اليوم التالي، بجوار قريته في داجوريتي.

اعتاد أهل الكيكويو فيما بينهم، أن لا يدفنوا موتاهم، ولكنهم يتركونهم فوق الأرض حتى ينال منهم الضباع والنسور. بدت لي تلك العادة مغرية دومًا، اعتقدت أنه أمر يدعو للسرور أن ترقد ممددًا تحت الشمس والنجوم، وأن تلقي بجسدك عاريًا لتلتقطه وتنظفه تلك الكائنات الوحشية؛ إنها ستقوم بذلك بسرعة ودقة فائقتين، وهكذا تتوحد مع الطبيعة وتصبح مكونًا مشتركًا مع المشهد الطبيعي الأخاذ. في الوقت الذي أصبنا فيه بالأنفلونزا الإسبانية في المزرعة، كنت أسمع أصوات الضباع وهي تحوم حول أكواخ المزارعين طوال الليل، وغالبًا، بعد تلك الأيام، كنت أجد جمجمة ناعمة بنية اللون بين الأعشاب الطويلة في الغابة، مثل بندقة

سقطت على الأرض تحت شجرة، أو على السهل. ولكن تلك العادة لم تعد تتماشى مع شروط الحياة المتحضرة. لقد عانت الحكومة كثيرًا لكي تجعل الكيكويو يغيرون عاداتهم، وتعلمهم كيف يدفنون موتاهم تحت الأرض، ولكنهم برغم ذلك لا يحبون تلك الفكرة على الإطلاق.

لقد أخبروني أن كينانجوي سيدفن، وظننت أن الكيكويو قد وافقوا على استثناء كينانجوي من تقاليدهم لأن الميت رئيس. ربما رغبوا في أن يصنعوا عرضًا اجتماعيًا محليًا عظيمًا بهذه المناسبة. في مساء اليوم التالي، قدت سيارتي إلى داجوريتي متوقعة أن أجد كل رؤساء البلد الأقل شأنًا، وأن أجد احتفالاً كبيرًا مشابهًا لاحتفالات الكيكويو.

ولكن جنازة كينانجوي تمت بطريقة أوروبية كهنوتية خالصة. كان هناك عدد قليل من ممثلي الحكومة ، مفوض الحي واثنان من المسئولين من نيروبي. ولكن اليوم والمكان كانا من اختصاص رجال الدين؛ وبدا السهل، في ضوء شمس المساء بلون أسود، متضامنًا معهم. كان هناك عدد كبير من ممثلي الإرسالية الفرنسية وإرسالية كنيستي إنجلترا وإسكتلندا. لو رغبوا أن يتركوا انطباعًا جيدًا لدى أهل الكيكويو بإحساس أنهم كان لهم يد في دفن الرئيس الميت، وأنه الآن ينتمي إليهم، فقد نجحوا في ذلك. لقد كانوا بشكل جلي يسيطرون على مجريات الأمور، لدرجة أن المرء يشعر أن كينانجوي لا يمكن أن يفلت من قبضتهم بأي حال. هذه حيلة قديمة من حيل الكنيسة. هنا، رأيت للمرة الأولى، بأي عدد يمكن أن يجول بخاطرك، صبية الإرسالية، والمواطنين المعتنقين المسيحية، يرتدون ملابس شبه كهنوتية، مهما كانت الوظيفة التي يشغلونها، شباب الكيكويو الممتلئين وهم يرتدون نظارات وأيديهم مضمومة، وقد بدوا مثل مخنثين لا نفع من ورائهم. ربما كان ابنا كينانجوي المسيحيان هناك، مستسلمين لاختلافاتهم الدينية في هذا

اليوم، ولكنني لم أعرفهما. حضر بعض الرؤساء القدامى الجنازة. كان كيوي هناك وتحدثت معه لبعض الوقت عن كينانجوي. ولكنهم بقوا في خلفية المشهد.

حفروا قبر كينانجوي تحت شجرتي يوكاليبتوس عاليتين فوق السهل، وأحاطوه بالحبال. وصلت مبكرًا ولهذا فقد وقفت على مقربة من القبر، بجوار الحبال، حيث كان بإمكاني أن أراقب التجمع وهو يزداد عددًا ويستقر، مثل الذباب، من حوله.

أحضروا كينانجوي من الإرسالية في شاحنة، ووضعوه على الأرض بجوار القبر. لا أعتقد أنني تقهقرت مرتعبة أبدًا في حياتي أكثر مما حدث لي في ذلك اليوم، حينما رأيته. كان رجلاً ضخمًا، وتذكرته حينما رأيته قادمًا سائرًا على قدميه إلى المزرعة بين أعضاء مجلس رئاسته، حتى وهو راقد على سريره، منذ ليلتين. ولكن التابوت الذي أحضروه فيه الآن كان تقريبًا صندوقًا مربعًا، بالتأكيد ليس أطول من خمسة أقدام. لم أعتبر أنه تابوت حينما وقعت عيناي عليه في البداية؛ لا بد أنه، كما ظننت، كان صندوق معدات من أجل الجنازة. ولكنه كان بالفعل نعش كينانجوي. لم أعرف أبدًا لم اختاروه؛ ربما كان لديهم هناك فحسب في الإرسالية الإسكتلندية. ولكن كيف تمكنوا من إنزال كينانجوي في الصندوق وكيف يرقد الآن فيه؟ وضعوا النعش على الأرض، على مقربة من المكان الذي وقفت فيه.

كان للنعش لوحة معدنية كبيرة مثبتة فيه وعليها نقش، يحكي، كما قيل لي فيما بعد، أن الإرسالية قد منحته للرئيس كينانجوي، وعليها نص من الكتاب المقدس.

كان هناك قداس جنائزي طويل. واحدًا بعد الآخر، وقف ممثلو الإرساليات وتحدثوا، وأعتقد أنهم كانوا على درجة كبيرة من الحرفية والوعظ. ولكنني لم أسمع

أي كلمة مما قيل، كنت أمسك بالحبل المحيط بقبر كينانجوي. تابع بعض السكان المحليين المسيحيين ما يقولونه، وكانوا يرددون بصوت عال فوق السهل الأخضر.

في النهاية أنزلوا كينانجوي في التربة، في أرض بلاده، وغطوه بها.

كنت قد اصطحبت صبية المنزل معي إلى داجوريتي حتى يروا الجنازة، وبقوا ليتحدثوا مع أقرانهم وأقاربهم هناك، وعادوا سيرًا على الأقدام، وهكذا عدنا للبيت أنا وفرح بالسيارة وحدنا. كان فرح صامتًا كالقبر الذي تركناه. كان من الصعب على فرح استيعاب حقيقة أنني رفضت اصطحاب كينانجوي معي إلى منزلي؛ بقي يومين مثل روح ضائعة، واقعًا في براثن الشكوك والإحباط.

وعندما وصلنا بالسيارة إلى الباب، قال: "لا تثقلي على نفسك بالهموم، ميمصاحب".

قبر في البراري

عاد دينيس فينش – هاتون من إحدى رحلات السفاري، وكان قد مكث وقتًا قليلاً في المزرعة، ولكنني حينما بدأت أنتهي من أمر منزلي، وشرعت في حزم حقائبي، ولم يعد بإمكانه البقاء هناك، رحل وعاش في منزل هيو مارتن في نيروبي؛ ومن هناك كان يقود سيارته إلى المزرعة كل يوم ويتناول العشاء معي، كنا نجلس – صوب النهاية، حينما كنت أبيع أثاث منزلي – على حقيبة ونأكل على أخرى. كنا نجلس هناك حتى وقت متأخر من الليل.

في مرات قليلة، تحدثت أنا ودينيس وكأنني سأرحل عن البلاد بالفعل. هو نفسه كان ينظرلأفريقيا وكأنها موطنه، وكان يدرك ما أمرّ به جيدًا وحزن كثيرًا معي وقتها، حتى حينما كان يسخر من لوعتي للرحيل عن رفاقي وناسي.

"أتعتقدين أنك لن تستطيعي العيش بدون سيرونجا؟" قال لي.

"أجل" قلت.

ولكن في معظم الأوقات حينما كنا معًا، كنا نتحدث ونتصرف وكأنه لا وجود للمستقبل؛ إنه لم يعتد أبدًا القلق بشأنه، لأنه كان يبدو وكأنه يعرف أن بإمكانه أن يوقف القوى المجهولة بالنسبة لنا لو أراد ذلك. لقد خضع بشكل طبيعي لخطتي الخاصة بترك الأشياء لكي تدبر نفسها بنفسها، وأن نترك الآخرين ليقولوا ما يرغبون أن يقولوه. حينما كان دينيس هناك، بدا أنه أمر طبيعي، ومتوافق مع ذوقينا الشخصيين، أن نجلس معًا فوق الأمتعة داخل منزل خال. ذكر لي قصيدة:

"ينبغي أن تحولي أغنيتك القصيرة الحزينة

إلى إيقاع فرح

لن آتي أبدًا من أجل الحسرة

ولكنني سآتي من أجل المتعة

اعتدنا خلال تلك الأسابيع، أن نقوم برحلات طيران قصيرة لأعلى فوق تلال نجونج أو أسفل فوق أراضي المحمية. في صباح يوم ما، جاء دينيس إلى المزرعة لكي يصطحبني معه في وقت مبكر تمامًا، والشمس تسطع في السماء، وعندئذ رأينا أسدًا على السهل، جنوب التل.

تحدث معي عن ضرورة حزم كتبه، التي كانت في منزلي لسنوات عديدة، ولكنه لم يقم بهذا العمل أبدًا.

"احتفظي بها"، قال لي، "ليس لدي مكان لأضعها فيه". لم يستطع أن يقرر أبدًا أين يمكنه أن يذهب حينما يغلق منزلي في وجهه. في إحدى المرات، وبسبب إلحاح صديق، قاد سيارته إلى نيروبي، لكي يلقي نظرة على المنازل ذات الطابق الواحد التي يمكن أن يؤجرها هناك، ولكنه عاد وهو متقزز مما قد رآه هناك لدرجة أنه لم يكن راغبًا حتى في الحديث عن هذا الأمر، وفي وقت العشاء، حينما بدأ يصف لي البيوت والأثاث الموجود فيها، توقف عن الحديث وجلس صامتًا، وقد ارتسمت على وجهه علامات الاشمئزاز والحزن وكان ذلك أمرًا غير عادي بالنسبة له. لقد اطلع على شكل ما من الوجود، لم يكن يروق له مطلقًا.

لقد كان، على الرغم من ذلك استهجانًا موضوعيًا وغير منحاز، لقد نسي أنه هو ذاته يعد جزءًا من هذا الوجود، وحينما كنت أتحدث عن هذا الأمر، كان

يقاطعني. "أوه، بالنسبة لي،" كان يقول،" سأكون سعيدًا تمامًا لو عشت في خيمة في أراضي الماساي، أو لو اتخذت لنفسي منزلاً في القرية الصومالية".

ولكن في هذه المناسبة، تحدث لمرة واحدة، عن مستقبلي في أوروبا، وأنني سأكون أسعد هناك أكثر من المزرعة، كما كان يعتقد، وأفضل حالاً بخروجي من هذا النوع من الحضارة التي كنا نعيشها في أفريقيا. "أتعرفين؟ قارة أفريقيا هذه لها حس قوي وحاد بالسخرية".

كان دينيس يمتلك قطعة من الأرض هناك بالقرب من الساحل، على بعد ثلاثين ميلاً شمال مومباسا على نهير تاكاونجا. هنا آثار مستوطنة عربية قديمة، وكانت هناك مئذنة متواضعة جدًا وبئر – حيث تنتشر أحجار رمادية منحدرة على التربة المالحة، وفي منتصفها عدد قليل من أشجار المانجو القديمة. كان قد بنى منزلاً صغيرًا على أرضه وبقِيتُ هناك. كان مشهدًا بحريًا سماويًا، نظيفًا، وعظيمًا، حيث أمامك المحيط الهندي بلونه الأزرق، ونهير تاكاونجا العميق إلى الجنوب، والطريق الساحلي الطويل غير المتكسر شديد الانحدار. ذو اللون الرمادي الباهت والصخرة المرجانية الصفراء بقدر ما تستطيع العين أن تبصر.

حينما يكون المد عاليًا، يمكنك أن تسير من المنزل أميالاً بعيدًا باتجاه البحر، وكأنك تسير في ميدان عام غير ممهد، تلتقط أثناء سيرك نجمة البحر وقواقع طويلة ذات لون مائل للاصفرار. كان الصيادون السواحيليون يأتون للتجول هنا، مرتدين إزارًا مشدودًا على الخصر ورابطة رأس حمراء أو زرقاء، وكأن البحار سندباد قد عاد للحياة لكي يعرض للبيع أسماكًا متعددة الألوان مدببة ذات أشواك، كان بعضها ذو مذاق شهي. وكان للساحل أسفل المنزل صف من الكهوف العميقة المجوفة والمغارات، حيث يمكنك أن تجلس في الظل وتراقب المياه الزرقاء البعيدة المتلألئة. حينما يأتي المد، يملأ الكهوف عن آخرها حتى مستوى الأرض التي بني

عليها المنزل، ومن بين ثنايا الصخور المرجانية المسامية يغني البحر ويومئ بطريقة غريبة، وكأن الأرض من تحت قدميك كائن حي؛ تأتي الموجات راكضة لأعلى نهير تاكاونجا مثل جيش عاصف.

كان القمر مكتملاً حينما كنت هناك أسفل عند تاكاونجا وجمال الليالي المشعة الساكنة كان مثاليًا جدًا لدرجة أن القلب يخضع له. تنام والباب مفتوح على البحر الفضي؛ يعصف النسيم الدافئ اللعوب في همس خفيض بالرمال الصغيرة المفككة على الأرض الحجرية. في إحدى الليالي جاء صف من سفن الدهو العربية بالقرب من الساحل، تركض بلا ضجيج قبل الرياح الموسمية المحملة بالأمطار، صف من الظلال البنية تبحر تحت القمر.

في بعض الأحيان كان دينيس يتحدث عن تاكاونجا بوصفها منزله في أفريقيا، وعن بدئه لرحلات السفاري الخاصة به من هناك. حينما بدأت الحديث عن اضطراري لترك المزرعة، عرض علي الإقامة في منزله هناك في ذلك المنخفض، مثلما كان يقيم في منزلي في الأراضي المرتفعة. ولكن البيض لا يستطيعون أن يعيشوا لوقت طويل عند الساحل إلا إذا توفرت لهم سبل الراحة، وكانت تاكاونجا منخفضة وحارة للغاية بالنسبة لي.

في شهر مايو من العام ذاته حينما رحلت من أفريقيا، اتجه دينيس لأسفل إلى تاكاونجا لمدة أسبوع. كان يخطط لبناء بيت أكبر وزرع أشجار المانجو في أرضه. رحل بطائرته وكان ينوي أن يسلك سبيله لمنزله عبر مدينة فوي لكي يكتشف ما إذا كانت هناك أية أفيال من أجل رحلة السفاري. كان السكان المحليون يتحدثون كثيرًا عن قطيع من الأفيال جاء إلى أرضه حول فوي من ناحية الغرب، وبشكل خاص عن ثور كبير، حجمه بحجم فيلين، كان يحوم بين الشجيرات هناك، وحيدًا تمامًا.

كان دينيس، الذي يعتبر نفسه عاقلاً على نحو استثنائي، يخضع لأمزجة خاصة وكان يتوجس شرًا، وتحت تأثير مشاعره وتوجسه قد يبقى في بعض الأحيان صامتًا لأيام أو لأسبوع، بالرغم من أنه لم يكن يعرف ما الأمر، وكان يندهش حينما أسأله ماذا أصابك. في الأيام السابقة على بدء رحلته إلى الساحل، كان شارد الذهن على هذا النحو، وكأنه غارق في التأمل، ولكنني حينما تحدثت عن حالته سخر مني.

طلبت منه أن يدعني أذهب معه، لأنني ظننت أنه سيكون أمرًا لطيفًا أن أرى البحر. في البداية وافق على اصطحابي، ثم غير رأيه ورفض. لم يستطع أن يصطحبني؛ أخبرني أن الرحلة حول فوي كانت محفوفة بالصعاب، وقد يضطر للهبوط والنوم بين الشجيرات، ولذا كان من الضروري أن يصطحب طفلاً محليًا. ذكرته بأنه قال لي إنه قد أحضر الطائرة لكي أطير معه فوق أفريقيا. أجل، قال لي؛ ولو كان هناك أفيال حول فوي، لكان سيطير بي إلى هناك لألقى نظرة عليها، حينما يعرف أماكن الهبوط والأراضي التي يمكن أن يقيم خيمته عليها. كانت تلك هي المرة الوحيدة التي رفض دينيس أن يصطحبني معه في طائرته.

انطلق يوم الجمعة، الثامن من أكتوبر. قال "ترقبي عودتي يوم الخميس، ينبغي أن أعود في موعدي لأتناول الغداء معك".

حينما استقل سيارته متجهًا إلى مطار نيروبي، وأدار المقود، عاد ليبحث عن مجموعة قصائد كان قد أهداها لي، وهو الآن يريدها معه في رحلته. وقف بقدم واحدة على درجة باب السيارة، واضعًا إصبعًا في الكتاب، وهو يقرأ لي بصوت عال قصيدة كنا نناقشها.

"هنا أوزك الرمادي" قال لي.

"رأيت أوزات رمادية تطير فوق أراض مستوية

أوزات وحشية تحدث صوتًا رنانًا في الهواء المرتفع –

تتنقل بثبات من أفق لآخر

وأرواحها متصلبة في حناجرها

والبياض المائل للرمادي يرسم شرائط على السماوات الهائلة

وأشعة الشمس فوق التلال المجعدة"

ثم رحل للأبد، ملوحًا بذراعه لي.

بينما كان دينيس هناك في مومباسا، كسر مروحة الطائرة أثناء الهبوط. أبرق إلى نيروبي لكي يحصل على قطع الغيار التي كان يريدها، وأرسلت له شركة شرق أفريقيا للخطوط الجوية صبيًا إلى مومباسا حاملاً تلك الأجزاء. حينما أصلح الطائرة، وطار مرة أخرى على متنها، طلب من صبي الشركة أن يصعد معه. ولكن الصبي لم يكن يريد أن يذهب معه. كان ذلك الصبي معتادًا على الطيران، وكان يطير مرات عديدة مع أناس مختلفين، ومع دينيس نفسه، قبل الآن، وكان دينيس طيارًا ممتازًا وكانت سمعته جيدة لدى المواطنين في هذا الأمر، وكذلك في الأمور الأخرى. ولكن في هذه المرة لم يرغب الصبي في أن يصعد معه.

بعد ذلك بوقت طويل عندما قابل فرحًا في نيروبي، وكانا يتناقشان في بعض الأمور، قال لفرح، "لم أكن لأصعد وقتها مع بوانا بيدار حتى وإن أعطاني مائة روبية". إنه ظل القدر، الذي شعر به دينيس ذاته في الأيام الأخيرة في نجونج، وقد رآه السكان المحليون الآن بقوة أكبر.

وهكذا اصطحب دينيس صبيه الخاص كامو معه إلى فوي. كان كامو المسكين مرتعبًا من الطيران. كان قد أخبرني فيما قبل، في المزرعة، أنه حينما يترك الأرض، يثبت عينيه على قدميه ويبقيهما كذلك حتى يصل ثانية إلى الأرض، كان يشعر بالرعب الشديد عندما ينظر من جانب الطائرة، ويرى المشهد الطبيعي من ذلك الارتفاع الكبير.

تطلعت لمجيء دينيس يوم الخميس، وحسبت أنه قد يطير من فوي عند شروق الشمس، وأن يستغرق الأمر منه ساعتين ليصل إلى نجونج.

ولأنه لم يأت، ووجدت أن لديّ بعض الأعمال التي يمكن أن أنجزها في نيروبي، قدت سيارتي إلى المدينة.

حينما أكون مريضة في أفريقيا، أو قلقة للغاية، أعاني من سيطرة أفكار قهرية. كان يبدو لي آنذاك أن كل ما حولي في خطر وكرب، وأنني وسط هذه الكارثة أكون على الجانب الخطأ، وهكذا فكل من حولي ينظرون لي بارتياب وخوف.

كان هذا الكابوس في الحقيقة بمثابة استعادة لذكريات أيام الحرب. لأنه وقتها ولعامين كان الناس في المزرعة يعتقدون أنني موالية لألمانيا قلبًا، وكانوا ينظرون لي بمزيج من الشك والريبة. كانت شكوكهم نابعة من حقيقة أنني ذهبت، ببراءة قلبي، قبل اندلاع الحرب بوقت قليل، إلى نيفاشا لأبتاع الخيول للجنرال فون ليتو هناك في شرق أفريقيا التابعة لألمانيا. كان قد طلب مني، حينما ارتحلنا لأفريقيا قبل ستة أشهر أن أبتاع له عشرة أفراس حبشية مهجنة، ولكن خلال وجودي لأول مرة في البلاد كان لدي أشياء أخرى تشغلني، وكنت قد نسيت ذلك الأمر، ولذلك حينما كتب لي مرارًا فيما بعد عن تلك الخيول، عندها فقط ذهبت إلى نيفاشا لكي

أبتاعها له. اندلعت الحرب بعد ذلك بوقت قصير، ولم يتسن للخيول الخروج من البلاد أبدًا.

وبرغم ذلك، لم أستطع يومًا أن أهرب من حقيقة أنني، مع اندلاع الحرب، كنت هناك لأبتاع تلك الخيول من أجل الجيش الألماني. إن الريبة تجاهي، برغم ذلك، لم تستمر حتى نهاية الحرب، لقد مر الأمر حينما منح أخي، الذي كان متطوعًا مع الجيش الإنجليزي وسام في سي[١] في عملية آمنيز[٢]، شمال روى. لقد أشير إلى هذا الحدث حتى في صحيفة إيست أفريكان ستاندارد تحت عنوان: *وسام شرق أفريقي*.

في ذلك الوقت تعاملت مع عزلتي باستخفاف؛ لأنني لم أكن بأي شكل موالية لألمانيا، وفكــرت أنني ينبغي أن أوضح الأمور، لو تطلب الأمر مني ذلك. ولكن لا بد أن الأمر كان أعمق من ذلك بالنسبة لي، ولسنوات عديدة تالية، حينما أكون مرهقة للغاية أو حينما ترتفع درجة حرارتي، فإنني أستعيد شعوري بذلك الأمر. خلال شهوري الأخيرة في أفريقيا، حينما كانت الأمور كلها تتدهور بالنسبة لي، كان الشعور ذاته يغشاني مثل ظلام مفاجئ، وبشكل ما كنت أصاب بالرعب من هذا الأمر، كنوع من الخبل.

في هذا الخميس في نيروبي تسلل إليَّ ذلك الكابوس بشكل غير متوقع، ونما بشكل قوي، لدرجة أنني تعجبت إن كانت هذه بداية جديدة لإصابتي بالجنون. كان هناك، بشكل ما، شعور بالحزن يخيم على المدينة، وعلى الناس الذين قابلتهم، وفي خضم كل ذلك كان كل من أقابله يهرب بعيدًا عني. لم يكن هناك من يتوقف ليتحدث معي: أصدقائي حينما شاهدوني ركبوا في سياراتهم ورحلوا. حتى السيد دونكان العجوز، البقال الإسكتلندي، الذي اعتدت أن أبتاع منه بقالتي لسنوات عديدة، والذي رقصت معه في حفل كبير في المقر الحكومي، حينما دخلت نظر

إلي بشعور ما بالرعب، وترك محله. بدأت أشعر أنني وحيدة في نيروبي، وكأنني في صحراء جرداء.

كنت قد تركت فرحًا في المزرعة لاستقبال دينيس، ولذا فلم يكن هناك من أحادثه. ناس الكيكويو ليسوا الخيار الأمثل في هذه الحالة؛ لأن أفكارهم عن الحقيقة، وحقيقتهم ذاتها، مختلفة عن حقيقتنا. ولكنني كنت سأتناول الغداء مع الليدي ماكميلان في كيرومو، وظننت أنني سأجد أناسًا من البيض لكي أحادثهم، وأستعيد توازني الذهني.

وهكذا قدت سيارتي إلى منزل نيروبي القديم الجميل في كيرومو، في نهاية الجادة الطويلة المزروعة بأشجار البامبو، ووجدت حفل غداء هناك.

ولكنني وجدت الأمر ذاته في كيرومو مثلما حدث في شوارع نيروبي. كان الكل يبدو حزينًا بشدة وكأن مصيبة قد حلت عليهم، وحينما دخلت توقف الحديث. جلست بجانب صديقي القديم السيد بولبيت، الذي نظر إليّ وتفوه بكلمات قليلة. حاولت أن أطرح بعيدًا ذلك الظل الذي كان يرقد الآن ثقيلاً على قلبي، وأن أتحدث معه عن تسلقه للجبال في المكسيك، ولكنه بدا أنه لا يتذكر شيئًا عن الأمر.

فكرت أن هؤلاء الناس كانوا يعاملونني بطريقة سيئة، ولذا سأعود للمزرعة. سيكون دينيس هناك الآن. يمكننا أن نتحدث ونتصرف بطريقة عاقلة، وسأعود لرشدي ثانية وأعرف وأفهم كل شيء.

ولكننا حينما انتهينا من الغداء، طلبت مني الليدي ماكميلان أن أذهب معها إلى غرفة جلوسها الصغيرة، وهناك أخبرتني أن حادثًا ما قد وقع في فوي. وأن دينيس قد انقلب بطائرته، ولقي حتفه وهو يسقط.

لقد حدث إذن ما حسبته: خاصة عند سماعي لاسم دينيس، لقد كشف النقاب عن الحقيقة، وعرفت وفهمت كل شيء.

فيما بعد، أرسل لي مفوض المنطقة في فوي رسالة كتب لي فيها تفاصيل الحادث. كان دينيس قد بقي معه تلك الليلة، ورحل من ذلك المطار في الصباح، وصبيه معه في الطائرة، متوجهًا إلى مزرعتي. بعد أن رحل، استدار وعاد بسرعة، وهو يطير على مستوى منخفض، على ارتفاع مائتي قدم. وفجأة تأرجحت الطائرة، ودارت حول نفسها، وسقطت مثلما ينقض النسر على فريسته. وبمجرد أن اصطدمت بالأرض، اشتعلت فيها النيران؛ لدرجة أن الحرارة المنبعثة منها قد أوقفت تقدم الأهالي الذين ركضوا ناحيتها. حينما جلبوا أفرع الأشجار والتراب، وألقوها على النار لإخمادها، وانكشف الأمر، وجدوا أن الطائرة قد صارت حطامًا كلها، وأن الشخصين اللذين كانا بداخلها قد لقيا حتفهما بمجرد السقوط.

لسنوات طويلة ظلت المستوطنة تشعر أن وفاة دينيس كانت خسارة لا يمكن تعويضها. ثم حدث أمر جيد في سلوك المستوطن العادي تجاهه، توقيرًا لقيم خارج نطاق فهمهم. حينما كانوا يتحدثون كانوا يصورونه كبطل رياضي؛ إنهم قد يناقشون مآثره كلاعب للكريكت أو الغولف، ويروون عنه أشياءً لم أسمع عنها أنا نفسي، وهكذا فقد عرفت الآن فقط شهرته العظيمة في كل الألعاب. ثم حينما كان الناس يشيدون بذكره كرجل رياضي، سيضيفون أنه، بالطبع، كان بارعًا جدًا. ما كانوا يتذكرونه حقًا عنه هو انعدام وعيه بذاته ومصلحته الشخصية، مصداقية غير مشروطة، بمعزل عنه لم أجدها سوى لدى السفهاء. في المستوطنة، لم تكن تلك الصفات ينظر إليها كمثل عليا يحتذى بها بشكل عام، ولكن بعد وفاة رجل قد يعبرون، ربما، عن إعجابهم الصادق به أكثر من أي وقت آخر.

لقد عرف السكان المحليون دينيس أكثر مما عرفه البيض؛ بالنسبة لهم كان موته بمثابة فقدان عزيز لديهم.

حينما كنت في نيروبي، وأخبروني بوفاة دينيس حاولت الذهاب لفوي. أرسلت شركة الطيران الجوي توم بلاك لكي يقدم تقريرًا عن الحادث، وقدت سيارتي إلى المطار لكي أطلب منه أن يصطحبني معه، ولكنني بمجرد أن دخلت المطار، كان قد أقلع بطائرته متوجهًا إلى فوي.

برغم ذلك، كان من الممكن أن أصل إلى هناك بالسيارة، ولكن الأمطار كانت تهطل بغزارة، وكان علي أن أكتشف كيف كان حال الطرق. وأنا جالسة أنتظر التقرير عن الطرق، تذكرت كيف أن دينيس قال لي إنه كان يرغب في أن يدفن في تلال نجونج. غريب أنني لم أتذكر هذا الأمر من قبل، ولكنه كان بعيدًا جدًا عن خاطري، إلا أن ذلك لم يكن يعني أنني كان من المفترض أن أدفنه على الإطلاق. الآن بدا الأمر وكأن لوحة تعرض أمام عيني.

كان هناك مكان في التلال، على سلسلة الصخور الأولى في أراضي المحمية، حينما ظننت أنني أنا نفسي سأعيش وأموت في أفريقيا، كنت أشير إلى دينيس بأنه المكان الذي سأدفن فيه. في المساء، ونحن جالسون ننظر إلى التلال من منزلي، كان يشير إليه ويلمح أنه كان يرغب في أن يدفن فيه هو أيضًا. منذ ذلك الوقت، في بعض الأحيان، حينما كنا نقود السيارة لنتنزه في التلال، كان دينيس يقول: "دعينا نقود السيارة بعيدًا حتى نصل لمقابرنا". في إحدى المرات، حينما أقمنا خيمتنا في التلال لكي نبحث عن الجاموس، سرنا بعد الظهيرة حتى وصلنا إلى المنحدر لكي ننظر إليه عن قرب. كان مشهدًا عظيمًا سرمديًا من هناك؛ رأينا في ضوء غروب الشمس كلاً من جبلي كينيا والكليمنجارو. كان دينيس يأكل برتقالة وهو مستلقٍ على العشب، وقال إنه كان يرغب في البقاء هناك. كان مكان مقبرتي

أعلى بقليل. من كلا المكانين كان بإمكاننا أن نرى منزلي في الغابة في نقطة بعيدة جدًا ناحية الشرق. كنا نعتزم العودة نهائيًا إلى هناك في اليوم التالي، كما ظننت، بالرغم من النظرية الشائعة بأن كل شيء سيموت.

جاء جوستاف مور من مزرعته إلى بيتي، حينما سمع بوفاة دينيس، وحينما لم يجدني هناك بحث عني في نيروبي. وبعد ذلك بوقت قصير، جاء هيو مارتن وجلس معنا. أخبرتهما برغبة دينيس، وعن مكان المقبرة في التلال، وأبرقا إلى الناس في فوي. قبل أن أعود إلى المزرعة أبلغاني أنهما سوف يحضران جثة دينيس بالقطار في الصباح التالي، حتى تتم الجنازة في التلال عند الظهيرة. ينبغي أن أجهز مقبرته هناك قبل ذلك.

ذهب جوستاف مور معي إلى المزرعة، لكي يبيت هناك، ويساعدني في الصباح. ينبغي علينا أن نكون هناك عند التلال قبل شروق الشمس تمامًا لكي نحدد المكان، ونحفر المقبرة في الوقت المناسب.

أمطرت السماء طوال الليل، وكان هناك رذاذ خفيف في الصباح حينما رحلنا. كانت مسارات العربات على الطريق مليئة بالماء. كانت القيادة لأعلى التلال مثل القيادة في السحب. لم نستطع أن نرى السهول من أسفل إلى يسارنا، ولا المنزلقات أو القمم عن يميننا؛ لقد اختفى الصبية الذين أتوا معنا في شاحنة من خلفنا على مسافة عشر ياردات، وكان الضباب يبدو أكثر كثافة مع صعود الطريق. بجوار اللوحات الإرشادية على الطريق، وجدنا المكان الذي وصلنا إليه في أراضي المحمية، وهكذا واصلنا القيادة لبضعة مئات من الياردات ثم خرجنا من السيارة. تركنا الشاحنة، والصبية على الطريق السريع حتى نجد المكان الذي كنا نريده. كان هواء الصباح باردًا جدًا لدرجة أنه كان يقرص الأصابع.

لا ينبغي أن يكون مكان المقبرة بعيدًا جدًا عن الطريق أو أن تكون الأرض منحدرة جدًا لدرجة يصعب معها أن نحضر الشاحنة. سرنا معًا لوقت قصير، متحدثين عن الضباب، ثم تفرقنا واتخذنا مسارات مختلفة، وبعد لحظات قليلة لم نكن نستطيع رؤية بعضنا الآخر.

انفتحت بلاد التلال العظيمة حولي بقدر كبير من التردد، ثم انغلقت ثانية، كان اليوم مشابهًا ليوم ممطر في بلاد شمالية. كان فرح يسير معي حاملاً بندقية مبتلة؛ لقد ظن أننا قد نعبر خلال قطيع من الجاموس. بدت الأشياء القريبة، التي ظهرت فجأة أمامنا، كبيرة بشكل عجيب. كانت أوراق شجيرة الزيتون البرية الرمادية، والعشب الطويل، الذي يفوقنا ارتفاعًا، تقطر مطرًا وتنبعث منها رائحة قوية - كنت أرتدي معطفًا للمّطر، وحذاءً مطاطيًا طويلاً، ولكن بعد فترة أصبحت مبللة بالمياه، وكأنني كنت أخوض في تيار مائي. كان الجو ساكنًا جدًا هناك في التلال؛ فقط في أوقات هطول المطر بقوة، كان هناك همس من كل الجهات. بمجرد زوال الضباب، رأيت امتدادًا لأرض ذات لون نيلي أمامي وخلفي، مثل صخور الأردواز - لا بد أنها كانت إحدى القمم العالية البعيدة – بعد دقيقة غطتها ثانية الأمطار والضباب الرمادي. سرت طويلاً، وفي النهاية وقفت ساكنة تمامًا. لم يكن ثمة ما نفعله هنا إلى أن يصفو الجو.

صاح جوستاف مور مناديًا ثلاث أو أربع مرات محاولاً اكتشاف مكاني، ثم جاءني، والمطر على وجهه ويديه. قال لي إننا نمضي في هذا الضباب منذ ساعة، وإننا إن لم نستقر على مكان المقبرة الآن، فلن يكون بإمكاننا أن نجهزها في الموعد المحدد.

"ولكنني لا أكاد أرى المكان الذي نقف فيه، ولا يمكننا أن نرقده حيث السلسلة الصخرية قريبة من المشهد. دعنا ننتظر قليلاً".

وقفنا صامتين وسط العشب الطويل، وتناولت سيجارة. وأنا ألقي بها بعيدًا، تشتت الضباب قليلاً، وبدأ وضوح باهت بارد يلف العالم. في عشر دقائق تمكنا أن نرى مكاننا. ترقد التلال أسفلنا، ويمكنني أن أتتبع الطريق الذي سلكناه، وهو يتلوى منعطفًا عبر المنزلقات، يصعد باتجاهنا، متعرجًا، يواصل سيره إلى الجنوب وبعيدًا جدًا تحت السحب المتحولة، ترقد التلال الزرقاء المتكسرة الملاصقة لسلسلة جبال الكليمينجارو. ونحن نلتفت إلى الشمال ازداد الضوء؛ أشعة باهتة انحدرت للحظة في السماء واقترب شريط فضي مشع حتى كتف جبل كينيا. وفجأة، أكثر قربًا لناحية الشرق من تحتنا، كانت هناك بقعة حمراء صغيرة مصبوغة باللونين الرمادي والأخضر، اللون الأحمر الوحيد هناك، هو لون السقف المخطط لمنزلي في مكانه المميز في الغابة. لم نكن في حاجة إلى السير أبعد من ذلك، لقد كنا في المكان الصحيح. بعد فترة وجيزة، بدأ المطر يهطل مجددًا.

على بعد حوالي عشرين ياردة أعلى المكان الذي كنا نقف فيه، كانت هناك شرفة طبيعية ضيقة على جانب التل. وهنا استطعنا أن نجد مكانْ المقبرة، عن طريق البوصلة، بوضعها شرقًا وغربًا. نادينا الصبية، وجعلناهم يقطعون الأعشاب بقضيب مصنوع من سمك البانجا، ولكي نحفر التربة المبللة. اصطحب مور بعضهم لكي يمهدوا طريقًا للشاحنة، من الطريق السريع حتى المقبرة؛ مهدوا الأرض، وقطعوا الأغصان من الشجيرات وكدسوها أكوامًا على الممر؛ لأن الأرض كانت زلقة. لم نستطع أن نمهد الطريق الصاعد للمقبرة كله؛ لأن الأرض بجواره كانت شديدة الانحدار. كان الصمت يخيم حتى الآن هنا في هذا المكان المرتفع، ولكن حينما بدأ الصبية العمل، سمعت صدى للصوت في التلال. كان يرد على ضربات المجارف، مثل كلب صغير ينبح.

جاءت بعض السيارات من نيروبي، وأرسلنا صبيًا لأسفل لكي يرشدهم إلى الطريق، لأنهم في تلك البلاد الشاسعة لن يلاحظوا تلك المجموعة الصغيرة من الناس بجوار المقبرة ما بين الشجيرات. جاء صوماليو نيروبي، تركوا عرباتهم التي تجرها البغال على الطريق السريع، وساروا ببطء لأعلى، كل ثلاثةٍ أو أربعة أشخاص معًا، منتحبين بالطريقة الصومالية، وكأنهم يلفون رؤوسهم وينسحبون من الحياة. بعض أصدقاء دينيس من المناطق العليا، وقد بلغهم خبر وفاته، قادوا سياراتهم من نيفاشا، جل - جل، والمنتيتا، وقد غطى الطين سياراتهم كلها بسبب القيادة السريعة لمسافة طويلة. الآن أصبح النهار أكثر وضوحًا، وظهرت القمم الأربع العالية فوقنا في مواجهة السماء.

هنا، في ساعات العصر الأولى، أحضروا دينيس من نيروبي، متبعين مسار رحلات السفاري التي كان يقوم بها إلى تنجانيقا، وقادوا سياراتهم ببطء على الطريق المبلل. عندما وصلوا إلى المنحدر الحاد الأخير رفعوا التابوت الضيق وحملوه، وكان مغطى بالعلم. وهم يضعونه في المقبرة، تغيرت البلاد وأصبحت موقعًا للمقبرة، ساكنة مثلها، وقفت التلال متشحة بالحزن، كانت تعرف وتفهم ماذا نفعل فيها؛ بعد وقت وجيز تعهدت التلال بمسئولية الجنازة، كان هناك ما يشابه تفاعلاً بينها وبينه، وأصبح الحاضرون مجموعة من المراقبين الصغار في المشهد الطبيعي.

كان دينيس قد شاهد وتابع كل طرق هضاب أفريقيا، وكان يعرف بشكل أفضل من أي رجل أبيض آخر التربة والمواسم، والنباتات والحيوانات الوحشية والرياح والروائح. كان يلاحظ تغيرات الطقس فيها وأناسها والسحب والنجوم ليلاً. هنا في التلال، رأيته فقط منذ وقت قريب، واقفًا حاسر الرأس، في شمس العصر، محدقًا في الأراضي، نازعًا نظارة الميدان لكي يكتشف كل شيء يتعلق بها. كان

يستوعب مشهد البلاد، وكانت قد تغيرت في عينيه وذهنه، واصطبغت بفرديته الخـــاصة، فجعلها جزءًا منه. أفريقيا تستقبله الآن، ويمكنها أن تغيره، وتجعله جزءًا منها.

لم يرغب أسقف نيروبي، كما قيل لي، في المجيء لأنه لم يكن هناك متسع من الوقت لكي يقدس أرض المدفن، ولكن كان هناك رجل دين آخر لم أسمع به من قبل، قام بقراءة القداس الجنائزي، وفي المكان الشاسع بدا صوته ضئيلاً وواضحًا، مثل صوت عصفور في التلال. ظننت أن دينيس كان يرغب في أن يحدث كل شيء بشكل مثالي حينما ينتهي الأمر. قرأ الكاهن بصوت عال مزمور: "سوف أرفع عاليًا عيناي إلى التلال".

جلسنا أنا وجوستاف مور لفترة وجيزة، بعدما رحل الرجال البيض الآخرون. انتظر المحمديون حتى انصرفنا ثم ذهبوا للصلاة عند القبر.

في الأيام التي تلت وفاة دينيس، جاء الخدم الذين كانوا يذهبون معه في رحلات السفاري، وتجمعوا في المزرعة. لم يفصحوا عن سبب مجيئهم، ولم يطلبوا أي شيء، ولكنهم فقط جلسوا، وأسندوا ظهورهم على حائط المنزل، وظهور أيديهم ترتكز على الرصيف، كانوا معظم الوقت في سكون، في تناقض لعادة السكان المحليين. جاء ماليمو وسارسيتا إلى هناك. إنهما حاملا السلاح ومقتفيا الأثر الجريئان، الفطنان الشجاعان، اللذان صاحباه في كل رحلات السفاري التي قام بها. لقد اصطحبا أمير ويلز، وبعدها بسنوات، تذكر الأمير اسميهما، وقال إن الاثنين معًا من الصعب أن يهزما. هنا ، فقد مقتفيا الأثر العظيمان مسارهما الخاص، وجلسا بلا حراك. جاء كانوثيا، سائق سيارته، الذي قاد معه عدة آلاف من الأميال مجتازًا الأراضي الوعرة، وهو شاب نحيف من الكيكويو له عينان يقظتان مثل عيني القرد؛ إنه يجلس الآن بجوار المنزل مثل قرد حزين مقشعر في قفص.

أما بيليا عيسى، الخادم الصومالي لدينيس، فقد جاء من نيفاشا إلى المزرعة. ذهب بيليا مرتين مع دينيس إلى إنجلترا، وذهب إلى مدرسة هناك، وكان يتحدث الإنجليزية مثل رجل كريم المحتد. قبل بضع سنوات، حضرنا أنا ودينيس زواجه في نيروبي؛ لقد كان مهرجانًا ساحرًا استمر لسبعة أيام. في تلك المناسبة، عاد الرحالة والأستاذ العظيم لأجداده؛ كان يرتدي جلبابًا ذهبيا وكان ينحني لأسفل حتى يكاد يلامس الأرض وهو يرحب بنا، ورقص رقصة السيف، بشكل بدائي تمامًا بروح الصحراء المتهورة. جاء بيليا لكي يشاهد قبر سيده، وجلس فوقه؛ عاد من هناك وتفوه بكلمات قليلة، بعد وقت قصير جلس مع الآخرين وظهره مسنود على الحائط، وارتكز بيديه على الرصيف.

ذهب فرح ليتحدث مع المنتحبين. هو نفسه كان حزينًا جدًا. قال فرح: "لو أن بادار لا زال هنا، لكان أمر رحيلك من البلاد أقل إيلامًا بكثير".

بقي صبية دينيس حوالي أسبوع، ثم رحلوا مرة أخرى واحدًا بعد الآخر.

كنت أقود سيارتي أحيانًا إلى قبر دينيس. إن اتخذت أقصر طريق، لم تكن المسافة تتعدى خمسة أميال من منزلي، ولكن إذا ما اتخذت الطريق المعتاد فكان يبعد بمسافة خمسة عشر ميلاً. كان القبر مرتفعًا بمسافة ألف قدم عن منزلي، كان الهواء مختلفًا هنا، صافيًا مثل كوب من الماء؛ ترفع رياح خفيفة منعشة شعرك حينما تنزع قبعتك؛ فوق قمم التلال، تأتي السحب متجولة من ناحية الشرق، تسحب ظلها الخصب فوق الأرض الوعرة، وتذوب وتختفي فوق الوادي الانكساري.

اشتريت من الدكان ياردة من القماش الأبيض التي يسميها المحليون "أمريكاني"، وغرسنا أنا وفرح ثلاثة أعمدة عالية في الأرض خلف المقبرة، وثبتنا القماش بمسامير، وهكذا يمكنني أن أميز من منزلي النقطة المحددة للقبر، حيث يظهر مثل نقطة بيضاء صغيرة في التل الأخضر.

كانت الأمطار الممتدة غزيرة، وكنت أخشى أن ينمو العشب ويغطي المقبرة ويضيع مكانها. ولهذا، نزعنا في إحدى المرات كل الأحجار البيضاء المرصوصة على الممشى المؤدي لمنزلي، الأحجار التي تعب كاروميننيا في جرها وحملها للباب الأمامي؛ حملناها في حقيبة السيارة ونقلناها إلى التلال. قطعنا العشب من حـول المقبـرة، ووضعنا الأحجار في مربع لكي نميزه؛ الآن يمكننا أن نجد مكانها دومًا.

لأنني ذهبت كثيرًا إلى المقبرة، واصطحبت أطفال المنزل معي، أصبح المكان مألوفًا بالنسبة لهم؛ بإمكانهم أن يرشدوا الذين جاءوا لرؤيته إلى الطريق. لقد بنوا مكانًا صغيرًا تظلله الشجيرات في التل بجوار المقبرة. على مدار الصيف، كان علي بن سالم - صديق دينيس - يأتي من مومباسا ويرقد على المقبرة وينتحب على الطريقة العربية.

في يوم ما، وجدت هيو مارتن عند المقبرة، وجلسنا على الأعشاب، وتحدثنا لوقت طويل. لقد تأثر هيو مارتن كثيرًا بوفاة دينيس. إن كان هناك أي بشر على الإطلاق قد شغل مكانًا في وجوده الانعزالي الشاذ، فلا بد أن يكون دينيس. المثالي شيء غريب؛ لن يمكنك أبدًا أن تعطي هيو حقه بسبب اجتيازه فكرة التوحد، ولا يمكنك أيضًا أن تعتقد أن فقدانه لصداقة دينيس سيؤثر عليه، بشكل ما، مثل فقدانه لعضو حيوي. ولكن منذ وفاة دينيس تغير هيو كثيرًا وبدت عليه علامات الشيخوخة، وصار وجهه مبقعًا وممطوطًا، برغم ذلك احتفظ بتشابهه لوثن صيني مبتسم وديع، وكأنه كان يتطلع على شيء ما يبعث على الارتياح المطلق، شيء ما ينغلق سره عن عامة الناس. أخبرني الآن أنه ليلاً قد وجد فجأة المرثية المناسبة التي تكتب على قبر دينيس. أعتقد أنه وجدها لدي مؤلف يوناني قديم، ذكرها لي بالإغريقية، ثم ترجمها لي لكي أفهمها. كانت تقول: "برغم أن النار تختلط في الموت بترابي فإنني لا أهتم، فبالنسبة لي الآن، كل شيء على ما يرام".

فيما بعد، وضع اللورد وينشلسيا، أخو دينيس مسلة على مقبرته، وعليها نقش من "البحار القديم"، وهي قصيدة كان دينيس معجبًا بها جدًا. أنا نفسي لم أكن قد سمعت بها حتى قرأ عليّ دينيس مقطعًا منها – كانت المرة الأولى، أتذكر ذلك، ونحــن ذاهبــان إلــى حفل زفاف بيليا. لم أر المسلة، لقد نصبت بعد أن رحلت عن أفريقيا.

في إنجلترا هناك أيضًا أثر يخلد ذكرى دينيس. بنى رفاق المدرسة القدامى، لإحياء ذكراه، جسرًا حجريًا فوق مجرى مائي بين حقلين في آتون. على إحدى حواجز الشرفة نقش اسمه، وتواريخ إقامته في آتون، وكتب على الحواجز الأخرى كلمات: "معروف في تلك الحقول ومحبوب كثيرًا من رفاقه".

بين النهر في المناظر الطبيعية اليانعة في إنجلترا وسلسلة الجبال الأفريقية، جرى مسار حياته؛ وهم بصري: حيث تعصف الرياح وتغير مسارها، تنحرف خلفية المشهد بدورها وتغير مسارها. لقد أطلق الوتر على الجسر في آتون، رسم السهم مداره، واصطدم بالمسلة في مرتفعات نجونج.

بعدما رحلت عن أفريقيا، كتب جوستاف مور لي عن شيء غريب حدث عند مقبرة دينيس، لم أسمع حادثًا مشابهًا له أبدًا. كتب لي أن الماساي قد أبلغوا مفوض الحي في نجونج، أنه في كثير من المرات، عند شروق الشمس وغروبها، كانوا يرون الأسود تقف على قبر فينش هاتون فوق التلال. أسد ولبؤة جاءا إلى هناك، ووقفا أو رقدا فوق المقبرة لوقت طويل. بعض الهنود الذين مروا بالمكان بشاحناتهم على الطريق إلى كاجادو قد رأوهم أيضًا. بعدما رحلت، مهدت الأرض المحيطة بالمقبرة، في شكل يشبه شرفة كبيرة. أفترض أن المكان الممهد يمكن أن يكون موقعًا جيدًا للأسود، فمن هناك يمكنهم أن يراقبوا المشهد فوق السهل، والقطيع والأرض من فوقه.

كان أمرًا مناسبًا وصائبًا أن يأتي الأسود إلى مقبرة دينيس ليجعلوا منه نصبًا تذكاريًا أفريقيًا "معروف بمقبرته". إن أسود اللورد نيلسون ذاته، كما تأملت، تلك القابعة في ميدان ترافالجار، قد صنعت من الحجر فحسب.

أنا وفرح نتخلص من كل شيء

الآن أصبحت وحيدة في المزرعة. لم تعد ملكي، ولكن من قاموا بشرائها عرضوا عليّ البقاء في المنزل طالما كنت راغبة في البقاء هناك، ولأسباب قانونية كانوا يؤجرونه لي مقابل شلن كل يوم.

كنت أبيع الأثاث الخاص بي، مما منحني أنا وفرح صفقة جيدة نقوم بها. كان علينا أن نعرض قطع الصيني وأكواب المائدة على مائدة العشاء؛ وفيما بعد حينما بيعت الطاولة، قمنا بتنظيمها في صفوف طويلة على الأرض. كان الديك الذي يخرج من الساعة يغني معلنًا الوقت بغطرسة فوق الصفوف، ثم كان هناك ثمة من اشتراه هو نفسه، وطار بعيدًا. ذات يوم، بعت أكواب الطاولة، ثم فكرت في الأمر مليًا في الليل، وهكذا في الصباح، قدت السيارة إلى نيروبي وطلبت من السيدة التي ابتاعته أن تلغي الصفقة. لم يكن لدي مكان لكي أضع فيه الأكواب، ولكن أصابع وشفاة أصدقاء عديدين قد لامستها، كانوا قد أهدوني نبيذًا ممتازًا لكي أشربه فيها؛ كانت تحتفظ بصدى قديم لحديث المائدة، ولم أكن أريد أن أفارقها. في نهاية الأمر، فكرت، إنها أشياء سهلة الكسر.

كان لديّ بالقرب من المدفأة ستارة خشبية قديمة عليها أشكال مرسومة لرجال صينيين وسلاطين، وزنوج، وكلاب يقودها آخرون. هناك في الأمسيات، حينما كانت النار تشتعل بوضوح، كانت تلك الأشكال تبرز للخارج، وتقوم بدور **الرسوم** المصاحبة للحكايات التي كنت أقصها على دينيس. بعدما نظرت إليها لوقت طويل، طويتها ووضعتها في حقيبة، حيث يمكن لكل الأشكال أن ترتاح مؤقتًا.

كانت السيدة ماكميلان تنهي "النصب التذكاري لماكميلان في نيروبي"، الذي بنته لزوجها السيد نورثراب ماكميلان. كان مبنى جميلاً، يحتوي على مكتبة وغرف للقراءة. كانت تقود سيارتها إلى المزرعة، وتجلس وتتحدث بحزن عن الأيام الجميلة الماضية، واشترت معظم أثاثي الدنيماركي، الذي كنت قد أخذته معي من المنزل، من أجل المكتبة. سعدت لأن تلك الخزائن والأدراج المرحة، الحكيمة، والمضيافة ستبقى معًا، محاطة بالكتب والعلماء، مثل دائرة صغيرة من السيدات اللاتي، يجدن وقت الثورة ملاذاً في إحدى الجامعات.

وضعت كتبي الخاصة في صناديق وجلست فوقها، أو كنت أتناول الطعام عليها. تلعب الكتب في المستوطنة دورًا مختلفاً في وجودك بالمقارنة بدورها في أوروبا؛ فهي تتولى مسئولية جانب كامل من حياتك؛ ولهذا السبب ووفقًا لقيمتها، تشعر بامتنان أكثر لها، أكثر مما قد تشعر وأنت تعيش في بلد متحضر.

تجري الشخصيات الخيالية في الكتب بمحاذاة حصانك في المزرعة، وتسير بتؤدة في حقول الذرة. على طريقتها الخاصة، مثل جنود أذكياء، يجدون على الفور الأماكن التى تناسبهم. في الصباح الذي تبع قراءتي لكتاب *الكروم الأصفر*(٣) ليلاً – ولم أكن سمعت أبدًا عن اسم المؤلف، ولكنني التقطت الكتاب فحسب من مكتبة نيروبي، وكنت سعيدة وكأنني قد اكتشفت جزيرة خضراء وسط البحر – وأنا أقود سيارتي في واد في أراضي المنتزه، قفز ظبي أفريقي لأعلى، وعلى الفور تحول إلى ظبي للسيد هركليز مع زوجته وحزمة من الجراء الصغيرة ذات الأنف الأفطس واللون الأسود والبني الفاتح. كل شخصيات والتر سكوت(٤) كانت تقطن بيوتًا في الريف ويمكن أن تصادفها في أي مكان؛ وكذلك أوديسيوس ورجاله وبشكل غريب، العديد من شخصيات راسين أيضًا. كان بيتر شليميهل يسير فوق التلال مرتديًا حذاءً سحريًا، أما المهرج عجيب، نحلة العسل فقد عاش في حديقتي بجوار النهر.

بيعت أشياء أخرى من المنزل، حزمت وأرسلت إلى ملاكها الجدد، وهكذا أصبح المنزل على مدى ثلاثة أشهر *الشيء في حد ذاته*(٥) رفيع المقام كجمجمة، مكانًا باردًا ورحبًا لتعيش فيه، له صدى، وأعشاب الحديقة الصغيرة الملاصقة للبيت تنمو وتستطيل حتى تصل لعتبة الباب. في النهاية لم تتبق أية أشياء في الحجرات مطلقًا، وخطر لذهني أنها كانت تبدو في ذلك الوقت، وبهذه الحالة، مناسبة للحياة فيها أكثر مما كانت من قبل.

قلت لفرح: "هكذا كان ينبغي أن يكون حالها طوال الوقت الماضي".

فهم فرح ما قلته جيدًا، لأن الصوماليين يتحلون بقدر ما من الزهد. خلال تلك الفترة، وجه فرح كل تركيزه لمساعدتي في كل شيء؛ ولكنه كان يبدو أكثر فأكثر مثل صومالي حقيقي، مثلما كان يبدو في عدن، حيث أرسلوه لمقابلتي، حينما جئت لأول مرة لأفريقيا. كان مهتمًا كثيرًا بأحذيتي القديمة، وأسر لي أنه كان ينوي أن يصلي لله كل ليلة لكي تصمد تلك الأحذية حتى أصل إلى باريس.

خلال تلك الأشهر، كان فرح يرتدي أفضل ثيابه كل يوم. كان لديه ثياب فاخرة كثيرة: أردية عربية مطرزة بالذهب كنت قد منحتها له، وزي قرمزي أنيق ومطرز بشريط ذهبي كان بيركلي كول قد منحه إياه، وغطاء رأس حريري بألوان جميلة. بشكل عام، كان يحتفظ بها جميعًا في صناديق، وكان يرتديها فقط في مناسبات خاصة. ولكنه كان الآن يرتدي أفضل ما لديه. كان يسير خلفي بخطوة واحدة في شوارع نيروبي، أو ينتظر على الدرج القذر في مباني الحكومة ومكاتب المحامين، وهو يرتدي ملابسه الفاخرة مثل سليمان في مجده. لا يفعل ذلك سوى صومالي.

كان عليّ الآن أن أتصرف في خيولي وكلابي. كنت أنوي طوال الوقت أن أطلق الرصاص عليها، ولكن الكثير من أصدقائي أرسلوا لي خطابات وطلبوا مني

أن أدعهم يحتفظون بها. بعد ذلك، كنت كلما ركبت حصاني وتجولت مصطحبة كلابي معي، لم يكن يبدو لي أمرًا عادلاً أن أطلق النار عليها – فقد كانت لا تزال تنـــبض بحيـــاة وافـــرة. استغرق هذا الأمر مني وقتًا طويلاً لأتخذ قرارًا بشأنه، لا أعتقد أنني غيرت رأيي أبدًا بهذا الشكل حول أي أمر آخر. في النهاية قررت أن أعطيها لأصدقائي.

ذهبت إلى نيروبي على صهوة جوادي المفضل، روج، وكان يسير على مهل، وينظر حوله إلى الشمال والجنوب. فكرت أن هناك أمرًا غريبًا جدًا يتعلق بروج، أن أمتطيه على طريق نيروبي، وألا أعود به ثانية. لقد ركبته، ببعض المشقة، في عربة الخيل لقطار نيفاشا. وقفت في العربة، وشعرت للمرة الأخيرة، بملمس خطمه الناعم على وجهي ويدي. لن أسمح لك أن تمضي يا روج، قبل أن تباركني. وجدنا معًا طريق السير أسفل النهر ما بين بيوت السكان المحليين وأكواخهم، في المنحدر المنزلق الوعر كان يسير برشاقة مثل بغل، وفي مياه النهر الجارية البنية رأيت رأسي ورأسه بالقرب من بعضهما. أيمكنك الآن، في واد من السحب، أن تأكل القرنفل من جهة اليمين وفروع الأشجار من اليسار.

منحت كلبي والأيلين الصغيرين اللذين كانا لدي، وهما من سلالة ديفيد ودينا بانيا، لصديق في مزرعة بالقرب من جل –جل، حيث يمكنهما أن ينعما بمطاردات جيدة. كانا بالغي القوة ولعوبين، وحينما جاءت سيارة لحملهما، ورحلا عن المزرعة بشكل رائع، كانا يلهثان من التعب، رأساهما قريبان من بعضهما الآخر على جانب من السيارة، ولساناهما متدليان، وكأنهما في مسار لعبة جديدة رائعة. لقد رحلت الآن عن المنزل والسهول تلك العيون والأقدام السريعة، والقلوب المنتعشة، لكي تتنفس وتستنشق، وتركض بسعادة في أراضٍ جديدة.

تــرك بعــض العــاملين في المزرعة المكان الآن. حيث لم يعد هناك بن أو مطحن للبن، وجد بوران سينج نفسه عاطلاً. لم يكن يريد أن يجد لنفسه عملاً آخر في أفريقيا، وفي نهاية الأمر عزم أمره على أن يعود إلى الهند.

خارج مصنعه، كان بوران سينج، خبير المعادن، يبدو مثل طفل. لم يتمكن أبدًا من أن يدرك أن نهاية المزرعة قد حانت؛ لقد حزن عليها حزنًا بالغًا، وانتحب ذارفًا دموعًا حقيقية انسابت على ذقنه السوداء، ولوقت طويل أقلقني بمحاولاته لإبقائي في المزرعة، وبخططه لإبقائها مستمرة. كان يفتخر كثيرًا بمعداتنا، بحالتها التي كانت عليها، وظل لفترة ملتصقًا بالآلة البخارية ومحمصة البن في المصنع، بينما كانت عيناه الداكنتان الرقيقتان تلتهمان كل حبة بن هناك. وعندما اقتنع في النهاية باليأس من حالة المزرعة، تخلى عن كل شيء دفعة واحدة، كان لا زال حزينًا جدًا، ولكنه كان سلبيًا تمامًا، وفي بعض الأحيان حينما كنت أراه كان يتحدث معي كثيرًا عن خططه للسفر. عندما رحل، لم يحمل معه أي متاع فيما عدا صندوقًا صغيرًا فيه معدات وزي لحام، وكأنه قد أرسل بالفعل قلبه وحياته إلى ما وراء المحيط، ولم يعد هناك الآن سوى ذلك الشخص القصديري المتواضع بني اللون، يتبعه وعاؤه النحاسي.

أردت أن أعطي بوران سينج هدية قبل أن يرحل، وكنت آمل أن يكون هناك شيء في حوزتي يمكن أن يحظى بإعجابه، ولكنني حينما تحدثت معه عن هذا الأمر، أعلن على الفور ببهجة كبيرة أنه يريد خاتمًا. لم يكن لدي خاتم ولا مال لشرائه. لقد حدث ذلك بالفعل قبل بضعة شهور، في الوقت الذي كان دينيس يأتي لتناول الطعام في المزرعة، وهكذا أخبرته وقت تناول العشاء بذلك الأمر. كان دينيس قد أهداني ذات مرة خاتمًا حبشيًا من الذهب اللين، يمكن ضغطه لكي يناسب أي إصبع. كان الآن يظن أنني أنظر إليه بنية منحه لبوران سينج؛ لأنه اعتاد أن

يشكو أنه كلما أهداني شيئًا فإنني كنت أمنحه على الفور لناسي الملونين. لكي يمنع تكرار ذلك الأمر أخذه من يدي ووضعه في إصبعه، وقال إنه سيحتفظ به حتى يرحل بوران سينج. حدث ذلك قبل أيام قليله من ذهابه إلى مومباسا، وهكذا دفن الخاتم معه. برغم ذلك، قبل أن يرحل بوران سينج، كنت قد جمعت بعض المال من بيع أثاث منزلي، وكان بإمكاني أن أبتاع له الخاتم الذي أراده من نيروبي. كان خاتمًا مصنوعًا من الذهب الثقيل، به حجر كبير أحمر اللون، يبدو كالزجاج. فرح بوران سينج فرحًا غامرًا بالخاتم لدرجة أنه أفلت دموعًا من عينيه مرة أخرى، وأعتقد أن الخاتم قد ساعده على رحيله النهائي عن المزرعة وعن آلاته. في أسبوعه الأخير، كان في إصبعه كل يوم، وكلما جاء إلى المنزل، كان يرفع يده، ويريني إياه بابتسامة مضيئة ورقيقة. عند محطة نيروبي، كانت يده النحيفة الداكنة هي آخر ما رأيته، تلك اليد التي كانت تعمل في كور الحداد بسرعة هائلة. كانت ممدودة عبر النافذة في عربة السكة الحديد المزدحمة المحمومة بالسكان المحليين، حيث جلس بوران سينج فوق صندوق أدواته، والحجر الأحمر يبدو في يده مثل نجم صغير وهي تعلو وتنخفض ملوحة بالوداع.

ذهب بوران سينج إلى أسرته في البنجاب. لم يكن قد رآهم لسنوات عديدة، ولكنهم بقوا على اتصال معه وكانوا يرسلون له صورهم، التي احتفظ بها في منزله المصنوع من الحديد المموج، بجوار المصنع، وكان يريها لي بمزيج من الفخر والرقة. وصلتني خطابات عديدة بالفعل من بوران سينج من الباخرة في طريقها إلى الهند. كلها كانت تبدأ بالطريقة ذاتها: "سيدتي العزيزة. وداعًا"، ثم يستطرد في الإفصاح عن أخباره والمغامرات التي صادفته أثناء الرحلة.

بعد وفاة دينيس بأسبوع حدث لي شيء غريب ذات صباح.

كنت راقدة في السرير أفكر في أحداث الشهور الماضية. كنت أحاول أن أفهم ما حدث بالفعل. بدا لي، أنه لا بد أن أكون قد خرجت، بشكل ما، عن المسار الطبيعي للوجود الإنساني، إلى دوامة هائلة، حيث ينبغي لي ألا أكون. أينما سرت، كانت الأرض تميد بي، والنجوم تتساقط من السماء. فكرت في تلك القصيدة التي تتحدث عن راجناروك(٦)، حيث تصف سقوط النجوم، وتلك الأبيات حول الأقزام الذين يتنفسون الصعداء بعمق في أكواخهم في الجبال، ويموتون من الخوف. لم يكن كل ذلك، كما ظننت، مجرد مصادفة من الظروف المشابهة، ما يطلق عليه الناس سلسلة من سوء الحظ، ولكن لا بد من أن هناك مبدأ مركزيًا في طيات هذا الأمر. لو تمكنت من العثور عليه، فإنه سينقذني. فكرت بعمق، لو أنني نظرت إلى النقطة الصائبة، فلا بد أن تماسك الأشياء سيبدو واضحًا بالنسبة لي. ينبغي، كما ظننت، أن أنهض لأبحث عن علامة.

كان العديد من الناس يعتقدون أن البحث عن علامة أمر غير منطقي. هذا بسبب حقيقة أن الأمر يتطلب حالة ذهنية معينة لكي تكون قادرًا على أن تفعل ذلك، ولم يجد الكثير من الناس أنفسهم أبدًا في تلك الحالة. لو أنك في تلك الحالة المزاجية وسألت عن علامة، فلا يمكن أن تخذلك الإجابة؛ إنها تتبعك كنتيجة طبيعية لطلبك. بتلك الطريقة ذاتها يجمع لاعب الورق الملهم ثلاث عشرة بطاقة تصادفية على الطاولة، ويأخذ ما يطلق عليه قبضة من البطاقات - مجموعة متوحدة. حيث لا يرى الآخرون أي أمر لافت مطلقًا، فإنه يرى صفعة كبيرة تحدق في وجهه بإمعان. هل هناك صفعة كبيرة في لعب البطاقات؟ نعم، فقط لمن يجيد اللعبة الصائبة.

ولكنني خرجت من المنزل باحثة عن علامة، وتجولت بشكل عشوائي تجاه أكواخ الصبية. كانوا قد أطلقوا للتو دجاجاتهم، التي كانت تركض هنا وهناك بين المنازل. وقفت لفترة قصيرة ونظرت إليها.

جاء ديك فاطمة الأبيض الكبير متبخترًا أمامي. فجأة توقف، أمال رأسه في البداية على أحد جانبيه ثم على الجانب الآخر، ورفع عرفه. من الجانب الآخر للممر، من ناحية العشب، جاءت حرباء، كانت قد خرجت مثل الديك في طلعة صباحية استكشافية. سار الديك مباشرة نحوها - لأن الدجاجات تأكل تلك الأشياء - وأصدر قأقأة قصيرة تنم عن الرضا. وقفت الحرباء ساكنة كالموتى عند مشاهدة الديك. كانت مرتعبة، ولكنها في الوقت ذاته كانت شجاعة جدًا، ثبتت ساقيها في الأرض كنبات متجذر، وفتحت فمها باتساع قدر استطاعتها، ولكي تثير الرعب في قلب عدوها، أطلقت في ومضة لسانها الذي اتخذ شكل هراوة للخارج ناحية الديك. توقف الديك للحظة وكأنه سيرتد للخلف، ثم، بسرعة وبإصرار، ضرب بمنقاره إلى الأسفل كالمطرقة وانتزع لسان الحرباء.

استغرق اللقاء كله بين الطرفين عشر ثوان. الآن، طاردت ديك فاطمة، والتقطت حجرًا كبيرًا وقتلت الحرباء؛ لأنه لا يمكنها أن تعيش بدون لسانها؛ تلتقط الحرباء الحشرات التي تتغذى عليها بلسانها.

أصابني الرعب مما رأيت - لأنه كان شيئًا هائلاً وبشعًا على نحو ما - لدرجة أنني سرت بعيدًا وجلست على المقعد الحجري بجوار المنزل. جلست هناك لوقت طويل، وأحضر لي فرح الشاي في الخارج ووضعه على الطاولة. نظرت لأسفل إلى الأحجار، ولم أجرؤ على النظر لأعلى ، كان العالم يبدو مكانًا غريبًا بالنسبة لي.

ببطء شديد فحسب، وعلى مدار الأيام التالية، فوجئت بأنني حصلت على أكثر الإجابات روحانية عن تساؤلاتي. الأكثر من ذلك، وبأسلوب غريب شعرت أنني قد حظيت بمعاملة كريمة ومميزة. إن القوى التي توسلت إليها قد ساندت كرامتي أكثر مما فعلت أنا لنفسي، وماذا كان عساها أن تمنحني أكثر من تلك

الإجابة؟ كان واضحًا أن تلك ليست ساعة المداعبة، وقد اختارت تلك القوى أن تتواطأ لدى احتجاجي عليها. القوى الكبرى ضحكت لي، مصدرة صدى من ناحية التلال لكي أتبع الضحكات، لقد صاحت ضاحكة ما بين الأبواق والديوك والحرباءات ها ها ها!.

كنت أشعر بالسعادة لأنني خرجت هذا الصباح في الوقت المناسب لإنقاذ الحرباء من ذلك الموت البطيء المؤلم.

في ذلك الوقت تقريبًا – على الرغم من حدوث ذلك قبل أن أرسل خيولي لأصدقائي – جاءت إنجريد ليندستورم من مزرعتها في نجورو لتمكث معي لفترة من وقت. كان ذلك تصرفًا ودودًا من جانب إنجريد، لأنه كان من الصعب عليها أن تبتعد عن مزرعتها الخاصة. كان زوجها، من أجل أن يحصل على مال ليسدد ديون أرض نجورو الخاصة بهما، قد تولى عملاً في شركة سيسال الكبيرة في تنجانيقا، وكان يكدح فوق طاقته هناك على ارتفاع ألفي قدم، وكان الأمر يبدو وكأن إنجريد كانت تستأجره فحسب كعبد، من أجل إنقاذ المزرعة. ولهذا فقد كانت، في الوقت ذاته، تديرها بنفسها؛ قامت بتوسيع منطقة تربية الدجاج لديها، وحديقة الخضروات، وجلبت خنازير، والديوك الرومية الصغيرة إلى هناك، وهو ما لم يكن بوسعها أن تتركه حتى لأيام قليلة. برغم ذلك، ومن أجل خاطري تركت إنجريد كل ذلك في رعاية كيموسا، وجاءتني مسرعة وكأنها تركض لمساعدة صديق يحترق بيته، وجاءت بدون كيموسا هذه المرة، الأمر الذي كان من المحتمل أن يكون، في مثل تلك الظروف، أمرًا جيدًا بالنسبة لفرح. فهمت إنجريد وأدركت من عميق قلبها، وبقوة هائلة، بما يماثل قوة العناصر الأربعة ذاتها، ماذا يكون عليه الحال حينما ينبغي على مزارعة أن تتنازل عن مزرعتها وتتركها.

بينما مكثت إنجريد معي، لم نناقش الماضي، ولا المستقبل، ولم تشر إلى اسم صديق أو أحد من المعارف؛ لقد أغلقنا عقلينا إزاء كارثة الساعة. لقد تحدثنا معًا عن أمور المزرعة واحدًا تلو الآخر، وسرنا معًا وكأننا كنا نراجع ذهنيًا ما خسرته، أو كأن إنجريد كانت، بالنيابة عني، تجمع مادة لكتاب شكاوى ليعرض على القدر. كانت إنجريد تعرف جيدًا من تجربتها الخاصة أنه لا يوجد مثل ذلك الكتاب، ولكن فكرته بشكل مشابه تشكل أسلوب حياة النساء.

ذهبنا إلى السياج المحيط بالثيران، وجلسنا على السور، ونحن نعد الثيران وهي تتقدم نحونا. بدون كلمات أشرت إليهم متحدثة إلى إنجريد:

"تلك الثيران"، وبدون كلمات أجابت "نعم، تلك الثيران" وسجلتها في كتابها. سرنا حول الإسطبلات لكي نطعم الخيول سكرًا، وحينما انتهت، بسطت راحة يدي اللزجتين الملطختين بالمخاط، ورفعتهما أمام عيني إنجريد وبكيت. "تلك الخيول" تنهدت إنجريد مرة أخرى بمشقة، "أجل تلك الخيول" ثم دونتها في ورقتها. في حديقتي المجاورة للنهر لم تستطع أن تتفهم أنني كان ينبغي أن أترك النباتات التي جلبتها من أوروبا، أخذت تهز يديها فوق النعناع والمريمية واللافندار، وتحدثت عنها مرة أخرى فيما بعد، وكأنها كانت تفكر مليًا في مؤامرة يمكنني من خلالها أن أدبر أمر أخذها معي.

قضينا العصر في تأمل قطيع الأبقار المحلية الصغير خاصتي. وكان يرعى عند المرج المقابل للمنزل. أخذت أتحدث عن أعمار الأبقار وخصائصها، وإنتاجها للبن. تأوهت إنجريد وهتفت عند سماعها تلك الأرقام وكأن جسدها يتوجع. دققت في فحصهن بعناية واحدة تلو الأخرى، ليس بنية التجارة، لأن أبقاري كانت ستؤول ملكيتها لصبية منزلي، ولكن لكي تقدر وتزن مدى خسارتي. تعلقت بالعجول الناعمة الصغيرة ذات الرائحة الحلوة؛ لقد كان لديها، بعد كفاح طويل، بعض

البقرات والعجول في مزرعتها؛ وضد كل منطق، وضد إرادتها ذاتها، كانت نظراتها الخاطفة العميقة الغاضبة تؤنبني على هجر عجولي.

لو أن رجلاً يسير بجوار صديق مفجوع وكان طوال الوقت يكرر في ذهنه كلمات مثل: "الحمد لله على أنني لم يصبني مثل تلك الكارثة"، كان، كما أعتقد، سيشعر بالحزن إزاء ذلك، وسيحاول أن يقهر ذلك الشعور. إن الأمر مختلف في حالة امرأتين تربطهما أواصر صداقة، تعبر إحداهما عن تعاطفها العميق لما أصاب الأخرى من محنة شديدة. غني عن القول هنا أنه كلما كانت الصديقة أوفر حظًا فسوف تكرر من كل قلبها القول ذاته: "الحمد لله على أنني لم يصبني مثل تلك الكارثة". لا يسبب هذا الأمر أي مشاعر سلبية بين الصديقتين، ولكن على العكس يقربهما أكثر من بعضهما البعض ويضيف على الطقس عنصرًا شخصيًا. أما الرجال، فكما أعتقد فلا يمكنهم بسهولة أو بشكل انسجامي أن يحسدوا أو ينتصروا على بعضهم البعض. ولكن لا مجال للشك في أن العروس تتفوق على وصيفات الشرف، وأن الضيوف الذين يبيتون الليلة لديك يحسدون الأم التي لديها طفل؛ ولا يشعر أي من تلك الأطراف بسوء أكثر لذلك السبب. إن المرأة التي تفقد طفلاً قد تظهر ملابسه لصديقة، وهي مدركة أن صديقتها تكرر القول من صميم قلبها: "الحمد لله على أنني لم يصبني مثل تلك الكارثة" - وسيكون الأمر بالنسبة لهما طبيعيًا ومناسبًا. كان الأمر كذلك بيننا أنا وإنجريد. ونحن نتفقد المزرعة، كنت أعرف أنها تفكر في مزرعتها الخاصة، وهي تثني على حظها؛ لأنها لا تزال تمتلكها، وتتمسك بها بكل قوتها، وكنا منسجمتين مع هذا الأمر للغاية. على الرغم من معطفينا القديمين ذوي اللون الكاكي وسراويلنا، كنا في الحقيقة اثنتين من النساء الغامضات، متكفنتين على التوالي بالأبيض والأسود، متآلفتين في وحدة، كنا بمثابة جني في حياة مزارع في أفريقيا.

بعد أيام قليلة ودعتني إنجريد، ورحلت عن طريق السكة الحديد إلى نجورو.

لم أعد أستطيع أن أمتطي صهوة جوادي، وسيري دون مصاحبة كلابي أصبح صامتًا ورزينًا، ولكن كان لا زال لدي سيارتي، وكنت سعيدة بامتلاكها، لأنه في تلك الشهور كان هناك الكثير لإنجازه.

كان مصير مستأجري الأرض في مزرعتي يشغل تفكيري بقوة. حيث إن من قاموا بشراء المزرعة كانوا يخططون لاقتلاع أشجار البن، وتمهيد الأرض وبيعها كوحدات سكنية، فإن المؤجرين لن يكونوا ذوي نفع بالنسبة لهم، وبمجرد أن سرت الاتفاقية، منح جميع المستأجرين ستة أشهر كمهلة لإخلاء المزرعة. كان ذلك بالنسبة للمستأجرين إصرارًا غير متوقع ومحيرًا؛ لأنهم عاشوا في وهم أن الأرض باتت ملكهم. لقد ولد الكثيرون منهم في المزرعة، وجاء آخرون إليهم وهم صبية مع آبائهم.

عرف المستأجرون أنهم لكي يبقوا على الأرض كان عليهم أن يعملوا من أجلي مائة وثمانين يومًا في العام، وكانوا يتقاضون مقابل ذلك اثني عشر شلنًا لكل ثلاثين يومًا؛ تلك الحسابات كانت مسجلة في مكتب المزرعة. كانوا أيضًا يعرفون أن عليهم أن يدفعوا ضريبة الكوخ للحكومة، وهي ما يعادل اثني عشر شلنًا لكل كوخ، وهو عبء ثقيل على كل رجل لا يمتلك سوى القليل جدًا في هذا العالم وبرغم ذلك عليه أن يمتلك كوخين أو ثلاثة محاطة بالعشب، وفقًا لعدد زوجاته؛ لأن الزوج من قبيلة الكيكويو ينبغي أن يمنح كل زوجة كوخًا منفصلاً. من وقت لآخر، كان مستأجرو الأرض يتعرضون لخطر أن تنتهي مدة إيجارهم لأرض المزرعة إذا ما ارتكبوا أية مخالفة، ولهذا فلا بد أنهم بطريقة ما كانوا يشعرون بأن وضعهم ليس محصنًا بشكل كامل. كانوا يكرهون ضريبة الأكواخ كثيرًا وحينما كنت أقوم بجمعها في المزرعة من أجل الحكومة كنت أبذل جهدًا كبيرًا ويتحدثون

أكثر من إنصاتهم لحديثي. ولكنهم برغم ذلك كانوا ينظرون لتلك الأشياء بوصفها من صروف الدهر، ولم يفقدوا الأمل أبدًا في التحايل عليها بشكل ما. لم يتخيلوا أنه بالنسبة لهم جميعًا، قد يكون هناك مبدأ كوني محدد سيعلن عن نفسه بأسلوب مهلك وصادم حينما يحين وقته. لبعض الوقت، اختاروا أن ينظروا إلى قرار الملاك الجدد بوصفه مصدرًا للخوف والتقزز، يمكنهم أن يتجاهلوه بشجاعة.

في بعض الأمور، وليس في كلها، يملأ الرجل الأبيض في عقل الساكن المحلي المكان الذي تشغله فكرة الله في عقل الرجل الأبيض. ذات مرة، وقعت عقدًا مع تاجر أخشاب هندي، كان يحتوي على كلمات: إن شاء الله. لم يكن هذا التعبير مألوفًا بالنسبة لي. وحاول المحامي الذي كان يصيغ العقد أن يشرحه لي.

قال: "لا، لا، يا سيدتي، إنك لم تدركي تمامًا معنى المصطلح بالضبط. الشيء غير المتوقع حدوثه تمامًا، والذي لا يتسم بالتوافق مع النظام أو العقل، هو عمل من أعمال الله".

في نهاية الأمر، **أدت** الصرامة التي اتصف بها قرار منحهم مهلة للرحيل **إلى مجيء** المستأجرين إلى منزلي في جماعات داكنة اللون. لقد رأوا الإشعار الرسمي كنتيجة لرحيلي عن المزرعة - كان حظي السيئ يتعاظم، ويمتد إليهم أيضًا. لم يلوموني على ذلك الأمر، لأننا تحدثنا عنه فيما بيننا؛ ولكنهم سألوني أين سينتهي بهم الحال.

لأكثر من سبب، وجدت أنه من الصعب أن أجيبهم. المحليون ليس بإمكانهم، وفقا للقانون، أن يقوموا بشراء أي أرض، ولم أكن أعرف مزرعة أخرى كبيرة بما يكفي لكي تقبلهم للعمل فيها كأجراء. أجبتهم بأن المسئولين قد أخبروني حينما استعلمت عن هذا الأمر، أنه كان ينبغي أن يذهبوا لأراضي المحمية في الكيكويو، ويبحثوا لأنفسهم عن أرض هناك. حينها سألوني مرة أخرى بشكل جاد ما إذا كانوا

سيجدون مساحة خالية من الأرض في المحمية، تكفي لكي يأخذوا كل قطعانهم معهم، واسترسلوا متسائلين إن كانوا متيقنين أنهم سيجدوا أرضًا لهم جميعًا في المكان ذاته، حتى يبقى مستأجرو المزرعة وأسرهم كلهم معًا؛ لأنهم لم يكونوا يريدون أن يفترقوا.

شعرت بالدهشة إنهم قد عقدوا العزم بشدة هكذا على أن يبقوا معًا؛ لأنه كان من الصعب عليهم أن يحفاظوا على السلام بينهم حينما كانوا في المزرعة، ولم يكن هناك أبدًا كلام طيب ليقوله أحدهم عن الآخر. على الرغم من ذلك، جاءوا كلهم إلى هنا، ملاك القطعان الكبار المتبخترين في مشيتهم مثل كاثيجو، كانينو وموج، يدًا بيد، إنْ جاز القول، مع هؤلاء العمال المتواضعين الذين ليس لهم نصيب في الأرض مثل واويرو وكوثا، اللذين لم يمتلكا أكثر من نعجة واحدة؛ وكانوا كلهم ممتلئين بالروح ذاتها، وعاقدين العزم على الاحتفاظ ببعضهم الآخر، كاحتفاظهم بأبقارهم. كنت أشعر أنهم لا يسألونني فقط عن مكان يعيشون فيه، ولكنهم كانوا يطالبونني بحقهم في البقاء.

إن الأمر أكثر من مجرد أرض نزعتها من الناس، إنها أرض جدودهم تلك التي تنتزعها. هي ماضيهم أيضًا، جذورهم ومصيرهم. إن أخذت منهم الأشياء التي اعتادوا رؤيتها، ويتوقعون أن يروها، فإنك بطريقة ما، تنتزع عيونهم أيضًا. إن هذا ينطبق وبدرجة أعلى على البدائيين أكثر من المتحضرين، ولسوف تجول الحيوانات مرة أخرى لمسافة طويلة، وتخوض مخاطر وتَعاني الكثير، لكي تتغلب على فقدان هويتها، في المناطق المحيطة بها التي تعرفها جيدًا.

حينما أجبر الماساي على الانتقال من أرضهم القديمة، الواقعة شمال خط السكة الحديد، إلى أراضي محمية الماساي الحالية، أخذوا معهم أسماء تلالهم وسهولهم، وأنهارهم؛ وأطلقوها على التلال والسهول في الأراضي الجديدة. إنه أمر

محير بالنسبة للمسافر. كان الماساي يحملون جذورهم المقطوعة معهم كعلاج، وكانوا يحاولون، في المنفى، أن يحافظوا على ماضيهم في شكل وصفة طبية ما.

الآن، كان مستأجرو الأراضي الخاصة بي يتعلقون كل واحد منهم بالآخر مظهرين غريزة الحفاظ على النفس ذاتها. لو أنهم سيرحلون بعيدًا عن أرضهم، فلا بد أن يكون هناك من حولهم ثمة من يعرفون تلك الأراضي، ليستطيعوا أن يشهدوا على قدرهم. ثم، سيكون باستطاعتهم، لبضع سنين أن يتحدثوا عن جغرافيا وتاريخ المزرعة، وما سينساه أحدهم سيذكره به الآخر. وهكذا فقد كانوا يشعرون بخزي الفناء وهو يحل فوق رؤوسهم.

"اذهبي، ماسابو" قالوا لي، "اذهبي من أجلنا إلى سيليكالي واحصلي منه على موافقة بأننا يمكن أن نصطحب كل ماشيتنا إلى المكان الجديد الذي سنذهب إليه، وأننا ينبغي أن نبقى كلنا معًا حيث سنذهب".

بتلك الكلمات بدأت بالنسبة لي رحلة حج طويلة، أو رحلة شحاذ، التهمت شهوري الأخيرة في أفريقيا.

لكي أنجز مأمورية الكيكويو ذهبت أولاً إلى مفوضي الحي في نيروبي وكيامبو، ثم إلى الإدارة المحلية ومكتب الأراضي، وفي النهاية إلى المحافظ، السيد جوزيف بيرن، الذي لم أكن قد قابلته حتى ذلك الحين، لأنه كان قادمًا للتو من إنجلترا. في النهاية نسيت السبب الذي دفعني للذهاب. كان يبدو علي الشحوب من الداخل والخارج وكأنني قد تعرضت لموجة من المد والجزر. في بعض الأحيان كان ينبغي عليّ أن أنتظر اليوم كله في نيروبي، أو أن أذهب مرتين أو ثلاث مرات في اليوم. كان هناك دومًا عدد من مستأجري الأرض يرابطون أمام منزلي عند عودتي، ولكنهم لم يسألوني أبدًا عن الأخبار؛ لقد ظلوا يراقبون هناك لكي

يكونوا على اتصال بي، عن طريق بعض السحر المحلي ربما، مظهرين قوتهم على التحمل مع مرور الأيام.

كان موظفو الحكومة أناسًا صبورين وملتزمين. لم تكن صعوبة الأمر بسبب تعنتهم: في الحقيقة كانت المشكلة هي إيجاد امتداد واسع من الأرض الخالية، في أراضي الكيكويو، واسع لدرجة تكفي لاستيعاب كل هؤلاء الناس وماشيتهم.

كان معظم الموظفين قد قضوا أوقاتًا طويلة في البلاد، ويعرفون السكان المحليين معرفة جيدة. كانوا فقط يقترحون بشكل يشوبه الغموض وسيلة تمكن المحليين من بيع بعض من قطعانهم، لأنهم يعلمون أنهم لن يفعلوا ذلك تحت أي ظرف من الظروف. بالإضافة لذلك، فلو أنهم جلبوا قطعانهم إلى مكان صغير جدًا بالنسبة لهم، فسوف يسببون، في السنوات القادمة، مشاكل لا نهاية لها مع جيرانهم في أراضي المحمية، وسيضطر مفوضون آخرون هناك إلى أن يذهبوا إليهم ليقوموا بتسوية نزاعاتهم.

ولكننا حينما وصلنا إلى المطلب الثاني لمستأجري الأرض، وهو ضمان بقائهم معًا، قال رجال السلطة إنه لم تكن هناك ضرورة حقيقية لذلك.

"أوه، إنه سبب وجيه وليس حاجة" هكذا فكرت، "إن شحاذينا المنحطين هم في أشد حالات فقرهم"، وهكذا طوال حياتي كنت أتمسك بفكرة أن بإمكانك أن تصنف الناس وفقًا للطريقة التي تتخيل أن يتصرفوا بها إزاء الملك لير. لا يمكنك أن تكون منطقيًا مع الملك لير، ولا مع أحد رجال الكيكويو العجائز، فمن البداية يطلب الملك الكثير جدًا من الجميع؛ ولكنه كان ملكًا. صحيح أن الأفارقة المحليين لم يسلموا بلادهم للرجل الأبيض بإيماءة ساحرة، ولهذا فإن القضية كانت في بعض الأحيان تبدو مختلفة عن حالة الملك العجوز وبناته؛ لقد استولى الرجال البيض على البلاد بوصفها محمية. ولكنني آخذ بعين الاعتبار أنه من وقت ليس ببعيد، في

وقت لا يزال بالإمكان تذكره، كان المحليون يعتبرون أرضهم أمرًا لا يمكن التنازع حوله، ولم يسمعوا أبدًا عن البيض وقوانينهم. خلال وجودهم غير الآمن بشكل عام كانت الأرض بالنسبة لهم لا زالت أمرًا ثابتًا. بعضهم **أجبر** على الفرار بسبب تجار العبيد الذين باعوهم في سوق العبيد، ولكن بعضهم بقي دومًا. هؤلاء الذين أجبروا على الرحيل، في منفاهم وعبوديتهم في أماكن مختلفة من العالم الشرقي، سيشتاقون للعودة للأراضي المرتفعة، لأنها كانت أراضيهم **التي** اعتادوا عليها. إن ثمة تشابهًا بين الرجل الأفريقي المحلي العجوز الأسود ذي العينين الصافيتين، والفيل العجوز ذي العينين الداكنتين الصافيتين؛ إنك تراهما واقفين على الأرض، عظيمي الشأن، لديهما انطباعات عن العالم من حولهما وكأنها جمعت ببطء وتراكمت في ذهنيهما المعتمين؛ إنهما ذاتهما ملمحان من ملامح الأرض. أحدهما سيجد نفسه متحيرًا تمامًا لدى رؤية التغيرات العظيمة التي تحدث من حوله، وقد يسألك: أين هو؟. وعليك أن تجيبه بكلمات كينت: "في مملكتك الخاصة، يا سيدي".

في النهاية، حينما بدأت أشعر أنني ربما سأقود سيارتي إلى نيروبي، وأعود للتحدث مع موظفي الحكومة طوال حياتي، بلغني فجأة أن الحكومة قد وافقت على طلبي. لقد وافقت الحكومة على أن تمنح قطعة من أرض محمية غابة داجوريتي لمستأجري الأرض في مزرعتي. هنا يمكنهم أن يكونوا مستوطنة خاصة بهم، في مكان ليس بعيد عن المزرعة، وهكذا بعد اختفاء المزرعة، سيكون لديهم القدرة على الاحتفاظ بوجوههم وأسمائهم كمجتمع صغير.

استقبل خبر القرار الحكومي في المزرعة بعاطفة بالغة السكون. كان من المستحيل أن تستنتج من وجوه الكيكويو ما إذا كان لديهم طوال الوقت إيمان بهذه القضية، أو إذا ما كانوا قد يأسوا منها. بمجرد تسوية الأمر، دخلوا على الفور في سلسلة من الطلبات والمقترحات المتنوعة المعقدة رفضت التعامل معها. لا زالوا

مرابطين بجوار منزلي، يراقبونني بطريقة غير مألوفة. لدى المحليين مشاعر وإيمان قوي بالحظ، فبعد نجاحنا الآن، قد يبدءون التفكير بثقة في أن كل شيء سيسير على ما يرام، وأنني سأبقى في المزرعة.

بالنسبة لي، كان تسوية أمر مصير مستأجري الأرض مصدرًا عظيمًا لسعادتي. لم أشعر غالبًا بالرضا على هذا النحو.

ثم، بعد يومين أو ثلاثة، سيطر عليّ شعور بأن عملي في البلاد قد شارف على الانتهاء، وأنه كان ينبغي أن أرحل. كان حصاد البن في المزرعة قد انتهى، وكانت الطاحونة ساكنة، والمنزل فارغًا، وقد حصل المستأجرون على أرضهم. وكان موسم المطر قد انتهى، والعشب طويل بالفعل على السهول والتلال.

الخطة التي كنت قد رسمتها في البداية، بأن أصرف ذهني عن الانشغال بكل ما يتعلق بالشئون الثانوية، حتى أحتفظ بما له أهمية حيوية بالنسبة لي، فشلت فشلاً ذريعًا. لقد وافقت على أن أوزع ممتلكاتي شيئًا بعد الآخر، كفدية لحياتي ذاتها، ولكن حينما أتى الوقت الذي فقدت فيه كل شيء، كنت أنا نفسي أخف شيء بين تلك الأشياء؛ خفيفة لدرجة أن القدر بإمكانه أن يتخلص مني بسهولة.

كان القمر مكتملاً في تلك الأيام، كان يسطع في الغرفة الجرداء ويعكس شكل النوافذ على أرض الحجرة. ظننت أن القمر قد ينظر للداخل ويتعجب إلى متى أنتوي البقاء. في مكان قد رحل عنه كل شيء آخر. "أوه، كلا" قال القمر، "الزمن لا يعني سوى القليل بالنسبة لي".

كنت أرغب في البقاء حتى يمكنني أن أرى مستأجري الأرض وقد تولوا زمام أمورهم في مكانهم الجديد. ولكن مسح الأرض استغرق وقتًا، ولم يكن مؤكدًا متى يسمح لهم بالانتقال إلى هناك.

وداعًا

في ذلك الوقت، أشيع أن شيوخ المنطقة المجاورة قرروا أن يعقدوا نجوما احتفالاً بي.

كان لحفلات النجوما الخاصة بالقدماء وظائف عظيمة في الماضي، ولكنها الآن، كانت نادرة الحدوث، وطوال الوقت الذي قضيته في أفريقيا لم أشهد أبدًا واحدة منها. كنت أحب أن أرى ذلك، لأن أهل الكيكويو أنفسهم كانوا يعتبرونها طقسًا عظيمًا. كان أمرًا مشرفًا للمزرعة أن تؤدي رقصة الشيوخ هناك؛ لقد تحدث أهل مزرعتي عن الأمر طويلاً قبل حدوثه.

الأكثر من ذلك أن فرحًا، رغم احتقاره بشكل عام لحفلات النجوما المحلية، كان هذه المرة معجبًا بقرار شيوخ الكيكويو. "هؤلاء الناس عجائز جدًا، ميمصاحب،" قال لي "كبار جدًا جدًا".

كان أمرًا غريبًا أن أسمع شباب الكيكويو الشجعان يتحدثون عن العرض القادم للراقصين من الشيوخ باحترام ورهبة.

هناك أمر واحد يتعلق بتلك النجوما لم أكن أعرفه - بشكل محدد أنها كانت محظورة من قبل الحكومة. لا أعرف سبب المنع. لا بد أن أهل الكيكويو كانوا على علم بالحظر، ولكنهم اختاروا أن يتجاهلوه؛ ربما اعتقدوا أنه في تلك الأيام العصيبة، يمكن أن تحدث أشياء لا يمكن حدوثها في الأوقات العادية، أو ربما نسوها في خضم المشاعر القوية التي تجيش في صدورهم وقت الرقص. لم يكن من عادتهم حتى أن يلتزموا الصمت إزاء النجوما.

حينما وصل الراقصون الشيوخ كان ذلك بمثابة مشهد نادر جليل. كانوا حوالي مائة، ووصلوا كلهم في الوقت ذاته، وكان ينبغي أن يقوم شخص ما بتجميعهم من مكان ما بالقرب من المنزل. كان الشيوخ المحليون أناسًا يستشعرون البرودة، وبشكل عام يغطون ويدثرون أنفسهم جيدا بالفراء والأغطية الثقيلة، ولكنهم هنا كانوا عراة، وكأنهم يصرحون بوقار بالحقيقة الهائلة. كانوا يضعون سرًا أفخر ثيابهم ويدهنون أجسامهم بطلاء الحرب ولكن عددًا قليلاً منهم كانوا يضعون، على رؤوسهم الصلعاء المتعرقة، أردية الرأس الكبيرة المصنوعة من ريش النسور الأسود الذي تراه على رؤوس الراقصين الصغار. لم يكونوا بحاجة أيضًا لأي حلى لأنهم كانوا رائعين في هيئتهم تلك. لم يبذل هؤلاء الشيوخ كل ما في وسعهم، كالجماليات القديمة لحفلات الرقص الأوروبية، حيث يحاول كبار السن أن يكتسبوا مظهرًا شبابيًا؛ إن أهمية وفرادة الرقص كله، بالنسبة لهم أنفسهم، وللمشاهدين تكمن في السن المتقدم للمؤدين. لديهم نوع غريب من العلامات على أجسامهم، لم أر مثله أبدًا، خطوط مرسومة بالطباشير تسري على طول أعضائهم الملتوية وكأنهم، في صدقهم الصارخ، يؤكدون تيبس وهشاشة عظامهم تحت جلودهم. كانت حركاتهم، وهم يتقدمون في مشية استهلالية بطيئة، غريبة جدًا لدرجة أنني تعجبت: أي نوع من الرقص يعرض عليّ الآن؟.

وأنا أقف لأنظر إليهم عاد إليّ وهم كان قد استولى على من قبل: لست أنا من سيرحل من هنا. لم أكن أملك القوة لأن أرحل من أفريقيا، ولكن كانت البلاد هي التي تنسحب من داخلي ببطء وغموض، مثل البحر في حال انحسار المد. إن موكب الراقصين الذي يمر هنا – هم في الحقيقة أمس وأول أمس كانوا الراقصين الشباب خاصتي، هؤلاء الأقوياء المكتنزون لحمًا، الذين كانوا يفقدون قوتهم أمام عيني، الذين كانوا يرحلون للأبد. كانوا يتحركون بطريقتهم الخاصة، برقة، في رقصهم، كان الناس معي، وأنا معهم، راضية تمامًا.

لم يكن الشيوخ يتحدثون، ولا حتى لبعضهم البعض، لقد كانوا يدخرون قوتهم للجهود القادمة.

عندما اتخذ الراقصون أماكنهم للرقص فقط، وصل عسكري من نيروبي برسالة لي، تفيد بأن النجوما لا ينبغي أن تستمر.

لم أفهم الرسالة؛ لأنها بدت بالنسبة لي أمرًا غير متوقع، واضطررت أن أقرأ الرسالة كلها مرتين أو ثلاث. كان العسكري الذي جلب الرسالة متأثرًا للغاية بأهمية العرض الذي قام بإزعاجه، لدرجة أنه لم يفتح فمه لينطق بشيء أمام الشيوخ وصبية منزلي، ولم يتصرف بغطرسة أو عجرفة كما يفعل العسكر عادة، كطريقة لاستعراض قوتهم التامة أمام المواطنين الآخرين.

طوال مدة حياتي في أفريقيا لم أمر بلحظة أليمة أخرى كتلك التي شعرت بها. لم أعتد من قبل أن يجيش قلبي بشكل عاصف هكذا تجاه الأشياء التي تحدث لي. لم يحدث لي حتى أن أتحدث؛ بحديث تافه، اتضحت أمامي الآن تفاهته.

كان شيوخ الكيكويو أنفسهم يقفون مثل قطيع من الخراف المسنة، ينظرون جميعًا بعيونهم المستترة تحت جفونهم المتجعدة، وقد ثبتت على وجهي. لم يستطيعوا، في لحظة، أن يتخلوا عن الشيء الذي توجهت إليه قلوبهم. أصدر بعضهم حركات تشنجية خفيفة بأرجلهم؛ لقد جاءوا ليرقصوا وينبغي أن يرقصوا. في النهاية أخبرتهم أن حفل النجوما قد ألغي.

أعرف أن هذا الخبر، سيتخذ مظهرًا مختلفًا في أذهانهم، ولكني لا أستطيع أن أستنتج ماهيته. ربما أدركوا فجأة كيف أن النجوما قد ألغيت نهائيًا؛ لأنه لم يعد هناك بعد من يرقصون من أجله، حيث لم أعد موجودة بعد الآن. ربما ظنوا أنها قد عقدت بالفعل، في الحقيقة، نجوما لا نظير لها، لها من القوة ما جعل كل شيء آخر يبدو بجوارها تافهًا، وحينما انتهت، انتهى كل شيء آخر.

استغل كلب محلي صغير كان واقفًا على المرجة الخضراء الملاصقة للمنزل السكون المحيط لكي ينبح بصوت عال، وجرى صدى الصوت خلال ذهني.

".....الكلاب الصغيرة والجميع هنا، تراي، بلانش، سويتهارت، انظروا، إنهم ينبحون في وجهي" ظن كامانتي، الذي كان مسئولاً عن التبغ المفترض توزيعه على الشيوخ بعد الرقص، ظن بدهائه الفطري الصموت أن اللحظة كانت مناسبة لإحضاره، وتقدم ناحيتهم ممسكًا بوعاء مصنوع من ثمرة الكلاباش مملوء بالسعوط. أشار إليه فرح بأن يعود، ولكن كامانتي كان من أهل الكيكويو، وعلى دراية بالراقصين الكبار، وواصل طريقه. كان السعوط بمثابة حقيقة. قمنا بتوزيعه الآن على الشيوخ. بعد وقت قصير رحلوا جميعًا.

أكثر من شعروا بالحزن لرحيلي من بين ناس المزرعة، كما أعتقد، كانت النسوة العجائز. كان لنساء الكيكويو العجائز حياة شاقة، وأصبحن أنفسهن مثل صوان تحت رحاها، مثل البغال المسنة التي ستعضك لو استطاعت. كان من الصعوبة بمكان على أي مرض أن يفتك بهن بالمقارنة برجالهن، كما تعلمت في ممارستي كطبيبة، وكن أكثر وحشية من الرجال، وحتى أكثر إخلاصًا في عملهن منهم. لقد حملن أطفالاً كثيرين ورأين بعضهم يموتون؛ لم يكن هناك شيء يخيفهن. لقد كن يحملن أثقالاً من خشب الوقود – بلجام مربوط حول جبهاتهن لكي تبدو ثابتة – كانت تبلغ ثلاثمائة رطلاً، يترنحن من تحتها، ولكنهن لا يقهرن؛ كن يعملن في أراضي الشامبا الوعرة، يعملن باستمرار من الصباح الباكر إلى وقت متأخر من الليل. "من هناك كانت تسعى لاصطياد الفريسة، وعيناها تنظران للبعيد. قلبها صامد كصخرة، نعم صلب كقطعة من حجر الرحى السفلي. إنها تسخر من الخوف. حينما ترفع نفسها لأعلى على مكان مرتفع، فإنها تحتقر الحصان وراكبه. هل ستتضرع كثيرًا إليك بكلمات ناعمة؟". كان لا زال لديهن مخزون من الطاقة

بداخلهن؛ كن متوهجات ولديهن حيوية فائقة. كانت العجائز بحرصن على الاهتمام بشكل دقيق بكل ما يخص المزرعة، وبرغم ذلك فإنهن قد يسرن لمسافة عشرة أميال لكي يشاهدن نجوما للشباب؛ حينما يسمعن مزحة، أو يحتسين فنجان تيمبو، كان ذلك كفيلاً بأن يجعل وجوههن المتجعدة الخالية من الأسنان تذوب ضحكًا. هذه القوة، وحب الحياة، كانت تبدو لي، ليس فقط مدعاة للاحترام الكبير، ولكنها أيضًا أمر رائع وساحر.

لقد جمعت الصداقة دومًا بيني وبين عجائز المزرعة. كانت تلك النساء هن من أطلقن عليّ اسم جيري، فلم يكن الرجال ولا الأطفال فيما عدا الصغار جدًا منهم – يستخدمون هذا الاسم لمناداتي. جيري هو اسم لفتاة الكيكويو، ولكن له قيمة خاصة – كلما ولدت طفلة لأسرة الكيكويو بعد سنوات طويلة من مولد إخوانها وأخواتها، فإنها تسمى جيري، وأعتقد أن الاسم ينطوي على شعور عاطفي خاص.

الآن تشعر العجائز بالحزن لرحيلي عنهن. منذ تلك المرة الأخيرة، أحتفظ بمشهد، لامرأة من نساء الكيكويو مجهولة الاسم بالنسبة لي، لأنني لم أكن أعرفها جيدًا، إنها كانت تنتمي، كما أعتقد، لقرية كاثيجو، وكانت زوجة أو أرملة أحد أبنائه الكثيرين. لقد جاءت ناحيتي بينما كانت تسير في ممر في الوادي، حاملة على ظهرها حملاً من العصي الرفيعة الطويلة التي يستخدمها أهل الكيكويو في بناء أسقف أكواخهم – هذا هو عمل النساء. تلك العصي قد يبلغ طولها خمس عشرة قدمًا؛ حينما تحملها النساء فإنهن يربطنها معًا من أطرافها، وتلك الأحمال الطويلة مخروطية الشكل تعطي الناس، كما تراهم يرتحلون عبر الأرض، شكل حيوان ما قبل التاريخ، أو زرافة. كانت العصي التي تحملها تلك المرأة كلها سوداء ومتفحمة، ملوثة بسواد الدخان المنبعث من الكوخ لسنوات عديدة؛ إن ذلك يعني أنها كانت تهدم منزلها، وأنها تسحب مواد البناء خاصتها، من حيث كانت تعيش، إلى أرض

جديدة. حينما تقابلنا وقفت ساكنة كالموتى، تمنعني من السير، محدقة في وجهي بطريقة زرافة في قطيع، ستصادفها في الأراضي المنبسطة المفتوحة، تعيش وتشعر وتفكر بطريقة غير معروفة لنا. بعد لحظة انفجرت باكية وانتحبت، وتدفقت الدموع على وجهها، مثل البقرة التي تبول على السهل أمامك. لم نتفوه أنا وهي بكلمة، وبعد بضع دقائق، أفسحت لي الطريق وافترقنا، وأكملنا السير في اتجاهات متعاكسة. ظننت أنها على كل حال كان لديها بعض المواد التي يمكنها أن تبدأ بها بناء منزلها الجديد، وتخيلتها وهي تشرع في العمل، وتربط عصيها معًا، وتصنع لنفسها سقفًا.

من ناحية أخرى، شعر الرعاة الصغار في المزرعة، الذين لم يعرفوا أبدًا زمنًا لم أكن أقطن فيه في المنزل، بقدر كبير من الإثارة والتوتر الناجم من الدهشة إزاء فكرة رحيلي. قد يكون الأمر بالنسبة لهم شاقًا، وجريئًا، أن يتصوروا العالم بدوني، وكأن هناك مقاطعة قد بات معروفًا أنها وفقًا لقرار رسمي قد تم التخلي عنها. لقد برزوا في السطح المغطى بأعشاب طويلة حينما مررت وصاحوا حتى أسمعهم: "متى سترحلين، مسابو؟ مسابو، كم يتبقى من الأيام حتى ترحلي؟".

في النهاية، حينما حان يوم رحيلي، علمت بشكل غريب، أن هناك أشياء يمكن أن تحدث لا يمكن أن نتخيل حدوثها، ولا حتى مسبقًا، أو في وقت حدوثها، أو فيما بعد حينما نعيد النظر فيها. يمكن للظروف أن يكون لها قوة دافعة بحيث تجلب أحداثًا بدون مساعدة الخيال أو الإدراك البشري. في مثل تلك المناسبات تبقى أنت نفسك على صلة بما يحدث بأن تتابعه عن كثب من لحظة لأخرى، مثل شخص أعمى يقوده شخص آخر، ويضع قدمًا أمام الأخرى بحذر ولكن بلا فطنة. تحدث الأشياء، وتشعر بها وهي تحدث، ولكن فيما عدا هذه الحقيقة، ليس لديك أي وسيلة للاتصال بها، ولا مفتاحًا لحل شفرة سبب حدوثها أو معناها. إن الحيوانات

الوحشية التي تؤدي عرضًا في السيرك تستمر في عرض برنامجها، كما أعتقد، بمثل هذه الطريقة. هؤلاء الذين مروا بمثل تلك الأحداث، يستطيعون، بطريقة ما، أن يقولوا إنهم مروا بتجربة الموت – مرورًا خارج نطاق التخيل، ولكن في نطاق التجربة.

جاء جوستاف مور في سيارته في الصباح الباكر لكي يصطحبني إلى محطة السكة الحديد. كان صباحًا باردًا، بألوان باهتة للهواء والمشهد الطبيعي. بدا جوستاف ذاته باهتًا، محاولاً أن يتجاهل حقيقة رحيلي، وتذكرت ما شرحه لي قبطان نرويجي عجوز كان يعمل صائدًا للحيتان هناك في دربن، أن النرويجيين غير هيابين إزاء أي عاصفة، ولكن جهازهم العصبي لا يحتمل سكون الرياح. شربنا الشاي معًا على الطاولة الحجرية، كما فعلنا من قبل عدة مرات. هنا، إلى الغرب، مرت التلال التي تربض أمامنا في حزن، مع القليل من الضباب الرمادي الذي يطفو في الجداول بلحظة أخرى من آلاف السنوات. شعرت ببرد شديد وكأنني كنت هناك.

كان صبية منزلي لا زالوا في المنزل الخالي، ولكنهم كانوا، إن جاز القول، قد نقلوا وجودهم لمساكن أخرى، فقد رحلت أسرهم وممتلكاتهم. ذهبت نساء فرح وصوفي إلى القرية الصومالية في نيروبي في شاحنة في اليوم السابق على رحيلي. فرح ذاته كان سيصطحبني إلى مومباسا، وكذلك ابن جوما تومبو؛ لأنه كان يريد أن يفعل ذلك أكثر من أي شيء آخر في العالم، وحينما خيرناه، كهدية وداع، بين بقرة والرحلة إلى مومباسا، اختار الرحلة.

ودعت كل صبي من صبية منزلي، وحينما كنت أتأهب للخروج، تركوا الأبواب من خلفي مفتوحة عن آخرها، على الرغم من أنهم كانوا قد تلقوا تعليمات بأن يغلقوها جيدًا. كانت تلك إيماءة محلية نمطية، وكأنهم كانوا يعنون أنني سأعود

ثانية، أو أنهم فعلوا ذلك لكي يؤكدوا أنه لم يكن هناك الآن ما يغلقون أبواب المنزل عليه، ويمكن أيضًا أن تنفتح لكل الاتجاهات الأربعة. كان فرح يقود السيارة، ببطء، بسرعة قيادة جمل، كما أفترض، حول الممشى، بعيدًا عن منظر المنزل.

ونحن نقترب من البحيرة، سألت مور إن كان هناك وقت لأن نتوقف للحظة، ونزلنا من السيارة، ودخنا سيجارًا بجوار الضفة. رأينا بعض الأسماك في الماء، وقد أصبح الناس الآن يصطادونها ويأكلونها، هؤلاء الذين لم يعرفوا كنودسن العجوز، ولم يدركوا أهمية السمك ذاته. هنا ظهر سيرونجا، الحفيد الصغير لكانينو مستأجر الأرض الخاصة بي، وكان مريضًا بالصرع، ليقول لي وداعًا للمرة الأخيرة؛ لأنه كان موجودًا ناحية المنزل ليفعل ذلك، باستمرار، في الأيام الماضية. حينما صعدنا إلى السيارتين مرة أخرى، ورحلنا، بدأ يركض خلف السيارتين بأقصى سرعة لديه، وكأن الرياح قد لفته في دوامتها؛ لأنه كان ضئيلاً جدًا - مثل الومضة الصغيرة الأخيرة في مدفأتي. لقد ركض طوال الطريق إلى المكان الذي يربط بين الطريق السريع وطريق المزرعة، وكنت أخشى أن يأتي معنا إلى الطريق السريع أيضًا؛ كان الأمر يبدو الآن إذن وكأن المزرعة كلها قد تبعثرت وطارت مع الرياح وأصبحت قشورًا. ولكنه توقف عند المنعطف؛ فبعد كل ما فعله لا زال ينتمي إلى المزرعة. وقف هناك محدقًا خلفنا، بقدر ما استطعت رؤية انعطاف طريق المزرعة.

في الطريق إلى نيروبي، رأينا عددًا من الجراد في الحشائش وعلى الطريق ذاته. كان بعضها يحدث طنينًا داخل السيارة، يبدو أنها ستعود لتجتاح الأراضي مرة أخرى.

جاء العديد من أصدقائي إلى المحطة ليودعوني. كان هيو مارتن هناك، مجهدًا ولا مباليًا، وحينما جاء ليقول لي وداعًا، رأيت بانجلوس طبيب مزرعتي كشخصية وحيدة للغاية، شخصية بطولية، اشترى وحدته بكل شيء في حوزته،

ورأيته رمزًا أفريقيًا. ودعنا كلينا وداعًا وديًا: لقد استمتعنا بوقت لطيف للغاية معًا، وتحدثنا كثيرًا حديثًا يتسم بالحكمة. كان اللورد ديلامير أكبر سنًا بقليل، أكثر بياضًا، وقد قص شعره بدرجة أقصر من المرة التي كنت قد تناولت فيها الشاي معه في محمية الماساي، حينما ذهبت إلى هناك بتلك العربة التي يجرها ثور، في بداية الحرب، ولكنه بدا الآن مهذبًا ودمثًا بدرجة مفرطة وباعثة على القلق، مقارنة بالمرة السابقة. جاء تاجر الماشية العجوز عبد الله وأهداني خاتمًا فضيًا به حجر فيروزي، لكي يجلب لي الحظ. أما بيليا، خادم دينيس، فقد طلب مني بحزن أن أرسل تحياته إلى أخي دينيس في إنجلترا، حيث مكث في منزله في الماضي. أخبرني فرح ونحن في طريقنا للذهاب إلى القطار أن النساء الصوماليات، كن ينتظرن في المحطة وهن يركبن الريكشا[٧]، ولكنهن حينما رأين رجالاً صوماليين كثيرين متجمعين هناك، فقدن شجاعتهن وعدن ثانية.

تصافحنا أنا وجوستاف مور، حينما كنت في القطار بالفعل. الآن، والقطار يتأهبَ للحركة، كان يتحرك بالفعل، عاد إليه توازنه العقلي. كان يرغب بكل قوة في أن يضفي عليّ شعورًا بالشجاعة، حتى أن وجنتيه قد احمرتا خجلاً؛ كان وجهه متوهجًا وعيناه الرقيقتان تومضان ناحيتي.

في محطة سامبورو على السكة الحديدية، ترجلت من القطار بينما كانوا يزودون المحرك بالمياه، وسرت أنا وفرح على الرصيف.

من هناك، إلى الجنوب الغربي، كنت أرى مرتفعات نجونج. ارتفعت تلك الموجة السامية من الجبال فوق الأرض المسطحة المحيطة، حيث تكتسي كلها بلون أزرق. ولكنها كانت شديدة البعد لدرجة أن القمم الأربعة كانت تبدو ضئيلة، لا يمكن تمييزها سوى بصعوبة، ومختلفة عما كانت تبدو عليه إذا ما نظرت إليها من المزرعة. كان الشكل الخارجي للجبال يتحول ببطء إلى كتلة أفقية ملساء، قد قوضتها يد المسافات.

هوامش الفصل الخامس

(١) وسام باسم صليب فيكتوريا، وهو أعلى وسام عسكري، يمنح للشجاعة في مواجهة العدو، لأفراد من القوات المسلحة من دول الكومنولث المختلفة وأراضي الإمبراطورية البريطانية سابقًا.

(٢) مدينة فرنسية دارت فيها معركة من معارك الحرب العالمية الأولى، واستهدفت توقف زحف الألمان.

(٣) الكروم الأصفر: هو أول رواية كتبها الكاتب البريطاني ألدوس هكسلي. وقد نشرت في ١٩٢١. في الكتاب، يسخر هكسلي من بدع وموضات ذلك العصر. تدور أحداث الرواية في منزل في كروم استخدم كرمز للمنزل الذي اعتاد كتاب مثل هكسلي وإليوت الكتابة فيه. ومن خلال هذا المنزل الريفي يتحدث البطل عن دينيس ستون وعن التنبؤ بنهاية العالم، وفقدان العذرية، ويحاول التعبير عن كل شيء بالشعر وبخيبة أمل في الحب.

(٤) والتر سكوت: روائي إسكتلندي وكاتب مسرحي وشاعر، كان له شعبية في أنحاء كثيرة من العالم خلال فترة حياته ١٧٧١ -١٨٣٢.

(٥) وردت العبارة بالألمانية .

(٦) الميثولوجيا الإسكندنافية، راجناروك "المصير النهائى للآلهة": عبارة عن سلسلة من الأحداث المستقبلية، بما في ذلك معركة كبيرة تتنبأ بوفاة عدد من الشخصيات الرئيسية في نهاية المطاف (بما في ذلك الآلهة، وصور وقوع الكوارث الطبيعية المختلفة. بعد ذلك، سوف يطفو العالم على السطح من جديد، وتولد الآلهة من جديد وتجتمع، وسيسكن العالم اثنان من الناجين. تعد الراجناروك حدثًا مهمًا في العقيدة الكنسية الإسكندنافية في العصور الوسطى، وموضوعًا للبحث العلمى والنظري.

(٧) عربة ذات عجلتين تتسع لشخص أو اثنين.

المؤلفة في سطور:

إيزاك دينيسن

هو الاسم المستعار لكارين بليكسن، التي ولدت في رانجستيد، الدنيمارك عام ١٨٨٥م. بعد دراستها للأدب في كوبنهاجن، باريس، وروما، تزوجت من ابن عمها البارون برور بليكسن- فينيكي عام ١٩١٤. ذهبا معًا إلى كينيا لإدارة مزرعة للبن. بعد طلاقهما عام ١٩٢١، استأنفت إدارة المزرعة حتى أجبرها الانهيار في سوق البن على العودة إلى الدنيمارك عام ١٩٣١.

على الرغم من كتابتها لإسهامات بشكل عرضي في دوريات دنيماركية منذ عام ١٩٠٥ (تحت اسم أوسيولا)، فإن بدايتها الحقيقية كانت عام ١٩٣٤ مع نشر عملها الأول "سبع حكايات قوطية" الذي كتبته بالإنجليزية باسمها المستعار. راحلة من أفريقيا (١٩٣٧) هي رواية سيرة ذاتية لسنواتها التي قضتها في كينيا. نشرت معظم كتبها اللاحقة بالإنجليزية والدنيماركية معًا، متضمنة "حكايات الشتاء" (١٩٤٢)، و"منتقمون ملائكيون" (١٩٤٦)، باسم بيير آندريزيل. بين مجموعاتها القصصية الأخرى: "حكايات أخيرة" (١٩٥٧)، و"مواقف مصرية" (١٩٥٨)، و"ظلال على الحشائش" (١٩٦٠) و"إهرينجارد" (١٩٦٣)، نشرت بينجوين عددًا من هذه الكتب.

توفيت البارونة بليكسن في رنجستيد عام ١٩٦٢.

المترجمة في سطور:

رانية خلاف

كاتبة ومترجمة ومحررة ثقافية في جريدة الأهرام ويكلي، صدر لها: "جسد آخر وحيد" مجموعة قصصية، عام ١٩٩٨، و"حكاية الحمار المخطط"، رواية عن دار الدار يناير ٢٠٠٩، صدر لها العديد من الكتب المترجمة منها:

١- "الطفل المنبوذ" للكاتب ميلان كونديرا، عن الهيئة العامة لقصور الثقافة عام ١٩٩٨.

٢- "صعود البروتستانتية الإيفانجليكية في أمريكا وتأثيره على العالم الإسلامي"، تأليف محمد عارف مكتبة الشروق الدولية، يناير ٢٠٠٦.

٣- "الإسلام رمز الأمل" تأليف: هانس كونج، دار الشروق، ٢٠٠٧.

٤- "الحُفر"، رواية، تأليف لويس ساشار، دار نهضة مصر، ٢٠٠٧.

٥- "مذكرات جارة طيبة"، رواية، تأليف دوريس ليسنج، الهيئة العامة للكتاب، سلسلة الجوائز. ٢٠١٠.

المراجع في سطور:

طلعت الشايب

كاتب ومترجم مصري من مواليد ١٩٤٢ (البتانون – منوفية) حاصل على ليسانس في الأدب الإنجليزي والتربية عام ١٩٦٢، يترجم من وإلى العربية والإنجليزية والروسية، عمل بالتدريس والترجمة والصحافة الثقافية في كل من مصر والكويت وقطر (١٩٦٢-١٩٩٢)، عضو اتحاد الكتاب ولجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، رئيس تحرير سلسلة "آفاق عالمية" التي تصدر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة، وعضو مجلس تحرير مجلة "أدب ونقد" وللفرع المصري لنادي القلم الدولي.

- **صدرت له الترجمات التالية:**
- **دراسات:**

- حدود حرية التعبير (تجربة كتاب القصة والرواية في مصر في عهدي عبد الناصر والسادات) – تأليف: مارينا ستاج– دار شرقيات بالقاهرة– ١٩٩٥م.
- المثقفون– تأليف: بول جونسون –شرقيات– ١٩٩٨م.
- صدام الحضارات– تأليف: صمويل هنتنجتون– سطور– الطبعة الأولى ١٩٩٨– الطبعة الثانية ١٩٩٩م.
- فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي– تأليف: آرثر هيرمان– المشروع القومي للترجمة– المجلس الأعلى للثقافة – ٢٠٠٠م.

- الحرب الباردة الثقافية (المخابرات المركزية الأمريكية وعالم الفنون والآداب)- تأليف: ف. س. سوندرز- المشروع القومي للترجمة- المجلس الأعلى للثقافة- الطبعة الأولى: يناير ٢٠٠٢، الطبعة الثانية: فبراير ٢٠٠٢م.

- **روايات:**

- البطء- تأليف: ميلان كونديرا- شرقيات- ١٩٩٦م.
- الملاك الصامت- تأليف هينرش بول- الهيئة العامة لقصور الثقافة- ١٩٩٧م.
- فتاد عادية- تأليف: آرثر ميللر- شرقيات- ١٩٩٨م.

كاتبة المقدمة في سطور:

جريته روستبول

- ولدت عام ١٩٤١.
- وزير سابق للثقافة ، وكاتبة.
- نشرت كتبًا متعددة حول الكتابة كارين بليكن صاحبة هذه الرواية، وحول مؤلفاتها.
- شغلت منصب رئيس المركز الدنماركى للثقافة والتنمية، منخرطة فى معهد الحوار المصرى الدنماركى، وعضو مجلس الفنون الدنماركى.
- رئيس اللجنة الأدبية، ونائب رئيس مؤسسة ساساكوا الإسكندنافية.

التصحيح اللغـوي: رجـب عبد الوهاب

الإشــراف الفــني: حــســـن كــامــل



إن قراءتك للفصول واحداً تلو الأخر، تجعلك تشعر وكأنك واقف تتأمل الغروب، أو كأنك في رحلة سفاري تطلق النار على الأسود وتشم رائحة الجبال في مرتفعات نجونج. هناك كذلك حزن شفيف في النص، لأنك تتابع انهيار سعادتها. ففي أفريقيا كانت تبقى في المكان الذي تود البقاء فيه وكانت سعيدة هناك؛ ولكن كان عليها أن ترحل. لقد رحلت عن كل ما أحبته، عن الناس والأصدقاء وزوجها وحبيبها.

حينما تشارف على قراءة السطور الأخيرة من "راحلة من أفريقيا" ستشعر وكأنك بالفعل كنت هناك، وتنتقل إليك حساسية الكاتبة بالفقد الكبير. تشترك كارين بليكسن فى تجربتها الخاصة بالرحيل عن البلد الذي أحبته مع كتّاب آخرين، مثل سيرة إدوارد سعيد "خارج المكان" و كتاب الباحث المصري إيهاب حسن عن ذكرياته "خارج مصر". هؤلاء الكتّاب قد يرحلون بسبب الظروف، لكن ليس لأنهم أحبوا الرحيل عن المكان؛ وإنما لأنهم ينتمون للطبيعة، وكان عليهم أن يحققوا أحلامهم في مكان آخر.

تصميم الغلاف: عبدالحكيم صالح